الفاطميون في مصر

وأعمالهم السياسية والدينية بوجه خاص

وضعه بالإنجليزية وترجمه إلى العربية

د.حسن إبراهيم حسن

راجع الترجمة

محمد أحمد حسونة

زكي محمد المهندس

الكتاب: الفاطميون في مصر.. وأعمالهم السياسية والدينية بوجه خاص

الكاتب والمترجم: د.حسن إبراهيم حسن

راجع الترجمة : مُحَمَّد أحمد حسونة ، زكي مُحَمَّد المهندس

الطبعة: ٢٠٢١

الطبعة الأولى : ١٩٣٢

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة - جمهورية مصر العربية

هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥

فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣

http://www. bookapa.com **E-mail: info@bookapa.com**

دار الكتب المصرية

فهرسة أثناء النشر

حسن،حسن إبراهيم

الفاطميون في مصر.. وأعمالهم السياسية والدينية بوجه خاص / حسن إبراهيم حسن، راجع الترجمة: مُحَمَّد أحمد حسونة ، زكي مُحَمَّد المهندس – الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

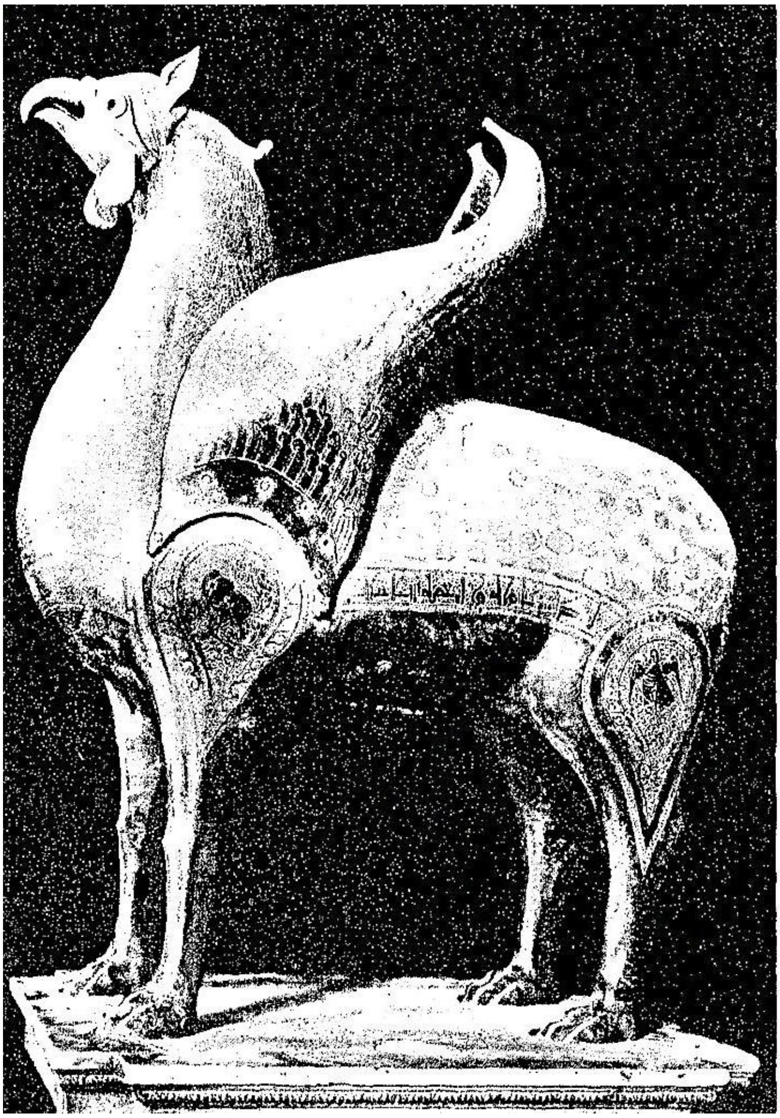
٣٩٨ ص، ١٨*٢١ سم.

الترقيم الدولى: ٥ – ٢٧٤ – ٩٩١ – ٩٧٧– ٩٧٨

أ – العنوان رقم الإيداع : ١٣٩١٨ / ٢٠٢١

الفاطميون في مصر
وأعمالهم السياسية والدينية بوجه خاص

وكالة الصحافة العربية
«ناشرون»



تمثال للعنقاء من الشبهان (البرونز)

تصدير

إن الرسلة التي تقدم بها الدكتور حسن إبراهيم حسن لامتحان درجة الدكتوراة في الآداب (d. lit) بجامعة لندن، أكسبته أقصى ما يمكن من إطراء الممتحنين المعينين من قبل الجامعة، الذين عدوها مجهوداً نادر النظير. وقد اشتملت هذه الرسالة على بحث تام منفصل عن الدولة الفاطمية وأسباب قيامها وسقوطها وأعمالها السياسية والدينية، وكذا نظام الحكومة والإدارات، ومواردها المالية، وحكامها وساستها وشعرائها. وقد اعتمد على دراسة عميقة للمصادر الأصلية الكثيرة التي لا توجد أحياناً إلا مخطوطة. ولتحقيق الغاية المنشودة من جمع مصادر هذه الرسالة، كان لزاماً على الدكتور حسن أن يطلع على المخطوطات بمكاتب برلين، والقاهرة، وليدن، ولندن، واكسفورد، وباريس. ولا يكاد يخلو أي باب من أبواب هذا الكتاب من إضافة مباحث علمية طريفة ن تضئ الطريق للباحثين في آثار الدولة الفاطمية. ولا ريب في أن الكتاب يعتبر أعظم وثيقة ظهرت في هذا الموضوع إلى الآن. وتتجلى فيه قدرة المؤلف العلمية ومنزلته الأدبية اللتان امتاز بهما في كل كتابه، كما تظهر أحكامه السديدة بأجلى بيان في كشف كثير من المسائل الخفية المعقدة.

السير توماس أرنولد

لندن في ١٤ مارس سنة ١٩٢٨

كلمة شكر

إني لمدين بالشكر الجزيل لأستاذي الجليل المرحوم السير أرنولد sir Thomas w. Arnold) ، طيب الله ثراه. وفقد حظيت بالانتماء إليه والسير وراء إرشاداته العملية أثناء وجودي بإنجلترا. وكان غفر الله له عمدة المستشرقين الإنجليز في التاريخ الإسلامي. فلا غرو إذا أحدث موته الفجائي في شهر يونيه سنة ١٩٣٠ خسارة فادحة للعلم والمشتغلين باللغة العربية والتاريخ الإسلامي بوجه خاص.

كذلك أوجه خالص شكري لحضرة صاحب السعادة عبدالفتاح صبري باشا وكيل وزارة المعارف الذي يرجع إليه الفضل في نشر هذا الكتاب، وإلى حضرة الأستاذ الدكتور أحمد ضيف وحضرة الأستاذ الشيخ عبدالوهاب النجار لتفضلها بقراءته، وحضرة الأستاذ حسن الهواري أمين دار الآثار العربية لما قدمه من المساعدة في اختيار ووصف صور الكتاب.

المؤلف

القاهرة في ٢٩ نوفمبر سنة ١٩٣١

مقدمة

لقد تناولت في بحثي هذا وعنوانه: "الفاطميون في مصر، وأعمالهم السياسية والدينية بوجه خاص"

The fatimids in Egypt، considered chiefly in connection with their politico – religious activities

الأعمال التي قامت بها الأصرة لنشر نفوذ الشيعة من هذه النواحي وهى : تنظيم الطقوس الدينية، وإمداد دور الكتب الشيعية بوسائل التشجيع والتعضيد، ونشر تعاليم الفاطميين، ونصرة من في جانبهم من الشعراء والعلماء، وما ادخلوه من الأنظمة في دور الحكومة، والقوانين الشرعية، وكذلك الأموال التي بذلوها للمساجد ودور الكتب، ومد الأسمطة، بصورة تنطوي على شيء غير قليل من الإسراف والتبذير.

وليس هناك – فيما أعلم – تاريخ خاص بتعاليم الشيعة – هذه التعاليم التي قامت على يد الفاطميين في مصر – لا في العربية، ولا في غيرها من اللغات. ومع أن هناك شواهد لذلك في كتب التاريخ العام، فلم يحاول أحد من المؤرخين أن يبين لنا الأمور الآتية:

أولا – كيف قام الفاطميون بتأسيس دعوتهم وتنظيمها، وتعهد نشرها في المساجد ودور الكتب وفي القصور ؟

ثانياً – كيف ساعدوا على نشر هذه الدعوة بتشجيعهم الشعراء والعلماء والكتاب، بإسناد مناصب الدولة إليهم وإجزال العطايا لهم ؟

ثالثاً – كيف كانت غدارة الشؤون العامة يعهد بها للمتشيعين خاصة، ويفصل في جميع القضايا طبقاً لأحكام مذهب الشيعة ؟

رابعاً – كيف ساعدت ثروة مصر الخلفاء الفاطميين على اكتساب عاطفة الأهلين، بفضل هذه الصلات والعطايا التي كانوا يغدقونها عليهم : من ملبس ومطعم وأموال توزع

عليهم، على ما جرت به العادة في ذلك العصر.

كل هذه المسائل لم يتناولها أحد بالبحث ن ولم تجمع في كتاب واحد،

قال ريني ديسو (reue dussaud) في كتابه " تاريخ النصيرية ومذهبهم الديني "[١] (histoire et religion des nosairis): " وكان عهد الفاطميين عهد رخاء لمصر، كما كان عهد تسامح ديني لم ير مثله الا في القلي من عصور التاريخ الإسلامي ".

ولقد اخترت هذا العصر من عصور تاريخ مصر، لأثبت بالدليل القاطع ما تمتاز به مظاهر العهد الفاطمي في مصر. ولتحقيق الغاية المرجوة من هذا البحث، أجهدت نفسي في مراجعة المواد المتعددة التي بها استطعت أن أوضح بعض المسائل الغامضة، بفضل هذه المادة الغزيرة التي اهتديت اليها، ولم تتناولها يد الطباعة بعد. يضاف إلى ذلك ما وصلت إليه من المعلومات التي استقيتها من المصادر الأصلية الأخرى : تلك المصادر التي ظهرت في عالم الكتابة منذ عهد قريب.

الباب الأول : ويتناول الكلام على تاريخ الدعوة الشيعية إلى قيام الخلافة الفاطمية وتأسيسها في شمال إفريقية. وقد استعنت على بحثه بشيء غير قليل من الكتب التي لمم تطبع بعد، والتي توجد في تآليف ابن المرتضى لدين الله أحمد بن يحي المتوفي سنة ٣٢٥هـ (٩٣٦ – ٩٣٧ م)، ويحيى بن الحسين المتوفي سنة ٣٦٠هـ (٩٧١م)، وشرف الدين الهدوي المتوفي سنة ٦٦٥هـ (١٢٦٧ م)، ووفي كتاب " المقفي الكبير " لتقي الدين المقريزي المتوفي سنة ٨٤٥ هـ (١٤٤١م). هذا عدا المصادر الأخرى المطبوعة.

الباب الثاني : ويبحث عن نسب الفاطميين، وعن أهمية مصر لهم لنشر عقائد مذهبهم. وقد عالجت هذا الموضوع، مستعيناً بالمعلومات التي أوردها تقي الدين المقريزي في كتابيه " اتعاظ الحنفا بأخبار الخلفا " وفي " التاريخ الكبير المقفى ". كما أنني حصلت على فوائد تذكر من غير هذين المصدرين من كثير من المصادر الهامة، من أمثال ما كتبه أوتيخا (أو يحيي بن البطريق المتوفي سنة ٣٢٨هـ (٩٤٠م)، وأبي عمر الكندي المتوفي

---

[١]– (paris , 1900 , p. 49.)

سنة ٣٥٠هـ (٩٦١م)، وعريب بن سعد القرطبي المتوفي سنة ٣٦٦هـ (٩٧٦ – ٩٧٧م)، ومسكويه المتوفي سنة ٤٢١هـ (١٠٣١م)، وابن سعيد المتوفي سنة ٦٧٣هـ (١٢٧٥م).

الباب الثالث : ويبحث عن تاريخ الدعوة الفاطمية – السياسية والدينية – في المساجد والمكاتب وفي القصر، ولهذه الرسائل التي يطلق عليها " رسائل الحاكم بأمر الله والقائمين بأمر دعوته " أهمية خاصة في بحث هذا الموضوع، وإن تلك المعلومات التي أمدنا بها المقريزي ودي ساسي (de sacy) لا تقل أهمية عما جاء في " رسائل الحاكم بأمر الله... الخ ".

الباب الرابع : ويتناول الكلام على أثر الشعراء والكتاب والعلماء في نشر الدعوة الفاطمية، والعطايا التي كان يبذلها الخلفاء في نفوس هؤلاء الكتاب. وقد استعنت ببعض المباحث التي لم تنشر بعد عن شعراء مصر في عهد الفاطميين، والتي وردت في كتاب " خريدة القصر " لعماد الدين الأصفهاني المتوفي سنة ٥٩٧ هـ (١٢٠١م). بيد أن ما كتبه الثعالبي المتوفي سنة ٤٢٩ هـ (١٠٣٧م)، وأبو العلاء المعري المتوفي سنة ٤٤٩ هـ (١٠٥٧ م)، وعمارة اليمني المتوفي سنة ٥٦٩ هـ (١١٧٤ م)، وياقوت الحموي المتوفي سنة ٦٢٦ هـ (١٢٢١ م)، وابن خلكان المتوفي سنة ٦٨١ هـ (١٢٨١ م)، ليس أقل شأناً مما كتبه عماد الدين الأصفهاني في هذا الموضوع.

الباب الخامس : وفيه نوضح بالدليل كيف كانت أمور الدولة تقصر على المتشيعين. وانتفعت في بحثه بشيء كثير من المباحث التي في مخطوطات ابن زولاق المتوفي سنة ٣٨٧هـ (٩٩٧م)، والقضاعي المتوفي سنة ٤٥٤هـ (١٠٦٢م)، والمقريزي المتوفي سنة ٨٤٥ هـ (١٤٤١م)، وابن حجر العسقلاني المتوفي سنة ٨٥٣هـ (١٤٤٩م) ولقد استطعت بفضل هذه المباحث أن أوضح بعض المسائل، كحالة أهل السنة بالنسبة إلى المتشيعين، والفصل في القضايا وما يتعلق منها بقانون الوراثة في العهد الفاطمي وفق نظام مذهب الشيعة.

الباب السادس : وقد تصديت فيه للكلام على " سياسة الفاطميين للمصريين " وحصلت في استقصائه على آراء جديدة مستمدة من مؤلفات ابن زولاق، والذهبي المتوفي سنة ٧٤٨هـ (١٣٤٧ – ١٣٤٨ م)، ولا سيما ما يتعلق بهذا الباب من الاحتفال بعيد " الغطاس "، وما كان من لعن الصحابة على المنابر في أيام الجمع، وما أحله الفاطميون بمن يذكر اسم صحابي من الصحابة، وما حدث في عهد الحاكم من تحريم الخروج على النساء.

الباب السابع : وفيه بحث عن ثروة مصر، تلك الثروة التي أعانت الخلفاء الفاطميين على أن يعطوا عطاء من لا يخشى فقراً، لاكتساب عاطفة الناس ومودتهم. ولقد أمدتني هذه المعلومات التي دونها الذهبي ولم تظهر في عالم النشر بعد، بصحيفة دون فيها شوارد الأشياء التي اشتملت عليها هدية صلاح الدين الأيوبي لمتبوعه نور الدين. ومن هذه الصحيفة نتبين مقدار الثروة التي خلفها العاضد آخر الخلفاء الفاطميين. وهي بهذا الاعتبار أشبه بهاتين الصحيفتين اللتين دونهما ابن ميسر والمقريزي عن الثروة التي خلفها اثنان من الخلفاء الفاطميين غير العاضد.

الباب الثامن : وموضوعه " مظاهر الأبهة والجلال للخليفة في صلاة الجمعة والاعياد والولائم ". وقد أمدتني الكتب التي ألفها ابن زولاق، والرسائل المسماه " رسائل الحاكم بأمر الله "، وكذا ما كتبه القضاعي وابن الجوزي والذهبي بمادة جديدة استعنت بها فيما كتبته عن عقائد مذهب الفاطميين.

وإننا نتبين من استقصاء هذه المصادر، كيف أن الشعراء المتشيعين نسبوا إلى الخلفاء الفاطميين منذ تأسيس دولتهم القوى التي فوق الطبيعة، تلك القوى التي لا تكون الا لله جلت قدرته. وقد بقى هذا الاعتقاد الى عهد الخليفة المعز. ثم جاء حفيده الحاكم فاشتط فيه. وقد امدنا المقريزي في كتابه " المقفي الكبير " بمعلومات طريفة عن السماط الذي كان يقام في عيد الفطر وعيد الأضحى.

الباب التاسع : وفيه بحث مستفيض للأحوال التي جدت بنور الدين والصليبيين إلى

التدخل في أمور مصر الداخلية، وللأسباب التي أدت إلى سقوط الدولة الفاطمية. ولقد استعنت في هذا البحث بما كتبه ابن الجوزي والذهبي ؛ كما أنني استعنت بما جاء في هذه المصادر الهامة، من أمثال المؤلفات التي خلفها لنا عمارة اليمني المتوفي سنة ٥٦٩ هـ (١١٧٤ م)، وأسامة بن منقذ المتوفي سنة ٥٨٤ هـ (١١٨٨ م)، وأبو صالح الأرمني المتوفي سنة ٦٠٥ هـ (١٢٠٨م)، وابن الأثير المتوفي سنة ٦٣٠ هـ (١٢٣٢ م) وابن ذداد المتوفي سنة ٦٣٢ هـ، وأبو شامة المتوفي سنة ٦٦٥ هـ (١٢٦٦ – ١٢٦٧م).

الباب العاشر : وعنوانه " مقدار نجاح أعمال الفاطميين السياسية والدينية ". وهو بيان موجز للنتائج التي اهتديت اليها في هذا البحث. والغرض منه الوقوف على ما كان يرمي إليه الفاطميون من أعمالهم السياسية والدينية.

ولكي تكون هذه الرسالة طريفة في الموضوع الذي نحن بصدد الكلام عليه، قمت ببحوث جمة بغية الاهتداء إلى كشف حقائق طريفة في مادة التاريخ، موخيا في ذلك طريقة النقد البعيد عن الأغراض. فدرست كثيرا من مخطوطات المتحف البريطاني بلندن، والمكتبة الاهلية بباريس، والمكتبة الملكية بالقاهرة، والمكاتب الملحقة بجامعات برلين وليدن (في هولنده) وأكسفورد.

وكان من أثر هذا البحث والاستقراء، أن أتيح نقل مقدار غير قليل من مسائل التاريخ أدمجته في هذه الرسالة. على أن هذا القدر ليس إلا قليلاً من كثير مما نسخته من المخطوطات الكثيرة : لأن بعض هذه المخطوطات لم يمدني إلا بالنزر اليسير الذي يمكن أن نسميه جديداً.

هذا ما قمت به من بحث واستقصاء للمصادر الاصلية التي لا توجد إلا مخطوطة. أما عن غير هذه المصادر المطبوعة، فيحسن بي أن أشير إلى ما طبع منها حديثاً، ولم ينل بعد كل عناية المؤرخين، أذكر من هذه " ديوان أبن هاني الاندلسي " المتوفي سنة ٣٦٢ هـ (٩٧٣ م)، وكتاب " الإشارة إلى من نال الوزارة "(طبع في سنة ١٩١٩) لابن منجب الصيرفي المتوفي سنة ٥٤٢ هـ (١١٤٧ م) و " تاريخ مصر " (طبع سنة ١٩٢٣) لابن

ميسر المتوفي سنة ٦٧٧ هـ (١٢٧٨ م)، و" اتعاظ الحنفا بأخبار الخلفا " (طبع سنة ١٩٠٨) لتقي الدين المقريزي المتوفي سنة ٨٤٥ هـ (١٤٤١ م).

اما مؤلفا الكتابين الأول والثاني فكانا، على ما سنوضحه بعد، من الكتاب المعاصرين للدولة الفاطمية. ولقد كان كل من أبن ميسر الذي مات بعد سقوط الفاطميين سنة ٥٦٧ هـ (١١٧١ م) بمائة وعشر سنين، والمقريزي الذي مات بعد ابن ميسر بنحو قرن ونصف قرن حجة دامغة في هذا الموضوع. يضاف إلى ما تقدم أن المقريزي نفسه كان شيعياً متحمساً لمذهب الشيعة، كما أنه كان ينسب إلى الفاطميين ؛ وقد وصل إلى عدد غير قليل من كتب ألفها بعض الكتاب المعاصرين للفاطميين أنفسهم.

أما عن الكتاب المحدثين الذين كتبوا عن العصر الفاطمي، فيجب أن نذكر كتب دي ساسي (**de sacy**) وكترمير (**quatramere**) وستنفلد (**wustenfeld**) ودي غويه (**de goeje**) وستانلي لين بول (**stanley lane – poole**) وأوليرى (**oleary**).

ولقد أمدني دي ساسي في كتابه المسمى " استعراض لديانة الدروز " (**expose de la religion des druzes**) الذي صدره بمقدمة عن حياة الخليفة الحاكم، وكتابه المسمى " مذكرات لغوية عن العرب " (**chrestomathie arabe**) بشروح مستوفاة للنصوص الخاصة بمذهب الدروز، سهلت على الموضوع الذي قمت ببحثه عن القصر واتخاذه مركزا للأعمال السياسية والدينية التي قامت على يد الفاطميين، ذلك الموضوع الذي بنيته على أساس كتاب " رسائل الحاكم بأمر الله ".

أما كتاب وستنفلد المسى " تاريخ الخلفاء الفاطميين " – (**gesehichte der fatimiden chalifeu**) وهو أول ما كتب من المؤلفات الحديثة عن الفاطميين، وما كتبه كترمير في المجلة الأسيوية الفرنسية في أغسطس سنة ١٨٣٦ (**journal asiatique**، **aout**، **(1836** ، تحت عنوان " مذكرات تاريخية عن أسرة الخلفاء الفاطميين " (**memoires historiques sur la dynastie des khalifes fatimides**)، حيث تناول هذا الكتاب الكلام على أصل الفاطميين، وكذا كتاب دي غويه المسمى "

مذكرات عن قرامطة البحرين والفاطميين " (memoire sur les carmathes du Bahrain et les fatimides) وقد اعتمد مؤلفه على مصادر عديدة، وإن كان قد اقتصر في كلامه على الأسرة التي نشأ عنها الفاطميون من حيث اتصالهم في النسب بالقرامطة – كل هذه الكتب مصادر تاريخية لا شك في أنها تسهل على الباحثين البحث في تاريخ الفاطميين.

والآن نأخذ في الكلام على ما كتب بالإنجليزية عن تاريخ الفاطميين فأقول : إن هذه العبارات التي أوردها ستانلي لين بول في كتبه " تاريخ مصر في العصور الوسطى " (a history of Egypt in the middle ages) و " سيرة القاهرة " (the story of cario) و " صلاح وسقوط مملكة بيت المقدس " (saladin and the fall of kingdom of Jerusalem) ، وإن كانتقد كتبت بأسلوب مؤثر رائع، فانه يجب ملاحظته أن هذا المؤرخ قد استلقى معلوماته من مصادر قليل عددها، من أمثال ما كتبه أبو صلاح الأرمني،وابن الأثير والمقريزي في " الخطط ".

هذا فضلاً عن أن بعض ما كتب لين بول ذكر في بعض الكتب الأخرى. ومع ذلك، فإن ما كتبه المؤرخ لا يتعرض إلا لعدد قليل من المسائل التي تناولتها بالبحث، وليس له صلة بغير البابين السابع والتاسع ز وقد أتيحت لي الفرصة فأندمجت معلومات أكثر تفصيلاً استقيتها من مصادر يلوح لي أن ستانلي لين بول لم يكن له بها علم

ولا يفوتني أن أذكر كتاب " مختصر تاريخ الدولة الفاطمية " (a short history of the Fatimid khalifate) للدكتور دي ليسي أوليري (de lacy oleary). طبع هذا الكتاب في سنة ١٩٢٣ ؛ ولم يزد فيه مؤلفه شيئاً جديداً على ما كتبه من سبقه من الباحثين في تاريخ الشرق في العصور الوسطى. ذلك أن عدم معرفة الدكتور أوليري العربية معرفة صحيحة قد وقف عقبة في سبيل دراسته للمصادر العربية دراسة وافية، مما جره إلى الوقوع في أغلاط لا تدخل تحت حصر. يضاف إلى ذلك أنه لم يقف على ما كتبه بعض المعاصرين للفاطميين، من أمثال أبن منجب الصيرفي، وعماد الدين الأصفهاني، وابن ميسر، ولا على ما خلفه لنا المقريزي في كتاب " اتعاظ الحنفا ".

وعلى الجملة، فان بحث هذا الكتاب الذي يتناول فيه مؤلفه الكلام على تاريخ الفاطميين بحثاً دقيقاً، يوصلنا إلى غاية واحدة : هي أنه يحتوي على الحوادث التي أخذها إما عما ترجم من الكتب العربية، أو عن بعض الكتب العربية التي لم يوفق إلى بحثها بحثاً كاملاً.

وقد قدمت رسالة تشتمل على الأبواب الأربعة الأولي من هذا الكتاب لامتحان درجة الدكتوراه في الفلسفة قسم التاريخ الإسلامي **doctor of philosophy in history)** بجامعة لندن ؛ وقدمت هذا الكتاب، بما فيه هذه الرسالة، بعد أن قمت بتهذيب بعض موضوعاتها وأدمجت فيها معلومات أخذتها عن كتب الخوارزمي (أو الخوارزمي) والتنوخي والهمداني ومسكويه، وكتاب " المقفي الكبير "، وكذا عن الكتب الخطية التي ألفها الشابشتي والذهبي وابن الجوزي، في مكاتب برلين وأكسفورد، وقدمته لدرجة الدكتوراه في الآداب قسم التاريخ الإسلامي (**doctor of literature)**بالجامعة المذكورة.

لندن في نوفمبر سنة ١٩٢٧

الخلفاء الفاطميون

مرتبة أسماؤهم حسب مدد حكمهم

(١)المهدي : عبيد الله أبو مُحَمَّد، (٢٩٧ – ٣٢٢ هـ و ٩٠٩ – ٩٣٤ م)

(٢) القائم : مُحَمَّد أبو القاسم، (٣٢٢ – ٣٣٤ هـ و ٩٣٤ – ٩٤٥ م)

(٣) المنصور : إسماعيل أبو طاهر، (٣٣٤ – ٣٤١هـ و ٩٤٥ – ٩٥٢ م)

(٤) المعز : معذ أبو تميم، (٣٤١ – 365 هـ و٩٥٢ – ٩٧٥ م)

(٥) العزيز : نزار أبو منصور، (٣٦٥ – ٣٨٦ هـ و ٩٧٥ – ٩٩٦ م)

(٦) الحاكم : المنصور أبو على، (٣٨٦ – ٤١١ هـ و ٩٩٦ – ١٠٢٠ م)

(٧) الظاهر : على أبو الحسن، (٤١١– ٤٢٧ هـ و ١٠٢٠ – ١٠٣٥ م)

(٨) المستنصر : معد أبو تميم، (٤٢٧ – ٤٨٧ هـ و ١٠٣٥ – ١٠٩٤ م)

(٩) المستعلي : أحمد أو القاسم، (٤٨٧ – ٤٩٥ هـ و ١٠٩٤ – ١١٠١ م)

(١٠) الآمر : المنصور أبو علي، (٤٩٥ – ٥٢٤ هـ و ١١٠١ – ١١٣٠ م)

(١١) الحافظ : عبد المجيد أو الميمون، (٥٢٤ – ٥٤٤ هـ و ١١٣٠ – ١١٤٩ م)

(١٢) الظافر : إسماعيل أو المنصور، (٥٤٤ – ٥٤٩ هـ و ١١٤٩ – ١١٥٤ م)

(١٣) الفائز : عيسى أبو القاسم، (٥٤٩ – ٥٥٥ هـ و ١١٥٤ – ١١٦٠ م)

(١٤) العاضد : عبد الله أبو مُحَمَّد، (٥٥٥ – ٥٦٧ هـ و ١١٦٠– ١١٧١ م)

بحث في مصادر الكتاب

أرى من الواجب أن ندرس أولاً عند بحث تاريخ الفاطميين، ابتداء الدعوة الشيعية وتطورها قبل أن يظهر الفاطميون في عالم التاريخ.

وقد بني القسم التمهيدي من رسالتي الذي يحث في الدعوة الشيعية حتى قيام الحكم الفاطمي في القيروان على المصادر الآتية : ابن هشام المتوفي سنة ٢١٨ هـ (٨٣٣م)[١]، الذي أخذ عن ابن اسحق المتوفي سنة ١٥١ هـ (٧٦٨ م) [٢]، وان سعد المتوفي سنة ٢٣٠ هـ (٨٤٤ م) في " الطبقات الكبير "، واليعقوبي المتوفي سنة ٢٨٢ هـ (٨٩٥ م) في تاريخه المسمى " تاريخ اليعقوبي " وفي "كتاب اللدان "، والدينوري المتوفي سنة ٢٨٢ هـ أو ٢٩٠ هـ (٨٩٥ أو ٩٠٣ م) [٣] في كتابه " الأخبار الطوال "، والطري المتوفي سنة ٣١٠هـ (٩٢٢ م) [٤] في " تاريخ الأمم والملوك "، والمسعودي المتوفي سنة ٣٤٦ هـ (٩٥٧ م) [٥] في كتابيه " مروج الذه " و " التنبه والإشراف ". ومؤلفات الطبري والمسعودي من أقدم وأنفس المصادر التي تكلمت عن تاريخ العالم باللغة العربية[٦].

" والمنية والامل " مكتبة المتحف البريطاني، القسم الشرقي ٣٧٧٢، لأحمد بن يحيي

---

(١)– ابن خلكان (ج١ ص ٣٦٥) ، وحاجي خليفة رقم ٧٣٠٨ ، ووستنفلد **wustenfeld : die geschichtsoeiber der araber araber and ihre werke , no . 48**

(٢) – هذا التاريخ كره حاجي خليفة تحت رقم ٧٣٠٨ ، ووستنفلد (**gesch . der araber , no. 28**) . ولكن ابن النديم في "الفهرست " (ج١ ص ٩٢) قد ذكر سنة ١٥٠ هـ ن في حين أن ياقوت في كتابه " إرشاد الأديب " (ج٦ ص٣٩٩) قد أتي بهذه بهذه السنين ١٥٠ و ١٥١ و ١٢٥هـ .

(٣)– أورد ابن النديم في " الفهرست " (ج ١ ص ٧٨) ، ووستنفلد (**gesch, der araber , no . 79**) .

(٤) أورد ابن النديم في " الفهرست " (ج١ ص ٢٣) أن الطبري توفي في شوال سنة ٣١٠ ، وذكر ياقوت في " الإرشاد " (ج١ ص ٥٧٨) أن هذه الوفاة كانت في ٢٦ شوال . وقد أورد ياقوت في أماكن أخرى (ج٦ ص ٤٢٧، ص ٤٦٢) تواريخ عدة : ٢٦ شوال سنة ٣١٠ ، وسني ٣١١ و ٣٢١ و ٣١٦ هـ . بيد أنه يأخذ بالتاريخ الأول على ما يظهر .

أنظر وستنفلد (**gesch . der araber , no. 94**

(٥) ذكر أبو المحاسن نقلاً عن المسبحي (طبعة **juynboll**) (ج ٢ ص ٣٢) ، جمادي الثانية سنة ٣٤٥ هـ . على أن الكبتي (ج٢ ص ٥٧) ذكر أنه توفي سنة ٣٦ هـ .

(٦) أنظر (**nioholson : literary history of arsbs , p . 472**) .

(بن المرتضي المتوفي سنة ٣٢٥ هـ، ٩٣٦ – ٩٣٧ م) ؛ والقسم الأول من هذا الكتاب المسمى " غايات الأفكار " (مكتبة المتحف البريطاني، القسم الشرقي ٣٩٣٧) تاريخ مفصل لمذهب الزيدية. وهو شرح ممتع لتاريخ المذهب الشيعي، وخاصة لما ورد في هذا الكتاب عن الاحاديث التي نسبت عن إمامة على بعده. ولسوء الحظ أن أحمد بن يحيي وغيره من كتاب تاريخ الشيعة على المذهب الزيدي، وغيرهم ممن عاش في عصوهم أو جاء بعد زوال دولتهم، لم يعنوا بذكر شيء عن الطائفة الإسماعيلية ن اللهم إلا أخو محسن الذي عاش في القرن الرابع للهجرة، والذي تعرض لنفي صحة نسب الفاطميين إلى على وفاطمة. على أننا لا نجد الآن من كتابه شيئاً إلا هذه الشذرات التي نقلها النويري المتوفي سنة ٧٣٢هـ (١٣٣٢ م) والمقريزي المتوفي سنة ٨٤٥هـ (١٤٤١م).

١- المصادر التاريخية التي ألفت في عصر الفاطميين

تنقسم هذه المصادر التي وصلت إلى أيدينا إلى قسمين بالنسبة إلى العصر الفاطمي الذي كتبت فيه :

(ا) في الصدر الأول من أيام الفاطميين في مصر : أعني من سنة ٣٥٨ هـ (٩٦٩م) إلى نحو سنة ٤٦٦هـ (١٠٧٣ م).

(ب) في أواخر أيام الفاطميين : أي من سنة ٤٦٦ هـ (١٠٧٣ م) إلى نحو سنة ٥٦٧ هـ (١١٧١ م).

(أ) العصر الأول

من الكتب التي كتبها مؤلفوها في العصر الفاطمي كتاب " الإفادة في تاريخ الأئمة السادة " ليحي بن الحسين المتوفي سنة ٣٦٠هـ (٩٧١ م)، من سلالة زيد بن على، الذي أتي فيه ببحث مسهب عن مذهب الزيدية (مكتبة الجامعة بليدن، مخطوط ١٩٤٧).

ومن المصادر الأخرى التي تناولت الكلام على تاريخ المذاهب الدينية كتاب " الفرق

بين الفرق " لأبي منصور عبد القاهر البغدادي المتوفي سنة ٤٢٩ هـ (١٠٣٧ م) [(١)]، وكتاب "الفصل في الملل والأهواء والنحل" لابن حزم المتوفي سنة ٤٥٦هـ (١٠٦٤م)[(٢)]، وكتاب " الملل والنحل " للشهرستاني [(٣)] المتوفي سنة ٥٤٨ هـ (١١٥٣م)؛ وهي ذات قيمة خاصة بالنسبة إلى تاريخ الشيعيين في مبدأ أمرهم وطوائفهم الدينية. وهناك مصادر أخرى ليست بأقل أهمية وإمتاعاً مما سبق الكلام عليها، نخص بالذكر منها كتاب " بحث عن سيادة العرب وعن الشيعة والمعتقدات المسيحية في عهد خلافة بني أمية "

recherché sur la domination arabe، le chutisme et les croyancees messianiques sous le khalifat des omaydes).

لمؤلفه فان فلوتن (**van vloten**) الذي أعتمد فيه على تاريخ الطبري، و " شنع الشيعة " على ما جاء في كتاب " الملل والنحل " لابن حزم، لإسرائيل فريد ليندر **" the heterodoxies of the Shiites in the presentation of ibn hazm " Israel friedlaender، journal of the American oriental society، vols. xxvii & xxix.)** وكتاب " الشريعة الإسلامية " للأستاذ جولد زيهر**I. goldziher** الذي ترجمه إلى الفرنسية المسيو فليكس أران ((**felix arin**)) بعنوان ((**le dogme et la loi de l islam**)).

على أن هناك كتاباً آخر كتبه رجل تقدم البغدادي وابن حزم والشهرستاني، لا يخامرنا شك في صحة المعلومات التي أوردها فيه عن تاريخ الشيعة / وهو كتاب "البدء والتاريخ" الذي نسب في وقت ما إلى أبي زيد البلخي، والذي كشف البحث الآن أن مؤلف هذا الكتاب هو مطهر بن طاهر المقدسي الذي لا يعرف عن حياته إلا شيء قليل، غير أنه

---

(١) – انظر تاريخ حياة البغدادي في " وفيات الأعيان " لابن خلكان (ج ١ ص ٣٧٥) .

(٢) – انظر ياقوت " إرشاد الاديب " (ج٥ ص ٨٦ – ٩٧) ، وابن خلكان (ج١ ص ٤٢٨ – ٤٣١) ، و" نفخ الطيب " للمقري (طبعة بولاق سنة ١٨٦٢ م – ج ١ ص ٣٦٤ – ٣٦٨) ، ووستنفلد . **wustenfeld gesch (der araber , no. 202**

(٣) ابن خلكان (ج ١ ص ٦١٠ – ٦١١) ، ووستنفلد (**gesch . der araber no . 247**) ؛ انظر لفظ شهر في " معجم االبلدان لياقوت .

عاش حول منتصف القرن الرابع الهجري [١].

ولسوء الحظ لم يطبع المسيو هويار (huart) من هذا الكتاب إلا النص العربي للأبواب الأحد عشر الأولي من مجموع أبواب هذا الكتاب – وعددها اثنان وعشرون – التي ترجمتها إلى الفرنسية. ولم يطبع بعد كل أجزاء هذا المخطوط الموجود الآن بمكتبة القسطنطينية، والذي يتناول الباب التاسع عشر منه الكلام على تاريخ الفرق الدينية، ومن بينها فرقة الشيعة ؛ ولهذا لم تصل إليه يدي بعد. ومن بين الكتب الأخرى التي تعرضت للكلام عن هذا العصر كتاب " العقد الفريد " لابن عبد ربه [٢] المتوفي سنة ٣٢٨ هـ (٩٤٠ م)، وكتاب " الأغاني " لابي الفرج الأصفهاني [٣] المتوفي سنة ٣٥٦ هـ (٩٦٧ م)، و" رسائل " الخوارزمي [٤] المتوفي سنة ٣٨٣هـ (٩٩٣ م)، و " رسائل " بديع الزمان الهمذاني [٥] المتوفي سنة ٣٩٨ هـ (١٠٠٧ – ١٠٠٨ م) – وهذه الرسالة تصف لنا العداء بين السنيين والشيعيين – وكتاب " الفهرست " لابن النديم [٦] المتوفي سنة ٣٨٣ هـ (٩٩٣ م)، " ونسوار المحاضرة " [٧] للتنوخي [٨] المتوفي سنة ٣٨٤ هـ (٩٩٤ م).

وبالرغم مما لكتاب الفهرست من مكانة عظيمة، فان مؤلفه لم يتحر دقة البحث في

---

[١] J. b. a . s . , vol . xxx v , 1904 , p . 571m – ولا بد أن تكون وفاته قد وقعت في سنة ٣٥٥ هـ ، وهي السنة التي ألف فيها كتابه ، أو بعد هذه السنة .

[٢] ياقوت " ارشاد الأديب " (ج ٢ ص ٦٧ى – ٧٢) ، وابن خلكان (ج ٢ ص ٣٩ – ٤١) ، وحاجي خليفة رقم ٨٢٠٠ ، ووستنفلد (gesch. Der araber no . 107) .

[٣] ياقوت : إرشاد الأديب (ج ٥ ص ١٤٩ – ١٦٨) .

[٤] أبن خلكان (ج ١ ص ٤٧ – ٤٨)

[٥]. الثعالبي ، " يتيمة الدهر " (ج ٣ ص ١١٤ و ١٢٥ و ١٢٦) والسمعاني "كتاب الأنساب " ورلاقة ٢٠٩ ب ، وابن خلكان (ج ١ ص ٦٢٢ – ٦٢٣ى)

[٦] ياقوت " ارشاد الأديب " (ج ٦ ص ٤٠٨) ، وابن خلكان (ج ١ ص١٠ – ١١).

[٧]. ياقوت " ارشاد الأديب " (ج١ ص ١٤٦) . قال الأستاذ مرجوليوت فيى مقدمته لكتاب " تجارب الأمم " لمسكويه (ص ٨) إنه لم يكتشف للآتنن الأجزاء واحد من أجزاء هذا الكتاب الأحد عشر .

[٨] الثعالبي ، " يتيمة لبدهر " (ج ٢ ص ١٠٥ و ١١٥) ، ياقوت " ارشاد الأديب " (ج ٦ ص ٣٥١ – ٢٦٧) ، وابن خلكان (ج ١ ص ٥٦٣ – ٥٦٥) .

مسائله بدليل ما كان من نسبته عبارة الشريف أخي محسن إلى ابن رزام. وهذه النسبة خطأ واضح سيتبين للقارئ فيما بعد، بدليل ما أورده النويري والمقريزي الذي وصل إلى يده كتاب أخي محسن ونقل عنه.

ويجدر بنا أن نذكر أيضاً كتاب " صلة تاريخ الطبري " لعريب بن سعد [١] المتوفي سنة ٣٦٦هـ (٩٧٦ – ٩٧٧ م) ؛ وقيمة هذا الكتاب في أن عريب بن سعد قد اضاف كثيراً إلى تاريخ الأندلس وشمال إفريقية (بلاد المغرب). لوم يمدنا الطبري بشيء يستحق الذكر عن الفاطميين، مع أنه تقدم عريب بن سعد، لأنه كلامه عنهم يحوطه شيء من الغموض والإبهام غير قليل.

أما عن العلاقات التي كانت بين الفاطميين في شمال إفريقية ومصر إلى أن تم فتح مصر على يد جوهر الصقلي قائد الفاطميين (سنة ٣٥٨ هـ)، فإننا نذكر من بين المؤرخين الذين أعتمدنا عليهم في بحثنا لتاريخ مصر في هذا العصر وعاشوا في الصدر الأول من أيام الفاطميين،وكتبوا عن تاريخ هذه البلاد في هذا العهد : ابن جرير الطبري المتوفي سنة ٣١٠ هـ (٩٢٢ م)، وأوتيخا [٢] (سعيد بن البطريق) المتوفي سنة ٣٢٨ هـ (٩٤٠ م)، وأبا عمر الكندي [٣] المتوفي سنة ٣٥٠ هـ (٩٦١ م)، وعريب بن سعد المتوفي سنة ٣٦٦ هـ (٩٧٦ – ٩٧٧ م)، وأبا على مسكويه المتوفي سنة ٤٢١ هـ (١٠٣١ م). وقد اقتصر الطبري في تاريخه الذي ينتهي في عام ٣٠٢ هـ، على ذكر المجهودات الأولى التي بذلها المعهدي في سبيل غزو مصر. أما عريب بن سعد ومسكويه فقد تناولا الكلام على هذه الغزوات بشيء من الإسهاب. وقد أمدنا أوتيخا والكندي، وهما مصريا المولد والدار وأقدم هؤلاء المؤرخين بعد الطبري، بمعلومات أكثر تفصيلا

---

[١] لا يعلم عنه شيء ، غير أنه شغل منصب الكتابة في بلاط الحكم الثاني ٣٥٠ – ٣٦٦ هـ (٩٦١ – ٩٧٦ م) في قرطبة ؛ وفي حكمه ألف عريب هذا مختصر لتاريخ الطبري . أنظر ما ذكره دوزي (**dozy**) عن عريب في كتاب " البيان المغرب " للابن عذاري (ص ٤٣ – ٦٣) و

brookol mann , gosohichto dor arabischen literature, I , 134 , 236 , and note Pwastonfeld , der arab . , no . 136 :enoyololopaedia of islam s . v .

[٢] **Wustenfeld , gesch , der arab . no . 108**

[٣] **Ibid . no . 124**

وايهابا في هـ١١ الموضوع. وكتاب " المغرب في حلى المغرب " لابن سعيد المتوفي سنة ٦٧٣ هـ (١٢٧٥ م) [١] قد تضمن جزءا من كتاب ابن زولاق [٢] المتوفي سنة ٣٨٧ هـ (٩٩٧م)، المسمى "كتاب العيون الدعج في حلى دولة بني طفج " [٣] . وهذا الكتاب يتناول سيرة الأخشيد ؛ كتبه مؤلفه في سنة ٣٥٠ هـ بأمر أبي الحسن على بن الأخشيد، ثم أتم أبن زولاق أيضاً كتاب الكندي الذي يتناول الكلام على ولاة مصر إلى سنة ٣٣٤ هـ، وهي السنة التي مات فيها الأخشيد. أضف إلى ما تقدم، أن أبن زولاق ذيل كتاب الكندي [٤] منذ وفاة الاخشيد إلى أن وصل المعز الفاطمي إلى مصر وأسس الخلافة الفاطمية باسمه سنة ٣٦٢هـ [٥].

وفضلاً عما تقدم فان ابن هانئ [٦] الأندلسي المتوفي سنة ٣٦٢ هـ (سنة ٩٧٣ م) يشير في ديوانه إلى الدعوة الفاطمية في أيام الخليفة المعز (٣٤١ – ٣٦٥ هـ) (٩٥٢ – ٩٧٥ م)، ويشيد بمآثر هذا الخليفة ويمجد أعماله، حتى وصل به هذا إلى الغلو فنسب إلى مولاه بعض صفات النبوة والالوهية ؛ وبهذا مهد ابن هانئ طريق الالحاد لمن أتى بعده من الشعراء.

ومن الكتب المعاصرة للدولة الفاطمية تاريخ ابن زولاق المتوفي سنة ٣٨٧ هـ (٩٩٧ م) المسمى " فضائل مصر وأخبارها وخواصها " ؛ أتي فيه مؤلفه على تاريخ مصر منذ عصورها الأولى. وابن زولاق حجة لا يستهان به في تاريخ الصدر الأول من أيام الفاطميين : أولاً لأنه كان مصري الجنس ومن أهلها، وثانياً لأن شهرته قد ذاعت لسعة

---

[١] ورد هذا التاريخ في كتاب " فوات الوفيات " للكتبي (ج١ ص ١١٢) ؛ أما السيوطي فقد ذكر في كتابه " حسن المحاضرة " طبعة القاهرة سنة ١٢٩٩ هـ (ج ١ ص ٣٢٠) أنه توفي سنة ٦٨٥ هـ

[٢] ذكر ياقوت : ارشاد الاديب (ج ٣ ص ٧) أنه توفي في يوم الأربعاء ٢٦ ذي القعدة سنة ٣٨٧ هـ ، وذكر أبن خلكان (ج ١ ص ١٦٧) أن وفاته وقعت في يوم الثلاثاء ٢٥ من الشهر نفسه ، وذكر السيوطي (حسن المحاضرة ج ١ ص ٣١٩) انه توفي شهر ذي القعدة من هذه السنة .

[٣] ابن سعيد : كتاب المغرب (ص ٤ – ٤٥) .

[٤] الكندي : كتاب الولاة والقضاة (ص ٢٩٣ – ٢٩٨) .

[٥] ابن سعيد : كتاب المغرب (ص ٥) .

[٦] ياقوت : ارشاد الأديب (ج ٧ ص ١٢٦ – ١٢٧) ، ابن خلكان (ج ٢ ص ٦) والمقري (ج٢ ص ٣٦٤)

اطلاعه في مادة التاريخ. وقد ألف ابن زولاق سلسلة من الكتب الاصلية عن تاريخ مصر، من أمثال كتاب " فضائل مصر "، وهو عبارة عن خطط أو وصف " طبوغرافي " لمصر القديمة، تناول فيه مؤلفه – على ما ذكر ابن خلكان [(١)] – الكلام على هذا الموضوع من جميع نواحيه، وكذا كتاب " قضاة مصر " الذي جعله مؤلفه ذيلاً لكتاب القضاة لأبي عمر الكندي إلى سنة ٢٤٦ هـ، وأتمه فيما بعد ابن حجر العسقلاني المتوفي سنة ٨٥٣ هـ (١٤٤٩م).

وعدا هذه الكتب التي ألفها ابن زولاق في تاريخ مصر [(٢)] سير كافور وجوهر والمعز والعزيز. بيد أنه لسوء الحظ قد تلاشت معظم تصانيف ابن زولاق ؛ ولا يعرف عنها شيء الآن إلا ما أخذه منها غيره من الكتاب الذين جاءوا بعده. هذا، وتصانيف ابن زولاق التي بقيت إلى اليوم هي [(٣)] تاريخ قضاة مصر وسيرة الأخشيد المسماه " العيون الدعج...... الخ " التي نقلها ابن سعيد في كتاب " المغرب " وكتاب فضائل مثر، وهو مخطوط بالمكتبة الاهلية بباريس تحت رقم ١٨١٧، ومختصر لهذا السفر الكبير الذي ألفه صاحبه عن تاريخ مصر. أما هذا المخطوط فقد أمدنا بمعلومات صحيحة عن تاريخ الصدر الأول من أيام الفاطميين إلى عام ٣٨٦ هـ، ولقد أتم هذا المؤلف الذي وضع أساسه ابن زولاق رجل من الاتراك، يلوح لنا أنه أدخل عليه معلومات استقاها مما كتبه بعض المؤرخين الذين جاءوا بعد ابن زولاق، من أمثال أبي الفرج بن الجوزي المتوفي سنة ٥٩٧ هـ (١٢٠١ م) الذي عرف حفيده باسم سبط بن الجوزى المتوفي سنة ٦٥٤ هـ (١٢٥٧ م)، وكذا الذهبي المتوفي سنة ٧٤٨ هـ (١٣٤٨ م).

وينبغي أن نذكر فضلا عما تقدم من المصادر المعاصرة للفاطميين كتاب " أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم " للمقدسي (أو المقدسي على الاصح) المتوفي سنة ٣٨٧ هـ (٩٩٧ م) ؛ وهو كتاب قيم من الناحيتين الجغرافية والتاريخية، وكتاب " الديارات " لأبي

---

(١) (ج ١ ص ١٦٧)

(٢) أتى ياقوت في كتابه ارشاد الاديب (ج ٣ ص ٧) على أسماء الكتب التي صنفها ابن زولاق .

(٣) (ج ١ ص ١٦٧)

الحسن على الشابشتي [١] المتوفي سنة ٣٨٨ هـ (٩٩٨ م) [٢] (برلين مخطوط فيمار ١١٠٠) . وقد اتصل الشابشتي بخدمة العزيز، فولاه خزانة كتبه واتخذه جليساً له ونديما ؛ وذكر في كتاب " الديارات " أخبارا عن الأديرة في العراق والموصل وسورية والجزيرة ومصر، وما قيل عن كل منها من الأشعار، وما جرى فيه من حوادث وأمور. على أن هذا الكتاب على نفاسته لم يمدنا بمعلومات كافية عن العصر الفاطمي، اللهم إلا ما يتعلق بحفلة زواج الخليفة المأمون العباسي بابنة وزيره الحسن بن سهل، على ما سيأتي بيانه في الباب السابع.

وهناك كتاب آخر هو كتاب "كنائس أديرة مصر " لأبي صالح الأرمني المتوفي سنة ٦٠٥ – ٦٠٦ هـ (١٢٠٨ م) وقد ألفه عقب غزو الأكراد والغز هذه البلاد تحت قيادة شيريكوه. كتب أبو صالح جزءا لا يستهام به من مؤلفه، اعتمد فيه على ما سمعه ورآه هو بنفسه في زياراته للكنائس والاديرة في القاهرة وضواحيها. والكتاب مملوء بأمثلة كثيرة عن الخيرات التي أغدقها الخلفاء الفاطميون والموظفون الكبار من المسلمين على القبط [٣]. وكان لهذه المعلومات فوائد عظيمة في الباب الذي أفردته لبحث سياسة الفاطميين للنصارى واليهود.

وهناك أيضاً كتابان من الكتب التي ألفت في عهد الفاطميين : وهما " ديوان الشريف الرضى " المتوفي سنة ٤٠٦ هـ (١٠١٥ م)، والرسائل التي يطلق عليها " رسائل الحاكم بأمر الله والقائمين بأمر دعوته ؛ "كتبها في سنة ٤٠٨ هـ (١٠١٧ – ١٠١٨ م) كثيرون

---

[١] ذكر ابن خلكان نقلا عن كتاب (التاجي) لأبي إسحاق الصابي . المتوفي سنة ٣٨٠ هـ أن الشابشتي حاجب وشمكير بن زيار الديلمي ، قتل في سنة ٣٢٦ هـ (٩٣٧ – ٩٣٨ م) بالقرب من أصبهان . وزاد ابن خلكان على ما تقدم فقال : يظهر أن الشابشتي أسم ديلمي يشبه النسبة ، ويحتمل أن يكون أبو الحسن على الشابشتي من أبناء هذا الرجل فنسب إليه وبقي النسب في أولاده . اين خلكان (ج ١ ص ٤٢٦ – ٤٢٧) .

[٢] ذكر ابن خلكان (ج ١ ص ٤٢٦) ثلاثة تواريخ لوفاة الشابشتي ، وهي سنة ٣٩٠ هـ وصفر سنة ٣٨٨ هـ و ١٥ صفر سنة ٣٨٨ هـ ، وذكر هو التاريخ الأول . أما الثاني فقد نقله عن المسبحي ، وذكر الثالث نقلاُ عن شخص لم يذكر أسمه .

[٣] زعم إيفتس (r . t . a . evetts) في مقدمتها لكتاب أبي صالح أن كتاب الديارات للشابشتي قد ضاع ، ولا يعرف لدينا إلا عن طريق العبارات التي اقتبسها منه غيره من الكتاب .

من الدعاة تحت إشراف الخليفة الحاكم ٣٨٦ – ٤١١ هـ (٩٩٦ – ١٠٢١م).

ويعتبر المؤرخون قصيدة الشريف الرضى ذات شأن في هذا الموضوع [١]. وبالرغم من انها لم تظهر في ديوانه بادئ بدء، فقد أجمع كثير منهم على صحة نسبتها إليه –على ما سيظهر بعد– بدليل إسنادها إليه في كثير من المصادر التي عاش كاتبوها بعد الشريف الرضي.

أما كتاب رسائل الحاكم بأمر الله... الخ فهو من مخطوطات المكتبة الملكية في القاهرة (رقم ٢٠ مخطوطات الشيعة)، ويشتمل على عشرين رسالة كتبها كثيرون من الدعاة. وهذا الكتاب يصف لنا الأساليب التي بها نشر الخلفاء الفاطميون وأنصارهم دعوتهم السياسية والدينية، ويمد القارئ ببيان مسهب لدعوى الخليفة الحاكم الألوهية [٢].

وهناك مؤرخ آخر هو الأمير المختار عز الملك مُحَّد بن أبي القاسم المعروف بالمسبحي [٣] المتوفي سنة ٤٢٠ هـ (١٠٢٩ م)، الذي كتب عن مصر كتابا مسهباً هو " تاريخ مصر " ؛ يقع في ستة وعشرين ألف صفحة [٤] ؛ ولا يوجد منه إلا الجزء الاربعون بمكتبة الاسكوريال بالأندلس، وهو واحد من جملة تصانيفه التي بلغت الثلاثين ولم يعد لها الآن وجود، اللهم الا في هذه المقتبسات التي نجدها في المصادر الأخرى.

وقد كان المسبحي رجل فضل وعلم ؛ وكان على زي الأجناد. اتصل بخدمة الخليفة الفاطمي الحاكم ٣٨٦ – ٤١١ هـ (٩٩٦ – ١٠٢١ م)، وتقلد في أيامه القيس والبهنسا من أعمال الصعيد، ثم تقلد " ديوان الترتيب " [٥] ول اعرو فان المسبحي حجة

---

[١] – ص ٩٧٢ – ٩٧٣

[٢] أنظر كتب الأمان التي أعطاها الحاكم لأهل مصر في كتاب يحيي بن سعيد (ص ٢٣٠ – ٢٣٣) .

[٣] ابن خلكان (ج ١ ص ٦٥٣ و ٦٥٤) والسيوطي طبعة القاهرة سنة ١٢٩٩ هـ (ج ١ ص ٣١٩) .

[٤] يقول بن خلكان (ج ١ ص ٦٥٣)انها وقعت في ثلاثة عشر ألف ورقة .

[٥] زعم دي سلين (**de slane**) في ترجمة كتاب وفيات الاعيان لابن خلكان (ج ٣ ص ٩٠ حاشية رقم ١) أن هذا الديوان كان في نفس المكان الذي يوجد فيه ديوان الرواتب ، وهو المحل الذي تنظم فيه الرواتب وتدفع لمستحقيها.

دامغة في تاريخ مصر في الصدر الأول من أيام الفاطميين [١].

هذا ويجب ألا ننسى أيضاً ما كتبه ثلاثة من الكتاب المعاصرين للفاطميين، وهم مسكويه [٢] المتوفي سنة ٤٢١ هـ (١٠٣١ م)، وهلال الصابئ [٣] المتوفي سنة ٤٤٨ هـ (١٠٥٦ م)، وأبو شجاع المتوفي سنة ٤٨٨ هـ (١٠٩٥ م) [٤].

أما تاريخ مسكويه المسمى " تجارب الأمم " فهو " على وجه العموم من أهم الكتب العلمية في اللغة العربية " [٥]. ويتناول جزء من هذا الكتاب الكلام على الحوادث التي أعقبت ما دونه الطبري في تاريخه (وينتهي في سنة ٣٦٩ هـ) [٦]. وقد استطرد أبو شجاع في سرد الحوادث (وتنتهي في سنة ٣٨٩ هـ ؛ وتلاه هلال الصابئ في تاريخه الذي ذيل به أمدروز (amedroz) كتاب الوزراء ونقله عنه الأستاذ مرجوليوث (prof. margoliouth).

ولقد أستمد مسكويه معلوماته التاريخية شفوياً ممن تولوا الزعامة في هذه الحوادث ؛ نخص بالذكر منهم الوزير المهلبي في بغداد المتوفي سنة ٣٥٢ هـ (٩٦٣ م)، وأمين خزانته

---

(١) ذكر تصانيف المسبحي من جاء بعده من المؤرخين ، كاين منجب ،وابن ميسر ، وابن خلكان ، والمقريزي ، وابي المحاسن ، والسيوطي .

(٢) أختلف الكتاب في صحة ثبوت اللقب له أو لأبيه ؛ فبعضهم كاتنوخي (نشوار المحاضرة ص ١٧٣) وحاجي خليفة (رقم ٢٤٣٠) يزعم أن اللقب متصل بأبيه ، في حين يقول غيرهم من أمثال بديع الزمان الهمداني (ص ١٥٧ ، وقد سماه مشكويه) وياقوت (إرشاد الاديب ج ٢ ص ٨٨) وابن خلكان (ج٢ ص ٩٢) والقفطي (ص٣٣١) وابن أبي أصيبعة (ج ١ ص ٢٤٥) بان اللقب متصل به هو . أنظر المناقشة التي أوردها الأستاذ مرجوليوث (prof . margoliouth) عن هذا اللقب في مقدمته لكتاب مسكويه (ص١١) ووستنفلد في كتابه (gesch , der ar . non . 182) .

(٣) نشر مستر أمدروز (mr . amedroz) ترجمه حياة هلال الصابئ عن تاريخ سبط بن الجوزي ، وتتناول في جملتها الكلام بوجه التفصيل عن اعتناق هلال الإسلام .

انظر ايضاً ياقوت (غرشاد الاديب ج ٧ ص ٢٥٥) وابن خلكان (ج٢ ص ٢٦٧) ووستنفلد : wustenfeld (gesch . der ar . no . 198)

(٤) ابن خلكان (ج٢ ص ٩١ – ٩٢)

(٥) Prof . mergoliouth : prefact to miskawaib , p. vi

(٦) يقول القفطي (ص ٣٣١) إن تاريخ مسكويه ينتهي إلى سنة ٣٧٢هـ .

[1]، وهو أبو الفضل بن العميد المتوفي سنة ٣٦٠ هـ (٩٧٠ – ٩٧١ م) في الري. وكان لمسكويه ضلع في كثير من الحوادث الهامة، كما كان لعمارة اليمني وأسامة بن منقذ من بعده. " وهذا من الأهمية بمكان لمؤرخ مثله، وعلى الأخص لأن المناصب التي تقلدها كانت تلقى على عاتقه كثيراً من المسئولية ؛ كما أنه كان في استطاعته الوقوف على أسرار الدولة من غير أن تكون له بها علاقة شخصية ذات شأن عظيم " [2]

وقد أسهب مسكويه في تاريخ الصدر الأول من أيام بني بويه ؛ ولكنه لم يغفل أيضا أن يمدنا بتاريخ للأحوال الخارجية للعباسيين، مما له صلة بالجهود التي قام بها الفاطميون لفتح مصر، وكذلك العلاقات التي كانت بين العباسيين والبيزنطيين في ذلك الوقت.

وقد أعقب ظهير الدين مُحَمَّد بن الحسين الروذراوري وزير الخليفة العباسي المقتدي ٤٧٦ – ٤٨٧ هـ (١٠٨٢ – ١٠٩٣ م) المعروف بأبي شجاع، تاريخ مسكويه بتاريخه الذي تناول فيه الكلام على المدة التي بين سنتى ٣٦٩ و ٣٨٩ هـ.

ولقد وقع أبو شجاع عند كلامه على حوادث سنة ٣٨١ هـ في أغلاط لم يشر إليها الأستاذ مرجوليوث عند نشره تاريخ مسكويه ؛ ذلك أن أبا شجاع قد دون في هذه السنة حوادث وقعت بعدها بخمس سنين أو عشر سنين. ومن الأمثلة التي تؤيد صحة هذا القول مسألة موت الخليفة الفاطمي العزيز وتولية ابنه الحاكم [3] التي حدثت في سنة ٣٨٦ هـ، وما يتعلق أيضا بقتل برجوان وإسناد منصبه [4] إلى الحسين بن جوهر في شهر ربيع الثاني سنة ٣٩٠ هـ [5].

هذا ولم يظهر للآن من تاريخ هلال إلا جزء واحد ذيل به مستر أمدروز " كتاب الوزراء "، ونقله عنه الأستاذ مرجوليوث. وقد أمدني كتاب الوزراء بفوائد عظيمة عن

---

[1] ياقوت : ارشاد الأديب (ج ٢ ص ٩٥)

[2] Prof . mergoliouth : prefact to miskawaib , p.vi

[3] (ج ٣ ص ٢٢١)

[4] (ج ٣ ص ٢٣٠ – ٢٣٢)

[5] (أنظر الحاشية التي كتبتها في الباب السادس

التعديلات التي أدخلت على قانون الوراثة في عهد الفاطميين منذ ابتداء عهدهم [١]. كما أمدني كتاب " يتيمة الدهر " لأبي منصور الثعالبي [٢] المتوفي سنة ٤٢٩ هـ (١٠٣٧ م) [٣]، وكتاب " سقط الزند " و " اللزوميات " لأبي العلاء المعري المتوفي سنة ٤٤٩ هـ (١٠٥٧ م) يمثل هذه الفوائد. أما تصانيف أبي العلاء، و" معجم البلدان " لياقوت، فهي ذات قيمة خاصة فيما يتعلق بالعبارة التي كتبها عن الفقيه الشاعر عبدالوهاب بن نصر المالكي.

وكتاب " الآثار الباقية " للبيروني [٤] المتوفي سنة ٤٤٠ هـ (١٠٤٨ م) [٥] يتناول الكلام عن نظم الطوائف والجمعات المختلفة. وهو حجة اعتمدت ليه في البحث عن الاحتفال بالأعياد القومية والدينية في عهد الفاطميين ز

أما عن النظم الإدارية، فقد اعتمدت على ما كتبه الماوردي [٦] المتوفي سنة ٤٥٠ هـ (١٠٥٨ م في كتاب " الاحكام السلطانية ". وهو أول ما كتب بالعربية عن هذه النظم في الإسلام ؛ ويعد من أعظم المصادر لما كتبته عن ادارة الشؤون العامة في أيام الفاطميين.

---

[١] .أنظر الباب الخامس

[٢] ذكر السمعاني (كتاب الانساب ورقة ١١٥ ا) أن الثعالبي كان يخيط جلد الثعالب ، فاشتق اسمه من هذا اللفظ . انظر أيضا ابن خلكان (ج ١ ص ٣٦٥ – ٣٦٦) وأبا الفدا (ج ٢ ص ١٧٠) .

[٣] وردت هذه السنة في ابن خلكان (ج ١ ص ٣٦٦) وأبي الفدا (ج ٢ ص ١٧٠) . وذكر وستنفلد في كتابه (**gesch der ar**) رقم ١٩١ : سنة ٤٢٩ أو ٤٣٠هـ .

[٤] " من أهالي خوارزم أو خوارزميا وهي كيفا الحالية ، وبعبارة أدق ، أحد مواطني حي (**berun**) من أحياء عاصمة هذه البلاد . وكان يطلق على منهما (الحي والحاضرة) اسم خوارزم ، أو أحد مواطني أحد أعمال الحاضرة ، ويسمى (**berun**) أيضاً " **sachau,s preface to berums chronology of ancient nations , english** (**translstion , p . v ii**

ومن أراد التوسع فليرجع إلى ما جاء في مقدمة النسخة العربية (ص ١٧ و ١٨) ، وكتاب الانساب السمعاني ورقة ٩٨ ب (طبعة **gibb memorial**) حيث نقلت النسخة الاصلية " **riruni**" خطأ .

[٥] يقول حاجي خليفة (رقم ٩٣٥٩) ان وفاته وقعت في سنة ٤٣٠ ، بخلاف ابن أبي أصبيعة (ج ٢ ص ٢٢) فإنه ذكر أن ذلك كان في سنة ٤٤٠ هـ.

[٦]كان الماوردي على ما ذكر السمعاني (كتاب الانساب ورقة ٥٠٤ أ) يبيع ماء الورد ، ومنه عرف بهذا اللقب . أنظر أيضا ارشاد الاديب لياقوت (ج ٥ ص ٤٠٧ – ٤٠٩) وابن خلكان (ج ١ ص ٤١٠ – ٤١١) وابا الفدا (ج ٢ ص ١٨٨) .

على أن الغموض إلى الذي يحيط بأسلوب الماوردي، مما يزيد في قيمة ما كتبه المتأخرون عن هذا الموضوع، من أمثال ابن طاطبا الذي ألف كتاب " الفخري في الآداب السلطانية " [١] سنة ٧٠١ هـ (١٣٠٢ م)، والقلقشندي المتوفي سنة ٨٢١ هـ (١٤١٨ م)، بل وما كتبه ابن خلدون والمقريزي، بالرغم مما يعيب أسلوب هذين في كثير من الأحيان من ركاكة وغموض.

ومما نأسف له أشد الأسف ما كان من ضياع مؤلفات القضاعي المتوفي سنة ٤٥٤ هـ (١٠٦٢ م) ؛ ومن بينها كتاب " عيون المعارف وفنون أخبار الخلايف " ؛ وهو مختصر كتاب " الإنباء عن الأنبياء وتواريخ الخلفاء الأمويين والعباسيين والفاطميين ". وهذا الكتاب مخطوط في المكتبة الاهلية بباريس تحت رقم ١٤٩١ ؛ وهو عبارة عن خلاصة الكتاب الأصلي الذي لعبت به يد الضياع. ومع ذلك فقد خلف لنا من جاء بعد القضاعي من الكتاب، من أمثال القلقشندي والمقريزي وأبي المحاسن، بعض شذرات نقلوها من هذا الكتاب. وجاء رجل من الاتراك – مجهول الاسم – فاختصر كتاب القضاعي الذي أخذ عنه مؤلف المخطوط الموجود بالمكتبة الأهلية بباريس ؛ واستمر يسرد لنا الحوادث حتي عام ٩٢٦ هـ (١٥١٩ – ١٥٢٠ م). وهذا المختصر يوجد بالمكتبة الاهلية بباريس ؛ ويحتوي الجزء الذي ينحصر بين ورقتي ١١٥ و ١٢٦ من هذا الكتاب المنسوب إلى القضاعي، والموجود الىن بباريس، على معلومات ذات غناء عن الخليفة الحاكم الفاطمي. أما مؤلفات القضاعي فقد عددها ابن خلكان [٢] ؛ فذكر منها

---

[١] وصف الأستاذ نيكلسون في كتابه " تاريخ العرب الادبي " (ص ٤٥٤)حاشة (١) : **prof nicholson** **(literarary history of the arabs , p. 454 , no . 1)** كتاب ابن طبطبا في العبارة الآتية : " وهو كتاب ممتع عن السياسة الإسلامية . وان ما يمتاز به أسلوبه من سهولة ،وعباراته عل اختلافها من تشويق وإمتاع ، كل ذلك جعله ج\يرا بما يستحقه من إعجاب واستحسان . وإذا صرفنا النظر عن القرآن ، فاني لا أعرف كتابا غير هذا يصلح لان يكون مقدمة للأدب العربي " .

“ … a delightful manual of Muhammadan politics > the aimplioity of its style and the varied interest of its contentents have made it deservedly popular . leaving the qoran ont of secount , I do not know any book that is better fitted to serve as n introduction to Arabic literature “, “

[٢] ج١ ص ٥٨٥

كتاب " مناقب الامام الشافعي، " وكتاب " تواريخ الخلفاء "، وكتاب " خطط مصر ". ويظهر أن المقريزي نقل هذا الكتاب برمته وأودعه كتابه الذي يعرف أيضا بهذا الاسم.

والقضاعي ثقة في تاريخ الصدر الأول من أيام الفاطميين. وكان من النابغين في الكتابة، حتى صار من كتاب البلاط، مما جعل الوزير أبا القاسم الجرجرائي (تقلد الوزارة في سنة ٤١٨ هـ وتوفي سنة ٤٣٦ هـ) [١] يعهد غليه فيأن يكتب العلامة [٢].

ولا يفتنا أيضاً أن نذكر صلة كتاب أوتيخا المسمى " التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق "، الذي كتبه يحي بن سعيد المتوفي سنة ٤٥٨ هـ (١٠٦٦ م) ؛ فقد تصدى للكلام عن المدة التي بين سنتي ٣٢٦ و ٤١٧ هـ (٩٣٨ – ١٠٢٦ م). ولما كان من المحتمل أن يحيي بن سعيد مصري المولد، وأنه قضى من حياته في هذه البلاد مدة تتراوح بين خمسة وثلاثين وأربعين عاما –كان ذلك كله مما يجعل لكتابه فائدة خاصة بالنسبة إلى الزمان الذى عاش فيه والمكان الذي قضى فيه هذه البلاد مدة تتراوح بين خمسة وثلاثين وأربعين عاما –كان ذلك كله مما يجعل لكتابه فائدة خاصة بالنسبة إلى الزمان الذي عاش فيه والمكان الذي قضى فيه هذه الحقبة من عمره، وهو مصر [٣]

(ب) العصر الأخير

الآن نتحدث إلى القارئ عن قيمة المصادر التي عاش مؤلفوها في الأيام الأخيرة من عهد الفاطميين ؛ فنذكر منها كتاب سفرنامه (**safar namah**) [٤] لناصري خسرو المتوفي سنة ٤٨١ هـ (١٠٠٨ م). وهو كتاب ذو أهمية في تاريخ الفاطميين ؛ لأنه فضلا عن أن ناصري خسرو كان إسماعيليا ينتصر للمذهب الإسماعيلي، فأن هذا الوصف المسهب الذي كتبه عن زيارته لمصر (٤٣٩ – ٤٤١ هـ) في عهد الخليفة المستنصر

---

(١) ابن منجب :كتاب " الإشارة إلى من نال الوزارة " (ص ٣٥ و ٣٧) .

(٢) كانت العلامة أو الإشارة التي يذيل بها القضاعي الأوراق الرسمية لإعطائها الصفة الرسمية تشمل هذه الكلمات : " الحمدلله شكراً لنعمته " .

(٣) انظر لفظ أنطاكي (**antaki**) في دائرة المعارف الإسلامية

Brookelmann , gesch . der arab . litter < I , 148 >

(٤) طبع المسيو شفير (**seheefer**) متنه بالفارسية وترجمته الفرنسية مع الحواشي والتعليقات

٤٢٧ – ٤٨٧ هـ (١٠٣٥ – ١٠٩٤ م) يمدنا بمعلومات صحيحة عن مصر ومبلغ رخائها ووفرة ثروتها في العصر الفاطمي[١].

ولا يخفي ما لكتاب "المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب " [٢] لابي عبيد البكري المتوفي سنة ٤٨٧ هـ (١٠٩٤ م)، وكتاب " الإشارة إلى [٣] من نال الوزارة " لابن منجب الصيرفي المتوفي سنة ٥٤٢ هـ (١١٤٧ م) [٤] وذيل تاريخ دمشق " لابن القلانسي المتوفي سنة ٥٥٥ هـ (١١٦٠ م) – وهو بمثابة ذل لتاريخ هلال الصابئ – وكتاب " الانساب " للسمعاني المتوفي سنة ٥٦٢ هـ (١١٦٦ – ١١٦٧ م) – وهو كتاب جليل أيضاً من ناحيتي النسب والجغرافيا – و تاريخ ابن عساكر المتوفي سنة ٥٧١ هـ (١١٧٥ م) – لا يخفي ما لكل هذه الكتب من أهمية خاصة لاستقصاء بحث تاريخ الفاطميين.

ويظهر أنابنا لقلانسي قد نقل كتاب أبي شجاع وكتاب هلال الصابئ، اذا جاء لنا ان نقول إن تاريخ أبي شجاع قد بني على تاريخ هلال. ولوح لنا أن كتاب ابن القلانسي مما يمكن عده من المصادر الأصلية منذ ابتداء القرن السادس من الهجرة، كما يظهر من وصفه للأحوال التي أدت إلى قتل الوزير الأفضل بن بدر الجمالي.أما كتاب " الإشارة "لابن منجب، فقد أمدنا بمادة لا يستهان بها عن تاريخ الفاطميين ؛ لأن ابن منجب كان من أعيان زمانه، وقد تقلد ديوان الرسائل سنة ٤٩٥ هـ (١١٠١ م) في عهد الخليفة الآمر، وظل فيه إلى سنة ٥٣٦ هـ (١١٤١ م) ؛ وكان من البارزين في طبقة البلاط والمؤرخين [٥].

---

[١] استفاد ستانلي لين بول Stanley lane pooleوأوليري oleary من وصف ناصري خسرو لمصر فيما كتباه عن الدولة الفاطمية في مصر

[٢]. هذا الكتاب جزء من أجزاء الكتاب المعروف " المسالك والممالك ".

[٣] ذكر ياقوت (ارشاد الأديب) هذا اللفظ " في " .

[٤] أورد ياقوت سيرة ابن منجب في كتابه " ارشاد الأديب " (ج هـ ص ٤٢٢) ، حيث ذكر أنه توفى سنة ٥٥٩ هـ ، وأفرد له أيضاً ابن ميسر (ص ٨٧) وغيره ترجمة خاصة به .

[٥] يمكن الرجوع إلى الكتاب " ارشاد الأديب " لياقوت (ج ٥ ص ٤٢٢ و ٤٢٣) لمعرفة حياة ابن منجب .

هذا، ويجب أن نشير في هذا المقام إلى ما كتبه عمارة الميني المتوفي سنة ٥٦٩ هـ (١١٧٤ م) ، وأسامة بن منقذ المتوفي سنة ٥٨٤ هـ (١١٨٨ م). فقد شاهد كل منهما بنفسه ما وقع في مصر من الحوادث في أواخر أيام الفاطميين. ذلك أن عمارة كان شاعرا نابه الذكر بين شعراء البلاط في عهد الخليفة الفائز والخليفة العاضد، وهما آخر من تولى عرش مصر من الفاطميين ؛ وقد أمدنا في ديوانه وكتابه المسمي " النكت العصرية " بفوائد عظيمة عن هذين الخليفتين والوزراء، وغيرهم من علية القوم الذين رتع عمارة في بحبوحة كرمهم وفسيح عطفهم. فقد أتحفنا بمعلومات صحيحة عن الدور الذي لعبة الشعراء في نشر تعاليم الفاطميين ومعتقداتهم، وكذلك عن سقوط الدولة الفاطمية (١).

أما أسامة بن منقذ فكان من أكابر بني منقذ أصحاب قلعة شيزر وعلمائهم وشجعانهم، وله تصانيف عدة في فنون الأدب. رحل عن بغداد كمعظم شعراء عصره يريد مصر، فأقام فيها مؤمر إلى أيام الوزير الصالح بن رزيك سنة ٥٤٩ هـ (١١٥٤ م)، ثم عاد إلى الشام. وأخبار أسامة جليلة الخطر، لانه شاهد بنفسه حال مصر في زمنه، وما وقع فيها من حوادث. نخص منها بالذكر المعركة التي دارت بين جند الخلفة الفاطمي وأنصار الوزير رضوان سنة ٥٤٢ هـ ، والموقعة التي دارت رحاها بين أتباع الوزيرين ابن السلار وابن مصال سنة ٥٤٤ هـ، والموقعة الفاصلة بين أتباع هذين الوزيرين في السنة نفسها. كذلك قتل الوزير ابن السلار سنة ٥٤٨ هـ، والخليفة الحافظ واخوته وبني عمه سنة ٥٤٩، والثورة التي أثارها الأهلون على قتله الخليفة وبعض أهل بيته : وهما الوزير عباس وأبنه نصر اللذان لقيا حتفهما بعد ذلك بقليل – كل هذه المعلومات العظيمة خاصة بما يتعلق بسقوط الخلافة الفاطمية وأسبابه (٢).

أما عن المؤلفات التي كتبت في عصر الأيوبيين ٥٦٧ – ٦٤٨ هـ (١١٧١ –

---

(١) أنظر ابن خلكان (ج ١ ص ٤٧٥ و ٤٧٧) .

Drenbourg tome , ii notices en arabe par " oumara et sur " oumara (paris . 1909)

(٢) أنظر إرشاد الاديب لياقوت (ج ٢ ص ١٧٣ و ١٧٦) ، وابن خلكان (ج ١ ص ٧٨ و ٨٠) .

Drenbourg anthologie des textes arabes, , inedits par " oumara et sur " oumara ((paris , 1893

١٢٥٠ م)، فينبغي أن نذكر من بينها ما كتبه عماد الدين الأصفهاني [١] المتوفي سنة (٥٩٧ هـ (١٢٠١ م)، وأبو الفرج ابن الجوزي [٢] المتوفي سنة ٥٩٧ هـ (١٢٠٠ – ١٢٠١ م)، وياقوت الحموي [٣] المتوفي سنة ٦٢٦ هـ (١٢٢٩ م)، وابن الأثير المتوفي سنة ٦٣٠ هـ (١٢٣٢ م)، وابن شداد المتوفي سنة ٦٢٦ هـ (١٢٣٤ م)، والقفطي المتوفي سنة ٦٤٦ هـ (١٢٤٧ م) ؛ وبكتابه شذرات متفرقة عن الخلفاء الفاطميين ربما لا توجد في كتب أخرى ؛ وقد أودع هذه الشذرات ثنايا السطور عند كلامه على الأطباء والحكماء والمنجمين والمهندسين.

ومن الكتب التي كتبت في هذا العصر أيضاً " معجم البلدان" و" إرشاد الأديب "

" ومراصد الاطلاع " [٤] لياقوت، " تاريخ مصر " لعبد اللطيف البغدادي، و كتاب " الكامل في التاريخ " لابن الأثير.

وقد اعتمدت ايضا عند بحث موضوع سقوط الدولة الفاطمية على كتاب " النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية " لابن شداد المتوفي سنه ٦٣٢ هـ (١٢٣٤) ؛ وهو بوجه عام أدق وأنفس ما كتب عن تاريخ حياة صلاح الدين. وقد بني ابن خلكان الذي سنحت له الفرصة بلقاء ابن شداد الذي كان قد طعن في السن، سيرة هذا الرجل على المعلومات التي استمدها من ابن شداد. ومن هذا نعلم أنه أتصل بخدمة صلاح الدين

---

[١] انظر ارشاد الاديب لياقوت (ج ٧ ص ٨١ – ٩٠) ، وابن خلكان (ج ٢ ص ٩٧ – ١٠٠) .

Wustenfeld (gesch , der arab . no . 284) .

[٢] ابن خلكان _ ج ١ ص ٣٥٠ – ٣٥١) . . **Wustenfeld (gesch , der arab . no . 340) .**

[٣] " اغريقي المولد ؛ أسر صغيرا وبيع لأحد نجار بغداد ، فقام مولاه بتعليمه وبعث به في تجارته إلى الخليج الفارسي وغيره ؛ وجرت بينه وبين مولاه نبوة أو جبت عتقه ، فعاش من بيع الكتب ونسخها " .

“ a greek by birth ; he was anslaveed in his childhood and sold to a merchant of Baghdad . his master give him a good oluastiom and frequently sent him on trading expeditions to the Persian gulf and clsewhere after being enfranchised in conseqnonce of a& quarrel with the benefactor , he supported him self by copying and selling manuscripts > “ prof . Nicholson , literary of the arabes , p . 357) .

انظر ابن خلكان (ج ٢ ص ٢٧٧) ، وراجع حاجي خليفة : كشف الظنون ٤٧٢ و ١٢٦٧ و ٢٥٤٧ و ١٠١١٨ و ١١٣١٥ و ١٢٣٧٣ و ١٢٧٤٠ لمعرفة تصانيف ياقوت .

[٤] اختصر عبد المؤمن بن عبد الحق المتوفي سنة ٧٣٩ هـ (١٣٣٨ م) كتاب " معجم البلدان " لياقوت .

حين تقلد ولاية حلب [(١)]

٣- عصر المماليك

أما كتب الأدب التي دونت في عصر المماليك ٦٤٨ – ٩٢٣ هـ (١٢٥٠ – ١٥١٧ م) فإنها تمدنا بمعلومات نفيسة عن الفاطميين ؛ نخص بالذكر منها ما كتبه حسام الدين المحلي المتوفي سنة ٦٥٢ هـ (١٢٥٤ م)، في كتابه " الحدائق الوردية "، وهو مخطوط في المتحف البريطاني (القسم الشرقي رقم ٣٧٨٦). ويتناول الكلام بوجه خاص على " الأئمة الزيدية "، ولكنه يذكر أخبارا عن تاريخ الشيعة بوجه ؛ وما كتبه أيضاً سبط بن الجوزي المتوفي سنة ٦٥٤ هـ (١٢٧٥ م) [(٢)] ، في كتابه " مرآة الزمان ". وقد اطلعت مما كتبه على مخطوطين رقم ١٥٠٥ و ١٥٠٦ بالمكتبة الأهلية بباريس، ومخطوط رقم ٥٥١ بالمكتبة الملكية بالقاهرة، ومخطوط رقم ٣٧٠ (القسم الشرقي مجموعة بوكوك**or.،pocock**) بمكتبة بدليان (**Bodleian**) بأكسفورد.

وكتاب " الروضتين في أخبار الدولتين " (او تاريخ عهد نور الدين وصلاح الدين) لأبي شامة [(٣)] المتوفي سنة ٦٦٥ هـ (١٢٦٧ م)، مع انه يبعد كل البعد عن أن يكون مصدراً أصلياً لتاريخ العالم الإسلامي مدة ثمان وأربعين سنة (أي منذ وفاة الاتابك زنكي سنة ٥٤١ إلى أواخر سنة ٥٨٩ هـ)، فإنه مجموعة تعد سفراً مطولا، استقى من الوثائق الرسمية الموجودة في الكتب التي ألفها القاضي الفاضل المتوفي سنة ٥٩٦ هـ (١١٩٩ م) وعماد الدين الأصفهاني المتوفي سنة ٥٩٧ هـ (١٢٠١ م) ؛ فقد تقلد كل منهما منصب الوزارة في عهد صلاح الدين –كما أخذ أيضاً عما كتبه غيرهم من الكتاب المعاصرين،

---

(١) ابن خلكان (ج ٢ ص ٤٦٦ – ٤٧٥) .

(٢) نقل حاجي خليفة عند كلامه على ابن الجوزي (رقم ١١٧٢٦) ع الهبي ، أن أخبار ابن الجوزي لا يمكن الاعتماد عليها لتحيزه إلى الشيعة ؛ وهذا يحملنا على القول بان الذهبي طعن في معلومات ابن الجوزي ، لأنه كان من غلاة السنة .

(٣) الكتبي (ج ١ ص ٣٢٢ – ٣٢٦) ، حاجي خليفة ٥٤٦ و ٢٢١٨ و ١٠٧٥٣ وانظر .
Wustenfeld , gesch . der arab , no . 439

من أمثال يحيى بن أبي طي [(١)] المتوفي سنة ٦٣٠ هـ (١٢٣٢ – ١٢٣٣ م)، وابن شداد المتوفي سنة (٦٣٢ هـ (١٢٣٤ م)، إذ يظهر غالباً في كل صحيفة من كتاب أبي شامة ما أورده كل منهما من حقائق تاريخية.

وقد تقلد القاضي الفاضل منصب الوزارة في عهد صلاح الدين وولديه من بعده ؛ وتاريخه شائق ممتع في سلامة الأسلوب ووضوحه [(٢)].

وقد استقي أبو شامة تاريخه من كتابي " الفتح القدسي " و " البرق الشامي " [(٣)] لعماد الدين الأصفهاني. وقد اختفت معالم الحقائق التاريخية تحت بروق ما فيه من الاستعارات والتشبيهات، وما يشير إليه ضمنا مما وقع من الحوادث أيام الجاهلية ؛ حتى اذا ما أخذ أبو شامه عن هذا الكتاب وفطن إلى ما فه من نقص وعيوب، حذف تلك العبارات المجازية التي جعلت أسلوبه محاطا بالغموض والابهام، وسهل بذلك ما في هذا الكتب من حقائق تاريخية.

ومن أمهات الكتب التي يرجع تدوينها إلى العصر الذي نحن بصدد الكلام عليه كتاب " طبقات الأطباء " [(٤)] لابن أبي أصيبعة [(٥)] المتوفي سنة ٦٦٨ هـ (١٢٧٠ م) وكتاب " المعجب في تلخيص أخبار المغرب " لعبدالواحد المراكشي [(٦)] المتوفي سنة ٦٦٩

[(١)] كتاب ابن أبي طي هذا يسمي " كنز الموحدين في سيرة صلاح الدين "
أنظر الحاشية التي كتبها عن حياة ابن أبي طي في الباب التاسع من هذا الكتاب (ص ٢٩٩) .

[(٢)] **Recoil des histoires des croissdes ., historiens orientaux , tome I v . p . 14**

[(٣)] توجد نبذ عن الحوادث التاريخية التي وقعت بالشام بين سني ٥٧٨ و ٥٨٠ هـ (١١٨٢ – ١١٨٤ م) في مكتبة بودليان بأكسفورد .

[(٤)] يبحث هذا الكتاب عن الحكماء الذين كانوا بأفريقية ومصر ، ويتكلم استطرادا عما يتلق بالفاطميين .

[(٥)] حاجي خليفة رقم ٧٨٨٣ و ٨٤٦٠ **wustenfeld (gesch , der arab . no . 350)**

[(٦)] لا نعرف شيئا عن حياة عبد الواحد بن على المراكشي من أهالي بلنسية ، إلا ما ذكه هو عن نفسه في سياق كتابه من أنه ولد بمراكش سنة ٥٨١ هـ (١١٨٥ م) ، ثم عاش بعد ذلك في الأندلس ومصر . على أن السنة التي توفي فيها ، والمكان الذ وقعت فيه هذه الوفاة ، أمران يجهلهما التاريخ . هذا ، وقد كتب المراكشي كتابه عن تاريخ " الموحدين " ، وهو ما يسمى " المعجب في تلخيص أخبار المغرب " في سنة ٦٢١ هـ ؛ ومما نقله لنا المقري في نفح الطيب (ج ١ ص ٥٥٠) عن المراكشي حادثة وقعت في سنة ٦٦٩ هـ ، فلا بد أن تكون وفاته في هذه السنة أو بعدها . أنظر لفظ عبد الواحد المراكشي في دائرة المعارف الإسلامية .

هـ (١٢٧٠ – ١٢٧١ م) و" كتاب أنوار اليقين " لشرف الدين الهدوي المتوفي سنة ٦٧٠ هـ (١٢٧١ – ١٢٧٢ م) مكتبة المتحف البريطاني، القسم الشرقي، مخطوط ٣٨٦٨ (ويتناول الكلام على أمة الزيدية، وقد كتبه صاحبه انتصارا لعلي وأولاده وتأييد لدعواهم في الامامة وكتاب " المغرب في حلي المغرب " لابن سعيد المتوفي سنة ٦٧٣ هـ (١٢٧٥ م) [1].

وكتاب " وفيات الأعيان "لان خلكان المتوفي سنة ٦٨٠ هـ (١٢٨١ م) لا غنى عنه لطلاب التاريخ الإسلامي. أما ما يتعلق بأواخر الفاطميين وانحلال دولتهم، وقيام الدولة الأيوبية، فان ما كتبه ابن خلكان في تراجم صلاح الدين الأيوبي وأسد الدين شريكوه والعاضد الفاطمي من أحسن ما كتب في هذا الصدد. وكتاب "مفرج الكروب في أخبار بني أيوب " لابن واصل المتوفي سنة ٦٩٧ هـ (١٢٩٧ – ١٢٩٨ م) مخطوط بالمكتبة الأهلية بباريس تحت رقم ١٧٠٢ ؛ وقد أمدني بحقائق تاريخية جديدة، وعلى الأخص في البحث الذي أفردته للأعمال الدينية والسياسية التي قام بها الفاطميون في القصر، مركز حركة الشيعة.

هذا، ووغير خاف ما لغير ما ذكرنا من الكتب من جليل الفائدة لهذا البحث، مثل تاريخ أبي الفدا صاحب حماه المتوفي سنة ٧٣٢ هـ (١٣٣١ م)، و " نهاية الأرب في فنون الأدب " للنويري المتوفي سنة ٧٣٣ هـ (١٣٣٢ م)، وهو دائرة معارف جليلة (مخطوط بالمكتبة الاهلية بباريس تحت رقم ١٥٧٦)، ويطبع الآن بدار الكتب الملكية بالقاهرة، و " تاريخ الإسلام " للذهبي المتوفي سنة ٧٤٨ هـ (١٣٤٨ م)، و " فوات الوفيات " لابن شاكر الكتبي المتوفي سنة ٧٦٤ هـ (١٣٦٢ – ١٣٦٣ م)، وهو مجموعة تراجم بمثابة تكملة لكتاب " وفيات الأعيان " لابن خلكان، وكتاب " المقدمة " لابن خلدون المتوفي سنة ٨٠٨ هـ (١٤٠٤ – ١٤٠٥ م)، وتاريخه المسمى " العبر

---

[1] الكتبي : فوات الوفيات (ج ٢ ص ١١٢)

ذكر السيوطي : حسن المحاضرة ، طبعة القاهرة سنة ١٢٩٩ هـ (ج ١ ص ٣٢٠) أن وفاته كانت في سنة ٦٨٥ هـ

وديوان المبتدأ والخبر "، وكتاب " الانتصار لواسطة عقد الأمصار " [١] لابن دقماق [٢] المتوفي سنة ٨٠٩ هـ (١٤٠٦ – ١٤٠٧ م) [٣].

أما عن الذهبي، فقد اطلعت من بين مؤلفاته على ثلاثة مخطوطات :

(ا) مخطوط ١٥٥١ بالمكتبة الأهلية بباريس ؛ ويتناول الكلام عن المدة التي تنحصر بين سنتي ٣٠١ و ٤٠٠ هـ (٩١٣ – ١٠٠٩ م).

(ب) مخطوط ٤٢ (تاريخ) بالمكتبة الملكية بالقاهرة ؛ يحتوي على معلومات هامة عن الفاطميين في مصر.

(ج) مخطوط (laud. or. 304) بمكتبة بدليان ((Bodleian) بأكسفورد ؛ وقد أمدني بحقائق تاريخية جديدة عن الخلافة الفاطمية في العصر الأخير، وعلى الأخص ما يتعلق بمجموعة الهدايا التي قدمها صلاح الدين لنور الدين، والتي ترسم لنا صورة عن مبلغ ثروة الفاطميين في عهد انحلال دولتهم.

ومن اهم المصادر وأمتعها في هذا البحث كتاب " صبح الاعشى في صناعة الانشا " لأبي العباس أحمد القلقشندي المتوفي سنة ٨٢١ هـ (١٤١٨ م). وفي هذا السفر الطويل، وخاصة الجزء الثالث، كلام مسهب عن الفاطميين، ومواسمهم وأعيادهم، ومراسمهم وعادتهم، ومذهبم ونظم الحكم عندهم. وفضلا عن أن القلقشندي قد أخذ معلومات عن مصادر عاش مؤلفوها في عهد الفاطميين أنفسهم، مما جعل لها قيمة كبيرة من هذه الناحية بحيث تصور لنا مبلغ الثروة والرخاء في مصر الفاطمية وما أحاط الخلفاء من أبهة وجلال، فان أسلوبه يمتاز بشيء كثير من الوضوح والدقة والاتقان.

---

[١] ظهر الجزءان الرابع والخامس من مجموع أجزاء هذا الكتاب العشرة ، وهما يتضمنان معلومات خاصة لطبوغرافية مصر والإسكندرية لم يذكرها المقريزي في خططه .

[٢] هذا اللفظ بالتركية طقماق . انظر حاجى خليفة رقم ٢٠٨٩ ، **wustenfeld (gesch , der arab . no .457**

[٣] ذكر السيوطي : (حسن المحاضرة ، طبعة القاهرة سنة ١٢٩٩ هـ (ج ١ ص ٣٢٠ و ٣٢١) أن ابن دقماق مات سنة ٧٩٠ هـ ، وله من العمر ثمانون سنة . وذكر حاجي خليفة (١٣١٦ و ٢٠٨٩ و ٢٨٩٧) نفس هذه السنة ، ولكنه ذكر في مكان آخر (٢٣١٢ و ١٣٦٧٦) انه توفي سنة ٨٠٩ هـ

وربما كان تقي الدين المقريزي المتوفي سنة ٨٤٥ هـ (١٤٤١ م) أهم من ذكرنا من المؤرخين ؛ لأنه فضلا عن كونه من أحفاد الفاطميين، مما حدا به إلى الاهتمام العظيم بتاريخهم وأنسابهم وكل ما يتعلق بأحوالهم، فإنه قد وقف نفسه على تاريخ مصر " وطبوغرافيتها "، وكتب فيه سلسلة من الكتب الفريدة ؛ وأكثرها نفعاً كتابه المسمى" الخطط " [١]

ويجب ألا يغيب عن بالنا من كتب المقريزي كتاب " اتعاظ الحنفا بأخبار الخلفا " ؛ وهو مصدر جليل الفائدة في تاريخ أوائل الفاطميين إلى وفاة المعز [٢]. والنسخة الفذة الموجودة من هذا الكتاب بخط المقريزي نفسه ؛ غير أنه مما يؤسف له أن هذا الجزء ليس إلا جزءا يسيرا من الكتاب الأصلي. وكتاب " المقفي " سفر طويل للتراجم ؛ [٣] وله أهمية عظيمة. وهناك أجزاء منه في مختلف دور الكتب ؛ وقد سنحت لي الفرصة للاطلاع على أحد مجلدات هذا السفر (مخطوط ٢١٤٤) بالمكتبة الاهلية بباريس ؛ وهو الجزء الذي اعتمد عليه كتمير (**quatremere**) [٤]في البحث الذي كتبه عن أصل الفاطميين، كما أطلعت أيضا على غير هذا من المخطوطات في مكتبة الجامعة بليدن. ونضيف إلى ما ذكرنا من كتب المقريزي كتاب " السلوك في معرفة دول الملوك "، وهو مخطوط موجود بالمكتبة الاهلية بباريس تحت رقم ٢٠٦٩ ؛ ترجمه إلى الفرنسية كترمير (**quatremere**)، وذيله بمذكرات " فيلولوجية " وتاريخية وجغرافية. وهو مما لا يستغني عنه طلاب البحث في عصر المماليك خاصة [٥].

وكتاب " الإصابة في تمييز الصحابة " لابن حجر المتوفي سنة ٨٥٣ هـ (١٤٤٩ م)،

---

[١] ذكر حاجي خليفة (٢٣١١ و ٢٣١٢) جميع الكتب التي ألفت عن تاريخ مصر وخططها .

[٢] بحث الكتاب الأصل في تاريخ العصر الفاطمي بأكمله . على أنه يظهر منه إلا هذا الجزء ؛ أما الأجزاء الأخرى فيظهر أنه قد عبثت بها يد الدهر .

[٣] مات المقريزي قبل أن يكمل كتابه هذا

[٤] **Journal asiatique , aout , 1836**

[٥] ذكر السيوطي : (في حسن المحاضرة) ، طبعة القاهرة سنة ١٢٩٩ هـ (ج ١ ص ٣٢١) ، وحاجي خليفة (٦٢ و ٢٣١٢ و ٤٧٣٥ و ١١٤٥٣ الخ) مؤلفات المقريزي .

وكتاب " رفع الإصر عن قضاة مصر " – وهو مخطوط بالمكتبة الملكية بالقاهرة تحت رقم ٢١١٥ – لهما أهمية عظمى في هذا البحث. والكتاب الأخير أخذ أكثره من مصدرين متقدمين : هما كتاب " القضاة والولاة " لأبي عمر الكندي، و" تاريخ قضاة مصر " لابن زولاق. أما كتاب " رفع الإصر " الذي أدمج بعضه في كتاب " القضاة والولاة " للكندي (**gibb memorial sories، vol. xix.** ، فقد أعانني على معالجة أحد مواضيع هذا البحث وهو " إسناد المناصب إلى المتشيعين خاصة " [١].

هذا، وليس "كتاب النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة " [٢] لأبي المحاسن المتوفى سنة ٨٧٤ هـ (١٤٦٩ م)، وكتاب " حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة " للسيوطي المتوفي سن ٩١١ هـ (١٥٠٥ م)، و " نفح الطيب " للمقري المتوفي سنة ١٠٤١ هـ (١٦٣٣ م) باقل نفعاً مما ذكرنا من المصادر.

وغير هذا وذاك من المصادر التي أشرنا إليها كتاب " بدائع الزهور " لابن إياس المتوفي سنة ٩٣٠ هـ (١٥٢٣ – ١٥٢٤ م) وهو أحد تلاميذ جلال الدين السيوطي. ويظهر أنه نقل تاريخ أستاذه ؛ غير أنه كان عديم الحرص في بحثه للمصادر المتقدمة مما أوقعه في الخطأ في غير موضع.

---

[١] سيأتي الكلام على هذا الموضوع في الباب الخامس من هذا الكتاب .

[٢] بالرغم من أن أبا المحاسن جاء متأخراً فان كتابه هذا من أمتع الكتب و أنفسها .ولا غرو فقد جمع في كتابه كل ما وصل إلى يده من المصادر التي تشتمل على معلومات خاصة بالفاطميين مما لا توجد في كتاب أصلا . وعدا هذا فان كتابه في الترتيب والنظام من أحسن ما كتب في التاريخ .

الباب الأول

حركة الشيعة إلى قيام الدولة الفاطمية

١- الدعوة الشيعية في عهد الخلفاء الراشدين

لما كان من غرضنا الالمام بتاريخ مذهب الشيعة، وجب علينا هنا أن نتبع أصل هذه الطائفة التي كان يطلق عليها منذ الصدر الأول للإسلام اسم الشيعة، أو العلويين، أو أهل البيت، وأن نقف على ما قامت به هذه الطائفة في سبيل نشر دعوتها إلى أن تأسس سلطانهم في القيروان.

والعلويون –كما نعلم – هم أولاد على من فاطمة بنت النبي صلي الله عليه وسلم. وقد أعتقد أنصار الشيعة أنهم وحدهم أهل للخلافة، وان أبا بكر وعمر وعثمان، كذا الخلفاء من بني أمية وبني العباس، قد انتزعوا حق الإمامة المقدس من على. وقد صنف العلماء المتشيعون من المؤرخين الاسفار الطوال في تأييد هذه المقالة، وذهب بهم الاعتقاد إلى القول بان الخلافة سلخت من بيت على، أو بعبارة أخرى اغتصبت من بيت النبي.

ولم يقف الحال عند هذا الحد ؛ فقد أشتط الغلاة من الشيعة فقالوا أن الإمامة في بيت على، وإن الائمة معصومون، وإن صفات الله سبحانه قد حلت فيهم وتقمصت أجسامهم، وإن من قال بغير ذلك من الفرق الإسلامية – حتى بعض فرق الشيعة منهم – خارجون على الدين. ودللوا على صحة هذا القول بان عليا كان أول من أعتنق الإسلام من الرجال، وأن ما قام بيه في سبيل رفع منار هذا الدين لا يستطيع أن يبده فيه أحد من المسلمين بعد النبي. ولقد أسند هؤلاء الغلاة من الشيعة إلى النبي أحاديث تشهد بما لآل على من حرمة، وبما لعلي من حق في الإمامة بعد الرسول عليه السلام.

على أن هذه الأحاديث التي وصت الينا كانت – على ما هو مشهور – موضع جدل عنيف بين فقهاء المسلمين والمحدثين ونقده الحديث. وقد جمع البخاري – على ما

نعلم – نحو ستة آلاف حديث،

أختارها – على ما قبل – من ستمائة ألف. ومع ذلك فإن الإمام أبا حنيفة لم يثق إلا بستة عشر منها. ومن هنا يتبين لنا ما وصل إليه اختلاق الاحاديث في هذا الموضوع. فما هو السبب إذاً ؟

ذلك أنه عند وفاة النبي عليه السلام، لم يكن السواد الأعظم من العرب يعرف القراءة والكتابة ؛ فلم يدون تاريخ هذه الامة الا بعد زمن غير قصير. ولقد تناول العرب الحوادث التاريخية المشهورة والاحاديث النبوية بعضهم عن بعض ؛ فتأثرت هذه الحوادث بشئ غير قليل من التبديل والتحريف، مما أدى بها إلى الغموض والإبهام في معانيها والاحوال التي أحاطت بوقوعها.

حتى اذا ما جاء القرن الثاني للهجرة، أخذ العرب يبحثون تاريخهم ؛ ولم يكن أكثره إلا شذرات مبهمة وحوادث متفرقة أو مدونه بطريقة تتمشى مع ميول الفرق الدينية المختلفة، وقد آلى كل منها إلا إكبار أنصار مذهبه ولعن أعدائه، مستنداً إلى ما يعزونه إلى النبي صلي عليه وسلم.

فمن ذلك ما عزي إلى النبي أنه قال : " أهل بيتي كسفينة نوح، من ركبها نجا، ومن عدل عنها غرق [(١)] ". وقوله أيضا : " من مات على حب آل محم مات شهيداً، ألا ومن مات على حب آل مُحَمَّد مات مؤمناً مستكمل الإيمان ؛ ومن مات على بغض آل مُحَمَّد مات كافرا، ومن مات على بغض آل مُحَمَّد لم يشم رائحة الجنة " [(٢)]. فهذان حديثان لا شك مطلقاً في أن الشيعة قد أخترعوهم بعد موت النبي، تأييدا لعقيدتهم التي كان مبناها ممالأة على وخلفائه من بعده.

ونحن نعلم أن النبي قد ترك مسألة الخلافة من غير أن يبت في أمرها. ولسنا نجهل

[(١)] أورد هذا الحديث أبو هاشم الحسن بن عبدالرحمن بن يحيى بن عبدالله بن الحسين بن القاسم بن إبراهيم ابن إسماعيل ابن إبراهيم بن الحسن بن الحسين بن علي بن أبي طالب عند استيلائه على صنعاء في الثالث من رمضان ٤٢٦ هـ (١٠٣٥ م) : مكتبة المتحف البريطاني ، مخطوط ٣٧٨٦ ، ورقة ١٠٠ ب .

[(٢)] حسام الدين المحلي ، مكتبة المتحف البريطاني ، مخطوط ٣٧٧٢ ، القسم الشرقي ، ورقة ٢٨٠ ب .

أيضا أن النبي في مرضه الأخير ندب أبا بكر ليصلي بالناس بدلا منه [1]، وان السبق والإخلاص للدين صفتان بارزتان قد عرفهما النبي لأبي بكر ؛ وقد أشربت نفس الرسول حب هذه الروح الديمقراطية التي سادت لدى العرب منذ أيام الجاهلية. فرأى عليه السلام أن يترك الامر شورى للعرب ليختاروا من أحبوا.

على أن إنابة النبي أبا بكر للصلاة، جلى في أن النبي كان بعيدا كل البعد عن التحيز والميل لذوى قرباه ن عاملا على تأييد قوله تعالى (إنما المؤمنون إخوة) [2]، وعلى ما أثر عنه من قوله عليه " لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى ".

وخلاصة القول إن مسألة الخلافة قد تركت بدون أن يبت في أمرها. فكان من جراء ذلك أن حل الانقسام بين المسلمين في أول نشأة الإسلام، ذلك الانقسام الذي انغرست جذوره في اليوم الذي انتقل فيه الرسول إلى جوار ربه.

ومع أن استخلاف أبي بكر قد تم بطريقة ديمقراطية، على ما كان مألوفاً لدى قبائل العرب في الجاهلية (patriarchal state : ذلك النظام الذي يقضي بأن تكون السنة والفضائل أساسا لاختيار شيخ القبيلة، فإن امتناع كثيرين من عليه العرب، كالعباس عم النبي، وطلحة والزبير، وهم من السابقين إلى الإسلام [3] الين اتحدوا مع على بن أبي طالب، ثم ما كان أيضا من عدم إجابة فاطمة إلى ما طالبت به من استيلائها على ميراث أبيها [4] – كل هذه الأمور آذنت بانقسام الامة العربية إلى سنين وشيعين.

ولقد أشار أبو بكر الخوارزمي (٣٨٣ هـ ٩٩٣ م) الكاتب المشهور والشيعي المتحمس لهذا المذهب الى هذا الانقسام في إحدى رسائله (ص ١٣٠ – ١٣٩)، وقد بعث بها إلى أهل يسابور حين جار عليهم عامله مُحَمَّد بن إبراهيم وأوقع بهم لاعتناقهم مذهب الشيعة. فأتى لنا في هذه الرسالة بوصف يثير النفوس لهذه الاعمال التي أوقع

---

[1] سيرة ابن هشام طبعة وستنفلد (ج ٢ ص ١٠٠٨ – ١٠٠٩) .

[2] القرآن الكريم سورة ٤٩ أية ١٠ .

[3] ابن هشام (ج ٢ ص ١٠١٣ .

[4] شرحه – بشير الخوارزمي (ص ١٣٠) إلى ذلك في أحدى رسالته .

لأجلها أهل السنة بالشيعة منذ وفاة النبي عليه السلام [١].

على أن هذه الشعور العدائي نحو علي قد وجد — على ما ذكره كاتب آخر من الكتاب الذين سبقوا الخوارزمي، وهو يحيى بن الحسين الزيدي (٣٦٠ هـ ٩٧١ م) — حتى في حياة النبي. فقد عزى إليه ﷺ أنه قال لعلي بن أبي طالب : " أما ترضي ان تكون مني بمزلة هرون من موسى، إلا أنه لا نبي بعدى ؟ ". ولهذا الحديث علاقة برحيل النبي إلى تبوك [٢]، الواقعة على اثنى عشر فرسخا من المدينة. وقد استخلف عليا على المدينة؛ فثقل ذلك على أهلها ؛ فتبع على النبي وشكا إليه، واعتذر عن العودة إلى المدينة؛ فقال له النبي: " ارجع يا أخي مكانك، فان المدينة لا تصلح إلا بك، فأنت خليفتي في اهلي ودار هجرتي (يعني المدينة) وقومي ؛ أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هرون من موسى، إلا أنه لا نبي بعدي ؟ " [٣]

ولو أراد عليه السلام أن يستخلف علياً، فانه لم يكن برى من الصواب ذلك، لمنافاته لروح العرب الديمقراطية.

وبينما الخوارزمي يوجه حملاته ضد أعمال العنف الذي حل بأهل مذهبه، نرى كاتبا سنيا معاصرا، وهو بديع الزمان الهمذاني صاحب المقامات والرسائل المشهورة (٣٩٨ هـ ١٠٠٧ — ١٠٠٨ م)، يلتمس المعاذير لما أتاه العمال السنيون الذين قضت سياستهم بالقضاء على ما يعبرون عنه بخروج أهل الشيعة على الدين [٤].

هذا، وقد تمت بيعة أبي بكر رغم هذا الخلاف العنيف الذي احتدم بين المهاجرين والانصار في سقيفة بني ساعدة في المدينة في أمر الخلافة. بيد أن هذه السياسة الرشيدة التي نهجها أبو بكر وعمر، قد ساعدت على كبح جماح الأمة العربية.

ثم جاءت بعد ذلك سياسة عثمان، في تفضيل أقاربه ومن بينهم وبينه صلة ؛ صلة ؛

---

[١] رسائل الخوارزمي (ص ١٣٠ و ١٣١ و ١٣٤) .

[٢] أنظر لفظ تبوك في معجم البلدان لياقوت .

[٣] يحيي بن الحسين ، مكتبة الجامعة بليدن ، مخطوط ١٦٤٧ ورقة ٥٥ (ا) و (ب) .

[٤] رسائل بديع الزمان الهمذاني (ص ٤٢١ — ٤٢٧)

فأصبحت هذه السياسة مثارا للسخط في جميع الولايات الاسلامية، واتاحت لأنصار على فرصة لتحويل الخلافة إلى أهل البيت.

ولقد أذكى نيران هذه الثورة صحابي قديم، اشتهر بأنه أول من حيا النبي بتحية الإسلام [١]، وبأنه رابع (أو خامس على رواية أخرى للطبري) من اعتنق هذا الدين [٢]، واشتهر بالورع والتقوى، وكان من كبار أمة الحديث [٣]، وهو أبو ذر الغفاري.

تحدي أبو ذر سياسة عثمان ومعاوية عامله على الشام ـ بتحريض رجل من أهل صنعاء، هو عبد الله بن سبأ (ويسمى أيضا ابن السوداء). وقد روي لنا الطبري أن ابن سبأ هذا كان يهوديا فألم في السنة السابعة من خلافة عثمان : أي سنة ٢٩ أو ٣٠ هـ. وسرعان ما ظهر ابن سبأ بعد إسلامه في ثوب الغيور على الدين، مما أدخل الشك على المؤرخين، ولا سيما العرب منهم، وجعلهم يعتقدون أنه إنما اعتنق الإسلام ليضل المسلمين ويكيد للإسلام، وأنه كان أقوى العوامل لإثارة الناس على عثمان.

أخذ ابن سبأ بعد اسلامه يتنقل في البلاد الإسلامية ؛ فبدأ بالحجاز، ثم البصرة، فالكوفة، ومنها إلى الشام، فمصر. ولما وفد على الشام لقي أبا ذر ؛ فوجد فيه الرجل الذي ينشده، لما فيه من الغيرة وطيب القلب. فجاءه من ناحية الدين، وشكا اليه من معاوية وما أتاه. في سياسته، وقال " يا أبا ذر ! ألا تعجب إلى معاوية يقول : المال مال الله، ألا إن كل شيء لله، كأنه يريد أن يحتجنه [٤] دون المسلمين، ويمحو اسم المسلمين [٥] (من ديوان العطاء) ؟ "

لهذا لا نعجب اذا رأينا أبا ذر يشمر عن ساعد الجد في إعلان استيائه من سياسة معاوية، ووجدناه يحض الأغنياء على الرحمة بالفقراء وعلى الإقلاع عن ادخار أموالهم

---

[١] صحيح مسلم (ج ٧ ص ١٥٤)

[٢] الطبري (١ : ١١٦٨) وأسد الغابة لابن الأثير (ج ٥ س ١٨٦) .

[٣] الطبري (١ : ٢٨٥٩)

[٤] احتجن المال أي ضمه واحتواه .

[٥] الطبري (١ : ٢٨٥٩)

وكنزها، محتجا بقوله تعالى (والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم، يوم يحمي عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم ؛ هذا ما كنزتم لأنفسكم، فذوقوا ما كنتم تكنزون). وكذلك لا نعجب اذا ألفينا الفقراء يلتفون حوله ويسيئون إلى الأغنياء، مما أوجب شكايتهم إلى معاوية ليرفع الأمر إلى عثمان. وقد أيقن الخليفة أن الفتنة قد أخرجت خطمها [١] وعينها.

بعث عثمان في طلب أبي ذر ؛ وقد آلى على نفسه أن يواصل حملاته على هذه السياسية. فلما دخل المدينة ووجد المجتمعات تعقد بها للتآمر على عثمان، نادي في المجتمعين : " بشر أهل المدينة بغارة شعواء وحرب مذكار ". وكأن أبا ذر تنبأ بتلك الثورة التي ذهب عثمان ضحيتها [٢].

وقد أذن عثمان لأبي ذر بالإقامة في الربذة ن وهي قرية صغيرة على مقربة من المدينة – او نفاه اليها على ما ذهب اليه ابن هشام [٣] والخوارزمي [٤] – ولكنه واصل حملاته العنيفة على سياسة عثمان إلى أن مات وهو كاه لها سنة ٣١ هـ.

هذا، ولقد وجد ابن سبأ – وهو اول من حرض الناس على كره عثمان على ما تقدم – الطريق ممهده أمامه لإسقاط عثمان. ولسنا نشك في حسن نية أبي ذر، وما كان من أمر استيائه من عثمان ومن سياسته. ولكنا نرى أن مصدر استيائه الرغبة في التمسك بالدين وأحكامه، بخلاف ما كان عليه ابن سبأ. ولقد أصاب المؤرخ الهولاندي فان فلوتن (van vloten) [٥] حيث يول : " إن هذه الطوائف التي نشأت بين العرب في الولايات التي فتحوها، وعلي الأخص في البصرة والكوفة ومصر، كانت منطوية في بادئ الامر على غرض سياسي محض، رغم ظهورها بها المظهر الديني ".

---

[١] الخطم معناه مقدم الانف والفهم من الدابة ، والمراد هنا بدأت أوائل الفتنة .

[٢] الطبري (١ ، ٢٨٥٩

[٣] سيرة ابن هشام (٢ : ٩٧١)

[٤] رسائل الخوارزمي (ص ١٣١)

[٥] La domination arabe , le chutisme et les croyancees mqssinaniquues , p . 34

Ces factions nees parmi les arabes dans laes pays conquis، poursuivent dabord un but purement politique، quoque sous une apperence religieuse ".

لم يلق ابن سبأ من اهل الشام أذنا صاغية، اللهم الا من أبي ذر. ولقد قيل إن عبادة بن الصامت – وهو من اكابر الصحابة، وممن شهد فتح مصر، ومن ذوى الرأي والجاه في دمشق – ساق ابن سبأ إلى معاوية وقال له : " هذا والله الذي بعث عليك أبا ذر "[١].

وإن الاهتداء لرأى قاطع في هذه المسألة، وهى ما إذا كان أبو ذر أو ابن سبأ هو المؤسس الحقيقي لمذهب الشيعة الغالية في الإسلام، وأن أعمال أبي ذر لا تنطوى على محاولة ما لتحويل الخلافة إلى على، وإنما أدت إلى توطيد دعائم هذا المذهب الذي غرس بذوره ابن سبأ.

وقصارى القول، أنه لم يكن لأبي ذر عمل في توطيد ذلك المذهب ؛ ولكن تفيه إلى الربذة قد اتخذه خصوم عثمان والشيعة من بعدهم تكأة للعيب في حق عثمان والتشهير به وبعماله.

وقد أذن عثمان لأبي ذر بالإقامة في الربذة، وهي قرية صغيرة على مقربة من مدينة – أو نفاه إليها على مذهب إليه ابن هشام

استياء الولايات الاسلامية :

لقد تولد الاستياء وفشا السخط في الولايات الاسلامية بعد أن ولى عثمان الخلافة، لاشتطاط عماله في جمع الضرائب : ففي البصرة صادفت دعوة ابن سبأ مرعي خصيبا ؛ بيد أن عبدالله بن عامر والى عثمان طرده من هذه البلاد، فرحل إلى الكوفة [٢]، حيث تفاقم استياء الناس من عثمان وواليه، ومن قريش الذين استولوا على سوادهم واتخذوه

---

[١] الطبري (١ : ٢٨٥٩)

[٢] (الطبري ١ : ٢٩٢٢ : ١) ، يقول هذا المؤرخ : إن هذا كان بعد ولاية ابن عامر بثلاث سنين ، وأن توليته كانت ١٢٩ هـ (١ : ٢٨٢٨) . وعلى ذلك يكون إبعاد أبن سبأ في سنة ٣٢ هـ (١ : ٢٩٢٢)

بستانا لهم ؛ وواصل الثائرون الاجتماعات في منازلهم، ولعن عثمان على ملأ من الناس، ولج هؤلاء فيما أرتكب مكن عظائم الأمور. [1].

ثم طرد ابن سبأ من الكوفة أيضا، فقصد الشام – على ما تقدم – فلم يلق من أهلها ما لقى في البصرة والكوفة ؛ فرحل إلى مصر. وهنا أخذ ينشر دعوته التي ألبسها لباس الدين ؛ واتصل بالثائرين في الصرة والكوفة، وتبادل معهم الكتب والرسل [2] ؛ وبعث بالدعاة إلى هذه البلاد يدعون لعلى ؛ واستطاع أن يؤثر في نفوس الناس، فوضع مذهب الرجعة : أي رجعة مُحَمَّد صلي الله عله وسلم، وقال في ذلك : " إني لأعجب ممن يقول برجعة عيسى ولا يقول برجعة مُحَمَّد، وقد قال الله عز وجل : (إن الذي فرض عليك القرآن لوادك إلى معاد) " [3]. وزاد ابن سبأ أن مُحَمَّدا أحق بالرجوع من عيسى. ومن هنا نشأ في الاسلام مذهب تناسخ الأرواح، وهو خروج الروح من جسد وحلولها في سبيل جسد آخر.

ونشر ابن سبأ بعد ذلك مذهب الوصاية الذي أخذه عن اليهودية دينه القديم، بمعنى أن عليا وصى مُحَمَّد،ى وأنه خاتم الأوصياء بعد مُحَمَّد خاتم النبيين، وأنهم من ناوءوا عليا وتعدوا على حقه في الإمامة. كما أخذ عن الفرس – الذين كانوا يحتلون في صدر الإسلام بلاد اليمنى موطنه الأصلي – نظرية الحق الإلهي، بمعنى أن عليا هو الخليفة بعد النبي وأنه يستمد الحكم من الله. وبذلك هيأ العقول إلى الاعتقاد بأن عثمان أخذ الخلافة بغير حق من علي وصي رسول الله. وبهذا أيضا أستطاع ابن سبأ أن يؤلب الناس على عثمان وعلى ولايته فقال لهم : " إن عثمان أخذها بغير حق، وهذا وصي رسول الله صلي الله عليه وسلم، فانهضوا في هذا الامر فحركوه، وأبدءوا بالطعن على أمرائكم، وأظهروا الامر بالمعروف والنهي عن المنكر تستميلوا الناس، وادعوهم إلى هذا الأمر " [4].

---

(١) الطبري (١ : ٢٩١٦) وما يتبعها من حوادث سنة ٣٢ هـ .

(٢) الطبري (١ : ٢٩٢٢)

(٣) سورة ٢٧ آية ٨٥

(٤) الطبري (١ : ٢٩ ٤٢)

هذا، ولم يكن يصعب على ابن سبأ أن يقوم بتنفيذ سياسته في مصر، حيث اشتد سخط الناس على عثمان وعلى عبد الله بن سعد أبي سرح عامله على مصر ومن ذوي قرباه. ولقد ساعد على إذكاء نيران السخط في مصر عاملان قويان : هما مُحَمَّد بن أبي حذيفة ومُحَمَّد بن أبي بكر. ولا غرو فقد ساعد انضمامهما لهذه الحركة على نجاح ابن سبأ في سياسته.

أما السبب في انضمام مُحَمَّد ابي بكر، فهو ما كان من صلة النسب بينه وبين على بن أبي طالب وابنه الحسين بن على، فقد تزوج على بأسماء بنت عميس أم مُحَمَّد بن أبي بكر بعد وفاة أبيه ؛ فكان ابن ابي بكر ربيبا في بيت على ؛ ولان الحسين بن على ومُحَمَّد بن أبي بكر كانا زوجي أبنتي يزدجرد الثالث آخر ملوك بني ساسان من الفرس.

وأما مسلك ابن أبي حذيفة العدائي لعثمان، فقد ظهر أثره فيما شجر بينه وبين ابن أبي سرح في غزوة السوارى – أو ذات السواري – التي نشبت بين المسلمين والبيزنطيين سنة ٣١ هـ (٦٥١ م).

وإنما سميت بهذا الاسم لكثرة سوارى السفن التي اشتبكت في المعركة، حتى قيل إنه اشترك فيها ألف سفينة، منها مائتان للمسلمين. فقد اختلف معه في هذه الموقعة على التكبير في الصلاة حين صلى لبتن أبي سرح العصر بالناس ؛ فرفع ابن أبي حذيفة صوته بالتكبير، فنهاه ابن أبي سرح فلم ينته. ولما أقيمت صلاة المغرب رفع صوته بالتكبير ثانية ؛ فنهره ابن أبي سرح وهم بطرده من –جيشه

. ومنى ثم أخذ ابن أبي حذيفة في إثارة الناس على عثمان وعلى ولايته. ولما وضع٧ت الحرب أوزارها، رجع هو ومُحَمَّد بن أبي بكر الى الفسطاط ؛ وهان انضما الى ابن سبأ. (١)

ولقد أدلى لنا المقريزي بالسبب الذي حدا بابن أبي حذيفة أنى يسلك هذا المسلك العدائي نحو عثمان، فقال إن أبن أبي حذيفة تربي في كنف عثمان بعد وفاة أبيه ؛ فلما ولى

(١) الطبري : طبعة مصر (ج ٥ ص ٧٠ –ة ٧١) .

عثمان الخلافة، طلب إليه أن يوليه بعض أمور المسلمين، فأبي ذلك عليه، إذا نمى إليه أنه شرب الخمر [1]، فقال له : " لو كنت رضا لوليتك، ولكنك لست هناك ".

ولقد وافانا المقريزي [2] بشئ عن سيرة ابن أبي حذيفة في مصر، ننقله للقارئ فيما يلي : " انتبز مُحَمَّد بن أبي حذيفة في شوال سنة خمس وثلاثين على عقبة بن نافع خليفة ابن أبي سرح، وأخرجه من الفسطاط ؛ ودعا إلى خلع عثمان من البلاد، وأسعر البلاد. فكان يكب الكتب على لسان أزواج النبي صلي الله عليه وسلم، ثم يأخذ الرواحل فيضمرها، والرجال فيجعلهم على ظهور البيوت، فيستقبلون بوجوههم الشمس لتلوحهم تلويح المسافر ؛ ثم يأمرهم أن يخرجوا إلى طريق المدينة ومصر، ثم يرسلون رسلا يخبرون الناس ليلقوهم ؛ وقد أمرهم إذا لقيهم الناس أن يقولوا : ليس عندنا خبر، الخبر في الكتب، ثم يتلقاهم ابن أبي حذيفة فيقرأ عليهم كتب أزواجي النبي ".

وقد حاول عثمان أن يصلح بينه وبين ابن ابي حذيفة ؛ ولكن هذا آلى على نفسه أن يواصل سياسية العنف والشدة. وقد بعث إليه عثمان بثلاثين ألف درهم وكسوة ؛ فانتهز ابن ابي حذيفة وصول هدية عثمان فرصة سانحة ليظهر للناس أن هذه الحركة التي قام بها حركة دينية، بعيدة البعد كله عن كل غرض دينوي. فأظهر الهدية للناس في المسجد وقال : " يا معشر المسلمين ! ألا ترون أن عثمان يخادعني عن ديني ويرشوني (يرشيني في الأصل) عليه ؟ ".

وكان لهذه الدعوة أغراض ومرام خبيثة ؛ فقد زادنا المقريزي أن أهل مصر أزدادوا تعظيماً لابن أبي حذيفة وطعنا على عثمان، وبايعوه على رياستهم. [3]

ولا شك في أن الحالة في البصرة والكوفة ومصر أصبحت من الحرج، بحيث لم تعد تدعو إلى شيء من الطمأنينة. ولهذا ندب عثمان أربعة من رجاله ليبحثوا عن أسباب هذه

[1] المقفى الكبير للمقريزي ، مكتبة الجامعة بليدن ، مخطوط ١٣٦٦ ، المجلد الأول ، ورقة ٢٠٦ل (أ) .

[2] خطط (ج ٢ ص ٣٣٥) . وقد وردت هذه العبارة أيضا بتصرف في كتاب المقفي الكبير الموجود بمكتبة الجامعة بليدن ، مخطوط ١٣٦٦ ، المجلد الاول ورقة ٢٠٥ (ب) .

[3] المقفي الكبير للمقريزي ، ليدن ، المجلد الاول ، ورقة ٢٠٦ (أ) .

القلاقل ويقفوا على حقيقة الحال في الولايات. فأرسل مُحَمَّد بن مسلمة إلى الكوفة، وأسامة بن زيد إلى البصرة، وعبد الله بن عمر إلى الشام، وعمار بن ياسر إلى مصر ؛ وهو أحدى أصحاب رسول الله ومن السابقين إلى الإسلام، وممن عرف لهم النبي صدق الإيمان [1].

عاد الذين ندبهم الخليفة إلا عمار بن ياسر ؛ فقد استماله الثائرون في مصر [2]. وساعد على ذلك ما كان من عثمان لعمار، حيث أدبه لقذف حصل بينه وبين عباس بن عتبة بن أبي لهب. وإن انضكمتم صحابي جليل كعمار، يبين مبلغ السخط الذي أثارته سياسة الضعف واللين التي سار عليها عثمان بن عفان.

ولا شك في أن ابن سبأ قد حقق ما حكان يرمي إليه من بذر بذور الاستياء والسخط نحو عثمان وولايته، وكانوا متن ذوى قرباه، وأن دعوته قد آتت أكلها. وليس أدل على صحة هذا القول من انضمام كثيرين من أصحاب النفوذ والجاه إلى صفوفه، من أمثال مُحَمَّد بن أبي حذيفة، ومُحَمَّد بن أبي بكر وعمار بن ياسر.

ولا غرو فقد قام ابن أبي حذيفة بتنفيذ الخطة التي رسمها ابن سبأ ؛ فكاتب أهل مصر أشياعهم من أهل البصرة والكوفة، واتفقوا على الشخوص إلى المدينة [3] ؛ وهو ما يمكن تسميته بدور العمل. وخرج كل منهم في ستمائة رجل، وتوافوا خارج المدينة ؛ وهنا اختلفوا فيمن يولونه الخلافة بعد عثمان. فمال أهل البصرة إلى طلحة، واهل الكوفة إلى الزبير، ورغب أهل امصر وعلى رأسهم ابن سبأ إلى على بن ابي طالب ؛ وعمل كل فريق على أن يتم الامر له ولمن وقع اختياره عليه دون غيره [4].

لم يمض زمن طويل حتى فاز المصريون أنصار أبن سبأ × فقتل عثمان في الثامن عشر من ذي الحجة سنة ٣٥ هـ (٦٥٥ م)، وتولى على بن أبي طالب الخلافة (في الخامس

---

[1] ذكر ابن حجر في كتابه " الإصابة في تمييز الصحابة " (ج ٤ ص ١٢٢٠) أن الهندبي قال : " أقتدوا بالذين من بعدى : أبي بكر وعمر ، واهتدوا بهدى عمار (بن ياسر) .

[2] الطبري (١ : ٢٩٤٣ و ٢٩٤٤)

[3] الطبري (١ : ٢٩٥٠)

[4] شرحه (١ : ٢٩٥٥)

والعشرين من هذا الشهر). .فكان ذلك أول فصول هذه المأساة، وما أعقبها من تحزب المسلمين وانقسامهم إلى سنيين وشيعيين.

عقيدة ابن سبأ الشيعية وألوهية على :

والآن نعود إلى الكلام على حياة ابن سبأ من حيث اتطور عقيدته الشيعية في خلافة على وبعدها :

ذكر ابن حزم ان قوما من أصحاب عبد الله بن سبأ أتوا عليا وقالوا له : " أنت هو ! "ى فقال لهم : " ومن هو ؟ " فقالوا : " أنت الله ! " فغضب على وأظهر الجد، وأمر بنار فأوقدت، وأمر مولاه قنبر بأن يلقى بهؤلاء الرجال فيها ؛ فجعلوا يقولون وهم يلقون في النار : " الآن صح عندنا أنه الله، لأنه لا يعذب بالنار إلا الله ".

وقد زادنا ابن حزم أن عليا أشار إلى هذه الحادثة في هذا البيت :

لما رأيت الامر أمرا منكرا   أحجبت نارا ودعوت قنبرا [١]

فكان من أثر هذا الغلو في العقائد الدينية أتن أمر على بابن سبأ فنفى إلى المدائن [٢]. بيد أن هذا لم يكن ليثني ابن سبأ عن مواصلة الدعوة لعلى، حتى إذا ما مات على قالت الطائفة البئية برجعيته وتوقفه [٣]، أو انتظار رجوعه، وبحلول الجزء الإلهي فيه.. ولقد ذهبوا ايضا إلى القول بأنه يجيئ في السحاب، وأن الرعد صوته والبرق سوطه (أو تبسمه أو نوره على ما ذهب البعض)، وأنه سينزل بعد ذلك إلى الارض فيملؤها عدلا بعد أن ملئت جورا وظلما [٤].

---

[١] قنبر مولى على بن أبي طالب الذي رمى هؤلاء الرجال في النار (ابن حزم : الممل والنحل ج ٤ ص ١٨٦)

[٢] الشهرستاني (ج ٢ ص ١١) والعقد الفريد (ج ٤ ص ٢٦٩)

[٣] قال ابن سبأ لما بلغه قتل على " لقو أتيتمونا بدماغه سبعبن مرة ، ماصدقنا موته ؛ ولا يموت حتى يملأ الأرض عدلا كما ملئت جورا – ابن حزم (ج ٤ ص ١٨٠)

[٤] الشهرستانى (ج ٢ ص ١١)

٢- الدعوة السرية للهاشميين أيام بنى أمية

لقد نال معاوية الخلافة بحد السيف طورا، وبالمكيدة والسياسة طورا آخر، لا بأجماع من المسلمين ورضى منهم : ذلك أن العرب دعوا إلى الحسن بن على بعد موت أبيه ؛ إلا أن خلافته لم يطل أمدها [١]، لما أشيع من انهزام جيوشه أمام جند الشام، وتخلى أهل العراق عنه ؛ فلم يجد بدا من النزول عن الخلافة، ناظرا إلى صلاح الأمو وحقن الدماء [٢]

على أن الدافع الحقيقي الذي دفع بالحسن إلى النزول عنها إنما يرجع — على ما ذهب إليه اليعقوبي [٣] – إلى أنه لم يعد بحيث يستطيع مناوأة معاوية. ولقد انتهى هذا النزول بإبرام معاهدة الصلح بين الحسين ومعاوية، تلك المعاهدة التي جعلت معاوية صاحب السلطان المطلق في كافة الولايات الاسلامية. وفي الخامس والعشرين من ربيع الثاني سنة ٤١ [٤] دخل معاوية الكوفة [٥].

وفي خلافة يزيد وصلت إلى الحسين كتب [٦] أهل الكوفة يحرضونه فيها على الرحيل إليهم ؛ فلم يعتبر الحسين بما فعله أهل الكوفة مع أبيه وأخيه من قبل، بل ولم يعد قول الفرزدق الشاعر المشهور، حين سأله الحسين عن أهل الكوفة، وكان الحسين، وكان الحسين في طريقه إليها : " خلفت قلوب الناس معك وسيوفهم مع بني أمية عليك " [٧].

ولقد صدق الفرزدق. فإنه في التاسع من المحرم سنة ٦١ هـ (٦٨٠ م) قاتل الحسين على رأس فئة قليلة لم يبلغ عددها ثمانين رجلا ؛ فأوقع بهم العدو في كربلاء في العاشر من

---

[١] ذكر المسعودي ، مروج الذهب (ج ٢ ص ٣١) أن عليا مات في العشرين من رمضان سنة ٤٠ هـ (٦٦٠ م) ، واستخلف بعده ابنهى الحسن في الخامس والعشرين من هذا الشهر ، فظل في الخلافة إلى أن نزل عنها في مستهل ربيع الاول (ليست عبارة المسعودي صريحة أن هذا النزول تم في شهر ربيع الأول أو ربيع الثاني) .

[٢] النسيبي ، ليدن ، مخطوط ١٩٧٩ ، ورقة ٩٣ (ب) .

[٣] (ج ٢ ص ٢٥٥)

[٤] المسعودي ، " مروج الذهب " (ج ٢ ص ٣٦)

[٥] ليدن ، مخطوط ١٦٤٧ ، ورقة ١٣٥ (ب) .

[٦] قيل أن الحسين تسلم نحوا من مائة وخمحسين كتابا من مختلفى الجماعات (ليدن ، مخطوطى ١٩٧٩ ، ورقة ١٢ (ب) ، ومخطوط ١٦٤٧ ، ورقة ١٤٥ ا) ، وكان ذلك في شهر ذى الحجة سنة ٦٠ (٦٨٠ م) .

[٧] المسعودي ، مروج الذهب (ج ٢ ص ٦٥)

المحرم، وأبادهم عن آخرهم.

ولقد علق الأستاذ براون على موقعة كربلاء بقوله : " إن فريق الشيعة أو حزب على كان – على ما رأينا – ينقصه الحماسة وبذل النفسي. بيد أن هذا كله قد تبدل منذ ذلك الحين، وغدت ذكرى ميدان كربلاء الملطخة بدماء ابن بنت النبي، مع ما قاساه من شدة العطش وإحاطته بجثث ذوى قرباه، كل ذلك غدا منذ هذا الوقت كافيا لأن يثير عاطفة الحماسة التي كانت على أشد ما تكون، و الاحزان التي تملكت النفوس – حتى عند= أكثر الناس فتورا وتراخيا – وأصبحت هذه الروح التي لا تبالي بالآلام والأخطار، بل وزلا بالموت، ترى كل هذه ترهات لا تساوى التفكير فيها " (١).

ويجدر بنا أن نقتبس أيضا ما ذكره الأستاذ نيكلسن حيث يقول في هذا الصدد : " لقد أتخذ بنو أمية من واقعة كربلاء سببا كافيا يدعوهم إلى أن يعضوا يد الندامة على ما جنت أيديهم ؛ إذ أن هذا اليوم وحد صفوف الشيعة، فصاحوا صيحة واحدة : الاخذ بثأر الحسين ! – هذا النداء الذي دوى في كل مكان، وعلى الأخص عند الموالى من الفرس الذين تاقوا إلى الخلاص من نير العرب " (٢).

ومن هان نشأت فرقة التوابين الذين ندموا على ما فرطوا في جنب الحسين، ورأوا أن لا توبة لهم إلا بالأستماتة في سبيل الأخذ بثأر الحسين وأهل بيته. وقد تتبعوا قتلته واستأصلوهم.

هاتان العبارتان تصفان حال الأمة العربية وصفا دقيقا. فإن هذا النزاع الذي احتدم بين هذين الحزبين لم ينته بموت الحسين وانهزام أشياعه ن بل على العكس من ذلك، قد زاد في الدعوة لآل على قوة، حتى إن العداء بين الأمويين والعلويين أصبح أشد خطرا وأعظم احتداما عن ذي قبل.يؤيد هذا القول ما كان من رد ابن عفيف على ابن زياد عامل الكوفة، حين صعد المنبر بعد ذي قبل. يؤيد هذا القول ما كان من رد ابن عفيف

---

(١) Browne : literarty history of l ersis , vol . vol . l , p . 226 seq

(٢) Nicholson : literary history of the arabs , p . 198

على ابن زياد عامل الكوفة، حين صعد المنبر بعد وفاة الحسين وخطب الناس خطبة جاء فيها : " الحمد لله الذي أظهر الحق وأهله، ونصر أمير المؤمنين يزيد (بن معاوية) وحزبه، وقتل الكذاب ابن الكذاب وشيعته ".

بيد أن شعور العداء عند الشيعة اخذ يثور بركانه بعد واقعة كربلاء لأوهى الأسباب؛ ذلك انه بعد أن فرغ هذا الأكمير من كلامه، انبرى له عبدالله بن عفيف الأزدي يفند قوله في هذه الكلمات المملوءة حنقا المفعمة سخطا على بني أمية وولايتهم فقال : " يا عدو الله ! إن الكذاب أنت وأبوك والذي ولاك وأبوه، تقتل أولاد النبيين وتقوم على المنبي مقام الصديقين " ؟ (١)

ابن الزبير وابن الحنفية :

دعا عبد الله بن الزبير إلى نفسه في سنة ٦٣ للهجرة، فصادفت دعوته نجاحا عظيما في بلاد العرب والعراق. على أن مُحَمَّد بن الحنفية بن على بن أبي طالب أبي مبايعة ابن الزبير — وكان قد بايع يزيد بن معاوية — ففت ذلك في عضد ابن الزبير، وساعد على ظهور حزب جديد : هو حزب الكيسانة الذي قام في الكوفة بالدعوة إلى مُحَمَّد بن الحنفية بعد قتل الحسين في موقعة كربلاء.

إن حياة ابن الحنفية لحياة حافلة عجيبة ؛ فقد أسم يمين الطاعة ليزيد حين ولاه أبوه العهد ولما ولي يزيد الخلافة دعا ابن الحنفية لزيارته في دمشق، حيث تلقاه بكل مظاهر الإجلال، وأكرمه الإكرام كله وأمر له بثلاثمائة ألف درهم (وفي رواية أخرى خمسمائة ألف درهم) وعروض بمائة ألف(٢).

---

(١) ابن النعمان ، ليدن مخطوط ١٦٤٧ ، ورقة ١٥٠ ا

(٢) المقريزي ، التاريخ الكبير المقفى ، ليدن مخطوط ١٣٦٦ ، المجلد الثاني ، ورقة ١٢٧ ب

المختاروالكيسانية [1] :

[1] تنسب الطائفة الكيسانية على رواية الطبري (طبعة دى غويه ۱ : ۲۳۹۳) ، والبغدادي (الفرق بين الفرق ص ۲۷) ، والشهرستاني (الملل والنحل ج ۱ ص ۱۹٦) ١غلى كيسان مولى على ابن أبي طالب الذي قتل في موقعة صفين سنة ۳۷ هـ وتنسب هذه الطائفة ، على ما أورده المسعودي (مروج الذهب ، طبعة بولاق ج ۲ ص ۷۹) وابن عبدربه (العقد الفريد ج ۱ ص ۲٦۹) إلى المختار بن أبي عبيد . ولكن كلام المسعودي لا يعتمد عليه غير جازم بذلك اذ يقول " أو هو غير المختار " .

على أننا نجد كثيرا من المؤرخين يفرقون بين كيسان والمختار ، فيقول ابن حزم : (الفيصل في الملل والاهواء والنحل ج ٤ ص ٩٤) ان هناك شخصين مختلفين ، هما المختار بن أبي عبيد وكيسان أبو عمرة . ويقول الشهرستاني (ج ۱ ص ۱۹٦) ، أن هناك طائفتين مختلفتين ، هما الكيسانية والمختارية : الأولى تنسب إلى كيسان مولى على ، والثانية إلى المختار بن أبي عبيد .

وذكر الطبري (۲ : ٦٧١) في مكان آخر ، أن أبا عمرة كيسان مولى بجيلة هو رئيس شرطة المختار بن أبي عبيد . ووافق على هذا أحمد بن يحيى بن المرتضى (كتاب غايات الأفكار ، مكتبة المتحف البريطاني ، مخطوط ۳۷۷۲ ورقة ۱۳۷ ب) . على أن ابن المرتضى لدين الله لم يجزم بذلك حيث قال كما قال الطبرى (۲ : ۱۳۹۳) : ويقال أن لفظ كيسان يطلق على مولى على بن أبي طالب .

وقد يؤخذ بما ذكره الطبري لولا ما جاء في رواياته من تناقض وتضارب ، مما يجعل الاهتداء إلى أصل الطائفة الكيسانينة بعيدا كل البعد على أن هذا الاهتداء يمكن الوصول إليه من مصدرين آخرين : هما كتاب الطبقات لابن سعد (۲۳۰ هـ و ٨٤٤ م) (ج ٥ ص ۷۷) وكتاب الاخبار الطوال للدينوري (۲۸۲ أو ۲۹۰ هـ و ۸۹٥ أو ۹۰۳ م) ، طبقة ليدن (ص ۲۹٦ — ۲۹۷) .

فقد أتى ابن سعد باسم أبي عمرة كيسان ضمن أسماء غيره من الرجال الذين شهدوا بان ابن الحنفية سمح للمختار بان يبث الدعوة باسمه (ابن الحنفية) ، وان كان هذا القول مشكوكا فيه لأنه غير ثابت تاريخيا بأن ابن الحنفية مالأ المختار ابن أبي عبيد ، بل عرف أنه بايع يزيد بن معاوية لأنه لم يكن يثق بأهل الكوفة .

وقد روى الدينوري عن الشعبي في سياق كلامه على المختار عبارة تدل صراحة على أن المختار وكيسان شخصان مختلفان .

والشعبي هذا من أكابر المحدثين والفقهاء ، وهو مشهور بالورع وصدق القول وتحرى النقل . قال الدنيوري : " وكان على الكوفة يومئذ من قبل عبدالله بن الزبير ، عبدالله بن مطيع ؛ فأرسل ابن مطيع إلى المختار يقول : ما هذه الجماعات التي تغدو وتروح إليك ؟ فقال : المختار مريض يعاد . فلم يزل كذلك حتى قال له نصحاؤه : عليك بإبراهيم بن الأشتر فاستمله ، فانه متي شايعك على أمر ظفرت به وقضيت حاجتك ز فأرسل المختار إلى جماعة من أصحابه ، فدخلوا عليه وبيد صحيفة مختومة بالرصاص ، فقال الشعبي : وكنت فيمن دخل عليه ، فرأيت الصاص يلوح ، فظننت أنه انما خم من الليل ، فقال لنا : انطلقوا بنا حتى نأتي إبراهيم بن الأشتر . قال فمضينا معه ، وكنت أنا وزيد بن أنس الأزدي ، وأحمد ابن سليط ، وعبدالله بن كامل ، وأبو عمرة كيسان مولى بجيله الذي يقول الناس قد جاوره أبو عمرة ، وكان من بعد ذلك على س\شرط المختار " .

ولقد حاول فريد ليندر (**friedlaender**) في تعليقه على " شنع الشيعة على ما جاء في كتاب ابن حزم " (**heterodoxies of the Shiites in the presentation of ibn hazm**) المنشور في مجلة الجمعية

لقد فت إباء ابن الحنفية عن الدخول فيما قام به عبدالله بن الزبير في عضد هذه الدعوة، وهيأ للمختار فرصة سانحة لتكوين حزب شيعي جديد، هو حزب الكيسانية. بيد أن المجهودات التي بذلها المختار لم تلق عطف ابن الحنفية وتأييده، لأنه لم يكن يثق بأهل الكوفة الذين خذلوا أباه وأخويه من قبل [١].

وقامت ثورة المختار بن أبي عبيد في خلافة عبد الملك بن مروان (سنة ٦٥ – ٨٦ هـ، ٦٨٥ –٧٠٥ م). ولقد قارن فان فلوتن (van vloten) بين مذهب البئية ومذهب الكيسانية فقال : " يظهر أن عقيدة السبئية قد بنيت على الرأي القديم القائل بتجسيد الألوهية. وزاد هذا المؤرخ على ما تقدم بأن السبئية يختلفون عن الحزب الشيعي الآخر،

الامريكية الشرقية في العدد التاسع والعشرين (journal of the American oriental society , vol , xxxix . pp . 29 – 30) الاهتداء إلى أصل الكيسانية . وبالرغم من أن هذا الكتاب أخذ عن غير " الملل والنحل " لابن حزم ، فانه قال إن " ما ذكره ابن حزم عن هذه المسألة ، هو بلا شك القول الصحيح حقا من بين أقوال المؤرخين على اختلافهم " .

على أن ابن حزم (ج ٤ ص ١٧٩) إنما قال إن الكيسانية هم أنصار المختار بن أبي عبيد . وهذا لا يستلزم أن الكيسانية هم المختارية ، لأنه لا توجد ثمة صلة بين لفظ المختار ولفظ الكيسانية . وعليه فانه من المحتمل كثيرا أن يكون لفظ الكيسانية نسبة إلى كيسان مولى بجيلة ورئيس حرس المختار ، ويبعد أن يكون نسبة إلى كيسان مولى على ، لأنه مات قبل قيام الكيسانية بنحو ثلاثين سنة . يضاف إلى ما تقدم أن ابن حزم (ج ٤ ص ٩٤) قد ميز بجلاء ووضوح بين لفظي المختار وكيسان عند الإشارة الى الطائفة الكيسانية في سياق كلامه على الإمام الثاني عشر فقال : وكان رئيسهم المختار بن أبي عبيد ، وكيسان أبو عمرة وغيرهما يذهبون إلى أن الامام بعد الحسين هو أخوه مُحَّمد المعروف بابن الحنفية ز وعليه فان ما أورده ابن سعد والدينورى – لابن حزم أو غيره – هو القول الصحيح .

[١] ذكر المقريزي في كتابه " المقفي الكبير " (ليدن ، مخطوط ١٣٦٦ ، المجلد الثاني ، ورقة ١٢٨ ا) أن فريقا من أهل الشام ، وعلى رأسهم مسلم بن عقبة المرى ، ساروا إلى الحجاز لقتال أنصار ابن الزبير ، وأن فريقا آخر ممن شايعوه ابن الزبير في الكوفة ، وعلى راسهم عبدالله بن مطيع عامل ابن الزبير على الكوفة وعبد الله بن عمر ابن الخطاب ، اءوا إلى مُحَّمد بن الحنفية فقالوا له : اخرج معنا نقاتل يزيد ، فقال : على ما ذا أقاتله ولم أخلعه ؟ قالوا : إنه كفر ... وشرب الخمر . فقال لهم : ألا تتقون الله ، هل رآه أحد منكم يفعل ما تذكرون ، وقد صحبته أكثر مما صحبتموه فما رأيت به سوءاً ؟ قالوا : أنه لم يكن يطلعك على فعله . قال : أفاطلعكم أنتم عليه ؟ فخافوا أن يثبط قعوده الناس عن الخروج ، فعرضوا عليه أن يبايعوه إذ كره أن يبايع أبن الزبير ، فقال : لست أقاتل تابعا أو متبوعا . فقالوا : قد قاتلت مع أبيك . قال : وأين مثل أبي اليوم ؟ فأخرجوه كارها ومعه بنوه مسلحين ؛ فحمل أهل الشام عليه ، فضارب بنوه دونه ، فقتل ابنه القاسم مُحَّمد ، وضرب أبو هاشم قاتل أخيه فقتله ؛ ثم خرج أبن الحنفية إلى مكة من فوره " .

وهو حزب الكيسانية الذي ظهر في بادئ أمره بالكوفة تحت زعامة المختار [١]. وبالرغم من عقيدتهم الاصلية، وهى القول بإمامة مُحَّد بن الحنفية بعد على أبيه، فإن الكيسانية يغالون في اعتقادهم بمحمد بن الحنفية وبإمامته، وبإحاطته بالعلوم كلها " [٢]. اذ اقتبس من اخويه الحسن والحسين الأسرار، وأحاط بعلم التأويل والباطن [٣]

ويعتقد الكيسانية في البدء، بمعني أن الله سبحانه وتعالى يغير ما أراد ؛ وفي تناسخ الأرواح، وهو خروج الروح من جسد وحلولها في جسد آخر ؛ وفي الرجعة، أي رجعة مُحَّد بن الحنفية ؛ كما يعتقدون أيضاً بنبوه على والحسن والحسين وابن الحنفية. على أنهم يختلفون في أن ابن الحنفية ورث الإمامة من على مباشرة، أو عن طريق أخويه الحسن والحسين.

أما عن الرجعة فقد أنكر جماعة من الكيسانية موت أبن الحنفية ؛ واستفزتهم الاخبار

---

[١] كان المختار بن أبي عبيد ممن بايعوا ابن الزبير ، وقد أوفده ابن الزبير إلى الكوفة ليبث الدعوة باسم الطالبين . على أن المختار لم يلبث أن خلع طاعة ابن الزبير ودعا لابن الحنفية . أنظر " مروج الذهب " للمسعودى ، (ج ٢ ص ٥٥ – ٧٧) . وقد ذكر الشهرستاني (ج ٢ ص ١٢) أن الكيسانية بنوا معتقداتهم على معتقدات المجوس المزدكية (ظهرت هذه الطائفة في بلاد الفرس قبل ظهور الإسلام – في القرن الخامس الميلادى) ، والبراهمة في الهند ، والفلاسفة القدماء والصابئين .

[٢] أنظر كتاب فان فلوتن (van vloten : recherches sur la domination arabe , le chutisme , eto ., p . 41) ، مقتبسا من كتاب mokhtar تأليف van golder (ص ٨٢ وما يتبعها) . لقد قيل أن ابن الحنفية تبرأ من هذا الاعتقاد ، وحذا حذوه غيره من الائمة . ولقد أصاب فان فلوتن في تعليقه على ذلك بقوله : وهنا يتساءل المرء : بأي مظهر من مظاهر الترحاب قابل الأئمة هذه المعتقدات المغرقة في الغلو ، التي كانت أشخاصهم السبب في ظهورها ؟

ولا غرو فان عليا أنكر على السبئية هذه الصفات التي نسبوها إليه ، ورمى في النار من دعوه إلها ، ونفى عبد الله بن سبأ إلى المدائن . ثم جاء ابنه مُحَّد بن الحنفية ، فشارك أباه في عواطفه وآرائه الدينية ، فتبرأ ممن اعتقدوا في إحاطته بعلم التأويل والباطن . يدلك على صحة هذا القول ما ذكره ابن سعد في كتابه " الطبقات الكبير " (ج ٥ ص ٧٧) ، أن ابن الحنفية لما علم باعتقاد الطائفة الكيسانية ان آل على يلمون بجميع العلوم قال : " والله ما ورثنا من رسول الله إلا ما بين هذين اللوحين (يعني القرآن ، ثم قال : اللهم حلا ، وهذه الصحيفة في ذؤابة سيفي " .

وهذا التصريح من أبن الحنفية يدل دلالة واضحة على أن آل على لم يختصوا بميراث شيء عن النبي صلي الله عليه وسلم ، وأنهم لم يرثوا إلا ما ورثه عامة المسلمين .

[٣] البغدادي : الفرق بين الفرق (ص ٣٦) ، والشهر ستاني : الملل والنحل (ح ٢ ص ١٩٦ – ١٩٨)

التي ذاعت عن موته، فاعتقدوا أنه يقيم في جبل رضوى (على مسيرة سبعة أيام من المدينة) [١]، وأن عودته ستكون من هذا المكان. ولقد جعل كثير عزة والسيد الحميري هذا الاعتقاد مثارا لنظم أشعارهما، حتى إذا هذا النوع من الشعر يعرف بالشعر الكيساني. وفي ذلك يقول كثير عزة المتوفي سنة ١٠٥ هـ (٧٢٣ م) :

ألا إن الأئمــــة مــــن قــــريش	ولاة الحـــــق أربعـــــة ســــواء
علـــي والثلاثـــة مـــن بنيـــه	هـــم الأســباط لــيس بهــم خفــاء
فســـبط ســـبط إيمـــان وبـــر	وســـبط غيبتـــه كـــر بـــلاء
وســبط لا يــذوق المــوت حــتى	يقـــود الخيـــل يتبعهـــا اللـــواء
تغيـــب لا يـــرى عـــنهم زمـــاناً	برضـــوى عنـــده عســـل ومـــاء

ويقول السيد الحميرى المتوفي سنة ١٧٣ هـ (٧٨٩ – ٧٩٠ م)، وكان كيسانيا :

ســـنين وأشـــهر ويـــرى برضـــوى	بشـــعب بـــين أنمـــار وأســـد
مقـــيم بـــين آرام وعـــين	وحفـــان تـــروح خـــلال ربـــد
تراعيهـــا الســـباع ولـــيس منهـــا	ملاقـــيهن مفترســـا بحـــد
أمـــن بـــه الـــردى فـــرتعن طـــورا	بـــلا خـــوف لـــدى مرعـــى وورد

وإن هذه الابيات لتمثل عقيدة السيد الحيري في مُحَّد بن الحنفية، من أنه قام بشعب من شعاب رضوى سنين وأشهرا كثيرة، ومن حوله الانمار والآساد، والظبباء وبقر الوحش، وأنواع الشاء، من غير أن يعدو أسد عليها بظفر أو بناب، لاحترامها له وتقديسها إياه.

ويعتقد الكيسانية أن الدين طاعة رجل ؛ حتى حملهم هذا الاعتقاد على تأويل الشريعة. وقد حمل هذا الاعتقاد البعض على القول بأن طاعة رجل تبطل ضرورة التمسك بالشريعة (مثل ذلك الاعتقاد في القيامة) ؛ إذ يستطيعون بذلك أن يتعلموا من هذا الرجل أركان الشريعة الإسلامية، كالصيام والصلاة والحج وغيرها [٢].

ولقد تكلم فان فلوتن عن الإمام حسب معتقدات السبئية والكيسانية فقال : " إذا

---

[١] انظر لفظ رضوى في معجم البلدان لياقوت .

[٢] الشهر ستاني (ج ١ ص ١٩٦) .

كان السبئية يعتبرون إمامهم شخصا مقدسا بطبيعته، فإن الكيسانية يبذلون له الطاعة كرجل رفيع المنزلة ؛ محيط بعلوم ما وراء الطبيعة **si les sabaia consideraient leur imam comme un etre divin par sa nature، les kaisania lui pretaient obeisance comme a un home superieur possedant des connaissances surnaturelles)**

هذا موجز عما بثه المختار بن أبي عبيد في نفوس الشيعة الكيسانية من عقائد وبدع لا يخفى بطلانها وبعدها عن تعاليم الدين الإسلامي. أما ما كان من أعماله الحربية، فانه أستولى على الكوفة، ونال ممن كانت لهم يد في موقعة كربلاء.

على أن انتصار المختار كان قصير أمده. فان قواد ابن الزبير قد نجحوا فب الإيقاع بالمختار وقتلوه (سنة ٦٧ هـ و ٦٨٦ م). ثم انهزم بعد ذلك ابن الزبير على يد الحجاج بن يوسف الثقفي (جمادي الثانية سنة ٧٣ هـ ٦٩٢ م) الذي أستولى على مكة، وقتل المختار في الكوفة ؛ فرجع للدولة الاموية سلطانها على كافة الولايات الإسلامية.

٣ – الدعوة السرية للعباسيين أيام بني أمية

من الضروري أن نبحث في هذا الصدد عن حادثة في تاريخ الشيعة : هي انتقال حق الخلافة من بيت على إلى بيت العباس على يد أبي هاشم بن مُحَمَّد بن الحنفية ؛ وهو ما يمكن أن نطلق عليه " ميراث الكيسانية ".

وذلك أنه في سنة ٩٨ هـ (٧١٦ م) مات أبو هاشم، وهو عميد الشيعة الكيسانية. وقبل موته بقليل، استدعاه الخليفة الاموي سليمان بن عبدالملك [١] ٩٦ – ٩٩ هـ (٧١٤ – ٧١٧ م) إلى دمشق، حيث تلقاه بكل حفاوة واكرام. بيد أن هذا الخليفة دبر أمر موت أبي هاشم – على ما قيل – لما رآه من ذلاقة لسانه وفكاهته وشخصيته الجذابة ؛ فخاف أن يدعو إلى نفسه ويجد من مواهبه أكبر معين على نجاحه ؛ فدس له هذا الخليفة من قعد له طريق الحميمة بلبن مسموم، وتلطف له حتى سقاه منه وهو في طريقه

---

[١] يقول المقريزي في كتابه " المقفي الكبير " (ليدن ، مخطوط ١٣٦٦ ، المجلد الثاني ، ورقة ١٣٥ ب) إن الوليد ابن عبدالملك ٨٦ – ٩٦ هـ (٧٠٥ – ٧١٤ م) هو الذي استدعى ابا هاشم ، وهذا خطأ واضح .

إلى إقليم الشراة، حيث كان يقيم مُحَمَّد بن على بن عبدالله بن العباس في الحميمة، وهي قرية صغيرة إلى الجنوب من البحر الميت على مقربة من العقبة.

وقد قيل إن أبا هاشم لما أحس بدنو أجله، عرج على مُحَمَّد بن على العباسي وأفضى إليه بالدعوة وأسرارها، وأمده بكتب يسلمها إلى داعي دعاته في الكوفة وغيره من الدعاة، ونزل له عن حقه في الإمامة، وأوصى بأن تكون لابنه إبراهيم بن مُحَمَّد الملقب بالإمام من بعده [1]، وأن يبدأ ببث الدعوة عند تمام المائة سنة للهجرة (٧١٨ م). ولقد أورد لنا المقريزي في مخطوطه " المقفي الكبير " الموجود في مكتبة ليدن أن أبا هاشم قال لمحمد بن على عندما أفضى إليه بسر الدعوة : " هذا أمر أنت أول من يقوم به، ولولدك آخره "[2].

وبهذا تحول حق الامامة من بيت على إلى بيت العباس بمقتضى وصية أبي هاشم. وقد أجمع المؤرخون على أنه عند تمام المائة سنة للهجرة، قام الأمام مُحَمَّد بن على بتنفيذ وصية أبي هاشم ؛ فأرسل إلى الدعاة يكشف عن السياسة التي ينبغي أن يسيروا عليها [3]. وهنا نتساءل : ما الذي حدا بأبي هاشم إلى أن يحول الخلافة إلى بني عمه، ويترك بني أبيه من العلويين مع كثرتهم وعلو شرفهم ؟

وإذا فرضنا أنه ترك أبناء أبيه لأنه لم يكن حوله حينذاك أحد منهم، فلماذا لم يوص إلى أحد من بني أبيه. ويسلم وصيته إلى أحد أولاد عمه لوصلها إليه ؟ ولعل ذلك لما كان هنالك من اختلاف بين مبادئ الكيسانية شيعة أبي هاشم والإمامية شيعة أولاد فاطمة.

ولقد أدرك الإمام شعور أهالي الولايات الإسلامية المختلفة وميولهم، كما نتبين ذلك من وصفه الدقيق للأهواء والميول التي كانت سائدة بين أهالي الولايات في ذلك الحين. وإنا ناقلون هذا الوصف عن المقدسي ؛ قال الإمام في إحدى خطبه :

---

[1] المسعودي " التنبيه والإشراف " ، طبعة دي غويه (ج ٨ ص ٣٣٨) .

[2] ليدن مخطوط ١٣٦٦ ، المجلد الثاني ورقة ١٣٥ ب .

[3] الطبري (٢ : ١٣٥٣) .

" أما الكوفة وسوادها فشيعة على؛ أما البصرة فعثمانية تدين بالكف ؛ وأما الجزيرة فحرورية [١] صادقة، وأعراب كأعلاج، ومسلمون في أخلاق النصارى ؛ وأما أهل الشام فلا يعرفون غير معاوية وطاعة بنى أمية، وعداوة راسخة وجهل متراكم ؛ وأما مكة والمدينة فقد غلب عليهم أبو بكر وعمر. ولكن عليكم بخرسان، فان هناك العدد الكثير والجلد الظاهر، وهناك صدور سليمة وقلوب فارغة، لم تتقسمها الاهواء ولم تتوزعها النحل ولم يقدح فيها فساد ؛ وهم جند لهم أبدان وأجسام ومناكب وكواهل، وهامات ولحى وشوارب وأصوات هائلة، ولغات فخمة تخرج من أجسام منكرة. وبعد فاني اتفاءل إلى المشرق، وإلى مطلع سراج الدنيا ومصباح الخلق [٢] ".

ويتبين لنا من تلك الخطبة، أنه كان من بين الأسباب التي حملت مُحَمَّد بن علي على اختيار خراسان، هو ما يعلمه من أن قلوب أهلها ل تتأثر بعد بالاختلافات الدينية. على أن هناك سببا آخر قد يكون أبعد أثرا، وإن لم يعلق عليه الإمام أهمية كبيرة في خطبته : ذلك هو تألم الخراسانيين من بني أمية. ولقد صدق فان فلوتن [٣] إذ يقول تعليقا على خطبة الأمام : " ولكن هناك أمرا آخر – وإن لم يدل عليه كلام الإمام – قد جعل اختيار خرسان بوجه خاص اختيار موفقا، ذلك هو أن الخرسانيين الأقوياء الاشداء كانوا يقاسون أسوأ صنوف الاستبداد من نير الامويين ". ولا شك في أن هذا الامر قد سهل على العباسيين القيام بنشر دعوتهم.

أنفذ مُحَمَّد بن على دعاته من الحميمة ؛ فوجه ميسرة إلى العراق. كذلك وجه ثلاثة من الدعاة، أحدهم أبو عكرمة السراج [٤]، وعهد إليهم في نشر الدعوة في خرسان لمحمد بن على بن عبدالله بن العباس وآل بيته. وهناك أخذ هؤلاء الدعاة ينشرون الدعوة للعباسيين

---

[١] هذا اللفظ مشتق من حروراء ، وهي قرية بظاهر الكوفة تبعد عنها بميلين ، نزل بها الخوارج الذين اعتزلوا على بن أبي طالب ، فنسبوا إليها وسموا حرورية (أو خوارج) . أنظر لفظ حروراء في كعجم البلدان لياقوت ، والفرق بين الفرق للبغدادي (ص ٥٧) ، (prof . r , Nicholson : literary of the arabs , p . 209)

[٢] المقدسي : أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم (طبعة دى غويه) (ج ٣ ص ٢٩٣ – ٢٩٤)

[٣] Van vloten , p . 46

[٤] الطبري ٢ : ١٣٥٨ و ١٩٨٨)

تحت طي الخفاء، وظاهر أمرهم التجارة أو الحج إلى مكة.

واختار أبو عكرمة من الدعاة سبعين رجلا، من بينهم اثنا عشر نقيبا ؛ فشمر الكل عن ساعد الجد في بث الدعوة لبني العباس، ولم يبالوا بما لا قوة من ضرب وصلب وقتل وتشريد. وفي سنة ١٠٥ هـ (٧٢٣ م) مات ميسرة، فخلفه رجل ذو بأس وجاه، وهو بكير بن ماهان [١].

وإنه وإن كان هناك من الأدلة ما يثبت صحة قول الإمام بان قلوب الخرسانيين لم تزعزها الاختلافات الدينية، فغنه ينبغي ألا يعزب عن البال وجود فريق يميل إلى العلويين بنوع خاص . ولا غرو فقد هددت جهود غالب، وهو داع علوى متطرف، نجاح الدعوة لبني العباس، وأدت إلى تغيير يذكر في نص تلك الدعوة.

ذلك أنه لما وصلت أخبار غالب إلى مسامع الإمام، بعث هذا إلى خرسان سنة ١٠٦ هـ (٧٢٤ م) بزياد إبي مُحَمَّد مولى بني حمدان، وأوصاه أن يتجنب غالبا ما استطاع. فلما سمع غالب بوصول زياد ، اتاه في مرو، وقامت بين الرجلين مناظر عدائية : هذا ينتصر لبيت العباس، وذاك لبيت على . وكان من وراء عداء غالب أن أصبحت الدعوة بعد ذلك الحين تنص على الرضا من آل مُحَمَّد وبذلك وجد العباسيون، كما يقول الأستاذ نيكلسن [٢]، في هذه اللفظة المبهمة عبارة يمكن تطبيقها على أولاد على والعباس، وبها أيضا أمكن ستر المدعو اليه، حتى لا تناله أيدي بنى أمية. ولم يكن يعلم بشخص المدعو له الا النقباء وخاصة الدعاة، وذلك تسني للعباسيين أن يوجهوا الدعوة اليهم تحت طي الكتمان.

هذا، ولقد قدر للعباسيين الفوز من وراء هذه المجهودات التي بذلها دعاتهم، والتي أدت إلى انضمام كثيرين من ذوى الرأي والجاه، من أمثال سليمان بن كثير، وأبي مسلم الخرساني [٣] ؛ حتى إذا ما مات الإمام مُحَمَّد بن على سنة ١٢٥ هـ (٧٤٢ م) كانت

---

[١] الدينورى : الأخبار الطوال (ص ٣٣٦) ، والطبرى (٢ : ١٣٦٧)

[٢] **Prof : Nicholson : literary history of the arabs , p . 250**

[٣] الدينورى : الاخبار الطوال (ص ٤٤١ – ٤٤٢) ، والطبرى (٢ : ١٧٢٧)

الدعوة العباسية قد قطعت شوطا عظيما في سبيل النجاح. وفي عهد ابنه وخلفه إبراهيم دارت رحي الحرب بين الفريقين ؛ بمعني أن النزاع بين بني امية وبني العباس دخل في طور جديد، وهو دور العمل، وذلك في سنة ١٢٧ هـ، واليك البيان :

في سنة ١٢٨ هـ تسلم أبو مسلم الخرساني مقاليد الأمور في خرسان. وكان من أسباب سقوط الامويين شبوب نار العصبية بين المضرية أو النزارية، وبين اليمانية في خرسان ن وضعف قوة أمير هذه البلاد، وخروج الخوارج في اليمن وحضر موت [١] أما جند خرسان، فان نصر بن سيار أمير هذه البلاد بعث إلى مروان بن مُحَمَّد آخر خلفاء بني أمية يكشف له عن قوة أبي مسلم وضعف جند خراسان ويستمده، وختم كتابه بهذه الأبيات :

أرى بـــين الرمـــاد ومـــيض جمـــر ... فـــأحج بان يكـــون لـــه ضـــرام
فـــان النـــار بالعـــودين تـــذكى ... وإن الحـــــرب أولهـــــا الكـــــلام
فقلــت مــن التعجــب ليــت شــعري! ... أ أيقـــــاظ أميـــــة أم نيـــــام ؟

فأجابه مروان بقوله : يرى الشاهد ما لا يراه الغائب ؛ وأمره بان يحفظ ناحيته بجهده.

فلما ورد عليه الخطاب قال لأصحابه : " أما صاحبكم (يعني مروان) فلا نصر عنده".

فكتب بع ذلك نصر الى يزيد بن عمر بن هبيرة والى العراق كتابا يطلب فيه المعونة والمدد ن وختمه بهذه الابيات :

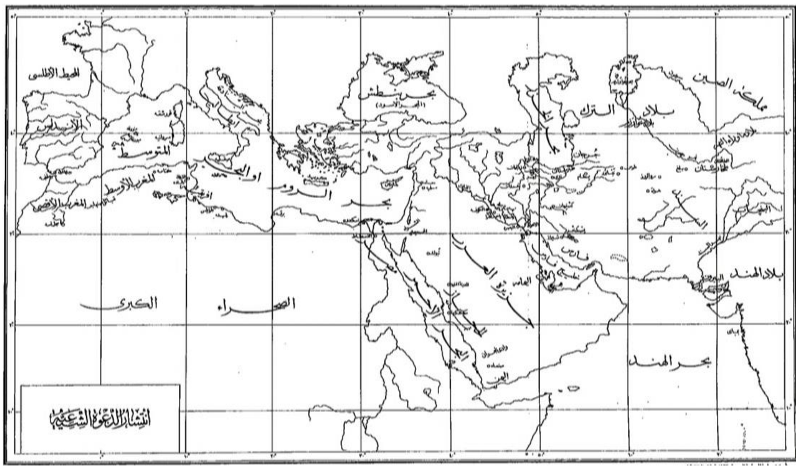
أبلــغ يزيــد، وخــير القــول أصــدقه ... وقــد تبينــت أن لا خــير في الكــذب
أن خراســـان أرض قـــد رأيـــت بهـــا ... بيضـا لـو أفـرخ قـد حـدثت بالعجـب
فـــراخ عـــامين الا انهـــا كـــبرت ... لمـــا يطـــرن وقـــد ســـربلن بالزغـــب
فـــان يطـــرن ولم يحتـــل لهـــن بهـــا ... يلهـــبن نـــيران حـــرب أيمـــا لهـــب

فرد عليه يزيد بما لم يشف غله. فبئس نصر من النصر وقال : " لا غلبة الا بكثرة،

[١] الطبري (٢ : ١٩٤١ – ١٩٤٩) ، (والمسعودي – مروج الذهب ، طبعة مصر ، (ج ٢ ص ١٤٥)

وليس عندي رجل " [(١)].

هذا، ولقد أعمل شيعة العباسيين، وعلى رأسهم أبو مسلم الخرساني، الحيلة في تفريق كلمة العرب في خرسان، فبذروا نور الضقاق بين النزارية واليمانية. وبذلك أمنوا اجتماع كلمة العرب ؛ حتى إنه في أواخر سنة ١٣٢ هـ (٧٥٠ م) رفرف العلم الأسود، وهو شعار العباسيين، فوق حصون دمشق، وانمحت الدولة الأموية في بحر من القسوة وسفك الدماء ؛ وغدا الامويين والمناوئون للعباسيين ضحايا أول خلفاء بني العباس، وهو أبو العباس السفاح [(٢)]



---

(١) أنظر الطبري (٢ ك ١٩٧٣ – ١٩٧٤) ، والمسعودى ، مروج الذهب ، طبعة مصر (ج٢ ص ١٤٥ – ١٤٦)

(٢) قال الأستاذ نيكلسن في كتابه literary history of the arabes , p , 253 , n . 1 : يقول الأستاذ بيفان (prof . bovan) الذي ادين له بهذه املاحظات ، أن ترجمة لفظ السفاح ، ولو أن استعمالها قد شاع بين الكتاب الأوروبيين ، فانها لا نزال مثارا لكثير من الشك . وقد ذهب الأستاذ دي غويه (de goeje) إلى القول بان السفاح معناه الرجل الكثير العطايا أو المناح (munificent) . ومع كل فانه مما يهمنا ملاحظة أن هذا الاس قد أطلق على بعض شيوخ القبائل في الجاهلية . ويقال أن سلمة بن خالد الذي قاد بني تغلب في موقعة بني كلاب الأولى (أبن الاثير طبعة tornberg (ج ١ ص ٢٤٦) ، سمي السفاح ، لانه أفرغ مزاد جيشه قبيل الموقعة – ابن دريد ، طبعة wustenfeld (ص ٢٠٣ و ١ – ١٦) . ولقد ورد في هذا الكتاب ذكر لشاعر أسمه السفاح بن عبد مناة (ص ٢٧٧) ، السطر الذي قبل الأخير . "

والذي أميل إليه أنما سمي بهذا الاسم لقوله في أول خطبة له : فأنا السفاح المبيح والثائر المنيح " .

٤- الدعوة السرية للعلويين أيام الدولة العباسية

بعد أن نال العباسيون الخلافة، لم يعدل العلويون عن المطالبة بدعواهم ن بل ظلوا يناضلون ويكافحون ابتغاء الوصول إليها. على أننا إذا رجعنا إلى الماضي، فأننا نجد أن الضرورة هي التي أكرهت الشيعيين على الاكتفاء بالزعامة الدينية بعد قتل الحسين، حتى لقد أصبح تاريخ الشيعة تاريخا للمكائد التي دفعتهم عقيدتهم على سلوك سبيلها. وهذا القول تؤيده تلك المسألة التاريخية، وهى ان الشيعيين لم يستطيعوا الظهور في ميدان السياسة والاعتماد على السيف بدلا من اعتمادهم على الكيد، إلا في أحوال قليلة.

هذا، وإن قيام زيد بن على زين العابدين بن الحسين بن على، الذي تنسب إليه طائفة الزيدية، والذي ثار على هشام الخليفة الأموي [1] في سنة ١٢٢ هـ (٧٤٠ م)، مصداق لهذا التطور الجديد.

على أن أخلاق أهل الكوفة قد ظهرت في وقت الشدة بما عرف عنهم من تقلب في الرأي وتباين في الميول والاهواء ؛ فقد خانوا عهد زيد واعتزلوه، وبايعوا جعفر الصادق على إمامتهم [2]

---

[1] المسعودي : كتاب التنبيه والاشراف (طبعة دي غويه) (ج ٨ ص ٢٢٣)

روى النويرى (المكتبة الأهلية بباريس ، مخطوط ١٥٧٦ ، ورقة ٢٢ ب) أن الخليفة الأموي هشاما بن عبدالملك أنب زيد بن على بن الحسين اذ بلغه أنه يكيد له في الخفاء ، وأخرجه من مجلسه ، فحنق زيد وقال للخليفة : " أخرج ولا أكون الا بحيث تكره " .

وقد أورد لنا النويري (ورقة ٢٣ ب) نص الدعوة التي كان يأخذها زيد على من يعتنق مذهبه ، وهي تتلخص في :
ا– أن يحلف الرجل يمين الطاعة والولاء لزيد ، (٢) وان يعقد النية على قتال أعدائه " إنا ندعوك إلى كتاب الله وسنة نبيه صلي الله عليه وسلم ، وجهاد الظالمين ، وإعطاء المحرومين ، وتقسيم هذا الفيئ بين أهله بالسواء . أتبايعون على ذلك ؟ فاذا قال نعم ! أمسح على يده ثم قال اللهم اشهد . فبايعه خمسة عشر ألفا ، وقيل أربعون ألفا ؛ وأمر أصحابه بالاستعداد ، فأقبل من يريد أن يفي له ويخرج معه " .

[2] ذكر الطبري (٢ : ١٦٩٩ و ١٦٧٠) أنهم دعوا الرافضة . وقد بحث فريد ليندر أصل هذا اللفظ بحثا مسهبا في مجلة الجمعية الامريكية الشرقية (**journal of the American oriental society , vol . xxix . pp . 137 – 159**) فقال : " من المرجح كثيرا أن يكون شيوع استعمال هذا اللفظ نتيجة العداء الشديد للشيعيين . ويطلقه بعض الكتاب على جميع فرق الشيعة بلا استثناء " .

وبذلك ترك زيد يحارب في جماعة قليلة قاتل معها إلى أن قتل ؛ فأحرقوه بالنار وضربوه بالعصي حتى صار رمادا [1].

وهؤلاء الزيدية هم الين نشأت منهم الرافضة. وسبب ذلك أن زيدا لما اشتبك مع يوسف ابن عمر الثقفي والى العراق من قبل هشام بن عبدالملك قالوا له : " إنا ننصرك على أعدائك بعد أن تخبرنا برأيك في أبي بكر وعمر اللذين ظلما جدك على بن أبي طالب. " فقال زيد : " إني لا أقول فيهما إلا خيرا، وما سمعت أبي يقول فيهما إلا خيرا ؛ وإنما خرجت على بني أمية لأنهم قاتلوا جدى الحسين، وأغاروا على المدينة يوم الحرة، ثم رموا بيت الله بحجر المنجنيق والنار ". ففارقوه عند ذلك فقال لهم : " رفضتموني " ؛ ومن يومئذ سموا رافضة.

وبعد موت زيد بن على بن الحسين انقسم الزيدية إلى طوائف عدة : فظل فريق منهم على ولائه لزيد، وبايعوا ابنه يحيى، وقاتلوا معه في خراسان سنة ١٢٥ هـ (٧٤٣ م). بيد أن أمر يحيى قد آل الى ما آل اليه أمر أبيه من قبل ؛ فقد قتل في هذه السنة، أصابته نشابة فمات، وحز رأسه وصلب، ثم أحرق حتى صار رمادا تذروه الرياح [2].

الإمامية والإسماعيلية :

على أن فريقا كبيرا من الزيدية الذين اعتزلوا زيدا قد انضموا الى الطائفة الإمامية أنصار جعفر الصادق. والإمام حسب معتقدات الإمامية يكتسب حقه في الإمامة بطريق الوراثة عن على باعتباره خليفة النبي شرعا ؛ ويعتبر الإمام فوق ذلك وريث النبي عن فاطمة ؛ ويغلب في اختياره أن يكون أكبر أبناء أبيه سنا. بيد أن خروج فريق من هذه الطائفة على هذه القاعدة بعد موت جعفر الصادق قد جر الى انقسام الإمامية قسمين :

ويريد فريد ليندر أن يقول أن هذا اللفظ جرى في العرف العام مجرى الدم ؛ فانهم اذا أرادوا أن يحتقروا شخصا ويصفوه بأقبح أوصاف الذم يقولون (رافضي " . ولا يزال هذا اللفظ جاريا على ألسنة العامة ، مع تحريف إلى " رفضى " ، حتى كان هذا اللقب في بعض الأزمان يطلق على كل من يبدي ميلا لآل البيت . ومن ذلك قول الشاعر :

أن كان رفضا حب آل مُحَمَّد　　　　فليشهد الثقلان أني رافض

[1] شرف الدين الهدوى ، مكتبة المتحف البريطاني ، القسم الشرقي ، مخطوط ٣٨٦٨ ، ورقة ١١٤ ب وما يتبعها .

[2] الطبري (٢ : ١٧٧٠ – ١٧٧٤)

(١) الإمامية : وقد أطلق عليهم فيما بعد الاثنا عشرية ؛ وقالوا بإمامة موسى بن جعفر الصادق، وهو عندهم الإمام السابع.

(٢) الإسماعيلية : وقد قالوا بإمامة إسماعيل بن جعفر، وكان أكبر أولاد أبيه جعفر، ولو أن وفاته كانت في حياة أبيه، فحول أنصار هذا المذهب إمامة إسماعيل إلى ابنه مُحَمَّد، وهو عندهم الإمام السابع ؛ ومن ثم أطلق عليهم السبعية لتمييزهم عن الاثني عشرية.

٥- ثورة محمد وإبراهيم في الحجاز والعراق :

هذا، ويجدر بنا أن نستطرد في الكلام على تاريخ الشيعة، ناحين في ذلك منحى الإيجاز لكى ننير الطريق أما من يريد أن يتعرف ما كان عليه قيام الفاطميين في بلاد المغرب. ولقد أوضحنا قبلا أن العباسيين استغلوا أسم الشيعة في إسقاط الدولة الاموية، حتى اذا ما آلت أليهم الخلافة، تم انفصال فريقي الشيعة والعباسيين.

ذلك أنه في خلافة أبي جعفر المنصور ١٣٦ – ١٥٨ هـ (٧٥٤ – ٧٧٥ م)، دعا مُحَمَّد ابن عبدالله بن الحسن بن الحسن بن على، المعروف بالنفس الزكية، إلى نفسه سرا، وتلقب بأمير المؤمنين . وفي سنة ١٤٥ هـ (٧٦٢ م) ظهر مُحَمَّد بن عبدالله هذا بعد أن عاش في الخفاء دهرا أخذ فيه أشياعه يقيمون له الدعوة، إلى أن كثر أنصاره في خرسان [١]، واعترف الناس بإمامته في مكة والمدينة ؛ ومن هذه أرسل أخاه أبراهيم الى البصرة لنشر دعوته.

على أن مُحَمَّد بن عبدالله لم يعش حتي أثر دعوته. فقد قتل على يد عيسى بن موسى (ابن مُحَمَّد بن عبدالله بن عباس) ؛ فدعا أخوه إبراهيم إلى نفسه، وشد أزره كثيرون من فقهاء البصرة وغيرهم من ذوى الرأي والجاه ؛ وانضوت المعتزلة والزيدية تحت لوائه، وعاونه أبو حنيفة وراسله سرا، كما عاون الإمام مالك أخاه مُحَمَّدا بالمدينة حين أفتى بنقص بيعة المنصور لأنها كانت مبنية على الإكراه، وبهذا كله تمكن إبراهيم من إدخال أهالي

[١] يحيى بن الحسين ، ليدن ، مخطوط ١٩٧٤ ، ورقة ١٥ (ا) وما يتبعها .

واسط والاهواز وفارس في دعوته [1].

بيد أن حياة أخيه من قبله، فقد قتله عيسى بن موسى أيضا أول ذي الحجة سنة ١٤٥ (٧٦٢ م) في موقعة باخمرا [2] الواقعة بين الكوفة و واسط.

ومن هنا يتبين أن العلويين لم يعولوا في دعواهم في الخلافة على الكيد وحده، بل ظلوا ينازلون أعدائهم في ميادين القتال كلما سنحت لهم الفرص وتهيأت لهم الأحوال : ففي عهد الهادي خرج الحسين بن على بن الحسن بن الحسن بن الحسن بن الحسن بن على بالمدينة يدعو الى نفسه في ذي القعدة سنة ١٦٩ هـ ومنها سار الى مكة حيث التقى بجيش العباسيين بفخ – وهو واد في طريق مكة – فقتل بعد أن أبلى بلاء شديدا، وكانت هذه الموقعة من الشدة بحيث ثيل " لم تكن مصيبة بعد كربلاء أشد و أفجع من فخ ".

وقد أكثر شعراء الشيعة في رثاء قتلاهم ؛ زمن ذلك قول أحدهم :

فلأبكـــين علـــى الحسيـــ ... ن بعولـــة وعلـــى الحســـن
وعلـــى ابـــن عاتكـــة الـــذي ... وتـــروه لـــيس بـــذي كفـــن
تركـــوا بفـــخ غـــدوة ... في غـــير منزلـــة الـــوطن
كـــانوا كرامـــا هيجـــوا ... لا طائشـــين ولا جـــبن
غســـلوا المذلـــة عـــنهم ... غســـل الثيـــاب مـــن الـــدرن
هـــدى العبـــاد بجـــدهم ... فلهـــم علـــى النـــاس المـــنن [3]

وكانت هذه الموقعة بعيدة الأثر؛ فقد هرب منها رجلان كانا شجى في حلق العباسيين: أحدهما يحيي بن عبد الله صاحب الديلم، وأخوه ادريس في بلاد المغرب.

أما يحيى فقد ثار في عهد هارون الرشيد ١٧٠ – ١٩٣ هـ (٧٨٦ – ٨٠٩ م) في بلاد الديلم، وانتصر له أهل اليمن، وغدا أمره من الخطر بحيث هدد سلامة الدولة العباسية وأقلق بال الرشيد. فأنفذ اليه الفضل البرمكي ؛ وهذا أعمل الحيلة، فأغمه في

---

[1] شرحه ورقة ١٩ (ا)

[2] أقرب إلى الكوفة منها الى واسط ، وتبعد عن الأولى بسبعة عشر فرسخا . راجع معجم البلدان لياقوت .

[3] راجع لفظ فخ في معجم البلدان لياقوت .

سن ١٧٦ هـ (٧٩٢ م) على أن يقسم يمين الولاء للرشيد الذي قتله بعد قليل ومداد الأمان لم يجف ب. على أن الصورة التي قتل بها يحي لاتزال سرا غامضا.

وكان من نتيجة هذه الجهود التي بذلها إدريس بن عبد اله أخز يحيى في إثارة شعور شمال إفريقية ضد حكم العباسيين، أن تأسست دولة الأدارسة في الطرف الشمالى الغربي، ضاعت هذه البلاد من أيدي العباسيين.

فشل هذه الدعوة في الشرق وانتقالها إلى الغرب

(شمال افريقية) :

كان من أثر ما حل بالعلويين من حبس وقتل أن عمدو إلى نشر دعوتهم في طي الخفاء ؛ فتلمسوا أماكن يختفون فيها ويتخذونها ملاجئ يدرءون بها عن أنفسهم ما كان يوقعه العباسيون بهم من حبس وآلام، إلى أن تقوى دعائم دعوتهم، وإذ ذاك يستطيعون الظهور.

على أن فكرة سرية الدعوة إنما كانت فكرة قديمة، أستحدثها النبي صلي لله عليه وسلم. فقد دعا الى الإسلام سرا في دار ابن الأرقم، ومن بعدها اختفى في الغار حين هدد حياته أعداؤه من قريش.

وقد اتخذت هذه النظرية التي ابتدعها ابن سبأ شكلا جديدا في سنة ٢٦٠ هـ (٨٧٤ م)، وهى السنة التي مات فيها الحسن العسكري الإمام الحادي عشر.

أما ونحن بصدد الكلام على الغيبة، وجب أن نأتي بكلمة يسيرة نصف بها استتار أئمة الشيعة لدرء ما عسى أن يحيق بهم من مكروه. ولا غرو فقد شدد الخلفاء العباسيون في طلب آل البيت، حتى لا تظهر دعوتهم وتقوم دولتهم على أنقاض الخلافة العباسية نفسها. ولهذا اتخذ دعاة الشيعة من الإسماعيلية بوجه خاص دور الهجرة في البلاد التي قاموا فيها نشر المذهب الإسماعيلي.

ولقد أورد لنا يحيى بن الحسين المتوفي سنة ٣٦٠ هـ (٩٧١ م) في كتابه " الإفادة في تاريخ الأئمة السادة على مذهب الزيدية " أن القاسم بن إبراهيم بن إسماعيل بن إبراهيم

بن الحسن بن الحسن بن على ابن أبي طالب استتر في مصر في خلافة المأمون العباسي، وأنه دعا الى نفه حين بلغه موت أخيه مُحَّد. وقد بث دعاته وهو على حال استتارة زهاء عشر سنين ؛ فبايعه أهل مكة والمدينة والكوفة والرى وقزوين وطبرستان وبلاد الديلم، وكاتبه أهل البصرة والاهواز وحثوه على الظهور ؛ فوصل خبره إلى الخليفة، فأمر بالتشدد في طلبه. فلم يطلب للقاسم المقام في مصر، فعاد إلى الحجاز ومنها إلى تهامة، ولحق به جماعة من بني عمه وغيرهم، فبثوا الدعوة باسمه في بلخ [١] والطالقان [٢] ومرو وغيرها فذاع خبره، وبعث الخليفة إلى بلاد اليمن جند يطلبونه، فاختفى في حي من البدو. ولما ولى المعتصم الخلافة شدد في طلب القاسم، وبعث بغا الكبير وآشناس في جند كثيف، فانتقض عليه أمره، وذلك سنة ٢٢٠ هـ.

وقد روى هذا المؤرخ عن خادم القاسم بمصر تلك الحكاية قال : " ثاقت بالإمام المسالك واشتد الطلب، وحن مختفون معه خلف حانوت إسكاف...... فنودي نداء يبلغنا صوته : برئت الذمة ممن آوى القاسم بن إبراهيم وممن لا يدل عليه ؛ ومن دل عليه فله ألف دينار، ومن البز كذا وكذا. والاسكاف مطرق يسمع ويعمل لا يرفع صوته. فلما جاءنا قلنا له : أما ارتعت ؟

قال : من لي ! ما ارتياعي منهم ولو قرضت بالمقاريض بعد إرضاء رسول الله حتى في وقايتي لولده بنفسي [٣] ؟ " والآن نعود إلى الكلام على الإمام الثاني عشر : في شعبان سنة ٢٥٥ هـ (٨٦٨ م) ولد للحسن العسكري، وهو الإمام الحادي عشر عند الشيعة

---

[١] مدينة مشهورة بخراسان ومن أجل مدائنها وأكثرها خيرا . افتتحها الأحنف بن قيس من قبل عبدالله بن عامر في خلافة عثمان بن عفان . واليها ينتسب كثيرون من اهل الأدب وعلماء الكلام والحفاظ – أنظر لفظ بلخ في معجم البلدان لياقوت .

[٢] الطالقان بلدتان : إحداهما بخراسان بين مرو الروذ وبلخ ، بينها وبين مرو الروذ ثلاث مراحل . وقد ذكر الإصطخري أن طالقان أكبر مدن طخارستان ، وتقع في مستوى من الأرض ، يجرى فيها نهر كبير ، وتبلغ في الاتساع ثلث ما تبلغه مدينة بلخ ؛ والأخرى بلدة وكورة بين قزوين وأبهر (مدينة مشهورة بين قزوين وزنجان وهمذان من نواحي الجبل ، والفرس يسمونها أوهر ، فتحت في أيام عثمان بن عفان ، وبينها وبين زنجان خمسة عشر فرسخا ، وبينها وبين قزوين أثنا عشر فرسخا) وبها هدة قرى تعرف كلها بهذا الاسم .

[٣] ليدن مخطوط ، ١٩٧٤ ، ورقة ١٣٤ – ٣٥ ب

الإمامية، ولد سماه محمدا، من أم ولد اسمها صقيل [1]. فلما توفي الحسن في سنة ٢٦٠ هـ كان ولده في الخامسة من عمره. ومن هنا تنسب الى الإمام الثاني عشر غيبتان : الغيبة الصغرى، منذ ولد محمد الى ان أختفى عن أشياعه، والغيبة الكبرى، منذ اختفائه نهائيا إلى وقت ظهوره.

وقد رجح ابن حزم صحة اسم صقيل وزاد أنها ادعت الحمل بعد وفاة الحسن العسكرى سبع سنين ، فوقف ميراثه ؛ وقد نازعها فيه أخوه جعفر بن على الى سنة ٢٦٧ هـ ؛ فقضى له القاضي وانقسمت الشيعة بسبب ذلك فريقين :

(١) فريق ناصر جعفرا.

(٢) فريق آخر تعصب لصقيل، ومن بينهم حسن بن جعفر النوبختى [2] ؛ وهو فارسي الأصل وصاحب الزيج المشهور، والذي قام برسم مدينة بغداد للمنصور، فصار بيته من أشهر البيوتات.

عاشت صقيل بعد وفاة سيده عشرين سنة في بيت الحسن النوبختي ؛ فراجت الاشاعات حول مقامها في هذا البيت ؛ فأمر الخليفة المعتضد فحملت إلى قصره ن فظلت فيه الى أن ماتت في خلافة المقتدر.

وقد ذكر لنا المؤرخون عند كلامهم على الغيبة الكبرى سنة ٢٦٠ هـ، أن الحسن العسكري وكل بدعوته بعض رؤساء الشيعة. فكان أبو سعيد العمرى رئيس الإمامية الوكيل الأول. أما الوكيل الثاني فهو النميرى، وه أصل الطائفة النصيرية. والوكيل الثالث حسن بن جعفر النوبختي الذي قامت الدعوة لآل علي على يد رجال من بيته.

ويقال إن محمدا الإمام الثاني عشر دخل سردابا في مدينة سامرا ؛ ولم يقف له أشياعه على أثر منذ ذلك الحين. ولهذا يعتقد الإمامية أنه سيظهر ويملأ الأرض عدلا كما ملئت

---

[1] هذا هو الرأي الشائع . على أن هناك فريقا من المؤرخين يخالفون هذا الرأي ؛ فيذكرون أن محمدا من أم ولد اسمها نرجس ، ويزعم آخرون أنه من أم ولد اسمها سوسن (ابن حزم ج ٤ ص ٩٤) .

[2] نوبت بالفارسية معناها البخت القريب .

جورا ؛ ومن ثم سمي الإمام المنتظر، وصاحب الزمان، والقائم بالحق.

ولا غرو فأن جهود الإمامية قد ظهرت ظهورا بينا منذ وفاة الإمام الحادي عشر سنة ٢٦٠ هـ (٨٧٣ م)، مما حدا بالخلفاء العباسيين الى تضييق الخناق على طائفة الإسماعيلية؛ فاضطروا إلى مغادرة سليمة [١] مركز دعوتهم، ومواصلة جهودهم في بلاد أكثر صلاحية لبث هذه الدعوة، وهى شمال إفريقية.

ولا شك في أن المجهودات التي بذلها الشيعيون لتأسيس خلافة علوية بالشام قد قضى عليها ؛ فلم ير الأئمة بدا نت الاستتار ليدرءوا عن أنفهم ما أضمره لهم العباسيون من حنق ونقمة.

والآن نشرع في بيان الأسباب التي من أجلها وقع اختيار الشيعيين على شمال إفريقية ابتغاء نجاح دعوتهم،ن ثم نأخذ في الكلام بعد ذلك على نسب الإسماعيلية أو الفاطميين، وهو اللفظ الذي اصطلح المؤرخون على استعماله اذا ما تناولوا الكلام على هذه الأسرة.

٦- الأسباب التي مهدت السبيل لنجاح الدعوة الشيعية في المغرب

(ا) البعد عن السلطة المركزية في بغداد

كان الادارسة – على ما ذكرنا – أول من أسس سلطانا من العلويين ؛ فأقاموا دولة الادارسة في شمال إفريقية (المغرب الأقصى) سنة ١٦٩ هـ (٨٧٥ م)، وحذا حذوهم ذوو قرباهم من الزيدية في بلاد اليمن . أضف إلى ذلك أن شمال إفريقية التي أقطعها هارون الرشيد إبراهيم بن الاغلب قد استقلت استقلالا فعليا، ولم تكن خاضعة للعباسيين الا في الاسم فقط.

نعم ! لقد قام إبراهيم دولة دام سلطانها زهاء مائة سنة ١٨٤ – ٢٩٦ هـ (٨٠٠ – ٩٠٩ م). وبالرغم من أن خلفاءه اكتفوا بلقب الإمارة، فإن قوة الخليفة العباسي قد بلغت من الضعف بحيث لم يعد قادرا على التدخل في أمور هذه الولاية، مكتفيا بذكر اسمه في الخطبة ونقشه على السكة. وهذان المظهران هما كل ما بقى للخلافة العباسية في جميع

---

[١] وسلمية بهذا الضبط كما حققه ياقوت في معجمه ، وهى من اعمال حماة من بلاد الشام .

البلاد الإسلامية التي زال عنها نفوذ بغداد.

ضعفت قوة الدولة العباسية لاستئثار الموالي من الاتراك بالسلطة دون الخليفة، وأصبح في يدهم تولية الخليفة وعزله وقتله ؛ وغدت البلاد مرتعا للفوضى والقلاقل، وصارت السلطة العسكرية في بغداد – وقد أصبحت ملهى يلهو به المتنافسون – من الضعف بحيث لم يعد الخليفة قادرا على الدفاع عن حاضرة الدولة، وقد هددها الزنج وأضرموا نار الثورة التي دامت زهاء أربع عشرة سنة ٢٥٥ – ٢٧٠ هـ (٨٦٩ – ٨٨٣ م) عرضوا فيها كيان الدولة للخطر، كما أصبحت دلتا الفرات تحت رحمة العصابات من قطاع الطرق الذين ادخلوا الفزع والهلع في قلوب الاهلين ؛ وتعدى بلاؤهم إلى محاصرة أمهات المدن كالبصرة، والأهواز، وواسط.

هذه الحالة تكشف لنا هم بلغ الضعف الذي وصلت إليه السلطة المركزية في بغداد، هذه السلطة التي عجزت حتى عن الدفاع عن الولايات المتاخمة لحاضرة الدولة. ومن هذا يتبين لنا مباغ السهولة التي أقام بها الفاطميون دولتهم في إحدى ولايات الدولة البعيدة كشمال إفريقية، لما أصابها من وهن وما اشتهر عن أمرائها من ضعف وانحلال.

أضف إلى ما تقدم أن البربر، على ما هو مشهور عنهم من حب للقتال، وما تعودوه من شظف في العيش، وما فطروا عليه من عدم إخلاد للنظام كانوا –كما بيننا – متأهبين للمخاطرة بأرواحهم اذا ما عرض لهم باعث يحرك في نفوسهم ما جبلت عليه من إقدام على المخاطر وركوب متن الأهوال. وزد على ذلك أن عامل الشراهة الذي فطر البربر على إرضائه، وما انطوت عليه أخلاقهم من حمق وخشونة –كل ذلك جعلهم أسلس قيادا الى أبي عبد الله الشيعي، فتمكن من الوصول إلى أغراضه من إثارة حميتهم وإعجابهم بآل على والمهدى " (١)

هذا، ولا يغيب عن أذهاننا أن بلاد الأندلس، التي سهل انسلاخها عن الخلافة العباسية بسبب بعدها عن مركز هذه الخلافة وازدياد نفوذ الأمويين فيها في أواخر القرن

---

(١) Nicholson (j .) : the fatablishment of the fatimite dynaaty in Africa , p . 26

الثالث الهجري، لو بقيت تحت سلطان العباسيين، لوقفت حجر عثرة في سبيل ازدياد نفوذ الفاطميين في شمال إفريقية.

(ب) جهل البربر وعدم استعدادهم للحضارة الإسلامية في بغداد

لم تتوطد أركان السلام بين البربر والعرب النازلين في بلادهم منذ ظهر الاسلام وامتدت فتوحه إلى هذه البلاد. ولا ريب في أن البربر كانوا دون العرب حضارة وثقافة ؛ وقد نظروا إلى العرب نظرهم إلى الغاضب. وزاد اشتعال نار العصبية هذا العداء. هذا الى ان البربر لم يكن لديهم الميل والاستعداد للأخذ بأهداب الحضارة الاسلامية التي أوجدها العرب في صدر الاسلام. ولو أخذ البربر بحضارة العرب، لكان ذلك قبولا لحضارة الفاتحين.

ولا شك في أن أكبر العوامل التي وقفت في سبيل استتباب الأمن إنما ترجع إلى العاطفة الوطنية التي هي من أخص صفات البربر منذ مبدأ ظهورهم في عالم التاريخ، والتي أخذت تتجلى شيئا فشيئا في الأحقاب المتتابعة.

وتتكون البلاد التي يعيش فيها البربر من بقاع رملية وتلال جرداء مجدية، لا يمكن أن تمتدهم بما تحتاج إليه الأمم من الحاجات اللازمة لتقدمها ورقيها، ولا تجعل من السهل عليها أن تقيم حضارة خاصة بها، أ، أن تتصل بغيرها من الأمم فتنال قبسا من ثقافتها. هذا الى أن بلادهم لم تكن لتصلح إلا لإمدادهم بما تتطلبه الحياة البدوية — اللهم إلا اذا استثنينا هذا السهل الضيق الذي يتاخم البحر الأبيض المتوسط، وجل سكانه من أصول مختلفة : من فينيقيين وقرطاجانيين وإغريق ورومان، الى وندال، وهم من أصل جرماني، وعرب — فقد كان قرب هذا الجزء من الساحل الأوربي سببا في أن تيسر لسكانه أن يقتبسوا شيئا من رقي الأمم المجاورة.

(ج) بغض الولاة لفرضهم الضرائب الفادحة

وليست فداحة الضرائب التي أثقلت كاهل الأهلين بأقل أهمية مما تقدم. نعم ! لم يكن قيام الخوارج من البربر في وجه الولاة خروجا على الدين، بل كان خروجا على

السلطة الحاكمة، لظلم الولاة لهم وفرضهم ضرائب فادحة ليست مما يفرضه الدين. كما أنهم لم يجدوا ما كانوا يؤملونه ثمنا لما قاموا به من تضحيات في حربهم مع العرب ؛ ولم يجدوا في ولاتهم ما يحببهم إليهم. فقد كانوا يعاملونهم معاملة السيد للمسود، لا النظير للنظير ؛ فكان كل ذلك مما أعدهم لقبول المذهب الشيعي. على أنهم لما ساءهم أمر الولاة، رفعوا الصوت تنديدا بهذه السياسة الخرقاء وبثوا شكواهم إلى الخليفة العباسي في بغداد.

ولما كانت بغداد بعيدة عن شمال إفريقية، ولم يعر الخليفة – لما حل به ودولته من ضعف ووهن – شكواهم أذنا صاغية ؛ فهموا تارة بالاحتجاج وطورا بالسيف. وسهلت كراهتهم للعرب انضمامهم لأبي عبدالله الشيعي، الأمر الذي ساعد على تأسيس الدولة الفاطمية بالقيروان. وقد أصاب نيكلسن يث يقول : " لم يعد من الصعب أن يحرض اللبربر على محاربة الذين لا يمكن اعتبارهم إلا متطفلين في أرض الوطن " [١]. \

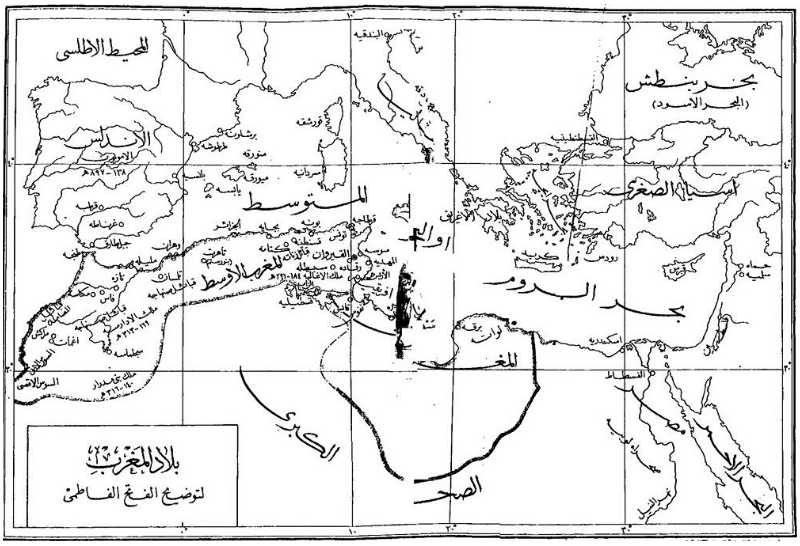
ومما تقدم نستطيع أن نفهم كيف هيأت الأحوال في شمال إفريقية دخول كثيرين من البربر في حظيرة المذهب الشيعي بمثل ما تهيأت لهم الظروف من قبل، ولا غرو فقد وجه الفاطميون عنايتهم لتحقيق هذه الغاية بمثل ما تهيأت لهم الظروف من قبل. ولا غرو فقد وجه الفاطميون عنايتهم لتحقيق هذه الغاية على يد أبي عبدالله الشيعي ؛ حتى إذا ما وصل بلاد كتامة (أو كتامة) [٢] (٢٨٨ هـ ٩١٠ م) التي حرثها الحلواني وأبو سفيان من قبله، وجد هذه البلاد موطأة ممهدة له [٣]

---

[١] Nioholson (j) : the fatimite dynasty in arica , p . 26

[٢] أنظر كتاب الأنساب السمعاني (ص ٤٧٤ ب و ٥٧٥ ا) لمعرفة أصل هذه القبيلة وصحة نطق هذا اللفظ .

[٣] ذكر ابن الأثير (ج ٨ ص ١١) والمقريزي (اتعاظ الحنفا ص ٢١) أن هذين الداعيين (الحلواني وأبا سفيان) قد بعث بهما أبو عبدالله جعفر الصادق بن مُحَمَّد سنة ١٤٥ هـ وقال لهما " إن المغرب أرض بور ، فاذهبا فاحرثا حتى يجيء صاحب البذر " والفترة بين دخول هذين الداعيين بلاد المغرب ودخول أبي عبدالله الشيعي ١٤٣ سنة (١٤٥ – ٢٨٨ هـ) (٧٦٢ – ٩٠١ م) .



وفي الحق أن هذه الحالة السياسية التي سادت في شمال إفريقية، وميول بنبي كتامة الدينية الذين أثمرت أبنعت فيهم تعاليم دعاة الشيعة قبل أن تطأ قدم أبي عبدالله أرضهم – كل ذلك مهد السبيل للمهدي ليظهر للناس كأنه المهدى المنتظر وسليل آل على، ويحقق بذلك الأغراض التي كان يرمى اليها من نشر دعوته.

هذا، ولا يفوتنا ما كان من ضعف قوة الأمراء في شمال إفريقية، وما أبداه دعاة الشيعة من نشاط وهمة كان لهما الأثر الأكبر في اكتساب ولاء القبائل على اختلافها ومعونة رجالها الذين عرفوا بغيرتهم وتعصبهم – فكان اجتماع كل هذه الأسباب فرصة سانحة انتهزها الفاطميون لتأسيس خلافتهم.

٧- نجاح هذه الدعوة في شمال إفريقية

(ا) رحيل أبي عبدالله الشيعي إلى بلاد المغرب :

كانت هذه الفترة التي تخللت سنتي ٢٨٨ و ٢٩٦ هـ (٩٠١ – ٩٠٨ م) عهد

جهاد مستمر، سلك فيه أبو عبدالله[1] سياسة الحزم والعزم ؟

وأقدم المصادر التي اعتمدنا عليها في بحث هذا الموضوع، هو كتاب صلة تاريخ الطبري لعريب ابن سعد. وقد سبق هذا المؤلف الطبري وكتب عن الفاطميين. ولكنه لم يعش في بلادهم ولم يخالطهم ؛ فكان ما كتبه غامضا مبهما. ويظهر أن إمام الشيعة الاسماعيلية لم يكن معروفا

عند الطبري، بدليل تسميته له أبن البصري [2] بخلاف عريب بن سعد، فانه ذكر ان المهدي إنما عرف بهذا الاسم بعد دخول مدينة رقادة [3].

وقبل أن نتكلم عما بذله أبو عبدالله الشيعي في سبيل تأسيس الدولة الفاطمية في بلاد المغرب، يجب أن نعرف شيئا عن حياة هذا الرجل. فأبو عبدالله الشيعي هو الحسن بن أحمد أبن مُحَّد بن زكريا، من أهل صنعاء باليمن. وقد ولى الحسبة في بعض أعمال بغداد، ثم سار الى اليمن، وهناك لقى ابن حوشب داعى الإسماعيلية في هذه البلاد وصار من كبار أصحابه، لما رآه فيه من العلم والذكاء والمكر والدهاء. فلما اتصل بابن حوشب نبأ موت أبي سفيان داعى الإسماعيلية في بلاد المغرب، عهد إلى أبي عبدالله الشيعي القيام بالدعوة إلى هذا المذهب، وقال له : " إن أرض كتامة من بلاد المغرب قد حرثها الحلواني

---

[1] أطلق عريب بن سعد على ابي عبدالله الشيعي أسم الصوفي أو المحتسب .

(أنظر الأحكام السلطانية للماوردى – طبعة مصر (ص ٢٢٧ – ٢٣٠) والقلقشندي (ج ٣ ص ٤٨٧) ونشوار المحاضرة للتنوخى (ص ١٥٨ و ١٦٤ و ٢٥٠) لمعرفة واجبات المحتسب ، ومقدمة ابن خلدون (ص ٢٢٥ – ٢٢٦) والمقريزي : خطط (جزء أول ص ٣٦٣ و ٤٦٤) . وذكر ابن الأثير (ج ٨ ص ١١) وغيره أن أبا عبدالله من أهل صنعاء ، اتصل بمحمد الحبيب أبي عبيد الله أول الخلفاء الفاطميين ، فأرسله إلى اليمن ، وهناك صحب أبن حوشب إلى بلاد المغرب .

على أن ابن خلدون (ج ٤ ص ٣٢) خلف عريب بن سعد ، فقال إن أخا أبي عبدالله (أبو العباس) هو المحتسب ، وكان يؤدي أعمال هذه الوظيفة في أحد أعمال البصرة ، وأن أبا عبد الله كان يعرف بالمعلم ، لأنه كان يقوم بتعليم مذهب الإمامية قبل أن يعتنق مذهب الإسماعيلية . أما المقريزي (خطط ج ٢ ص ١٠) فقد خالف ابن خلدون في هذه المسألة ، فقال أن أبا عبد الله نفسه كان محتسبا في أحد أعمال بغداد ، لا البصرة .

[2] الطبري ٣ : ٢٢٩١ و ٢٢٩٢

[3] عريب بن سعد (ص ٥٣) .

وأبو سفيان، وقد ماتا ؛ وليس لها غيرك ؛ فبادر فأنها موطأة ممهدة لك ".

غادر أبو عبدالله اليمن قاصدا مكة ؛ وقد زوده ابن حوشب بما احتاج اليه من مال. فلما وصل الى مكة، سأل عن حجاج كتامة واجتمع بهم ؛ فسمعهم يتحدثون بفضائل آل البيت، فحدثهم في ذلك وأفاض القول في مآثر أهل البيت ؛ ثم نهض، فسألوه أن يأذن لهم في زيارته لما رأوا من علمه وعقله ؛ فأجابهم الى ذلك. فأخذوا يترددون عليه وسألوه أين يقصد، فأجابهم إنه يريد مصر. فسروا بصحبته، ورحلوا جميعا من مكة ؛ وهو في كل ذلك يخفي عنهم أغراضه. وما لبثوا أن تعلقوا به واجتمعوا على محبته لما رأوا من ورعه وزهده، وهو في ذلك كله يسألهم عن أحوال بلادهم وعن مبلغ أطاعتهم لأميرهم، فقالوا : " ليس له علينا طاعة، وبيننا وبينه عشرة أيام ".

وقد أستطاع أبو عبدالله بما جبل عليه من مكر، وبما وهبه الله من ضروب الحيل، أن يعرف منهم أن حمل السلاح كان كل همهم ؛ وبهذا كله أتيح له أن يقف على جميع أحوالهم. فلما وصلوا مصر أخذ يودعهم ؛ فشق عليهم فراقه وسألوه عن حاجته بمصر، فقال إنه ليس له بها حاجة إلا طلب العلم ؛ فقالوا له : " فأما اذا كنت تقصد هذا، فان بلادنا أنفع لك وأطوع لأمرك ونحن أعرف بحقك ". وما زالوا به حتى أجابهم الى المسير معهم ؛ فاستأن فورا السير حتى أصبحوا على

مقربة من بلادهم كتامة — وهى بلاد الجزائر اليوم — وقد خرج الى لقائهم أصحابهم الذين أينعت وأثمرت فيهم تعاليم الشيعة على يد دعاة الإسماعيلية من قبل.

ولما وقف القوم على حال أبي عبدالله، أحلوه من أنفسهم محل الاجلال والاكرام، ورغبوا في نزوله عندهم واقترعوا أيهم يضيفه. ولما وصلوا أرض كتامة في شهر ربيع الأول سنة ٢٨٨ هـ، تهافت كل منهم على إنزاله في بيته ؛ فسألهم : " أين فج الأخيار [1] ؟ "

---

[1] فج الاخيار في جبل أيكجان في أرض كتامة (على مقربة من مدينة قسمطينة ، تعرف بمناعتها . يسكنها قبائل من كتامة ، وكانت بها أسواق عظيمة ، وكانت بها أسواق عظيمة ، وكانت كبيرة آهلة بالسكان (أنظر البكرى ص ٦٣ وو ٦٤) ، وفيه أقام أبو عبدالله الشيعي وسماه دار الهجرة . وقد سمع ياقوت بعض الناس يطلقون عليه أيكجان ، وذكره المقريزي في اتعاظ النفا (ص ٣٢) ، ونقله أوليري (**oleary**) انكجان ، وهو خطأ .

فدلوه عليه، فقصده ؛ وسار الى جبل إيكجان، فنزل بفج الأخيار. وهنا قال لهم : " هذا فج الأخيار، وما سمي إلا بكم ؛ ولقد جاء في الآثار للمهدي هجرة ينبو بها عن الأوطان، ينصره فيها الأخيار من أهل ذلك الزمان، قوم اسمهم مشتق من الكتمان ؛ ولخروجهم في هذا الفج، سمى فج الأخيار ".

فتسامعت به القبائل وأتته البربر من كل مكان، وعظم أمره ؛ وما لبث أن كشف عن قصده، فقال لرجال كتامة : " أنا صاحب البذر الذي أخبر به أبو سفيان والحلواني " [1] اللذين أرسلهما الإسماعيلية لبث الدعوة في بلاد كتامة.[2] فازدادت محبتهم له وعظم أمره فيهم، وأتنه القبائل من كل مكان [3].

أما ونحن بصدد الكلام عن فج الأخيار، يجدر بنا أن نذكر كيف قام الإسماعيلية ببث دعوتهم.

كان الإسماعيليون يبعثون بالدعاة من سليمة، مركز حركتهم الدينية، إلى كافة الأقطار الإسماعيلية. وقد أتخذ هؤلاء الدعاة دار هجرة في كل قطر ؛ فاتخذوا دار هجرة في نجران، وفي سواد الكوفة وفي جبل لاعة باليمن، وفي بلاد تركستان وعلى الأخص في الجزء الشرقي، وكذلك في بنجاب وبمباى، حيث لا يزال يمثل أغا خان طائفة منهم إلى الآن

ولما دخل عبدالله الشيعي بلاد المغرب، أتخذ دار هجرة في فج الأخيار في إيكجان الواقع في منتصف الطريق بين طنجة وفاس.و و إيكجان جمع حاج (حجاج) ؛ وكانوا يطلقون عليه منذ قديم الزمان **tzajjan**، وهو محل اجتماع الحجاج من الأندلس وشمال المغرب الأقصى. وفي هذا المكان اتخذ أبو عبدالله الشيعي دار الهجرة، وهو ممركز حركته

---

(1) بعث محمد الحبيب أح\ أشياعه ، ويدعى رسم بن الحسين بن فرج بن حوشب الكوفي الى اليمن ، لينشر الدعوة للفاطميين ويعلن للناس أن قد حان ظهور المهدي ، فظهرت الدعوة سنة ٢٧٠ هـ ، ونجح ابن حوشب في مهمته ، حتى اعتقد الناس في المهدي من آل على وفي صفاته . وسرعان ما ابتنى ابن حوشب حصنا بجبل لاعة وتغلب على أغلب بلاد اليمن بما فيه صنعاء ، ودعا نفسه المنصور ، وبعث الدعاة إلى كافة بلاد اليمن واليمامة والبحرين والسند والهند ومصر وشمال إفريقية – ابن خلدون (ج ٤ ص ٣١) والمقريزي : أتعاظ الحنفا (ص ٢٧) .

(2) ابن الأثير (ج ٨ ص ١٢) .

(3) الخطط للمقريزي (ج ٢ ص ١٠ و ١١) .

ومجمع أنصاره من البربر. ومن الغريب أن أكثر سكان البلاد التي قام فيها الاسماعيليون بنشر مذهبهم لا يزالون متمسكين بعقائد هذا المذهب، الا سكان بلاد المغرب حيث لم يبق للإسماعيليين بقية.

ويرجع ذلك – على ما ذكرنا – إلى جهل البربر وعدم استعدادهم لفهم مذهب الإسماعيلية بدرجاته المختلفة المتدرجة في الصعوبة، كغيرهم من أهالي الأقطار الأخرى – كفارس ومصر – التي يمتاز أهلها بالحضارة وسمو الفكر.

فليس من عجب اذا لم يتعمق البربر في فهم مذهب الإسماعيلية وتعاليمه التي تحتاج الى إعمال الفكر ؛ وإنما اعتنقوه لأول وهلة وبلا كبير عناء أو تفكير، فلم يكن ثمة ما يساعد على رسوخه في نفوسهم، مما أدى بهذا المذهب الى الزوال من بلاد المغرب، حيث لم يبق له الآن بقية أو أثر [١].

وفي سنة ٢٩١ هـ (٩٠٣ م) بدأت أعمال أبي عبدالله الشيعي الحربية، فوقعت في يد الداعي مدن عدة. وساعد على تقدمه في الفتوح موت إبراهيم بن الاغلب (سنة ٢٩١ هـ)، ولحاق ابنه أبي العباس به، وتولية ولده زيادة الله الذي قضى أيامه في اللهو والترف، بينما كان وزراؤه لا يبالون الا بنجاح المذهب الشيعي الذي اعتنقه معظمهم. ولا غرر فقد ساعدت هذه الأسباب أبا عبدالله على قمع الاغالبة، ومد نفوذه على أكثر أجزاء هذه البلاد، والمجاهرة بأن ظهور المهدى قد آن أوانه.

(ب) رحيل عبيد الله المهدى إلى بلاد المغرب :

إذا الشيعيون في ذلك الوقت (سنة ٢٩١ هـ) أصحاب السلطان المطلق في جميع

---

[١] إنني مدين ببعض ما جاء بهذه العبارة الى المسيو لوى ما سينيو الأستاذ بكلية فرنسا (**m . Louis massignon , professeur au college du france)** . وقد دارت بيننا محادثات على موضوع هذا الكتاب في منزله بباريس .

ذكر المقريزي (اتعاظ الحنفا ص ٣٢) في كلامه على دخول أبي عبدالله الشيعي أرض كتامة ونزوله فج الاخيار ، أن أبا عبد الله خطب أهل كتامة ، معددا مآثرهم مشيدا بفضل بلادهم في العبارة التي ذكرناها قبل .

الجهات الواقعة إلى الغرب من مدينة القيروان [١]، وأنفذ أبو عبدالله الشيعي الرسل ألى المهدى في سلمية يدعوه للحضور إلى إفريقية [٢]. فرحب عبيد الله بهذه الدعوة، وقد سمع بدعوته الخاص والعام. فأصدر الخليفة العباسي الأوامر بالقبض عليه.

على أن عبيد الله لم يكد يصل مدينة سجلماسة [٣] حاضرة بني مدرار حتى قبض عليه أميرها اليسع ابن مدرار وحبسه إلى أن أطلقه أبو عبدالله [٤].

ومن الصعب أن نفهم كيف أتيح لعبيد الله أن يتجنب القبض عليه قبل وصوله سجلماسة، اذا علمن أن الأوامر قد صدرت للولاة في مصر وشمال افريقية بالقبض عليه، اذ هدد سلطة الخليفة العباسي، وهو المالك للبلاد التي سلكها عبيد الله. وقد ذكر عريب بن سعد أن مُحَّد بن سليمان [٥] قبض عليه ثم أطلقه لمال أخذه منه [١]

---

[١] القيروان أكبر مدائن بلاد المغرب ، وتقع على بعد أربعة أميال من مدينة رقادة ، وتشتهر بمساجدها وحدائقها الغناء ومبانيها الفخمة – أنظر البكرى : كتاب المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب (ص ٢٢ – ٢٧) .

[٢] عربي بن سعد (ص٥٢) .

[٣] مدينة بالمغرب الأقصى ، يجري فيها نهران أصلهما واحد ، فاذا قربا من المدينة تشعبا الى نهرين يسلكانها شرقا وغربا . وتقع في سهل أرضه سبخة حوله أرباض كثيرة . وتبعد عن القيروان بستة وأربعين فرسخا . وكان بناؤها سنة ١٤٠ هـ وفي سنة ١٦٠ هـ اتخذها بنو مدرار حاضرة لملكهم – انظر البكرى (ص ١٤٨ – ١٤٩) .

[٤] عريب بن سعد (ص ٥٢) .

[٥] خالف عريب بن سعد غيره من المؤرخين من أمثال أوتيخا (ص ٧٦) والكندى (ص ٢٥٨) وابن الأثير (ج ٨ ص ١٣) وأبي الفدا (ج ٢ ص ٦٣ – ٦٤) والمقريزي (خطط ج ١ ص ٣٢٧) فقال أن مُحَّد بن سلمان – لا عيسى النوشري – هو الذي قبض على عبيد الله . وقد ذكر الطبري (٣ : ٢٢٥١ و ٢٢٥٢) أن الخليفة العباسي المكتفي ندب مُحَّد بن سليمان لطرد هارون أخر ولاة الطولونيين من مصر . وفي صفر سنة ٢٩٢ هـ هزم هارون وقتل . وفي السابع من جمادي الآخرة من هذه السنة ، رحل مُحَّد بن سلمان عن مصر بعد أن أقام فيها نحوا من أربعة أشهر .
هذا ، ولقد تكلم الكندي (كتاب الولاة ص ٢٢٨) عن مدة ولاية مُحَّد بن سليمان فقال : إنها بدأت في ٧ جمادى الأولى من السنة التي أتي مصر فيها . هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فقد ذكر أوتيخا (ص ٧٦) أم مدة ولاية مُحَّد بن سليمان دامت نحو من ستة أشهر ، خلفه بعدها عيسى النوشري . على أننا نشك في صحة هذا القول ، لأن هذا المؤرخ لم يعين الوقت الذي بدأت فيه ولاية مُحَّد بن سليمان فعلا .
وقد تكلم ابن الأثير (ج ٨ ص ١٣) عن هذه الحادثة باسهاب ، ونقل عنه ، على ما يظهر ، بعض من أتى بعده من المؤرخين كابن خلدون والمقريزي . قال ابن الأثير إن عبدالله لما وصل الى مصر ، أشار عليه بعض رجال الحاشية في بلاط النوشري ، ممن أعتنق مذهب الشيعة ، أن يحذر من أن يقبض عليه رجال السلطة في مصر . وبالرغم من هذا التحذير فقد قبض عليه النوشري وهو في طريقه إلى بلاد المغرب ، ولكنه أطلقه لورعه ، أو كما قال ابن الأثير ، لمال

وقد زادنا ابن الأثير بيانا في هذه المسألة، فقال إن عبيد الله لما رحل عن سلمية، حمل معه مالا عظيما استطاع أن يرشو به الولاة في طريقه إلى سجلماسة ويأمن الوقوع في أيديهم [٢]. ويظهر لنا أن ابن الأثير قد نقل هذه العبارة عن عريب بن سعد [٣] الذي يقول إن مُحَّد بن سليمان قبض على عبيد الله المهدي وأخذ منه مالا فأطلقه. ونحن نرجح صحة هذا القول، اذا عرفنا كيف استطاع عبيد الله أن يأمن القبض عليه في مصر، وفي طرابلس أيضا، حيث كتب أميرها الى زيادة الله ابن الأغلب — وقد أمر بالقبض على عبيد الله — يقول إن عبيد الله هذا قد غادر المدينة، وأن لا سبيل إلى اللحاق به.

على أنن مسألة إلقاء القبض على عبيد الله في سجلماسة على يد أميرها إنما ترجع إلى سبب واحد، هو أن الرشوة لا تجدى مع هذا الأمير بحكم مركزه وما لصفة الإمارة في

أخذه منه . ولم تكن سلطة الوالى الجديد (عيسى النوشري) تستقر مدة ثلاثة شهور ، حتى سلبها منه ابن الخليج أحد قواد الطولونيين ن الذي انتزع منه نفوذه زهاء ثمانية شهور (سبعة شهور وعشرون يوما على ما ذكره المقريزي في خططه (ج ١ ص ٣٢٧) بعد أن استولى على الفسطاط ، الذي ظل في يده إلى أن قبض عليه في رجب سنة ٢٩٣ (الطبرى ٣ : ٢٢٦٧) وبعذ به وبغيره من الثوار إلى بغداد ، فغدا عيسى بحيث يستطيع استرداد سلطته ويتحول الى الفسطاط وسنزل بدار الامارة .

أما إلقاء القبض على عبيد الله وإطلاقه ، فلا بد أن يكون حدوثهما قد تم إما في مدة ولاية مُحَّد بن سليمان (محرم — رجب سنة ٢٩٢) أو في مدة ولاية عيسى النوشري (جمادي الثانية — ذو القعدة سنة ٢٩٢) — وقد دامت ولايته ، على ما ذكره الكندي (ص٢٦٧) ، إلى أن مات سنة ٢٩٧ هـ .

وعليه ، فان ما ذكره عريب من أن عبيد الله سار إلى بلاد المغرب في مدة ولاية مُحَّد بن سليمان ، لا يترك مجالا للشك في وقوع هذه الحادثة سنة ٢٩٢ هـ ، بعد الانتصارات التي حازها أبو عبدالله الشيعي في شمال إفريقية سنة ٢٩١ هـ كما سبق بيانه .

ونحن نرى أن مُحَّد بن سليمان — لا عيسى النوشري — هو الذي قبض علي عبيد الله المهدي . يؤيد هذا الرأي ما أورده أوتيخا (ص٧٧) عن مُحَّد بن سليمان مما يؤيد أيضا ما ذهب اليه عريب بن سعد . وتتلخص عبارة اوتيخا في أن الخليفة العباسي المكتفى قبض على مُحَّد بن سليمان ، إذ اتهمه بمال أخذه من خراج مصر . وهذه العبارة ترجح ما ذهبنا اليه من أن مُحَّد بن سليمان هو الذي قبض على عبيد الله ثم أطلقه لمال أخذه منه ز هذا فضلا عن أن عريب بن سعد أقدم من كتب عن هذا الموضوع (بعد أوتيخا والكندي) من المؤرخين . ولا شك في أن عبارته التي خلفها لنا مما يقام له وزن ويجزم بصحته إذا ما قيست بأقوال غيره

(١) عريب بن سعد (ص ٥٢)

(٢) ابن الأثير (ج ٨ ص ١٣ و ١٤)

(٣) ص ٥٢

نفسه من هيبة وحرمة.

هذا، ولقد أجمع المؤرخون على أن أبا عبدالله الشيعي أرسل في سنة ٢٩١ هـ إلى عبيد الله بمال كثير مما حصل عليه في حروبه من أسلاب وغنائم.

(ج) أبو عبدالله ونجاحه في فتوحه :

أخذ أبو عبدالله الشيعي يواصل فتوحه منذ رحلت رسله الى عبيد الله المهدي، وغدا للحروب التي نشبت بين زيادة الله وداعي الشيعة شأن أجل وأعظم. وفي سنة ٢٩٥ هـ (٩٠٧ م) مد أبو عبدالله نفوذه على معظم أرجاء بلاد المغرب. وفي يوم الأحد مستهل رجب سنة ٢٩٦ هـ دخل داعي الشيعة مدينة رقادة (وتقع جنوبي القيروان، وهي من أعمال تونس الآن) واستقر في دار الإمارة. وبهذا تكللت أعمال الداعي بالنجاح [١] .

أمر الداعي بعدئذ بجمع ما كان لزيادة الله من مال وسلاح وغيره، ولما كان يوم الجمعة أمر الخطباء في القيروان و رقادة فخطبوا، وأبطل ذكر اسم الخليفة العباسي في الخطبة. وبهذا زالت سلطة العباسيين الاسمية والفعلية عن هذه البلاد. وأمر الداعي بالسكة فضربت من غير أن ينقش عليها اسم [٢]، بل جعل في أحد وجهيها : " بلغت

---

[١] عريب بن سعد (ص (٥٢) ، والبكري (ص ٢٧)

[٢] ذكر الدكتور أوليري (dr . oleary , p . 63) ، عند كلامه عن الخطة التي سلكها أبو عبدالله الشيعي بعد دخوله مدينة وقادة ، " أن الطقوس الدينية أدخلت في الخطبة ، فزيدت عبارة " حي على خير العمل " ، وأضيفت إليها أسماء " على وفاطمة والحسن والحسين " . ويظهر أن الدكتور أوليري أخذ هذه العبارة عن كتاب نيكلسن المسمى " تأسيس الدولة الفاطمية في إفريقية " (Nicholson , j . :establishment of the fatimite dynasty in Africa) وقد أخذها في كتابه أيضا دي ساس (de sacy : expose de la religion des druzes , t . l . p . cclxxii). وهذا الكتاب عبارة عن ترجمة ما ورد بكتاب " صلة تاريخ الطبري " لعريب بن سعد القرطبي عن تأسيس الدولة الفاطمية في بلاد المغرب مع شرح بعض الحقائق التاريخية . على أن هذه العبارة لم يرد لها ذكر في النص العربي الذي طبعه مسيو دي غويه (de goje) ، ولا توجد الا في كتب من جاء بعد عريب بن سعد من المؤرخين، كيحيى بن سعيد (ص ١٠٧) وابن الأثير (ج ٨ ص ١٧) وابن خلدون (ج ٤ ص ٣٦) والمقريزي (خطط ج ٢ ص ١١) واتعاظ الحنفا (ص٣٨) . ويظهر أن دي ساسي (expose , t. l. p . colxxii) اعتمد على ما ذكره ابن الأثير الذي قال انه لم يرد لهذا ذكر في الخطبة ولا على السكة حيث يقول : " ولما حضرت الجمعة أمر الخطباء بالقيروان ورقادة فخطبوا ، ولم يذكروا أحدا ، وامر بضرب السكة والأ ينقش عليها اسم ز ولكنه جعل مكان الاسم : " بلغت

حجة الله "، وفي الوجه الآخر : " تفرق أعداء الله " ن ونقش على السلاح : " عدة في سبيل الله "، ووسم الخيل على أفخاذها : " الملك لله " [1].

(د) إطلاق عبيد الله من سجلماسة :

ظل عبيد الله في حبسه بسجلماسة، وأبو عبدالله الشيعي يواصل حروبه وفتوحاته. فلما تم لداعي الشيعة الفتح والنصر ن سار في قوة كبيرة الى سجلماسة لأطلاق عبيد الله. وفي اليوم التالي ليوم وصوله، اتصل بمسامع الداعي نبأ هرب اليسع من مدرار أمير هذه المدينة ليلا، وقد حمل معه أقاربه وأمتعته ؛ فأطلق الداعي من فوره عبيد الله المهدي وابنه أبا القاسم.

ولقد حامت حول إطلاق عبيد الله الشبهات وتباينت فيها أقوال المؤرخين. فذهب البعض إلى أن الداعي علم بقتل عبيد الله، فجاء برجل يهودي أظهره للناس باسم المهدي. وليت شعري أين كان أبو القاسم الذى ولى الخلافة بعد أبيه ؟ ولم لم يلها في ذلك الوقت، وقد ككان في سن يستطيع معها الاضطلاع بأعباء الحكم ؟ يدلك على صحة هذا القول ما كان من مسير أبي القاسم هذا على رأس جيش من المغاربة لغزو مصر في سنة ٣٠١ هـ وما بعدها، أي بعد هذه الحادثة بنحو أربع سنين.

(ه) تقلد المهدي زمام الحكم :

كان معنى إطلاق عبيد الله المهدي من سجنه بسجلماسة في ٧ رجب سنة ٢٩٦ هـ زوال سلطان بني مدرار في سجلماسة، وبني رستم في تاهرت [2] والاغالبة في تونس،وقيام الدولة الفاطمية في شمال إفريقية الذي خرج عن سلطان العباسيين.

حجة الله " ، وعلى الوجه الآخر : " تقرف أعداء الله " ، ونقش على السلاح : " عدة في سبيل الله " . ورسم الخيل على أفخاذها : " الملك لله " وأقام على ما كان عليه من لبس الدون الخشن والقليل من الطعام الغليظ " .

[1] يحيى بن سعيد (ص١٠٧) وابن الأثير (ج ٨ ص ١٧) .

[2] تأهرت أو تبهرت اسم لمدينتين متقابلتين استولى عليهما الداعي سنة ٢٩٦ هـ ، بعد أن ملكهما بنو رستم زهاء مائة وثلاثين سنة . وكان بها أسواق عامرة وحمامات كثيرة . وكان ميمون بن عبدالوهاب بن رستم بن بهرام (وبهرام مولى عثمان بن عفان) صاحب تاهرت ، رأس الأبضية وأمامهم ، وكانوا يسلمون عليه بالخلافة .

قرب المهدي من رقادة، فتلقاه أهلها وأهل القيروان ؛ وسار بين يديه أبو عبدالله الشيعي ورؤساء كتامة، فسلموا عليه بالخلافة وبايعوه على الطاعة. ونزل ١لك الخليفة الفاطمي الجديد بقصر من قصور رقادية. وفي يوم الجمعة أمر باسمه فذكر في الخطبة على منابر البلاد، وتلقب بالمهدي أمير المؤمنين ؛ وجلس في ذلك اليوم رجل يعرف بالشريف ومعه الدعاة، ودعوا الناس إلى مذهب الإسماعيلية، فدخل فيه الناس طوعا وكرها.

ولم يلبث المهدي أن قسم على رؤساء كتامة أعمال إفريقية. وسرعان ما دون الدواوين وجبي الأموال، فاستقرت قدمه ودانت له البلاد.

(و) أبو عبدالله يلاقي ما لاقاه أبو مسلم :

لا شك في أن الدولة الفاطمية تدين بظهورها ووجودها في عالم الدول المستقلة لداعي الشيعة الذي تأسست هذه الدولة بفضل جهوده وحسن سياسته. على أن حظ هذا الرجل، مع ما عرف عنه من غيرته وانتصاره للدعوة الفاطمية، كان حظ أبي مسلم الخرساني الذي كان في حقيقة الأمر شخصية بارزة وعاملا قويا من عوامل تأسيس الدولة العباسية.

ويعزو المؤرخون قتل أبي عبدالله الشيعي إلى أنه لما دانت البلاد للمهدي واستقامت له الأحوال كف يد أبي عبدالله الشيعي ويد أخيه أبي العباس ؛ فداخل أبا العباس الحسد واستمال أخاه إليه، وأخذا يحرضان معا على المهدي، واتفقا على قتله. فوصل خبر هذه المؤامرات إلى مسامع المهدي ؛ ففرق أنصارهما في البلاد وأمر بهم فقتلوه، ثم قتل أبا عبدالله الداعي وأخاه (الاثنين ١٥ جمادى الثانية سنة ٢٩٨).

الباب الثاني

وصول الفاطميين إلى مصر

١- من هم الفاطميون ؟

(ا) آراء طائفة من مؤرخي الإفرنج

إن لفظ الفاطميين الذي عرف به أولاد عبيد الله مهدي، يشعر في بادئ الرأي بأنهم من أولاد فاطمة بنت النبي صلي الله عليه وسلم ؛ فهم علويون أيضا. على أن مسألة نسب هذه الأسرة كانت – ولا تزال – موضوعا كثرت فيه آراء جمهور الكتاب والمؤرخين الأقدمين والمحدثين، لما كان من انحياز الكتاب من العرب إلى القول بما يوافق نزاعاتهم السياسية وميولهم الدينية، بعيدين عن الحقيقة. ففريق ذهب الى القول بصحة هذا النسب، وفريق ناقض هذا القول فجزم بعدم صحته.

بيد أن بحث المحدثين من المؤرخين لهذا الموضوع لم يسفر عن نتيجة حاسمة نظرا لما خلفه لنا المؤرخون الأقدمون من أقوال كثيرة متباينة. وليست مسألة نسب الفاطميين إلى ابن ميمون القداح، أو الى إسماعيل بن جعفر الصادق، مسألة جوهرية لهذا البحث ؛ ولكن يحسن بنا ألا نمر عليها مر الكرام من غير أن نعير هذه الدعاوى التي أقامها الفاطميون لإثبات صحة نسبهم شيئا مما هي جديرة به من عناية واهتمام.

لقد حاول دي ساسي في كتابه (desacy : expose de la religion des druzes، paris، 1835) أن يلقي قبسا من النور على هذا الموضوع. وكان المصدر الأصلي الذي أعتمد عليه هذا المؤرخ، هو هذه الشذرات الهامة التي كتبها الشريف أخو محسن [١]، ونقلها عنه ابن النديم [٢] ن ونسبها خطأ إلى ابن رزام ن فظن أنها له ؛ وهؤلاء

[١] هو محمد بن على بن الحسين بن أحمد بن إسماعيل بن محمد بن جعفر الصادق .

[٢] كتاب الفهرست (ج ١ ص ١٨٦ وما يتبعها) .

جميعا عاشوا في القرن الرابع الهجري.

ولقد نقل النويري في " نهاية الأرب " [١] والمقريزي في " اتعاظ الحنفا " [٢] عبارة أخي محسن. على أن فيما أورده لنا المقريزي [٣] من أنه قرأ هذا الكتاب بنفسه ووصفه بأنه يقع في مجلد واحد في أكثر من عشرين كراسة، ما يحملنا على عدم الأخذ بصحة نسبة هذه الشذرات الى ابن رزام.

ولقد حاول آخرون غير دي ساسي، من أمثال وستنفلد (wustonfeld [٤] ودى غويه (de goeje) [٥] أن يزيدوا هذا الموضوع بيانا ؛ ولكن ما صادفوه من نجاح في هذا السبيل لم يتعد زيادة عدد المصادر التي اعتمد عليها من تقدمهم من الكتاب ممن تصدوا لبحث هذا الموضوع.

وهنا يجدر بنا أن نشير إلى هذه الحقيقة، وهى أن هؤلاء المؤرخين لم يهتدوا الى رأي قاطع فيي هذه المسألة، كما أنهم انساقوا مدفوعين بميولهم الشخصية، فلم يجمعوا على رأي واحد في صدد هذا النسب. ويظهر أن ما قام به فايل ((weil ووستنفلد ((wustenfeld في استقصاء هذا الموضوع لم يتعد نقل حقائق تاريخية لغيرهم، دون أن يبينوا رأيهم الخاص.

أما دي ساسي ((de sacy فانه يميل الى الأخذ بصحة نسب الفاطميين إذ يقول : " وهنا يتسنى للمرء أن يضيف على هذه الأدلة التي أوردها المقريزي أنه اذا كان عبيد الله دعيا، ولم يكن من سلالة علي، فان أبنائه الحقيقيين الذين لم يتطرق اليأس الى نفوسهم قد بأنه سيأتي يوم يستطيعون فيه أن يكشفوا للناس عن أحقيتهم في الامامة، لا بد أن تتاح

---

[١] المكتبة الاهلية بباريس ، مخطوط ١٥٧٦ ، ورقة ٤٧ (ب) وما يتبعها .

[٢] ص١١ – ١٤

[٣] شرحه (ص ١١)

[٤] Geschichte der fatimiden – chalifen , pp . 3 – 12

[٥] Memoires sur les carmathes du Bahrain et les fatimides , leyden , 1886

لهم الفرصة لإماطة اللثام عن صحة نسبهم وأحقيتهم " [١].

أما دي غويه (de goeje)[٢] فانه اعتبر أن ابن ميمون هو مؤسس مذهب القرامطة وجد الخلفاء الفاطميين حيث قال : "كانت لهذه الجرثومة الصغيرة القوية قوة هائلة، هي أن حزبا خامل الذكر عند ظهوره يصبح بعد قليل أسرة حاكمة، وينتهي بفتح كافة أرجاء بلاد الخلافة في الغرب... إلى أن يقول : فانه حول منتصف القرن الثالث من الهجرة، قام عبدالله بن ميمون القداح بنشر تعاليم هذا المذهب... الخ ". ويقول دي غويه في موضع آخر : " إذا ما تناولنا الكلام على الفاطميين والقرامطة، فإنما نتكلم عن طائفة واحدة "[٣].

أما وستنفلد فقد ختم عبارته المسهبة عن نسب الفاطميين بهذه الكلمات التي تبين لك انه قد تردد في تكوين رأي قاطع في هذه المسألة، بسبب ما جاء عنها من آراء كتاب العرب المتناقضة المتضاربة، حتى ما ذاع منها بين العلويين أنفسهم. ويظهر لنا أن وستنفلد يميل إلى الأخذ بالرأي القائل بنسبة الفاطميين إلى الامام المهدي المنتظر فيقول : " وكل ما يمكن قوله، هو أن هذا النسب الى الامام المنتظر محتمل بعض الاحتمال، بالرغم من وجود هذه الحجة العديمة القيمة، وهى عدم اعتراف الشيعيين بهذا النسب " [٤].

(ب) رأي الطاعنين في صحة النسب

ينتسب عبيد الله المهدي – على ما ذهب اليه أخو محسن وغيره ممن نقل عنه أو لم يميلوا الى القول بصحة نسب الفاطميين – الى ميمون بن ديصان الثنوي المذهب الذي ينتسب اليه الثنوية القائلون بوجود إلهين : إله النور وإله الظلمة.

وقد خلف القداح ابنه عبد الله ؛ ووصفه المقريزي فقال إنه كان عالما بجميع الشرائع والسنن والمذاهب. وقد اعتنق عبدالله هذا – على ما ذهب اليه أخو محسن – مذهب

---

(١) De sacy : expose de ls religion des druzes , introduotion , p . 251

(٢) Memoires sur les carmathes du Bahrain , etc , p . 1

(٣) Tbid , pp . 2 , 3

(٤) Wustenfeld : gescbichte der fatimiden- chalifen , pp . 14 , 15

الشيعة، لا للدعوة الى إمامة إسماعيل بن جعفر الصادق، أو الى ابنه مُحَمَّد، بل لحية اتخذها ليجمع حوله أتباعا ؛ بمعني انه اتخذ من هذه الدعوة وسيلة لتنفيذ أغراضه، وهى تكوين دولة فارسية [١].

وقد ذهب الأستاذ نيكلسن (prof. r. Nicholson) الى القول بأن تأسيس الدولة الفاطمية، كان أقصى ما وصلت اليه هذه المؤامرة القوية الدعائم، التي تم تنظيمها بمهارة فائقة، والتي شرع عبدالله بن ميمون القداح الأهوازي الفارسي الأصل يروج لها قبل ذلك بنصف قرن، وقد تملكت نفسه الكراهة في أبشع صورها للعرب ، والاحتقار للإسلام والمسلمين، مدفوعا الى ذلك بما يعيه من حريه الفكر والعقيدة. وفد عمل على إيجاد جمعية سرية كبيرة تلقن الناس جميعا مبادئها كلا على قدر عقله واستعداده، وتعبث بأشد الميول وأقوالها، وتغرر بكافة عوامل الضعف الكامنة في الطبيعة البشرية، للجمع بين كل الساخطين في صورة مؤامرة ترمي إلى قلب النظام الحاضر " [٢].

وهذا كله مما حدا بعبدالله بن ميمون – على ما ذهب اليه دوزي (dozy) – " الى العمل كله استخلاص الحكم، ان لم يكن لنفسه، فلأولاده من بعده ؛ وهذه فكرة – إن صحت – تعد فكرة عظيمة، لأنها تنطوي على الجرأة والإقدام. وقد ساعد على تحقيقها ما وهبه هذا الرجل من مهارة وحيلة ودراية تامة بما في قلوب الناس [٣] ".

تأييد الفرس للعلويين

أما عن تعلق الفرس بأهداب عقائد المذهب الشيعي أو حزب علي، فقد أوضح لنا الأستاذ براون (broowe، e،prof السبب الذي استمالهم الى ذلك، معتمدا على ما ذكره جو بينو (gobinean في هذا الصدد حيث يقول : " إنني أعتقد أن جو بينو قد أصاب فيما قاله، إن نظرية الحق الإلهي وحصرها في البيت الساساني كان لها تأثير عظيم في تاريخ الفرس في العصور التي تلتها. ولقد جاءت فكرة انتخاب متمشية بطبيعتها مع

---

(١) المقريزي ، خطط (ح ١ ص ٣٤٨)

(٢) Prof , r . Nicholson : literary history of the arabes , pp . 271 – 272

(٣) Dozy : histoire des musulmans de espagne , vol . I . p . p. 8 seq >

ديمقراطية العرب ؛ غير أنها لا يمكن أن تظهر في نظر الفرس الا بمظهر صوري غير مطابق لطبائع الأشياء. أضف الى ذلك ما كان من نزعة السخط والكراهة التي أضمرها هؤلاء الفرس لعمر، ثاني الخلفاء الراشدين ومقوض دعائم الإمبراطورية الفارسية. وإن هذه النزعة وان تسترت بستار الدين، فلن يفوت الباحث تفهم سرها ومراميها . هذا من جهة، ومن جهة أخرى فان الحسين، وهو أصغر ولدى فاطمة بنت النبي وعلى ابن عمه ، قد قالوا إنه قد تزوج من شهر بانوه ابنه يزدجرد الثالث آخر ملوك آل ساسان. ومن هنا أصبح الأئمة من حزب الشيعة بقسيمة (طائفة الاثني عشرية الشائعة الآن في بلاد فارس، وطائفة السبعية أو الإسماعيلية) لا يمثلون حق النبوة فقط، بل يمثلون الملك أيضا، لأنهم من سلالة النبي مُحَمَّد آل اساسان معا "[1].

من ذلك تولدت هذه النظرية السياسية التي تشير اليها جو بينو في العبارة الآتية حيث يقول :

" كانت هذه النظرية عقيدة سياسية غير متنازع فيها عند الفرس، وهى أن العلويين وحدهم يملكون حق حمل التاج، وذلك بصفتهم المزدوجة، لكونهم وارثي آل ساسان من جهة أمهم بيبي شهر بانوه ابنة يزدجرد ملوك الفرس، والأئمة رؤساء هذا الدين حقا "[2].

كيف سار عبدالله بن ميمون في تحقيق أغراضه ؟

أظهر عبدالله بن ميمون القداح، الذي يرى بعض المؤرخين نسبة الفاطميين اليه، الزهد والتقشف، والعلم والتشبع ؛ فحاز ثقة الناس ونجح في تأسيس جمعية خيرية. ثم أخذ بعلم الناس أسرار الدعوة التي قسمها الى سبع درجات (وزادت فيما بعد حتى بلغت تسعا في أيام الفاطميين)، فكثر أنصاره.

وكان عبد الله ودعاته يعملون الناس – كما قدمنا – كلا على قدر عقله ودينه ومذهبه. فكان الداعي يبدأ بإظهار بعض مشكلات القرآن ؛ حتى اذا ما طلب منهم أن

---

(1) Prof . browne : literaty history of Persia , vol . vol . I . p . 130

(2) Gobineau : religion et philosophie dans l asie central , p . 275

يدفعوا ضريبة مقررة تساعده على نشر مذهبه.

واذا تم للداعي ما أراد، دخل بالطالب في المرحلة الثانية ؛ ومؤداها أن فرائض الإسلام لا تؤدي إلى مرضاة الله، إلا اذا كانت عن طريق الأئمة السبعة من ولد إسماعيل بن جعفر الصادق. فاذا وصل الطالب الى المرحلة الرابعة، اعتقد أن مُحَّد بن إسماعيل هو خاتم النبيين؛ ومن تقدم هذه المرتبة لا يعلم سوى نظريات فلسفية لا تمت للإسلام بشيء، حتى يصل به الاعتقاد الى أن مُحَّد بن إسماعيل هو عبدالله بن ميمون، وأنه بمنزلة هرون من موسى، أو بمنزلة على من مُحَّد.

اتصل بالوالي خبر عبدالله بن ميمون، فقصده بالسوء ؛ ففر من فارس الى البصرة قبل سنة ٢٦١ هـ (٨٧٤ م)، وأقام في أسرة عقيل بن أبي طالب، فحامت حوله الشبهات ؛ فرحل الى الشام وأقام في سلمية حيث ولد له أبن سماه أحمد ؛ فخلفه بعد وفاته.

ولما مات أحمد هذا، خلفه في الدعوة ابنه الحسين ؛ ولكنه مات بعد قليل، فقام من بعده أخوه مُحَّد المعروف بأبي الشلعلع، وهو الذي بعث إلى بلاد المغرب بأبي عبدالله الشيعي وأخيه أبي العباس اللذين قدمنا خبرهما.

وكان لأحمد بن الحسين ولد أسمه سعيد، أصبح في حجر عمه بعد وفاة أبيه. وقد اشتهر أمر سعيد هذا بعد وفاة عمه وكثر ماله وأنصاره، حتى اضطر الخليفة العباسي المعتضد الى التشديد في طلبه ؛ ففر من سليمة يريد بلاد المغرب عن طريق مصر، فحبسه أمير سجلماسه — على ما ذكرنا — وظل في حبسه إلى أن أطلقه أبو عبد الله الشيعي وذهب به الى رقادة حيث تسمى بالمهدى وتلقب أمير المؤمنين، وانتسب إلى إسماعيل بن جعفر الصادق.

هذا ما ذهب اليه من ينكرون صحة نسب عبيد الله المهدي الى على وفاطمة، إذ يقولون أن عبيد الله المهدي هو سعيد بن الحسين بن أحمد بن عبدالله بن ميومن القداح بن ديصان الثنوي الأهوازي، وأصله من المجوس.

وليس هذا كل ما يقوله الذين أنكروا صحة نسب الفاطميين. فقد ذكر أخو محسن أن سعيدا أو عبيد الله –كان ابن حداد يهودي مجهول، تزوجت أرملته بعد وفاته بالحسين بن أحمد بن عبدالله ابن ميمون ؛ فتبني سعيدا، وأدبه وعلمه أسرار مذهب الإسماعيلية، وأوصى الدعاة بطاعته، وزوجه ابنة عمه أبي الشلعلع [١].

ولقد ذاع قول أخي محسن وأخذ به المؤرخون الذين لا يميلون الى القول بصحة نسب الفاطميين، مثل أبي بكر الباقلاني [٢] المتوفي سنة ٤٠٣ هـ (١٠١٢ م)، وابن خلكان المتوفي سنة ٦٨١ هـ (١٢٨٢ م)، وابن واصل [٣] المتوفي سنة ٦٩٧ هـ (١٢٩٧ م)، والذهبي المتوفي سنة ٧٤٨ هـ (١٣٤٨ م) في كتابه " تاريخ الإسلام ".

وقد ذكر ابن خلكان أن جماعة من أهل مصر أهل مصر طعنوا في نسب المعو واتصاله بعلي بن أبي طالب، حتى ان هذا الخليفة لما وصل مصر، اجتمع به بعض الأشراف وسأله أحدهم، وهو ابن طباطبا : " الى من ينتسب مولانا ؟ " فأجابه المعز بأنه سيعقد مجمعا يضم كافة الأشراف ويسرد عليهم نسبه. حتى اذا ما أنعقد المجلس في القصر، سل المعز سيفه إلى النصف وقال : " هذا نسبي " ؛ ثم غمرهم بالذهب الكثير الكثير وقال : " وهذا حسبي ".

ومن هنا نشأ القول المأثور " سيف المعز وذهبه " للإشارة الى بطلان الشيء أو أنه مأخوذ كرها.

---

(١) المقريزي ، اتعاظ الحنفا (ص ٢١ و ٢٢)

(٢) كتب القاضي أبو بكر الباقلاني كتابا سماه " أسرار الباطنية " ، وهو الكتاب الذي أشار اليه المقريزي (المقفى الكبير ، المكتبة الأهلية بباريس ، مخطوط ٢١٤٤ ، ورقة ١٦٦ ب) . وفي هذا اكتاب حمل البقلاني على الفاطميين وأنكر صحة نسبهم . وتوفى ، على ما ذكر ابن خلكان (– ٠ ص ٦٠٩) ، في بغداد سنة ٤٠٣ هـ (١٠١٢ م) .

انظر أيضا أبا الفدا (ج ٢ ص ١٥١) ، ووستنفلد (– **wustenfeld : geschiohte der fatimiden chalifon , p . 11**

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب في أخبار بني أيوب ، المكتبة الأهلية بباريس ، المخطوط ١٧٠٢ ، ورقة ٢٣٠ ب – وقد روى أبو المحاسن (المجلد الثاني ج ١ رقم ١ ص ٩٠) بعض ما جاء بكتاب ابن واصل عن هذا الموضوع .

ولقد أنكر دي سلين (**de salne**) [١] بالدليل صحة هذه الرواية ؛ لأنه لما وصل المعز مصر سنة ٣٦٢ هـ (٩٧٢ م) كان ابن طباطبا قد مات سنة ٣٤٨ هـ (٩٥٩ م)، أي قبل أربع عشرة سنة، على ما ذكره ابن خلكان في موضع آخر [٢].

ولقد نقل ابن خلكان أيضا حكاية أخرى تبين لك مبلغ انكار المصريين صحة نسب الفاطميين. ذلك أن العزيز ٣٦٥ – ٣٨٦ هـ (٩٧٥ – ٩٩٦ م) صعد المنبر يوم الجمعة في أوائل أيام خلافته، فرأى ورقة فيها هذه الأبيات :

إنا سمعنـــــا نســـــبا منكـــــرا	يتلـــى علـــى المنـــبر في الجـــامع
إن كنـــت فيمـــا تـــدعى صـــادقا	فـــاذكر ابا بعـــد الأب الرابـــع
وإن تـــرد تحقيـــق مـــا قلتـــه	فانســب لنــا نفســك كالطــائع[٣]
أو فـــدع الأنســـاب مســـتورة	وادخــل بنــا في النســب الواســع
فـــإن أنســـاب بـــني هاشـــم	يقصــر عنهــا طمــع الطــامع [٤]

وقد روي لنا الثعالبي حكاية أخرى تؤيد هؤلاء المؤرخين إذ يقول أن عبد الرحمن الثالث الأموي الأندلسي تلقى من العزيز كتابا يسبه فيه ويهجوه، ليس لسبب نعرفه ؛ فكتب إليه عبدالرحمن : " أما بعد، فقد عرفتنا فهجوتنا، ولو عرفناك لأجبناك " [٥].

(ج) أقوال المثبتين لصحة النسب

لقد خالف كثير من الكتاب والشعراء وغيرهم من ذوى الرأي والجاه من أولاد على بن أبي طالب، ما ذهب اليه من ذكرنا من المؤرخين الذين ينكرون نسب الفاطميين الى على وفاطمة إذ اعترفوا بصحة هذا النسب. فيكون نسب عبيد الله المهدى، على ما ذهب إليه هؤلاء المؤرخون وغيرهم كما يلي : عبيد الله (أو سعيد) المهدي بن أحمد بن

---

(١) **Ibu khailikau s biographical dictionary : English translation , vol . ii . p . 49 , n . 7**

(٢) ج١ ص ٣٢٦

(٣) هو الخليفة العباسي ٣٦٣ – ٣٨١ هـ (٩٧٣ – ٩٩١ م) .

(٤) ابن خلكان (ج ٢ ص ٢٠٠) .

(٥) الثعالبي : يتيمة الدهر (ج ١ ص ٢٢٤) .

اسماعيل بن جعفر الصادق [1].

والآن نأتي بأمثلة صالحة من أقوال الشعراء والكتاب المعاصرين للفاطميين، ممن تصدوا للكلام على هذا الموضوع ؛ فنذكر الشريف الرضي العلوي [2]، وانصري خسرو [3] الاسماعيلي المذهب المتوفي سنة ٤٨١ هـ، بل وعمارة اليمني الشاعر المشهور المتوفي سنة ٥٦٩ هـ، وكان من غلاة أهل السنة كما سيأتي بيانه في الباب الرابع عند كلامنا على ما قام به هذا الشاعر في سبيل تأييد سلطان الفاطميين.

أجل ! لقد طعن كثير من المؤرخين والكتاب في نسب مؤسس هذه الأسرة، مما جعل هذه المسألة من أعقد مسائل تاريخ الشرق وأكثرها غموضا وإبهاما، لتشعب آراء الكتاب المعاصرين من العرب على اختلافهم ؛ لأنهم كتبوا متأثرين بسطوة الخلفاء من العباسيين أو من الفاطميين، ذلك الأمر الذي أدى بهم الى ايراد هذه الآراء التاريخية المتناقضة.

وقد أشار كتر مير (quatremere) في كلامه عن أصل الفاطميين بهذه العبارة : " بيد أنه لسوء الحظ، فان بعد الزمن، وما ساد العقول من أوهام، وما تسلط على نفوس الرجال من نزعات وميول، وما أدلى به المؤرخون من أدلة متناقضة متضاربة : فريق ألف وكتب متأثرا بسلطان الخلفاء العباسيين، فريق آخر قام بها العمل مجازين أعداء هذه الأسرة – كل ذلك أحاط هذه المسألة بظلام دامس، لا يستطيع مشعل النقد كشفه إلا بشكل ناقص مبتور ".

Mai، par malheur، l'eloignement des temps، les prejudges، les passions des homes، les temoignages contradictoires des chroniqueurs، don't lees uns

---

[1] هناك اقوال كثيرة مختلفة وردت عن نسبة الفاطميين الى اسماعيل بن جعفر ؛ ولا حاجة بنا الى استقصائها هنا

[2] أبو الحسن محمَّد بن على بن أحمد بن الحسين بن موسي بن محمَّد بن موسي بن جعفر الصادق

[3] كان ناصري خسرو اسماعيلي المذهب ؛ زار مصر في القرن الخامس من الهجرة (الحادي عشر الميلادي .
وقد تكلم عن نفسه فقال انه وصل القاهرة في ٧ صفر سنة ٤٣٩ هـ (١٠٤٧ م) وأقام فيها الى يوم الثلاثاء ١٤ ذي الحجة سنة ٤٤١ هـ (ابريل سنة ١٠٥٠ م) . واعتبر القاهرة – كغيره من الإسماعيلية الغلاة – مركزا لهذا المذهب ، واعتقد أن الخليفة الفاطمي هو الامام حقا . وذكر هذه الحقائق في كتابه " سفر نامة " الذي سنأتي الإشارة اليه في الباب الذي يتناول الكلام على ثروة مصر ومبلغ رخائها .

ont ecrit sous l'influence des khalifes abbassides، d' antres sous celles des ennemis de cette dynastie، ont repandu autour de cette question des tenebres epaisses، que le flambeau de la critique ne saurait dissiper que d'une maniere imparfaite " [1].

وبالرغم من تباين آراء الكتاب الأقدمين في هذه المسألة ن فإنني أميل الى القول – ولو بشيء من التردد – الى أن نسب الخلفاء الفاطميين الى فاطمة صحيح، وانه بسبب هذا الغلو الذي ساد المعتقدات الفاطمية، هم مناظروهم يدحضون ما ادعوه من النسبة الى فاطمة، عسى أن يحط ذلك من شأنهم في أعين رعاياهم. ولا غرو فان التحيز ليظهر ظهورا بينا من ثنايا أقوال الكتاب من السنين، مما يجعل دحضه أمرا ميسورا. ولا بأس من أن نأتي في هذا الصدد بمثل أو مثلين من هذه الأقوال : فمن ذلك ما ذهب اليه السنيون من أن أبا عبدالله الداعي لم اعلم بقتل المهدي في سجنه بسجلماسة، أجلس على العرش رجلا يهوديا لا حيثية له، وادعى أنه الإمام المنتظر ز وهنا يتساءل المرء : ما هو الدافع الذي حمل أبا عبدالله الشيعي على عدم إجلاس أبي القاسم بن المهدي بعد وفاة أبيه ؟ كما نتساءل أيضا : ألم يجد أبو عبدالله الشيعي من يجلسه من المسلمين مكان عبيد الله حين علم بموته، وخصوصا بالنسبة لابنه ؟ ولقد كان هناك من العلويين من يصلح لهذا المركز بدلا من ذلك اليهودي الذي لا قيمة له، والذي لا ندرى كيف عثر عليه بهذه السهولة.

نعم ! لا شك في أن هذا العمل كان من السهولة بمكان ؛ فضلا عن أنه لم يكن ينطوي تحته إجراء تغيير أو تبديل في البيعة ؛ لأن حق المهدي يتحول بمقتضى قانون الشيعة الى ابنه بصورة طبيعية.

وهناك مثل آخر، وهو ما سبق أن أشرنا اليه من إحراج ابن طباطبا للمعز بسؤاله عن نسبه، وما كان من سل المعز سيفه قائلا : " هذا نسبي "، وتثيره الذهب الكثير قائلا : "

---

(١) **Journal asiatique , aout , 1836 , p101 , 102**

وهذا حسبي ".

هذا مثل من أقوالهم. ونحن نشك فيه كل الشك، إذا علمنا أنه لما وصل المعز مصر سنة ٣٦٢ هـ كان ابن طباطبا قد مات سنة ٣٤٨ هـ، أي قبل أربع عشرة سنة من مجيئه.

ولدينا من الحقائق التاريخية ما يؤيد قبول المذهب القائل بصحة نسب الفاطميين الى النبي. فقد ساعد اعتقاد الناس في صحة هذا النسب على نشر سلطة الفاطميين الروحية والزمنية — أو كليهما — في كثير من البلاد الإسلامية الى حد أن نجح الفاطميون في الحصول عل اعتراف الناس بهذه السلطة في أكثر بلاد الدولة العباسية، دون أن يجدوا معارضة من الرأي العام في ذلك الوقت.

وبدهي أن الوصول الى اعتراف الناس بأن المهدي وخلفاءه هم الأئمة حقا وانهم يتصلون بالنسب الى فاطمة، راجع الى النشاط الذي أبداه دعاة الفاطميين. ذلك أنه بعد تأسيس الدولة الفاطمية في القيروان بقليل، ذهب شعراء الأغالبة المتشيعون من أمثال ابن سعدون الورجيلي [(١)] إلى القول بصحة هذا النسب، كما يتبين ذلك من هذه الابيات التي أنشدها هذا الشاعر في حضرة المهدي عبيد الله وأبي عبدالله الشيعي داعى دعاته :

هـــذا أمـــير المـــؤمنين تضعضـــعت ... لقدومـــــه أركــــــان كـــــل أمـــــير
هـــذا الامـــام الفـــاطمي ومـــن بـــه ... أمنـــــت مغاربهـــــا مـــــن المحـــــذور
يامـــن تخـــير مـــن خيـــار دعاتـــه ... أرجــــاهم للعســــر والميســــور [(٢)]

ولم يفتر الخلفاء الفاطميون عن إجزال العطاء للشعراء الذين شادوا بذكرهم وأطنبوا في أحقيتهم بالإمامة. فليس من عجب إذا " أمر المهدي للشاعر بصلة جزيلة كانت تجرى عليه لكل عام، ووصله أبو عبدالله أيضا " [(٣)].

[(١)] يحتمل أن يكون هذا اللفظ مشتقا من ورجلان ، وهي كورة بين شمال إفريقية وبلاد الجريد التي يسكنها قوم من البربر ومجانة — البكري (ص ٧٧ و ١٨٢) وياقوت : معجم البلدان — انظر لفظ ورجلان .

[(٢)] كتاب المقفي الكبير — المكتبة الأهلية بباريس . مخطوط ٢١٤٤ ورقة ٢٢٣ ا و ب

[(٣)] كتاب المقفي الكبير — المكتبة الأهلية بباريس . مخطوط ٢١٤٤ ورقة ٢٢٣ ا و ب

هذا، وقد ذكر لنا مسكويه والمقريزي أن نصر بن أحمد الساماني أمير خرسان بعث الى المهدي بكتاب يعترف فيه بسلطته الروحية ويعد بإمداده بالرجال، كما يتبين من هذه العبارة : " أنا في خمسين ألف مملوك يطيعوني، وليس على المهدي بهم كلفة ولا مؤنة ؛ فان أمرني بالمسير سرت اليه، ووقفت بسيفي ومنطقي بين يديه وامتثلت أمره...... الخ " [(١)].

أضف الى ما تقدم ما كان من أمر يوسف بن أبي الساج أمر الري – إذا أخذنا بقول كاتبه مُحَمَّد بن خلف النيرماني – فقد فكر في خلع طاعة الخليفة العباسي المقتدي والدخول من طاعة الامام العلوي بالقيروان الذي كان أبو طاهر القرمطي على ما ذهب اليه ابن أبي الساج – من أصحابه وأنصاره. وقد أورد لنا مسكويه هذه الحكاية بشيء من التفصيل، ونحا المقريزي فيها منحى الإيجاز.

ولقد أخبر أبن أبي الساج – على ما ذكره مسكويه [(٢)] – مُحَمَّد بن خلف، انه متي جمع خراج واسط والكوفة وسقى الفرات عن سنة ٣١٤ هـ ن شق عصا طاعة الخليفة العباسي وأظهر الدعوة للمهدي، ثم دعا الناس الى الدخول فيما دخل فيه، وسار الى بغداد. فكتب مُحَمَّد بن خلف بذلك كله إلى نصر الحاجب، فأوصله الى مسامع الخليفة العباسي.

غير أنه يظهر لنا أن الخليفة لم يقم بأي عمل إزاء هذا الحادث ؛ بل علمنا بالقبض على ابن خلف ومصادر أمواله ؛ وعلمنا أيضا أن ابن أبي الساج كان يقود الجيوش العباسية ويحارب ضد أبي طاهر بظاهر الكوفة (شوال سنة ٣١٥ هـ)، وأن الهزيمة حلت بابن أبي الساج فأسر ثم أنتحر [(٣)].

وبالغم من أن عبارة مسكويه لا تدل على أن ابن أبي الساج لم يقم في هذه الحرب بعمل تشتم منه رائحة العصيان للخليفة العباسي، فان هذا الأمر لا يحول دون ما نراه،، وهو أنه كان يميل الى الدخول في دعوة المهدي، ولكن الفرصة لم تحن بعد لان يقوم

---

(١) كتاب المقفي الكبير – المكتبة الأهلية بباريس . مخطوط ٢١٤٤ ورقة ٢٢٣ ا و ب

(٢) (ج ١ ص ١٦٧ – ١٦٨) .

(٣) (ج ١ ص ١٧٣ وما يتبعها) .

بتحقيق مثل هذا العمل.

أضف الى ما تقدم أن مرداويج بن زيار الديلمي، أحد قواد الأصفر أمير قزوين، الذي طرد الأصفر واستولى على بلاده ثم فتح الري وأصبهان – وكانا من قبل تحت ولاية ابن أبي الساج – قد بعث بالرسل يحملون المال الكثير للمهدي في شمال إفريقية، وأعلن رغبته في الدخول في طاعته.

ولقد أورد لنا المقريزي عبارة موجزة نتبين منها اتجاه ميول هؤلاء الامراء الى ما ادعاه الفاطميون من حق في الخلافة، مما لا يترك مجالا للشك في أن نسب عبيد الله الى فاطمة كان أمرا معترفا به في ذلك الوقت ؛ وقد ختم المقريزي عبارته بقوله إن المهدي ظن أن الوقت لم يحن بعد لأن يطلب معونة هؤلاء الامراء، فنصح اليهم أن يلزموا مراكزهم، كما يظهر ذلك من هذه الكلمات التي كتبها المهدي بيده، نذكرها في عبارة المقريزي وهى :

" وبعث اليه نصر بن أحمد أمير خرسان يقول : أنا في خمسين ألفا يطيعونني...... وكتب اليه مرداويج الجبلي بمثل ذلك. وكتب اليه يوسف بن أبي الساج...... وأفذوا رسلهم مع الأموال إليه ؛ فوقع على ظهر كتبهم : " الزموا مراكزكم (لكم أجل كتاب) [١]".

أجل ! لقد بلغ نفوذ دعاة الفاطميين في بلاد الدولة العباسية مبلغا عظيما ؛ كما كان للعلاقات الودية التي سادت بين الفاطميين والقرامطة في هجر في أيامها الأولى أكبر الأثر في جذب كثيرين الى اعتناق مذهب الإسماعيلية في بلاد الدولة العباسية. يدلك على صحة ذلك هذا الحديث الذي دار بين على بن عيسى وزير القائم العباسي، ورجل من شيراز نمى الى الوزير أنه كان يتجسس لقرامطة البحرين ويكاتبهم. وقد دار الحديث في حضرة الوزير والقاضي والقواد ؛ وناظر هذا الشيرازي الوزير في هذه الكلمات التي ننقلها بنصها عن مسكويه :

---

[١] سورة ١٢ آية ٣٨

المقريزي : المقفي الكبير – المكتبة الاهلية بباريس ز مخطوط ٢١٤٤ ورقة ٢٢٣ ب .

" أنا صاحب أبي طاهر (القرمطي) ؛ وما صحبته الا لأنه (في الأصل على أنه) على حق، وأنت وأصحابك ومن (في الأصل وما) يتبعكم كفار مبطلون ؛ ولا بد لله في أرضه من حجة وإمام عدل ؛ وإمامنا المهدي فلان بن إسماعيل بن جعفر الصادق ؛ ولسنا (في الأصل وليس نحن) مثل الرافضة الحمقى الذين يدعون الى غائب منتظر " [(١)].

أما الطريقة التي لاقي بها هذا الرجل حتفه، فإننا نتركها لخيال القارئ. ويعلق بعض المؤرخين أهمية كبيرة على قصيدة الشريف الرضي ؛ إذا أثارت حنق الخليفة القادر، وأدت إلى عقد اجتماع الفقهاء وأقطاب العلويين، وكتب فيه محضر (في ربيع الثاني سنة ٤٠٢ هـ – ١٠١١ م) [(٢)].

وهذه القصيدة وان لم تظهر في ديوان الرضى بادئ الامر، فغن تناقل الكتاب لها على اختلافهم يدل على ثبوت نسبتها الى الرضى.

وقد نقل المقريزي [(٣)]عن هلال الصابئ وابنه مُحَمَّد، أن الرضى لم يودع ديوانه هذه القصيدة خوفا من الخليفة العباسي وإرضاء لأبيه. أضف الى ما تقدم ما كان من امتناع الرضى عن إنكار نسبة هذه القصيدة إليه، ومماطلته في التوقيع على المحضر حين طلب منه التوقيع. كل هذه حقائق تاريخية لها قيمة عظيمة من حيث اثبات صحة نسبة هذه القصيدة الى الرضي.

هذا إلى أن صرف الرضي عن النظر في المظالم ونقابة العلويين وإمارة الحج [(٤)]، وما كان أيضا من إجماع كثيرين من المؤرخين على نسبة هذه القصيدة اليه – كل ذلك يدحض قول البعض من أن هذه القصيدة التي نسبت الى الرضى لم تكن من نظمه. ولا بأس من إيراد بعض أبيات من هذه القصيدة :

---

(١) مسكويه (ج ١ ص ١٨١)

(٢) أبو الفدا (ج ٢ ص ١٥٠) وأبو المحاسن – المجلد الثاني (ج ٢ رقم ١ ص ١١٢ و ١١٣) . أبو المحاسن . المجلد الثاني (ج ١ ص ٢١٣ – ٢١٤) .

(٣) اتعاظ الحنفا (ص ١٦) .

(٤) المقريزي ، أتعاظ الحنفا (ص ١٥ و ١٦ نقلا عن هلال الصابي .

مـا مقـامي علـى الهـوان وعنـدي	مقولـــل صـــارم وأنـــف حمـــى
أحمـل الضـيم في بـلاد الأعـادي	وبمصـــــر الخليفـــــة العلـــــوى
مـــن أبـــوه أبي ومـــولاه مـــولا	ي إذا ضـــامني البعيـــد القصـــي
لـــف عرقـــي بعرقـــه سـيد النـــا	س جميعــــــا مُحَمَّد وعلــــــــى [1]

ولا يزال هناك فريق آخر من المؤرخين غير من ذكرنا، لا يتردد في القول بأن دعوى الفاطميين النسب الى على قائمة على أساس متين. نذكر من بين هؤلاء أبن الأثير المتوفي سنة ٦٣٠ هـ (١٢٣٤ م)، وابن خلدون المتوفي سنة ٨٠٨ هـ (١٤٠٥ م)، والمقريزي المتوفي سنة ٨٤٥ هـ (١٤٤١ م).

أما ابن الأثير فإنه يجعل لقصيدة الرضي أهمية كبيرة. هذا إلى ما كان من امتناعه ن انكار نظمها، ومن توقيعه على المحضر الذي طعن في نسب الفاطميين، وصرفه عن المناصب التي تقلدها من قبل الخليفة العباسي. وزاد ابن الأثير هذه المسألة بيانا فقال إنه ناقش مسألة هذا النسب مع جماعة من العلويين العالمين بالأنساب، فلم يرتابوا في أن الفاطميين من أولاد على [2].

وأما ابن خلدون، وهو من المتعصبين لم١هب الشيعة، فقد دحض في " مقدمته " هذه الاقوال التي أنكر فيها المؤرخون والكتاب صحة هذا النسب حيث يقول : " ومن الاخبار الواهية ما يذهب اليه الكثيرون من المؤرخين والأثبات في العبديين خلفاء الشيعة بالقيروان والقاهرة، من نفيهم عن أهل البيت صلوات الله عليهم، والطعن في نسبهم الى إسماعيل الامام بن جعفر الصادق ؛ يعتمدون في ذلك على أحاديث لفقت للمستضعفين من خلفاء بني العباس، تزلفا اليهم بالقدح فيمن ناصبهم، وتفننا في الشماتة بعدوهم... ويغفلون عن التفطن لشواهد الواقعات وأدلة الأحوال التي اقتضت خلاف ذلك، من تكذيب دعواهم والرد عليهم ؛ فانهم متفقون في حديثهم عن مبدأ دولة الشبعة ان أباب

[1] ديوان الشريف الرضي (ص ٩٧٢ و ٩٧٣) . نقل هذه القصيدة من المؤرخين ابن الاثير (ج ٨ ص ٨ و ٩) ، المقريزي (اتعاظ الحنفا ص ١٦ وغيرهما .

[2] ابن الاثير (ج ٨ ص ٨ و ٩) .

عبدالله المحتسب لما دعا بكتامة للرضي من آل محمد، واشتهر خبره وعلم تحويمه على عبيد الله المهدي وابنه أبي القاسم، خشيا على أنفسهم، فهربا من المشرق محل الخلافة واجتازا مصر، وأنهم خرجا من الإسكندرية في زي التجار... الخ " [1].

أما المقريزي، وهو ممن ينتسبون الى الفاطميين أيضا، فقد شدد النكير على ما كتبه الكتاب الذين لا يميلون الى القول بصحة هذا النسب، بنفس هذه الروح التي سادت أقوال ابن خلدون ؛ حتى إننا اذا وازنا بين عبارتي هذين الرجلين، تبين لنا أن المقريزي [2] نقل جزءا غير قليل مما كتبه ابن خلدون.

أما وقد أوردنا شيئا غير قليل عما قيل في نسب الفاطميين، فانه يجدر بنا ألا نغض الطرف عن عبارات ثلاث أمدنا بها المقريزي في مخطوطه المقفى الكبير " نقلا عن اثنين من الكتاب المعاصرين للفاطميين : هما أبو حنيفة النعمان المغربي المتوفي سنة ٣٦٣ هـ، وقاضي قضاة الخليفة المع والثقة في قوانين الإسماعيلية، والمسبحي المتوفي سنة ٤٢٠ هـ، وهو أيضا حجة في تاريخ الصدر الأول من أيام الفاطميين، ذلك التاريخ الذي لعبت به يد الدهر، ولم يصل إلى أيدينا منه شيء، اللهم الا هذه الشذرات التي نقلها عنه ابن منجب وابن ميسر، وابن خلكان والمقريزي، وأبو المحاسن وغيرهم.

هذا، وتنحصر أهمية هذه الوثائق التاريخية في اثبات شخصية عبيد الله، وأنه المهدى من آل على، الامر الذي أيده الدعاة الذين كان يلقاهم عبيد الله أبي سار ؛ كما نقف منها على أ، عبيد الله هذا بث معتقدات مذهبه في طي الخفاء، ليأمن على نفسه القبض والحبس.

وقد أورد لنا أبو حنيفة النعمان المغربي حكاية نقلها عن أبي القاسم الحسن بن أبي الفرج ابن حوشب، الذي صار فيما بعد داعيا للدعاة من قبل عبيد الله في اليمن. وكان

---

[1] مقدمة ابن خلدون (ص٢١)

[2] خطط (ج ١ ص ٣٤٨ – ٣٤٩) ، واتعاظ الحنفا (ص ٢٤ – ٢٦)

ابن حوشب هذا ممن يعتقدون أن ظهور المهدي قد آن أوانه ؛ فذكر ما قاله الفهرى [1] أحد الشعراء في هذا الصدد.

واستطرد أبو حنيفة في كلامه عن ابن حوشب حيث يقول : " فخرجت الى دجلة، ثم أخذت في قراءة سورة الكهف [2] ؛ فأقبل شيخ يمشي معه رجل ما نظرت الى أحد يملأ قلبي هيبة قبله ؛ فجلس ناحية، وجلس الرجل بين يديه. وأقبل غلام فقرب مني، فقلت : من أنت ؟ فقال حسني (؟)، فاستعبرت وقلت : بأبي الحسين المضرج (المدرج في الأصل) بالدماء الممنوع من هذا الماء ! فرأيت الشيخ ينظر الى، ولكم الرجل الذي بين يديه، فقال لي الرجل : تقدم الينا ! فقمت وجلست بين يديه ".

بعد ذلك يقص علينا ابن حوشب الحديث الذي دار بينه وبين هذا الرجل الطاعن في السن ؛ ثم يستطرد في الكلام فيبين لنا مبلغ حديث هذا الرجل من نفسه ن وما لاحظه عليه من رجاحة العقل ؛ ويص لنا ذلك اليأس الذي تطرق الى نفسه لجهله المكان الذي رحل اليه. وبينا ابن حوشب مطرق يفكر، إذا انقشعت غياهب الأسى عن نفسه حين حضر الرجل الذي كان في صحبة الامام وأخبره بمقره.

ويصف لنا بعد ذلك أيضا ابن حوشب ما كان من التقائه بمحمد الحبيب [3] والد عبيد الله المهدي، وعهده إليه في سنة ٢٦٨ هـ (٧٧١ م) بإقامة الدعوة له في بلاد

---

[1] ذكر المقريزي (المقفي الكبير – المكتبة الاهلية بباريس . مخطوط ٢١٤٤ ورقة ٢١٢ ب) أنه أثر عن على بن مُحَمَّد بن على بن موسى الكاظم أنه قال في سنة ٢٥٢ هـ (٨٦٨ م) ان المهدي سيظهر بعد اثنتين وأربعين سنة أي سنة ٢٩٦ هـ (٩٠٨ م) ؛ فعبر الفهرى عن هذا التصريح بأسلوب شعري ، حيث قال في قصيدة ننقل منها هذه الأبيات :

ألا يا شيعة الحق	ذوى الايمان والبر
ومن هم نصرة الله	على التخويف والزجر
فعند الست والتسعين	قطع القول في العذر
لأمر ما يقول النا	س بيع الدربا لبعر

نقل هذه الأبيات مسيو كتر مير ، ونشرتها المجلة الاسيوية الفرنسوية في عدد أغسطس سنة ١٨٣٦ **: quatremere journal asiatique , aout , 1836 , pp . 123 – 131)**

[2] القرآن الكريم سورة ١٨

[3] هذا الشيخ هو مُحَمَّد الحبيب على ما أذكره ابن خلدون (ج ٤ ص ٣١) . أنظر الفصل السابع من الباب الأول من هذا الكتاب .

اليمن[1].

وإذا جاز لنا أن نأخذ بعبارة أبي حنيفة النعمان المغربي، رأينا أن شخصية الإمام كانت ثابتة معروفة لدى أخصائه المقربين إليه، وأن مكان إقامته كان على الدوام سرا لا يعلم به إلا أنصاره، لما كان من تشدد الخلفاء العباسيين في طلبه والقبض عليه.

ومما هو جدير بالملاحظة أن مسألة مقابلة الإمام مع ابن حوشب، التي كانت على ما ذهب إليه أبو حنيفة قبل سنة ٢٦٨ هـ (وقد تقابلا لأول مرة في سنة ٢٦٦ هـ) — وهي السنة التي تعين فيها ابن حوشب داعيا للدعاة في اليمن — مسألة يحوطها الشك، إذا ان عبيد الله هذا هو الإمام والمهدى حقا.

ومما لا نشك فيه أن ولادة المهدي كانت في سنة ٢٥٩ هـ (أو ٢٦٠ هـ) ؛ فلم يكن قد بلغ العاشرة من العمر حين المقابلة لأول مرة. وإذا جاز لنا أيضا أن نجزم بصحة هذه الحكاية ن فان التفسير الذي يمكن أن نفسر به هذه المسألة، هو أن هذا الرجل المسن هو مُحَمَّد الحبيب أبو المهدي، وأن هذه الصبي هو من أولا\ الحسين والمهدي نفسه. ومن الواضح الجلي أن هذه الحكاية لابد أن يكون قد دخل عليها شيء من التحوير والتبديل منذ وقع هذا الحادث إلى يومنا هذا.

وهنا نذكر أيضا ما رواه لنا المقريزي عما ذكره المسبحي في حادث آخر، نتبين منه كيف أن نسب المهدي عبيد الله كان أمرا لم ينازع فيه أحد من دعاة الفاطميين وغيرهم من علية القوم في مصر ؛ وكان بين هؤلاء طائفة من بلاد الأخشيد ؛ كما نتبين أيضا أن رجال البلاط هؤلاء قدموا للمهدي كل ما استطاعوا من معونة ن لا لشيء سوى أنه من أولاد على.

وبعد ان يقص علينا المسبحى قصته عن وصول عبيد الله إلى مصر ورحيله عنها مختفيا في زي التجار [2]، يروى لنا حكاية أخرى نقلها عن أحد أحفاد أبي على الداعي

[1] المقريزي : المقفي الكبير ، المكتبة الاهلية بباريس . مخطوط ٢١٤٤ ، ورقة ٢١٢ ا — ٢١٣ ب .

[2] المقريزي : المقفي الكبير ، المكتبة الاهلية بباريس ز مخطوط ٢١٤٤ ، ورقة ٢١٩ ب .

[1]الذي صحب المهدي أثنا مقامه في مصر ننقلها للقارئ فيما يلي :

" وأخبرني........ بن مُحَمَّد بن أبي على الداعي أن الامام المهدي صلي يوما السبح في الجامع العتيق بمصر تحت اللوح الأخضر ومعه أبو على الداعي. فلما خرجا من الباب، ضرب رجل بيده على كم الامام وقال له : قد حصلت لي عشرة آلاف دينار. فقال له : وكيف ذلك ؟ قال : لأنك الرجل المطلوب ؛ فضحك المهدي، ثم ضرب بيده إلى الرجل الذي ضرب بيده إلى كمه، ودخل معه إلى صدر الجامع وقال له : عليك عهد الله وغليظ ميثاقه انني إذا جمعت بينك وبين الرجل الذي تطلبه، كان لي عليك ولصديقي هذا خمسة آلاف دينار. ثم أخذ بيده وأتي به إلى حلقة قد اجتمع الناس فيها، وأدخله من جانبها وفارقه ؛ فخرج من الجانب الآخر، ولم يلتقيا إلى هذه الساعة ". [2]

هذا، ويقص علينا المسبحي حكاية أخرى نقلها عن هذا الداعي نفسه، ننقلها للقارئ أيضا، قال : " وكنت يوما قائما على الجسر بمصر مع الامام المهدي، الى أن سمعت الجرس والنداء عليه : ألا برئت الذمة من رجل أول رجلا صفته كذا وكذا، ونعته كذا – ووصف صفة المهدى – ومن اتى به فله عشرة آلاف دينار حلالا طيبا. فقال (المهدي) : يا أبا على ! المقام بعد هذا عجز، ثم ركب الجسر ؛ وسرت معه وسألته أن أرحل معه إلى بلاد المغرب، فقال : على من أدع، من لى ههنا ؟ فبكيت، فأنشدني شعرا أمرئ القيس :

بكى صاحبي لما رأى الدروب دونه ... وأيقن أنا لاحقان بقيصرا
فقلت له : لا تبك عينك إنما ... نحاول ملكا أو نموت فنعذرا "

ولسنا نشك في صحة هاتين العبارتين الأخيرتين اللتين أوردهما لنا المسبحي ؛ إذ يحتمل أن يكون حفيد أبي عبدالله الداعي، الذي نقل عنه المسبحى قد سمع عن هذا الحادث من جده نفسه أو من أبيه الذي عاش بعد وقوعه بزمن قصير.

---

[1] إذا صحت سلسلة هذا النسب ، فان اسم حفيد على الداعي يكون على هذا الوجه : مبارك بن على بن محمود – رسائل الحاكم بأمر الله ، المكتبة الملكية بالقاهرة . مخطوط (كتب الشيعة ٢٠) ورقة ١٢ ب .

[2] المقريزي – المقفي الكبير – المكتبة الأهليه بباريس . مخطوط ،ورقة ب وما يتبعها .

ولا نستطيع الجزم بأن هذه الحقائق التي أوردناها قد حلت مسألة نسب الفاطميين وأظهرت أنه يرجع إلى على وفاطمة. كلنه لما كان من واجبنا أن نزود الموضوع الذي تصدينا للكلام عليه بحقائق جديدة، فقد حاولنا جهدنا. ولا شك في أن هذه العبارات قد ألقت قبسا من النور على نسب الفاطميين، مما يجعل استقصاء هذا الموضوع أكثر سهولة على من يميلون لزيادة استقصائه.

ولم يصل المؤرخون بعد إلى رأى قاطع عن نسب الفاطميين إلى إسماعيل بن جعفر الصادق، أو إلى ابن ميمون القداح. على أنه بالرغم من أن تعاليم هذين الحزبين ام تشابهوا من كثير من الجوهر، فإن انفصال هاتين الطائفتين بعضهما عن بعض، والعداء الذي تجلى في هذه الحروب التي نشبت بينهما، مما يحمل على الظن أن القرامطة إنما مالوا إلى الإسماعيلية وعطفوا على مذهبهم لأغراض سياسية.

٢- أهمية مصر للدعوة الشيعية

(ا) موقع مصر الجغرافي بين الشرق والغرب

كانت السنوات الثلاث الأولى من خلافة المهدي عهد نزاع ومشاكل متوالية، أتيح له فيها القضاء عليها بما أوتيه من نشاط وهمة. وبموت أبي عبدالله الشيعي أصبح المهدي الحاكم المطلق لكافة أرجاء بلاد المغرب.

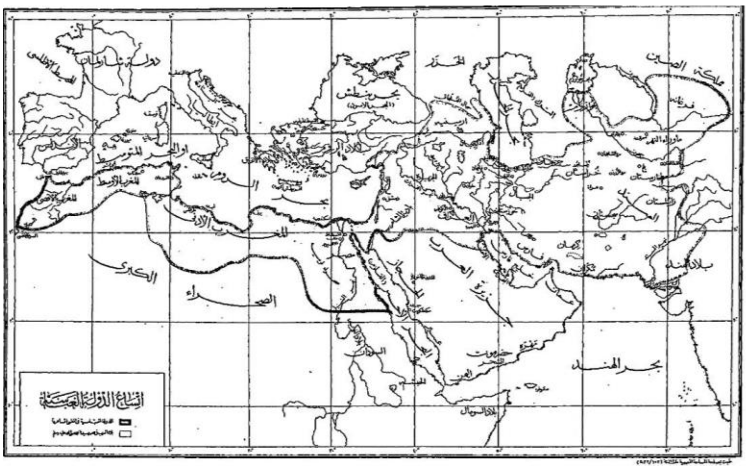
لم يكتف بشمال إفريقية الخلفاء الفاطميون الذين كانت مجهوداتهم في سلمية موجهة إلى إقامة خلافة علوية على أطلال الخلافة العباسية، كما فعل العباسيون مع الامويين. وإنما كان اختيارهم لتلك البلاد راجعا –كما أسلفنا– إلى بعدها عن مكز الخلافة في بغداد، ولميل البربر لإذكاء نار الثورة على الأسرة الحاكمة في بلادهم، ولضعف هذه الأسرة الحاكمة نفسها.

نعم ! لقد وجه الفاطميون عنايتهم لهذا الجزء من أجزاء الإمبراطورية العباسية، حين أصبحت الجهود التي بذلوها لإقامة خلافة علوية في آسيا قاب قوسين أو أدنى من الفشل. ولا غرو فقد كان هذا هو السبب الحقيقي الذي تذرع به المطالبون بالخلافة من

العلويين، الذين كانوا يودعون غياهب السجون أو كان القتل مصيرهم إذا انكشف أمرهم، مما حدا بهم إلى الاستتار وتفويض إقامة الدعوة لهم إلى دعاة مهمتهم جذب الناس لهذه الدعوة، بل وإخفاء أسمائهم الحقيقية تحت ألفاظ أخرى، من أمثال المهدي والمكتوم وغيرها، ليدرءوا بذلك عن أنفسهم سخط العباسيين وحنقهم.

من هنا يعلم أن بلاد المغرب كانت ميدانا أصلح من آسيا لنجاح الدعوة الفاطمية. بيد أن القيروان أو المهدية لم تكن لتصلح أن تكون حاضرة للإمبراطورية الفاطمية، لما يستدعيه اتخاذ الحاضرة في موضع يسهل معه التواصل مع الولايات الخاضعة لسلطانها.

ولهذا لا نعجب إذا رأينا المهدي يضع الخطط لغزو مصر على أثر تأسيس خلافته في القيروان، بالرغم من أن سلطان العلويين لم يكن قد توطد في كافة ارجاء بلاد المغرب قبل سنة ٣٥٨ هـ (٩٦٩ م)



– وهى السنة التي استولوا فيها على مصر – ولا غرو فان فكرة غزو هذه البلاد قد توارثها الخلفاء الفاطميون بعضهم عن بعض.

عني الخلفاء الفاطميون عناية خاصة بامتلاك مصر، لما لموقعها من عظيم الأهمية سياسيا وحربيا ؛ خصوصا وأن ولاة هذه البلاد كانت اليهم ولاية الشام والحجاز. فكان

امتلاك مصر امتلاكا لهذين البلدين العظيمين، وتأسيس نفوذ الفاطميين، السياسي والديني، في ثلاثة من المراكز الإسلامية الكبيرة وهى : الفسطاط والمدينة ودمشق.

أجل ! إن تحقيق هذا المطمع الذي قصد اليه أول الخفاء الفاطميين معناه تمهيد الطريق لتهديد بغداد نفسها، حاضرة الإمبراطورية العباسية في ذلك الحين.

هذا، ونسطتيه أن نشير من بين المصادر التي عولنا عليها في بحث هذا العصر من عصور تاريخ مصر، الى ما كتبه الطبري وأوتيخا وعريب بن سعد ومسكويه.

أما تاريخ الطبري الذي ينتهي إلى سنة ٣٠٢ هـ، فإنه يقتصر على الكلام عن الخطوة الأولى التي خطاها المهدى في سبيل تحقيق هذه الفكرة الجريئة التي كانت ترمى إلى غزو مصر. وأما " صلة تاريخ الطبري " لعريب بن سعد، فقد تناولت الكلام على هذه الحملات بشيء من الاسهاب. ويلوح لنا أن مسكويه استطاع أن يحصل على معلومات أوفى من تلك عن هذه الحملات. أما أوتيخا والكندي، وهما مصريان المولد والدار وأقدم هؤلاء المؤرخين بعد الطبري، فقد أمدنا كل منهما بمعلومات أكثر تفصيلا وإسهابا عن هذا الموضوع.

في سنة ٣٠١ هـ (٩١٣ م) جيش المهدي جيشا من المغاربة تحت إمرة ابنه وولى عهده أبي القاسم، وحباسة بن يوسف [1]، وهو من زعماء كتامة. ويظهر لنا أن حباسة هذا قد اضطلع بجميع أعباء هذه الحملة. تقدم هذا الجيش نحو الإسكندرية، فاستولى في

---

[1] ذكر الطبري (٣ : ٢٢٩١ و ٢٢٩٢) أن هذا الجيش كان تحت قيادة حباسة . وخالفه في ذلك عريب بن سعد (ص ٥٢) فقال إن أبا القاسم كان على رأس جيش المغاربة الذي دخل الاسكندرية في سنة ٣٠١ هـ ؛ وهناك ألقى كثيرا من الخطب ، لا يبعد أن تلمس من ورائها الحصول على معونة المصريين . وقد قرأ عريب نفسه نص هذه الخطب ، وأحجم ، على ما يفوته لنا ، عن ايداعها تاريخه ، لما فيها من مبالغة تؤدي إلى إفساد للعقائد الدينية . أما الكندي (ص ٢٦٩) فلم يرد في كتابه ذكر البتة عن انضمام أبي القاسم إلى هه الحملة مطلقا ؛ ويتكلم عن حباسة بصفته قائد الجيوش الفاطمية . وذكر أوتيخا (ص١١٠) أن أبا القاسم بعث به الخليفة على رأس المدد الذي لحق بحباسة بعد استيلائه على الإسكندرية والفيوم . ويخالفه في ذللك ابن خلكان (ج ٢ ص ٣٥) والمقريزي (اتعاظ ص ٤١) حيث تكلما عن أبي القاسم باعتباره قائد هذه الجيوش من بعد مسيرها من برقة .

طريقه على برقة، [1] ثم واصل السير حتى دخل الإسكندرية واستولى عليها ؛ ومن ثم سار الى الوجه البحري. [2]

فلما علم المقتدر العباسي بذلك بعث مؤنسا الخادم على رأس جيش كبير قبل إنه بلغ أربعين ألفا [3]. وفي مدينة مشتول القريبة من الجيزة التحم الفريقان في القتال، فحلت الهزيمة بجيش حباسة [4] ؛ فأرغم على العودة الى بلاد المغرب حيث قتله الخليفة الفاطمي على أثر رجوعه [5].

على أن أهمية هذه الغزوة تنحصر في أمر تجب ملاحظته، وهو أنه كان في مصر في ذلك الوقت كثيرون يعطفون على الدعوة الفاطمية. وقد وعدوا بنصرة الفاطميين ؛ يدلك على صحة هذا ما ذكره الكندي من أن جماعة من المصريين كاتبوا الفاطميين ودفعوهم إلى غزو ممصر. وإلى هذا يشير أبن مهران أحد شعراء مصر المعاصرين لهذه الحوادث في هذه الأبيات :

وأقبـــل [6]جـــاهلا حـــتى تخطـــى   وجـــاز بجهلـــه حـــد التخطـــي
بكتـــب جماعـــة قـــد كـــاتبوه   مـــن أقبـــاط بمصـــر وغـــير قبطـــي
وكـــــل كـــــاتبوه ونافقـــــونا   وكـــل في الـــبلاد لـــه مـــوطي[7]

ولقد حاول ذكا [8] (٣٠٣ – ٣٠٧ هـ) والى مصر الجديد، الذي دخل هذه البلاد

---

[1] : في دي الحجة سنة ٣٠١ هـ ، على ما رواه المقريزي ، اتعاظ الحنفا (ص ٤١) ، والخطط (ج ١ ص ٣٢٧) .

[2] الكن\ى (ص ٢٦٨)

[3] هذا التقدير أتى به مسكويه (ج ١ ص ٣٦) . أما أوتيخا (ص ٦٠) فقد ذكر أن هذا الجيش بلغ مائة ألف من الأشياء .

[4] الكندي (ص ٢٧٠)

[5] الطبري (٢ : ٢٢٩٣) ، عريب بن سعد (ص ٥٣)

[6] الضمير يعود على حباسة الذي ذكر اسمه في البيت الثاني من هذه القصيدة (الكندى ص ٢٧٢) .

[7] الكندى (ص ٢٧٦)

[8] ذكر ناشر كتاب الولاة لكندي (ص ٢٧٣) ، حاشية ٢ ، أن هذا الاسم ضبط في الأصل بالفتح ، وهو في بعض الكتب بالضم (راجع صلة تاريخ الطبري لعريب بن سعد ص ٥٣) .وقد ذكره ستانلي لين بول في كتابه " تاريخ مصر في العصور الوسطى " ((Stanley lane – pool : history of Egypt in middle ages , p . 80 بالضم ، وأطلق عليه دكا الرومي ، وزاذ أن اسمه بالإغريقية دوكاس **(ducas)**

في ١٢ صفر سنة ٣٠٣، أن يضع حدا للأعمال التي قام بها الموالون للفاطميين ؛ فتتبع كل من رمى منهم بمراسلة الفاطميين ؛ فسجن منهم كثيرين وقطع أيدي بعضهم وأرجلهم، وجلا أهل لوبية ومراقية الى الإسكندرية خوفا من غزو الفاطميين بلادهم [١].

وفي سنة ٣٠٧ هـ (٩١٩ م) سار الى مصر جيش كثيف تحت قيادة أبي القاسم بن المهدي ؛ فاستولى على الإسكندرية [٢]، ثم سار الى الجيزة. وفي جمادي الآخرة[٣] من السنة نفسها وقعت موقعة كبيرة بين جند الفاطميين وأهل مصر ؛ وكانت خسائر كل من الفريقين فيها أربعة آلاف [٤] ؛ فأرسل الخليفة مؤنسا الى مصر ثانية [٥]. فلما وصل كان الفاطميون قد استولوا على الاشمونين والفيوم. ومع هذا فان الهزيمة قد لحقت بجند الفاطميين كما لحقت بهم في المرة السابقة [٦]، وأحرق كثير من مراكب المهدى [٧]، قتل وأسر معظم جندها وقوادها [٨].

وقد دون عريب إحدى هذه القصائد التي وجه بها أبو القاسم لأهل مصر ؛ وفيها شاد بذكر بيته والبلاد التي فتحها. وأرسلت نسخ من هذه القصيدة الى الخليفة العباسي المقتدر؛ فأمر الصولى [٩] الشاعر المشهور بان ينظم قصيدة أخرى يرد بها على أبي القاسم ويدحض قوله ؛ فقام الصولى بما أمر به ؛ ونظم قصيدة على وزنها ورويها، وفي أحد أبياتها

---

[١] الكندى (ص ٢٧٤)

[٢] كان ذلك ف صفر سنة ٣٠٧ ، على ما ذكره الكندي (ص٢٧٥) .

[٣] ذكر الكندي (ص ٢٧٦) ٤ جمادي الآخرة . ويخالفه في ذلك عريب بن سعد (ص ٨٠) حيث يقول ان هذه الواقعة دارت رحاها في الخامس من هذا الشهر .

[٤] ذكر عريب بن سعد (ص ٧٩) هذا العدد . وقال . الكندي (ص ٢٧٧) ان هذه الموقعة وقعت في الجيزة ، وكان من أثرها أ، أرسل مؤنس الى مصر .

[٥] دخل مؤنس مصر — على ما ذكره الكندي (ص ٢٧٧) — في ٥ محرم سنة ٢٠٨ هـ .

[٦] الكندي (ص ٢٧٧ و ٢٧٨) وعريب بن سعد (ص ٨٠ — ٨٦) .

[٧] يقول اوتيخا (ص ٨٠) إن عدد المراكب مائة . يخالفه في ذلك ابن الأثير (ج ٨ ص ٣٩) وابن خلدون (ج ٣ ص ٣٧١) والمقريزي (اتعاظ ص ٤٣) فيقولون إن عدد المراكب بلغ ثمانين . ويقول الكندي (ص ٢٧٦) ان هذه الموقعة وقعت في العشرين من شوال سنة ٣٠٧ هـ .

[٨] عاد أبو القاسم مع الفالة في صفر سنة ٣٠٩ . عريب بن سعد (ص ٨٦).

[٩] من أحفاد إبراهيم الصولى الشاعر المتوفى سنة ٢٤٣ هـ .انظر ابن خلكان (ج ١ ص ١١ — ١٣)

يقول :

ولـو كانـت الـدنيا مطيـة راكـب [1] لكـان لكـم منهـا بمـا حـزتم الـذنب

ويظهر أن غزوة الفاطميين الثانية لمصر (٣٠٧ – ٣٠٩ هـ) قد أوقعت شيئا غير قليل من الرعب والهلع في حاضرة الخلافة العباسية، وفي نفوس الموظفين في مصر ؛ يتجلى ذلك من الحديث الذي دار بين الوزير ابن الفرات وعلى بن غ=عيسي، وكان يتقلد أعمال الدواوين.

وقد روى مسكويه هذا الحديث بمناسبة كلامه على المادرئيين الذين اتهموا باختلاس أموال الخراج عن مصر والشام ؛ وكان ابن بسطام (سلف المادرئيين) قد جمع مليونين وثلاثمائة ألف دينار ؛ ولم يدفع المادرائيون سوى خمسمائة ألف. وأخذ على رئيس هذا الديوان أنه لم يستوف بقية الخراج، وكان قد أخذ على نفسه عهدا بأن يقوم في المستقبل بدفع الباقي على أقساط يؤديها من ضمان أعمال الخراج والضياع.

وكان جواب متقلد هذا الديوان أنه " قد كان ورد من مال الضمان للسنة الأولى جملة، ثم سار العلوى من إفريقية حتى تغلب على أكثر النواحي بمصر... فانصرف أكثر المال إلى أعطيات الجند ونفقات العساكر باقية لأجل استخراج العلوى ما استخرجه من

---

[1] نقل عريب بن سعد (ص٨٣) هذا البيت . أما المقريزي (اتعاظ ص ٤٢) فقد ذكر لنا عند كلامه على غزو مصر على يد الفاطميين في سنتي ٣٠١ و ٣٠٢ ، أ، أبا القاسم نظم قصيدته في بلاد المغرب ، وأن هذا البيت من قصيدة الصولى حرك همة أبي القاسم وشغفه بفتح هذه البلاد حيث قال : " والله لا أزال حتى أملك صدر هذا الطائر ورأسه أن قدرت ، والا أهلك دونه " .

أأمما الدنيا فقد شهها الصولى – على ما ذكر المقريزي – بطائر ، وبمطية الركوب ، كما جاء في هذا البيت الذي دونه عريب بن سعد . ولا مشاحة في صحة هذا القول ، لأن الصولى قصد من ذلك أن يقلل من شأن ما فتحه أبو القاسم من البلاد . وهنا تشابه بين ما نقرؤه في كتاب المقريزي عن هذه المسألة ، وهو الطائر ، وهذه الحكاية التي أثرت عن هارون الرشيد ، الذي وصف بلاد المغرب لجماعة من الرسب جاءوا اليه من هذا الإقليم – وكان أحد الأقاليم التي كانت تابعة للإمبراطورية العباسية – كذنب الطائر ؛ فأجاب الخليفة أحد هؤلاء الرسل قائلا : ان أحسن جزء في الطاووس هو ذنبه . وهاكله لا يترك مجالا للشك بأن استعمال عريب عبارة " مطية راكب " صحيح لمناسبته لهذه الحالة .

أموال النواحي المجاورة لمصر " [1]

وهذه العبارة توضح لنا ما كان من تأثير هذه الغزوة في بغداد والفسطاط، حتى إن الخليفة العباسي لقب مؤنسا " المظفر " في وسط مظاهر الاحتفالات والتكريم، إشادة بذكر هذا الانتصار [2]

على ان هذه المجهودات التي قام بها الفاطميون في سبيل استيلائهم على مصر لم يكن قد جان وقت جنى ثمارها ؛ إذ كان لا بد من تأجيلها طوال عهد المهدي ؛ لأن الخليفة العباسي كان لا يزال من القوة بحيث يستطيع دفع الفاطميين عن هذه البلاد ؛ وكان على هؤلاء أن يعملوا للتغلب على سلسلة المصاعب الداخلية التي كان يثيرها في وجههم الخوارج حينا بعد حين.

ويحدثنا الكندي [3] عن الحملة الفاطمية الثالثة على مصر، فيقول أن هذه الحملة ظلت زهاء ثلاث سنين (٣٢١ – ٣٢٤ هـ)، وأنه قد حدثت في سنتي ٣٢١ و ٣٢٢ مناوشات بين جيوش الفاطميين والجيوش المصرية. وفي صفر سنة ٣٢٢ عقدت معاهدة

---

[1] قالة الأستاذ مرجوليوت ((mrgoliouth في تؤجمته لكتاب تجارب الأمم لمسكويه (ج ١ ص ١٢٠ حاشية ١) : " ومعني هذا رأي المال الذي أستخرجه الغزاة من أموال النواحي المجاورة لمصر) غير واضح كل الوضوح . ويظهر أن هلال الصابئ (ص ٢٩٠) لم يكن قد فهمه " . على أنه يفهم من عبارة مسكويه أن مال الخراج عن سني ٣٠٦ – ٣٠٩ هـ قد استهلك بعضه في أعطيات الجند ونفقات الجيش ؛ واستهلك البعض الآخر فيما استخرجه الغزاة من أموال النواحي المجاورة لمصر . أما عبارة هلال وهى : " وانكسر الباقي لأجل هذ الحادثة " فمعناها أن بقية الخراج لسني ٣٠٦ – ٣٠٩ هـ (كال الخراج عن سنة ٣٠٦ هـ كان قد دفع كما سبق الإشارة الى ذلك) لابد أن يؤجل بسبب غزو الفاطميين لهذه البلاد .

وهذا يظهر جليا من عبارة عريب (ص ٨٠ التي نأتى بنصها : " فخرج القضاة والقواد ووجود أهل مصر ((misr الى مؤنس ، ونزل خارج المدينة ((misr ، واجتبى أبو القاسم خراج الفيوم وضياع مصر (misr) ، ودفع مؤنس أرزاق الجند من أموال أهل مصر " .

أما الضياع التابعة لمدينة مصر فتقع طبعا بجوار مصر (المدينة) . هذا فضلا عن أن الفيوم لا تبعد عن هذه المدينة ، وقد احتلها الفاطميون في ١لك الحين ، كما احتلوا أيضا – على ما وراه أوتيخا (ص ٨٠) –كورتي البهنسا الأشمونين . وعليه ، فان لفظ " مصر " الذى استعمله عريب ومسكويه وهلال ، يقصد منه مدينة مصر القديمة ، لا البلاد المصرية .

[2] مسكويه (ج ١ ص ٧٦)

[3] الكندي (ص٢٨١ – ٢٨٧)

الصلح بين جماعة من المصريين وحبشي بن أحمد قائد جند المغاربة، وكان معسكرا في الجيزة [1].

على أن هذا الصلح لم يطل أمده ؛ اذ نقرأ في كتاب الكندي عن نشوب مواقع عدة بين جيوش المغاربة والمصريين في بعض المدن كالجيزة وبولاق وبلبيس [2].

وفى عهد ولاية الأخشيد الثانية [3] (رمضان سنة ٣٢٣ – جمادى الاخرة سنة ٣٣٤ – الكندي ص ٢٨٦ – ٢٩٢)، انضم بعض زعماء المصريين الى جيش المغاربة الذي دخل الإسكندرية في ربيع الثاني سنة ٣٢٤ [4] ؛ فبعث اليهم الأخشيد قوة كبيرة استطاعت أن توقع بهم الهزيمة (جمادي الأولى سنة ٣٢٤)، وأرغمهم على العودة الى شمال إفريقية [5].

هذا، ولم يقم الفطميون بمحاولة ما لفتح مصر في البقية الباقية من خلافه القائم (٣٢٢ – ٣٣٤ هـ) (٩٣٤ – ٩٤٥ م) وطول عهد المنصور (٣٣٤ – ٣٤١ هـ) (٩٤٥ – ٩٥٢ م) ؛ لأن حالة بلاد المغرب الداخلية قد تطلبت كل جهود هذين الخليفتين، كما تطلبت كل موارد البلاد المالية. هذا الى ما احدثه الخوارج من ثورات، كان أجلها خطرا أشدها بلاء هذه الثورة التي أضرم نارها أبو يزيد [6]، الذي انتشرت جيوشه

---

[1] شرحه (ص ٢٨٤)

[2] شرحه (ص ٢٨٤ – ٢٨٥)

[3] اسمه محمَّد بن طغج . وقد ذكر الكندي (ص ٢٨٨) أن هذا اللقب أطلق عليه في رمضان سنة ٣٢٧ هـ ؛ بالأخشيد هو أبو بكر محمَّد بن طغج بن جف من أولاد ملوك فرغانة . وكانوا يلقبون بالأخشيد كما يلقب بالأخشيد كما يلقب ملوك الفرس بالأكاسرة وملوك الروم بالقياصرة . وتفسير طفج – ما ذكره ابن زولاق – عبدالرحمن .

[4] الكندي (ص ٢٨٧)

[5] شرحه (ص ٢٨٧)

تناول بعض المؤرخين ممن جاءوا بعد الكندي كابن الأثير (ج ٨ ص ٩٨) وابن خلدون (ج ٤ ص ٣٩) والمقريزي (اتعاظ ص ٤٥) الكلام على الحملة الثالثة بإيجاز ، واتفقوا على انها وقعت في سنة ٣٢٢ ، بخلاف ما ذكره الكندي من أنها دامت ثلاث سنين .

[6] هو أبو يزيد مخلد بن كيداد ، من قبيلة زناته في مدينة توزر (أكبر مادائن بلاد الجريد التي تنقسم إلى قسمين : فسطيلية ، ويتبعها نوزر والزاب – أنظر البكرى ، ص ٤٨ – ٧٤ والمراكشي : كتاب المعجب في تلخيص أخبار المغرب ص ٢٥٨) . وكانت أمه جارية هوارية ، تزوجها أبوه في السودان وأتى بها إلى توزر حيث ولد لها أبو يزيد هذا ؛

في سنة ٣٣٣ هـ (٩٤٤ م) في جل أرجاء الولايات الفاطمية، فاصبح في مركز يستطيع معه أن يهدد مدينة المهدية نفسها. لذلك رأى القائم ضرورة الكتابة الى زيري بن مناد شيخ صنهاجة يستحثه على أن يوافيه برجاله فيلحق به في المهدية [1]

بيد أن حسن الحظ قد ساعد الفاطميين في ذلك الحين، لما كان من انضمام عدد غير قليل من رجال أبي يزيد الى جيوشهم ولحاقهم بهم في القيروان. وبذلك أصبح أبو سزي، أمام أمر واقع، هو الاعتماد علي قبيلتين اثنتين من قبائل البربر، وهما هوارة وبنو كملان، مما أضطره الى الارتداد عن المهدية بقوة يسيرة من رجاله، تاركا خلفه ما كان معه من مؤن وأثقال ؛ ثم تقدم الى القيروان، فامتنع عليه أهلها وأرغموه على الارتداد مع الفالة من رجاله الذين لم يلبثو أن هلكوا جوعا وعطشا [2]

توفي الخليفة القائم في ذلك الحين (رمضان سنة ٣٣٤) ؛ فأخفي ابنه وخليفته المنصور موته، حتى لا يؤثر هذا النبأ في حماس جيوشه، فيهيئ بذلك الفرصة للخارجي لاحراز النصر [3]

أما جيوش المنصور فقد قوى أمرها وزاد عددها بانضمام قوة صناجة اليها ؛ فأتاح ذلك الامر الفرصة للمنصور، فأوقع بجيش الخارجي في سنة ٣٣٦ هـ ؛ فقطعت أوصاله،

فنشأ في هذه المدينة ، وخالطه جماعة من النكارية ، فاعتنق مذهبهم ، وكان بقضى بتكفير اهل الدين واستباحة الأموال، والخروج عن طاعة الخليفة . ثم سافر الى تاهرت ، فأقام بها يعلم الصبية إلى أن خرج أبو عبدالله الشيعي الى سجلماسة لاطلاق المهدي ؛ فانتقل إلى نفوس ، واشترى ضيعة ، وأخذ يعلم الصبيان . وفى سنة ٣١٦ هـ (٩٨٢ م) قوى أمر أبي يزيد وراجت دعوته لدى بعض قبائل البربر في نفوس والزاب والمغرب الأقصى . وفي عهد خلافة القائم زادت شوكته وكثر أتباعه ؛ فاستولى على بجاية ومرمجته وأوقع الهزيمة بقبيلة كتامة ، ودخل سبيبة واستولى على الأأربس ونهبها وقتل الكثير من أهلها . وقد أدخل استيلاء أبي يزيد على الأربس ، وكان يعدها أهل المهدية باب مدينتهم ، والهلع في قلوب الأاهلين . وبذلك أستطاع أبو يزيد أن يعسكر بجنده على بعد خمة عشر ميلا من المهدية ، وأخذ يباغت المدينة بحملاته ؛ فانتقل كافة أهلها ألى طرابيس وصقلية ومصر وبلاد الدولة البيزنطية .

انظار ابن الاثير (ج ٨ ص ١٥٠ — ١٥٨) وابن أبي دينار (ص ٥٥ — ٥٦) والمقريزي ، أتعاظ (ص ٤٥ — ٥٤) .

راجع كتاب المغرب للبكرى لمعرفة مواقع المدن الواردة في هذه العبارة .

[1] ابن الأثير (ج ٨ ص ٦٧ — ١٥٠ — ١٥٨) والمقريزي ، اتعاظ (ص ٥٤ و ٥٥)

[2] ابن الاثير _ ج ٨ ص ١٥٠ — ١٥٨) والمقريزي ، أتعاظ (٥٤ — ٥٥) وابن ابي دينار (ص ٥٥ — ٥٩)

[3] ابن الأاثير (ج ٨ ص ١٥٧) والمقريزي ، اتعاظ (ص ٥٤) وابن أبي دينار (ص ٥٩)

وطورد أبو يزيد نفسه الى الصحراء وقبض عليه وبعث الى المهدية ؛ وهناك مات متأثرا من جراحه (٣٠ محرم سنة ٣٣٦)[١]

ولقد تركت الثورة التي أذكى نارها أبو يزيد شمال إفريقية في حالة يرثى لها. ولولا ما اظهره المنصور من نشاط وشجاعة نادرة ودراية بأساليب الحرب، لزالت معالم الخلافة الفاطمية من كافة أرجاء هذه البلاد. ولا غرو فان موارد الخلافة قد أصابها العطل، فاصبح بيت المال صفرا من الصفراء والبيضاء. ولم يكن بد من أن يدأب المنصور على إصلاح ما أفسده أبو يزيد ؛ فقضى بقية حياته في إعادة تنظيم البلاد ؛ حتى إنه لم يمت (شوال سنة ٣٤١ هـ و ٩٥٢ م) الا وقد استردت الدولة ما كان لها من قوة وجلال.

أما الخليفة الفاطمي الرابع، وهو المعز، فكان ذا ولع بالعلوم ودراية بالأدب، فضلا عما عرف به من حسن التدبير وإحكام الأمور كما كان عليه آباؤه من قبل. وفي عهده دانت لسلطانه كافة قبائل البربر، ومن بينها بنو كملان وبنو مليلة، وهما قبيلتان من قبائل هوارة ابتا أن تذهنا لمن كان قبله من الخلفاء.

ولا غرو فان السياسة التي جرى عليه المعز نحو القبائل على اختلافها كفلت له اكتساب طاعتهم، وساعدت مساعدة تذكر على توثيق عرى خلافته ؛ فأتيح له بذلك كله أن يقضى على أمراء الأدارسة في المغرب الأقصى ؛ فانتهى بذلك عهد استقلالهم الذي دام زهاء قرنين [٢]

وقد رأى زيرى بن مناد الصنهاجي أن يبين لمولاه إلى أي حد وصل سلطان الفاطميين في الغرب، وقد انتشر من حدود طرابلس الغرب شرقا الى ساحل المحيط الأطلنطي غربا وما الى هذه الأرجاء من جزيرة صقلية في البحر الأبيض المتوسط، فأمر بعض رجاله أن يصطادوا له من سمكه، وجعل السمك في قلال الماء وحمله الى المعز. ولما عاد جوهر من حروبه الى القيروان، كان المعز قد أصبح في ذلك الوقت الحاكم الذي لا

---

[١] ابن أبي دينار (ص ٦٠)

[٢] ابن الاثير (ج ٨ ص ١٨٩) والمقريزي، اتعاظ (ص ٥٩ و ٦٠).

ينازعه منازع في كافة أرجاء شمال إفريقية [١]

(ب) صلاح مصر للدعوة الشيعية

لقد كانت مصر صالحة للدعوة الشيعية من أجل ثروتها وهدوء الأمر فيها ن مع فقر الشرق واضطراب الامر فيه، بتغلب المتغلبين عليه من جهة وإغارة الروم من جهة أخرى. ولا غرو فقد كانت مصر من القوة في ذلك الوقت بحيث أصبح الامن مستتبا والهدوء شاملا في عهد الاخشيد الذي بلغ عدد جيوشه أربعمائة ألف رجل، عدا حرسه الخاص به. وكانت تدفع رواتب هؤلاء جميعا بانتظام من الموارد التي هيأتها ثروة هذه البلاد. وان نظرة واحدة الى ما بذله خمار ويه ابن أحمد بن طولون في جهاز ابنته قطر الندى (أو أسماء) التي تزوجت من الخليفة المعتضد في سنة ٢٨٢ هـ (٨٩٥ م)، لتملأ نفس المؤرخ دهشة وعجبا.

فقد كان من جملة صداق قطر الندي وما قدم اليها من هدايا، سرير من أربع قطع من الذهب عليه قبة من ذهب مشبك، في كل عين من التشبيك قرط معلق فيه حجر من الأحجار الكريمة لا يقوم بمال. هذا إلى ما كان هنالك من مائة هاون من الذهب، وألف حجزة [٢] ثمن الواحدة منها عشرة دنانير. أما قيمة بقية الهدايا فنتركها الى اتساع مدارك القارئ وقوة تصوره وخياله.

ولسنا نشك في أن هذا التبذير أفقر خمارويه. فقد أمر، توفير لأسباب الرحاة لابنته في طريقها الى بغداد، أن يبني رأس كل مرحلة قصر تنزل فيه، وأعد هذه القصور بكل ما تحتاج اليه من فاخر الأثاث وغيره، لتكون في سفرها ممتعة بكل وسائل الفاهية كما لو كانت في قصر أبيها [٣].

---

[١] أبن أبي دينار ص ٦١

[٢] الحجزة معقد الازار

[٣] ابن خلكان (ج ١ ص ٢١٨ ٩ ، ابن دقماق (ج ٤ ص ٦٧) .

ذكر ابن دقماق أن عبدالله بن الجصاص الذي عهد اليه باعداد الجهاز ، نال جائزته وهى اربعمائة ألف دينار بقيت بعد إعداد كل ما تحتاج إليه العروس

على أن ثروة مثر وما ساد فيها من طمأنينة وهدوء قد تعرضا للزوال حينا من الدهر، بعد أن بلغ هذا البلد ذروة مجده في الشطر الأخير من أيام كافور. يؤيد ما قلناه من تبذير خمارويه الذي أفقره من وراء زواج ابنته، هذه العبارة ننقلها عن التنوخى في كتابه " نشوار المحاضرة " [1] قال : " ولما حصلت (كذا)قطر الندي ببغداد، أضاق خمارويه إضاقة شديدة، لأنه افتقر بما جمله معها وخرج من جميع نعمته، حتى طلب شمعة فاحتبست عليه ساعة الى أن احتيلت فقال : لعن الله ابن الجصاص أفقرني في السر ". وفي سنة **٣٣٣** هـ (**٩٤٤ – ٩٤٥** م) انكمشت الدولة العباسية الى حدود بغداد تقريبا ؛ وغدت الولايات الإسلامية معرضة لهجمات البيزنطيين، وتعذر على بغداد أن تصد الحملة الفاطمية على مصر. هذا ومن الضروري ان نوجز القول الآن فيما جرى في مصر من أمور خلال هذه الفترة القصيرة التي سبقت الفتح الفاطمي، أي منذ حوالى سنة ٣٢٠ هـ (٩٣٢ م).

ولقد صادفت الدعوة للبيت العلوى نجاحا عظيما في هذه البلاد، بالرغم من القضاء على المحاولات التي قام بها الفاطميون لغزو مصر في سنى ٣٠١ و ٣٠٢ و ٣٠٧ و ٣٠٩ و ٣٢١ – ٣٢٤ هـ.

فقد كان الفاطميون يدمجون في صفوف جندهم دعاة عهد اليهم أن يختلطوا بالناس ويعلموهم عقائد المذهب الفاطمي [2] فلم يلبث أن صار في مصر – قبل فتح هذه على أيدي الفاطميين بزمن طويل ،– عدد غير قليل يعتنق المذهب الشيعي ويرجو نجاحه.

ولم يقتصر ما قام به الفاطميون في سبيل نشر دعوتهم على هؤلاء الدعاة فحسب، بل كان لخلفائهم أيضا نصيب وافر في تشجيع هذه الدعوة ؛ فقد أثر عن بعضهم أنهم كانوا يرسلون كتبا يكتبونها بأيديهم ويذيلونها بإمضاءاتهم.

---

[1] Prof . margoliouth's translation into English , p . 273 (ص ٢٦٢)

[2] ينبغي أن نشير إلى العمال الدينية والسياسية التي قام بها الفاطميون بقولنا " الدعوة الفاطمية " ، لنميز بذلك بين طائفة الفاطميين وغيرهم من الطوائف الشيعية الأخرى ، لأن هذا التعبير أصح وأدق

ولقد ذكر لنا ابن سعيد أن أبا القاسم (هو الخليفة القائم ٣٢٢ – ٣٣٤ هـ و ٩٣٤ – ٩٤٥ م) كتب بيده كتابا خاصا بعث مع رسول من قبله الى مُحَمَّد الأخشيد، رغبة منه في أن تفعل سياسة اللين والمسالمة ما لم تفعله سياسة العداء والحرب، تلك السياسة التي أخفق فيها هو وأبوه من قبل ؛ واليك هذا الكتاب بنصه :

" قد خاطبتك أعزك الله في كتابي المشتمل على هذه الرقعة بما لم يجزلي في عقد الدين، وما جرى به الرسم من سياسة أنصار يستجلبون ؛ وضمنت رقعتي ما لم يطلع عله أحد من كتابي وذوى المكانة عندي. وأرجو أن تردك صحة عزيمتك وحسن رأيك الى ما أدعوك اليه ؛ فقد شهد الله على ميلي اليك وإيثاري لك، ورغبتي في مشاطرتك ما حوته يميني واحتوى عليه ملكي. وليس يتوجه لك العذر في التخلف عن إجابتي ؛ لأنك قد استفرغت مجهودك في مناصحة قوم لا يرون احسانك ولا يشكرون اخلاصك، يخلفون وعدك ذمتك ؛ لم يعتقد منهم أحد حسن المكافأة ولا جميل المجازاة. وليس ينبغي لك أن تعدل عن منهج من نصحك وإيثار من

آثرك، الى من يجهل موضعك ويضيع حسن سعيك. وأنا أعلم أن طول العادة في طاعتهم قد كره اليك العدول عنهم. فان لم تجد من فسك معونة على اتباع الحق ولزوم الصدق، فإنني أرضي منك بالمودة والامر والطاعة، حتى تقيمني مقام رئيس من أهلك، تسكن اليه في أمرك وتعول عليه بمثل ذلك. واذا تدبرت هذا الامر، علمت أن الذي يحملني على التطاطي لك وقبول الميسور منك، انما هو الرغبة فيك. وانت حقيق بحسن مجازاتى على ما بذلته ؛ والله يريك حسن الاختيار في جميع أمرك ؛ وهو حسبنا ونعم الوكيل " [١]

على أن هذا الكتاب لم يكن له من تأثير في نفس الأخشيد الذي دافع رسول الخليفة الفاطمي وسوف الرد يوما بعد يوم. غير أم أمورا حدثت فبذلت صلة هذه المودة التي ربطت الأخشيد بالخليفة العباسي، على أثر ما وصله من الانباء بمسير ابن رائق [٢] الى

---

[١] ابن سعيد : كتاب المغرب (ص ٢٥ و ٢٦) .

[٢] هو مُحَمَّد بن رائق وكان خزريا . انظر صلة تاريخ الطبري لعريب بن سعد (ص ١٢) .

مصر بتولية البلاد من الخليفة العباسي نفسه. لهذا ثارت ثائرة الأخشيد، فأمر بإيقاف الخطبة لهذا الخليفة وذكر اسم الخليفة الفاطمي بدله.

ولقد روى لنا أبن سعيد، نقلا عن عمر بن الحسن الخطيب العباسي في مصر، حكاية نعلم منها كيف أمر الأخشيد بذكر أسم الخليفة الفاطمي في الخطبة، وكيف كان ذلك خطوة مهد بها للاعتراف بسلطان الفاطميين، وقد زاد عدد أتباعهم الذين أخذوا يدعون لهم جهارا ولا يبالون بذلك. وهاك نص هذه الحكاية :

"دعاني الأخشيد يوما فقال لي : إا كان يوم الجمعة، فأتم الدعوة لأبي قاسم صاحب المغرب وأسقط الدعوة للراضي حتى يعلم مُحَمَّد بن طفج... فقلت : كما يأمر الأخشيد. فغدوت إليه ثانية واستأذنته، وقلت لعله يرجع. فقال : نعم ! فلم أزل على هذا ثلاثة أيام الى يوم الخميس ؛ فاتهمت أن يكون أبو الحسين مُحَمَّد بن عبد الوهاب — وكان رجلا جزلا جيد الرأي شيعيا — قد حسن له هذا الرأي ؛ لأنه أقام في اعتقاله سبع سنين، وكان لما أطلقه اختص به. فجئت الى ابن عبد الوهاب وخلوت به وحدثته فقال : إن السوداء ربما ثارت به، أفعاودته ؟ فقلت : قد عاودته أربعة أيام. فقال لي : أنا أخلو به كل جمعة بالغداة، فارفق به وقل أين أعمل الذي أمرتني به، في جامع أسفل أو في جامع ابن طولون ؟ وخلني وإياه. فجئت اليه ورفقت به وقلت :

أيها الأمير ! الذي أمرتني به أين أعمله، في الجامع العتيق ام جامع ابن طولون ؟ فقال لي : أنت في الجامع العتيق وخليفتك في جامع ابن طولون. فقال له ابن عبد الوهاب : إيش [1] هذا الذي فعل ؟ فقال الاخشيد : شيء. فقال ابن عبد الوهاب : الله المستعان ! شيء يعمل على المنبر يكتم، وبعد ساعة يعلم به الجمهور ؟ فقال له : قد تأذيت وبهذا الصبي ابن رائق ؛ وقد أمرت الخطيب أن يدعو لأبي القاسم صاحب المغرب. فقال له : وفق الله الأخشيد ! فلقد وضعت الضيعة في موضعها ؛ ولقد أخبرت أنه في الحزن على أبيه الى الساعة، وما جلس في مرتبته الى حزينا كائبا، ولا جرد سيفا،

(١) بمعنى أي شيء ز ولقد نقلنا هذه الحكاية بنصها بالرغم مما فيها من عبارات وألفاظ ركيكة ، وذلك حفظا لأمانة النقل .

وهو من الشرف والملك على ما سمعت ؛ فالحمد لله الذي جعل رجوع هذا الامر الى أهله على يدك وبك. فاستبشر الاخشيد وأسفر وجهه. ثم التفت ابن عبدالوهاب إلى الخطيب وقال له : أقرأ الذي عملت. قال ما عملت شيئا. فقال ابن عبدالوهاب : تؤمر منذ خمسة أيام بهذا الامر فلم تعمل فيه شيئا ؟ فقال الأخشيد : إيش يعمل ؟ قال يحتاج إلى نحو خمسة آلاف كلاما معمولا في فضل النبي صلي الله عليه وسلم، وعلى وفاطمة والحسن والحسين، وأهل البيت عليهم السلام، ويذكر أنهم أحق بالإمامة،ويقول ذلك والناس يسمعون ؛ فمن كان يشتهي هذا قويت نفسه، ومن كرهه انحل. فقال له الاخشيد : اعمله. فقال لي ابن عبدالوهاب : تلحق اليوم ؟ فقلت : لا. فقال : الجمعة الأخرى. فقال الأخشيد : الجمعة الأخرى. فاصرفت ؛ فلما كان من الغد دخلت على ابن عبدالوهاب فقال لي : قلت له بعدك إنه رأيي وهو أي فنيما تعلمه. ولكني أصدقك تكون انت من أبرك الناس على ابن رائق، لأنك اذا عملت هذا كاتبه من مصر من يكره هذا، وكتب بذلك الى العراق ز فان كان الراضي لم يقلده، قلده وأنفذ اليه الأموال والعساكر، وصيرت له شيعة وخاصة ؛ ولكن دع هذا الى وقت آخر " [(١)].

على ان كتب التاريخ لم تذكر لنا اذا كانت الخطبة قد أقيمت فعلا للخليفة الفاطمي ؛ إذ أن الخطيب العباسي الذي تلقى الامر بتنفيذ هذه السياية لم يزد هذه المسألة بيانا. بيد أنه ينبغي أن لا يعزب عن أذهاننا أنه، لو كان أسم الخليفة العباسي لم يذكر في الخطبة على منابر مصر أيام الاخشيد، لم ضن علينا المؤرخون بذلك، على حين أنهم لم يضنوا بموافاتنا بنبأ سير ابن رائق لتسليم زمام الولاية من الأخشيد ، وظهور العداء بينه وبين الخليفة العباسي.

غير أنه إذا ذكرنا أن هذه الحوادث وقعت في أواخر أيام الاخشيد، في وقت قد هدد فيه بنوبوية سلطان العباسي ثم استولوا على بغداد بعد قليل، فلا نستبعد أن الاخشيد قفام بتنفيذ ما اعتزمه ولو مدة قصيرة من الزمن. وكان من السهل أن تظل علاقة الصداقة بين الأخشيد والخليفة الفاطمي، وأن تكون النتيجة الاعتراف بسلطان الفاطميين على

---

(١) ابن سعيد : كتاب المغرب (ص ٢٦ و ٢٧) .

مصر قبل استيلائهم عليها نهائيا (سنة ٣٥٨ هـ) بزمن طويل.

ولا شك في أن النزعة السياسية (والمذهبية) في مصر أصبحت منذ أيام الأخشيد في جانب الفاطميين. ولقد قيل إن القائم الفاطمي تسلم من الأخشيد كتابا يعرض فيه عليه زواج ابنته من المنصور بن القائم وولى عهده، وأن القائم قرأ الكتاب على أنصاره، فأشاروا عليه بالقبول ؛ فكتب الخليفة الفاطمي بذلك الأخشيد، وبعث اليه بصداقها وقدره مائة ألف دينار. على أن أمال الأخشيد لاقت الخيبة والفشل ؛ فقد استقل هذا المال وطمع في أن يحصل على صداق يفخر به ويباهى. ولم يحقق أمله في تزويج ابنته، وقد توترت العلائق بينه وبين الفاطميين [1].

وسرعان ما اعترضت القائم هذه الثورة التي أذكى نارها أبو يزيد ؛ فتطلبت أحوال بلاد المغرب الداخلية كل نشاط الخليفة الفاطمي الذي لقى حتفه وقد بلغت الثورة أشدها، ثم لحق به الأخشيد بعد قليل، وانقطعت العلاقات بين مصر وشمال إفريقية طوال عهد الخليفة المنصور ٣٣٤ – ٣٤١ هـ (٩٤٥ – ٩٥٢ م) الذي قصر كل همه وأنفق موارد بلاده على القضاء على ثورة أبي يزيد. وبذلك خابت مسألة الزواج، وفشل مشروع غزو مصر، أو على الأقل اعتراف الأخشيديين بسلطان الفاطميين.

تولية كافور حكم مصر [2] :

مات الأخشيد في دمشق في الثاني والعشرين من شهر ذي القعدة سنة ٣٣٤ هـ

---

(١) ابن سعيد : كتاب المغرب (ص ٢٧و ٢٨) .

(٢) قد اعتمدت في العبارة التي كتبتها عن تاريخ مصر إلى وفاة الأخشيد ، على ما كتبه الكندي المتوفي سنة ٣٥٠ هـ ، وابن سعيد المتوفي٣٨٧ هـ عن الاخشيديين . وقد شك روفن جست ((**rhuvon guest** ، الذي نشر كتاب " كتاب الولاة وكتاب القضاة " ((**e . j . w. gibb memorial , series K xxx , 1912** في اسم الكاتب الذي ذيل كتاب الكندي . هذا ، وقد نقل زولاق كتاب الكندي الذي ينتهي الجزء الذي تكلم فيه عن ولاة مصر في سنة ٣٣٤ هـ ، وهى السنة التي مات فيها الأخشيد . والكاتب الذي ذيل كتاب الكندي هو ابن سعيد الذي يقول في كتاب " المغرب " : " وقد يلت هذا الكتاب بسيرة أو نوجور وأخيه على وكافور وأحمد بن على بن الأخشيد والقائد جوهر ، الى أن دخل المعز لدين الله عليه السلام مصر وصارت دار خلافة الخ " : كتاب المغرب (ص ٥) والكندي (ص ٢٩٣ – ٢٩٨) .

(٩٤٦ م)، ودفن بيت المقدس ؛ فخلفه ولده الأكبر أبو القاسم أنوجور (أو أنوجور) [١] ؛ فأصدر الخليفة العباسي المطيع [٢] كتاب اقراره في ولاية مصر والشام والحجاز. وكان أنوجور لا يزال طفلا في ذلك الحين، إذ كان في الخامسة عشرة من عمره ؛ فقام بتدبير أمره كافور [٣] الذي بقيت علاقته بهذا الوالي الجديد على ما كانت عليه من قبل، وهي علاقة الأستاذ بالتلميذ، وأصبح بذلك صاحب السلطان المطلق في الإمبراطورية الأخشيدية، وظل على ذلك الى ان مات سنة ٣٥٧ هـ [٤].

ولما توفي الأخشيد وقبض كافور على زمام الأمور في جميع البلاد الخاضعة لحكم الأخشيديين، قام أهل مصر بثورة، فنجح في القضاء عليها ؛ فعلا شأنه وارتفع ذكره عند الموظفين على اختلافهم. وبعد ذلك بقليل وردت الأنباء باضطراب الأمور في الشام واستيلاء أبي الحسن على الملقب بسيف الدولة الحمداني على دمشق، وبأنه عول على المسير الى الرملة لأخذ مصر ؛ فنجح كافور أيضا في الحيلولة دون مسيره الى مصر، وغنم منه الغنائم الوفيرة ؛ فعظم شأنه وزادت شهرته، واستطاع بذلك أن يقبض على زمام الأحكام من غير أن يكون له نفوذ شرعي، وخاطبه علية القوم بالأستاذ، وذكر اسمه في الخطبة، ودعى له على منابر مصر والشام والحجاز، واتيح له بما أغدقه من العطايا

---

[١] ومعناه بالعربية محمود على ما ذكره ابن خلكان (ج ١ ص ٥٤٥) .

[٢] ذكر ابن خلكان أن خلع الولاية أرسلت لأنوجور في عهد الراضي الذي مات قبل ذلك بخمس سنوات (أي في ٧شعبان سنة ٣٢٩ هـ) .

[٣] أبو المسك (أطلقت هذه الكنية من قبيل التلميح والمشاكلة ؛ لأن المسك أسود اللون ، وكان كافور كذلك . وكثيرا كما يستعمل العرب ذلك . قال عنترة العبسي :

فان ا ك أسودا فالمسك لوني　　وما لسواد جلدي من دواء

ولكن تبعد الفحشاء عني　كبعد الأرض من جو السماء

نعم ! الدعابة انما هي في اطلاق لفظ كافور عليه ؛ لان الكافور أبيض وكان هو أسود الون) . وكافور كان عبدا خصيا . وكان قبيح الخلقة بدينا ثقيلا ، ورجلاه مشوهتان . وكان مملوكا لاحد أهل مصر ، فأشتراه أبو بكر مُحَمّد بن طفج الاخشيد سنة ٣١٢ هـ ، وكان اذ ذاك من رؤساء الأجناد . ولما آلت ولاية مصر للأخشيد ، ترقى كافور في بلاطه .

[٤] مسكويه (ج ٢ ص ١٠٤) ، وابن سعيد : كتاب المغرب (ص ١٤٥) نقلا عن ابن زولاق .

والهبات أن يكتسب محبة رؤساء الجند وكبار الموظفين [١].

على أن أنوجور لما كبر وشعر بحرمانه من سلطته، ظهرت الوحشة بينه وبين كافور ؛ وناصر كلا منهما فريق من الأهلين، ووقف كل واحد للآخر بالمرصاد. وقد تفاقمت العداوة لهذا بين الجند فانقسم فريقين : الكافورية [٢] والاخشيدية [٣].

وأتفق أن مات أنوجور في سنة ٣٤٩ هـ، فحملت جثته الى بيت المقدس ودفن بالقرب من أبيه [٤]. وبموت أنوجور أمن كافور الفتن والقلاقل وأصبح قادرا على تولية خلف للأمير المتوفي ؛ فخلفه أخوه على بن الاخشيد ؛ فعين له كافور كما عين لأخيه من قبل أربعمائة ألف دينار كل سنة، واستبد بالأمر دونه.

وكان هذا الأمير قد دخل في الثالثة والعشرين من العمر ؛ الا أن هذا لم يمنع كافور من التضييق عليه، حتى منع أن يدخل عليه أحد. وظل على ذلك إلى أن مات سنة ٣٥٥ هـ (٩٦٦ م)، فحال كافور دون تعيين ابن الأمير المتوفي بحجة أنه غير صالح للحكم لصغر سنه ؛ فبقيت مصر بغير أمير نحوا من شهر. وفي المحرم سنة ٣٥٥ هـ أخرج كافور كتابا من الخليفة العباسي بتقليده واليا على مصر ؛ لكنه لم يغير لقبه — الأستاذ — ودعي له بعد الخليفة على المنابر. وفي العاشر من صفر (فبراير سنة ٩٦٦ م) لبس الخلعة على مرأى من الناس [٥].

---

[١] ابن خلكان (ج ١ ص ٥٤٧) .

[٢] الكافورية هم مماليك كافور ، وقد رقاهم الى المناصب العالية في الدولة .

[٣] الاخشيدية مماليك الاسرة الاخشيدية وأنصارها .

[٤] قيل أن كافور سم أنوجور .

[٥] ذكر ابن سعيد (كتاب المغرب ص ٤٦ و ٩٩) ، نقلا عن أبي عبدالله محمد بن سعد القرطي (لمعرفة اشتقاق هذا اللفظ راجع القاموس المحيط ، طبعة مصر سنة ١٣٠١ هـ ، وكتاب الأنساب للسمعاني ورقة ٤٤٧ ؛ وهذا اللفظ منسوب الى القرط الذي يعلق في الأذن ، أو الى قروط ، وهو أسم يطلق على بعض أفخاذ بني كلاب أخوة قرط وقريط وقريط) . والقرطي الذي نحن بصدد الكلام عليه مشتق اسمه ، على ما ذكره ابن سعيد (كتاب المغرب ص ٩٩) ، من القرط الذي تأكله الدواب بمصر . وكان أبو عبدالله محمد بن سعد القرطي من ولد عمار بن ياسر ؛ وكان مولعا بالتاريخ ، رحل الى اليمن وبلاد الهند ، وصنف كتاب " تاريخ مصر " في عهد العاضد آخر الخلفاء الفاطميين . وقد

محاولة المعز الاستيلاء على مصر. تلقى الاهلين دعاته بالقبول :

بقى كافور على رأس الحكومة المصرية زهاء سنتين (١٠ صفر سنة ٣٥٥ — ٢٠ جمادي الأولى سنة ٣٥٧). وبعد توليته بقليل، حاول الخليفة الفاطمي إعادة الكرة لغزو مصر، وسار بجيشه الى حدود هذه البلاد الغربية ؛ فأوقف كافور تيار تقدمه ؛ ولكنه استقبل في بلاطه بعض دعاة الفاطميين الذين أرسلهم المعز من قبله لدعوة كافور للاعتراف بسيادته بالقبول، كما وعد معظم رجال بلاطه وكبار موظفي الدولة بتقديم الولاء للخليفة الفاطمي [١].

وتظهر لنا صحة ما ذكره المقريزي ؛ لان ميول كافور تجاه أهل البيت تجلت على الدوام في أجلى مظاهرها. ذلك أن سياسته كانت مطبوعة بطابع الاحترام لآل النبي. ولا غرو فقد اتصف كافور بالهمة، كما كان عارفا بأقدار العلماء والوجوه والأشراف، حتى لقد أثر عنه أنه بينما كان راكبا في موكبه ذات يوم سقط سوطه، فناوله أياه أحد الاشراف [٢] ؛ فقبل كافور يده وقال له : نعيت الى نفسي، فما بعد أن ناولني ولد رسول الله صلى الله عليه وسلم سوطي غاية يتشرف لها. ومن ثم انهالت عل الرجل هبات كافور وخلعه وعطاياه [٣].

وتتبين لك سياسة كافور مع العلويين وشغفه بتوفير أسباب الراحة والسعادة لهم من هذه الحادثة التي نقص لك خبرها عن أبن سعيد. ذلك أن امرأة وقفت لكافور في طريقه مرة وصلحت به : ارحمني يرحمك الله ! فدفعها أحد رجاله دفعا عنيفا، فسقطت ؛ فأخذ

وقف عليه ابن سعيد واستعاره من رجل كان هذا الكتاب في حوزته ، وقيد منه بعض ما أودع كتابه المغرب . ومحمد بن سعد القرطي هذا من أحفاد محمد بن جعفر القرطي . وكان معاصرا للأخشيديين في مصر ، قلده مؤنس الحسبة بمصر ثم قلده الخراج (ابن سعيد ص ٨) ، ثم تقلد خراج مصر والشام في عهد ولاية تكين (ص ٩) — ولى تكين ثلاث مرات (٢٩٧ — ٣٠٣ و ٣٠٧ — ٣٠٩ و ٣١١ — ٣١١ هـ) .

[١] المقريزي : خطط (ج ٢ ص ٢٧) .

[٢] ذكر السيوطى (ج ٢ ص ١١) أن هذا الشريف هو أبو جعفر مسم بن عبيد الله ، من سلالة الحسين بن على ، وأحد الرسل الذين ندبوا لطلب الصلح من جوهر .

[٣] اب ن سعيد (المغرب ص ٤٧) نقلا عن القرطي .

الغضب من كافور كل مأخذ وأمر بقطع يد الرجل ؛ فشفعت له المرأة حتى لا تكون شؤما عليه. فأعجب بها كافور وأمر أحد رجاله أن يسألها عن أصلها ونسبها، فاذا بها علوية ؛ فشق ذلك على كافور وعزا الى الشيطان ما وقع واغفاله إياه هؤلاء الاشراف ؛ وأحسن الى العلوية وأدر عليها وعلى سائر أبناء الأشراف الهبات والأرزاق [1].

ومن هنا يتضح لنا أن عزمه على تحويل طاعته من العباسيين الى الفاطميين كان قد اختمر منذ ذلك الحين. هذا فضلا عن أن حالة مصر الداخلية في السنين الأخيرة من حكم كافور قد دلت على أن حكم الأخشيديين قد آذن بالزوال، مما سهل غزو مصر على أيدى الفاطميين.

الاضطراب والفوضى في عهد كافور :

في هذا العهد قاست مصر البؤس والشقاء بدرجة لم ترها من قبل. وكان أشد هذه المحن انخفاض النيل الذي بدأ سنة **٣٥١** هـ، وما تلاه من قحط ووباء. وقد ظل هذا الانخفاض تسع سنين حتى عام **٣٦٠** هـ. ويحدثنا المقريزى [2] بما كان متوقعا، وهو أن القحط أعقبه ا[3]لوباء ؛ ففشا الموت بسببه حتى عجز الناس عن تكفين الموتى وعن دفنهم، فاضطروا الى القاء جثث موتاهم في النيل [4]. وكان من أثر ذلك أن اشتد الغلاء وندر وجود القمح، وأغار الأشرار على المزارع والحقول، وعم السلب والنهب.

ومما زاد هذا البلاء الذي انصب على البلاد عجز كافور عن صد القرامطة الذين أغاروا على الشام سنة **٣٥٢** هـ ونهبوا حجاج مصر في طريقهم الى مكة سنة **٣٥٥** هـ، ثم عاد قدرته على الدفاع عن البلاد حين غزاها ملك النوبة، حتى نهب البلاد الجنوبية فوصل إلى إخميم وعاد الى بلاده محملا بالأسلاب والغنائم. يضاف الى ما تقدم ما كان

---

[1] شرحه (ص ٤٨) .

[2] خطط (ج ١ ص ٣٣٠)

[3] يؤكد لنا ابن خلكان أن ستمائة ألف من المصريين ذهبوا ضحية هذا الوباء .

[4] مدينة واقعة على الضفة اليمني للنيل في مديرية سوهاج .

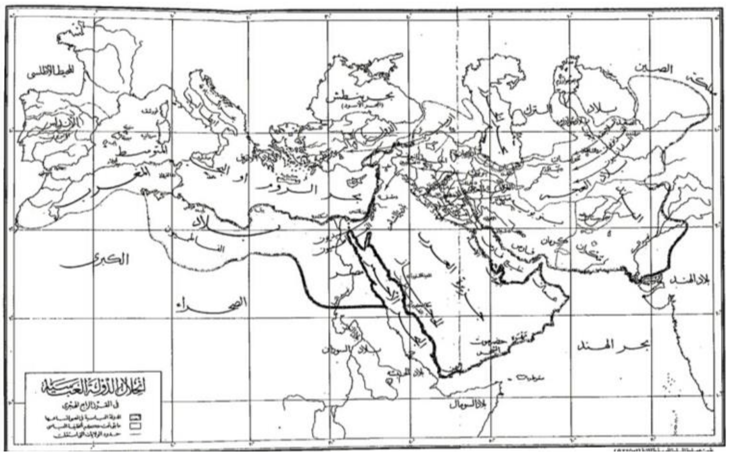
من عجز كافور أيضا عن دفع رواتب حرسه وأرزاقهم، فثاروا عليه [١].

مصر بعد وفاة كافور :

هذه حالة مصر عند وفاة كافور (٢٠ جمادي الأولى سنة ٣٥٧ هـ ٩٦٨ م)، وما صارت البلاد اليه من الفوضى والبؤس.

وقد اجتمع رجال البلاط لاختيار وال يحل محل كافور، على ما جرت به العادة في هذا العهد. وليس من عجب في ذلك، فان الخليفة العباسي غدا في عهد بني بويه أشبه شيء بألعوبة، ولم يعد له من أمر تعيين الولاة شيء ؛ وقد وقع الاختيار على أبي الفوارس أحمد حفيد الاخشيد، وكان طفلا لم يبلغ الحادية عشرة من العمر [٢].

وقد صادف أن وصل مصر بعد ذلك أبو مُحَّد الحسن بن عبيد الله الذي تركه أخوه مُحَّد الأخشيد في الشام سنة ٣٢١ هـ ؛ فأقام فيها نحو ثلاثين سنة، ومرت به أطوار شتى ؛ ففر ابنه من وجه القرامطة، فتلقاه أمراء الاتراك في مصر بقبول حسن وولوه قيادة الجيش. لكنه ما لبث أن استبد بالأمر وقبض على الوزير ابن الفرات وصادر أمواله، ثم عاد الى الشام [٣].



(١) المقريزي : خطط (ج ١ ص ٣٣٠)

(٢) ابن خلكان (ج ١ ص ٤٥٧)

(٣) شرحه (ج ٢ ص ٥٥ و ٥٦)

وبعد رحيل الحسن بن عبيد الله الى الشام سنة ٣٥٨ هـ، ظلت مصر خمسة أشهر تحت سلطة الاخشيديين الاسمية، في حالة شديدو من الفوضى والاضطراب. وكانت إدارة البلاد في يد الوزير ابن الفرات الذي لم يستطع أن يدفع رواتب الجند أو يخفف عن الاهلين ما أصبحوا فيه من بؤس وشقاء ؛ لهذا لا نعجب اذا عجزت البلاد عن صد هجمات المغيرين. وكانت هذه الحالة فرصة سانحة اتخذها الخليفة الفاطمي لغزو مصر. ولم تكن بغداد في ذلك الوقت قادرة لي أن ترسل جيشا يصد الفاطميين عن هذه البلاد.

عجز بغداد عن ارسال الجيوش :

سبق لنا أن بينا ما كان من ضعف الدولة العباسية وانقسام المسلمين الى شيع وطوائف. والآن نجمل القول عن حالة الخلافة العباسية في بغداد في الوقت الذي تم فيه استيلاء الفاطميين على مصر، لنبين كيف تعذر على السلطة المركزية في بغداد أن تبعث لمصر بجيش يصد الفاطميين عنها، كما فعلت ذلك مرارا من قبل.

ولا غرو فقد استقل الامويون بالأندلس ١٣٨ – ٨٩٧ هـ (٧٥٦ – ١٤٩٢ م) على يد عبدالرحمن الأول ١٣٨ – ١٧٢ هـ (٧٥٦ – ٧٨٨ م) وتأسست دولة الادارسة في مراكش ١٧٢ – ٣١١ هـ(٧٨٨ – ٩٢٣ م) على يد ادريس بن عبدالله، ودولة الاغالبة في تونس ١٨٤ – ٢٩٦ هـ (٨٠٠ – ٩٠٨ م) على يد إبراهيم بن الاغلب ؛ كذا كانت سيادة الطولونيين ٢٥٤ – ٢٩٢ هـ (٨٦٨ – ٩٠٥ م) والاخشيديين ٣٢٣ – ٣٥٨ هـ (٩٣٥ – ٩٦٩ م) في مصر. كل ذلك كان ضربة شديدة فتت في جسم الدولة العباسية بتقلص نفوذها عن جزء كبير من ولاياتها في الغرب.

(١) الهجوم على بغداد من الشرق :

هذا في الغرب. أما في الشرق فلم تكن الأمور أحسن حالا ؛ فقد قامت في بلاد الفرس وبلاد ما وراء النهر دويلات عدة، يرجع سبب قيامها الى انتعاش روح القومية التي

ظهر منذ أيام المأمون ١٩٨ – ٢١٨ هـ (٨١٣ – ٨٣٣ م) ؛ فقامت الدولة الطاهرية ٢٠٥ – ٢٥٩ هـ (٨٢٠ – ٨٧٢ م) في خرسان، ومنهم انتقلت السلطة الى أسرة جديدة هي الدولة الصفارية ٢٥٤ – ٢٩٠ هـ (٨٦٨ – ٩٠٣ م) التي تأسسن على يد يعقوب بن الليث الصفار، والدولة السامانية ٢٦١ – ٣٨٩ هـ (٨٧٤ – ٩٩٩ م) التي تفرغت عنها الدولة الغزنوية ٣٦٦ – ٥٧٩ هـ (٩٧٦ – ١١٨٣ م) ؛ لأن ألبتكين مؤسس هذه الدولة كان من الموالي الأتراك الذين استخدموا في البلاط الساماني..

ولقد تفاقم خطر كثير من هذه الدول فقويت شوكة بني بوية ٣٣٤ – ٤٤٧ هـ (٩٤٥ – ١٠٥٥ م)، وكانوا من الشيعة الغلاة، وأمتد شرهم إلى حياة الخلفاء أنفسهم. ومما يدل على مبلغ الضعف الذى وصلت إليه الدولة العباسية، وعلى قوة هذه الدولة التي آل إليها الحكم، أنه لم يعد للخليفة من الأمر شيء، سوى سلطته الدينية ممثلة بذكر اسمه في الخطبة ونقشه على السكة ؛ ولم يكن ذلكم الا لأغراض سياسية غايتها احتفاظ هؤلاء الحكام بمراكزهم أمام الجمهور..

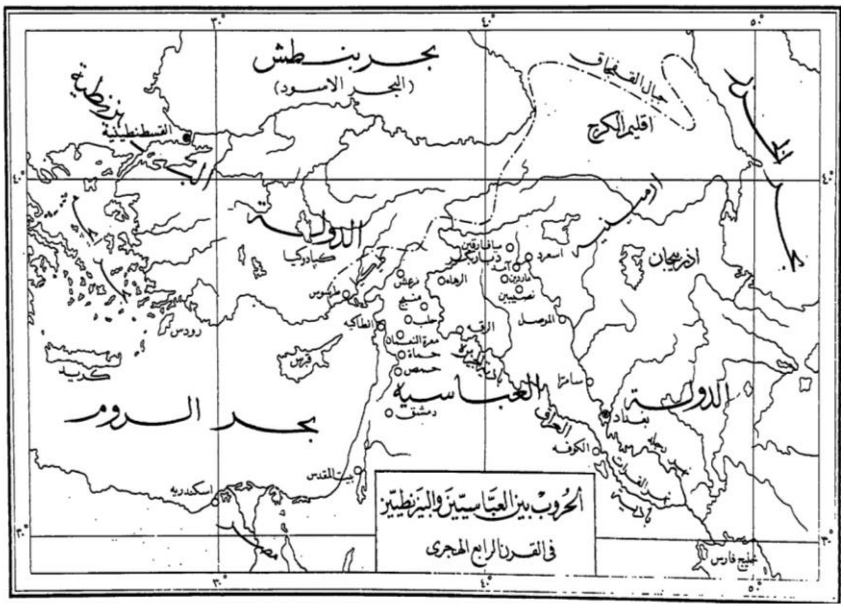
وقد وصف لنا المؤرخ جبون الحالة التي وصلت إليها الدولة العباسية في ذلك العصر فقال :" لم تكن حالة الضعف التي وصلت إليها الخلافة العباسية راجعة إلى السياسة فحسب، بل تعدتها إلى الدين أيضا. فقد نشأت من المذهب الشيعي على ممر الزمن مذاهب متعددة، أهمها المذهب الفاطمي ن والمذهب الدرزي في لبنان، والمذهب البابي في بلاد الفرس، وقد ظهر في الأزمنة الحديثة ز كذلك ظهرت الاختلافات الدينية في بغداد ؛ فقام أمصار حنبل [١] وأنقضوا على بيوت الامراء وذوى اليسار، وكسروا أواني الخمر، وحطموا الآلات الموسيقية وضربوا المغنين، وأهانوا الفتيان والفتيات وأساءوا بهم الظنون. لوم يكن من سبيل للقضاء على هذه الفئة إلا بقوة حربية ؛ ولكن من ذا الذى يمكنه أن يسد جشع طائفة المرتزقة أو يؤيد النظام بالقوة بين أفرادها ؟

هذا إلى ما كان من سل الحرس من الاتراك وأهل إفريقية السيوف كل في وجه الآخر

---

[١] ودل في بغداد سنة ١٦٤ هـ (٧٨٠ م) ومات بها سنة ٢٤١ هـ (٨٥٥ م) . انظر ابن خلكان (ج ١ ص ٢٠ – ٢١)

؛ وأصبح في يد أمير الأمراء [١] حبس الخليفة وخلعه وقتله. فكان هذا تعديا على سلطة الخليفة الدينية وما لها من حرمة في النفوس ؛ ولم يكن عند الخليفة من سبيل يأمن به على نفسه الأذى إلا هربه إلى معسكر أحد الأمراء.



الحروب بين العباسيين والبيزنطيين في القرن الرابع الهجري

فكان إنقاذه تحولا عما كان فيه من مذلة إلى مذلة أخرى، حتى دفعه اليأس إلى دعوة بني بويه لمعونته وتخليصه مما هو فيه ؛ فإذا وقع تحت رحمتهم صار ألعوبة في يدهم " [٢]

(٢) إغارة البيزنطيين على الولايات العباسية وعبثهم بها :

لم تكن الحالة في الحدود الشمالية الغربية أقل سوءا واختلالا منها في الجهات التي

---

[١] أول من تلقب بهذا اللقب هرون بن غريب سنة ٣١٦ هـ مسكويه (ج ١ ص ١٨٨ و ٣٥٠ و ٣٥١). وقد قلد الخليفة العباسي الراضي مُحَمَّد بن رائق " الإمارة ورياسة الجيش ، وجعله أمير الأمراء ، ورد إليه تدبير أعمال الخراج والضياع ، وأعمال المعاون في جميع النواحي ، وفوض إليه تدبير المملكة ، وأمر بأن يخطب له على جميع المنابر في الممالك وبأن يكنى "

أنظر كتاب تجارب الأمم " لمسكويه (ج ١ ص ٣٥٠ – ٣٥١) ن وترجمته إلى العربية للأستاذ مرجوليوث (prof . margoliouth) (ج ٤ ص ٣٩٥) بمناسبة كلام مسكويه عن ابن رائق .

[٢] Gibbon : decline and fall of roman empire (4 th sed .) < vol . vi . pp . 54 – 55

بيناها. فقد ساد العداء منذ ظهر الإسلام بين المسلمين والإغريق بحكم الجوار. على انه كثيرا ما كانت كفة المسلمين راجحة إلى أن جاء الخليفة المعتمد (٢٥٦ – ٢٧٩ هـ و ٨٧٠ – ٨٩٢ م)، فانكمشت الإمبراطورية العباسية في عهده إلى حدود الجزيرة والعراق، وفيهما أيضا قامت الثورات وعم الاضطراب، مما أدى إلى قيام النزاع بين المسلمين والروم منذ ذلك الوقت، وإن لم يكن قد أدى إلى نتيجة حاسمة. ولقد قويت شوكة الإمبراطورية البيزنطية، وانتشر الأمن والسلام في أرجائها منذ اعتلاء باسيل الأول (basil. I.)) العرش ؛ فتمكن بكل قوته من مقابلة جيوش بعض الأمراء، وساعد على انتصار باسيل ما كان من ضعف أعدائه بسبب إغارة خصومهم على مؤخرة جيوشهم.

وفي عهد قسطنطين السابع (Constantine vii.)، توطدت صلات السلام بينه وبين ما جاوره من البلاد، إلا البلاد الإسلامية. فساد هذا السلام بينه وبين أرمينية في الشرق، والروسيا وبلغاريا في الشمال، والبندقية وألمانيا في الغرب [١].

وفي سنة ٣٥٠ هـ (٩٦١ م) استولى القائد نقفور فوكاس (nicephorus phocas على جزيرة كريت. وبعد ذلك بقليل، انتصر على سيف الدولة الحمداني. وفي سنة ٣٥١ هـ استولى على كثير من مدائن الأناضول مثل مرعش ودبيق ؛ وبالقرب من منبج أسر أمير هذه المدينة أبو فراس الحمداني الشاعر المشهور [٢]، وأخيرا أستولى نقفور في ديسمبر من السنة نفسها على حلب حاضرة الحمدانيين بعد حصار شاق [٣]

وبعد موت رومانوس Romanus) رابع اباطرة الدولة البيزنطية من سلالة باسيل في صفر سنة ٣٢٥ (مارس سنة ٩٦٣)،تزوجت ارملته تيوفونيا Theophonis) من نقفور فوكاس[٤]،ثم من قاتله جون زيميسكيس John Tzimisces)، بطلي ذلك العصر،وأليهما

---

[١] Vasil'ev ., Cambridge mediaeval history , vol . I v . pp . 138 , 139

[٢] مسكويه (ج ٢ ص ١٩٢ و ٢٢٠) ، ويحيى بن سعيد (ص ١١٨)

[٣] مسكويه (ج ٢ ص ١٩٢ و ٢٢٠) ، ويحيى بن سعيد (ص ١١٨)

[٤] ذكر مسكويه (ج ٢ ص ٢٣٩) أن وفاة نقفور كانت في سنة ٣٥٦ هـ . وقال يحيى بن سعيد (ص ١٣٧) إنه مات في المحرم سنة ٣٥٩ . وعدد الذهبي (مسكويه ج ١ ص ٢٥٣ حاشية ١) انتصارات نقفور في الشام عند كلامه على حوادث سنة ٣٥٧ هـ .

آلت الوصاية علي اولادها الصغار. وقد امتدت غزوات هذين الامبراطورين من تلال كبادوكيا (**Cappadocin**) الي الصحراء بغداد.والاثنتا عشرة سنة التي تولي فيها هذان الرجلان قيادة الجيوش البيزنطية ابهي عصور الامبراطورية البيزنطية وأزهاها.[١]

وفي سنة ٣٥٤هـ (٩٦٤م) تقدم البيزنطيون إلى حدود سورية،ووقعت في أيديهم مدينتا المصيصة وطرسوس في سنة ٣٥٥هـ (٩٦٥م) بعد ان نال منهما القحط والموت، فلم تقويا بعد علي مواصلة الدفاع : ذلك أنه في ١٣ يونيه سنة ٩٦٥م وقعت المصيصة في أيدي البيزنطيين، وفي ١٦ أغسطس من السنة نفسها سلمت اليهم مدينة طرسوس.[٢]

هذا، وقد عاث نقفور فوكاس فسادا في البلاد السورية قبل الشروع في محاصرة أعظم وأشهر مدينتين في سورية، وهما أنطاكية وحلب، حصارا منظما،حيث سلمت له مدائنها الواحدة بعد الأخرى.[٣]

أما نتيجة هذه الغزوات فقد وصفها فاسيل اف في هذه الكلمات : "لم يبلغ قط اخضاع العرب واذلالهم في وقت من الاوقات مثلما بلغه في عهد نقفور فوكاس. فقد انتزعت من أيديهم كيلكيا[٤] وجزء من بلاد سورية، واعترف شطر كبير من بلاد الدولة (العباسية) بالتبعية للإمبراطورية ". [٥]

(٢) عبور الاغريق الفرات :

كان عبور الفرات في الجهات الواقعة اسفل جبال طوروس مستحيلا علي الاغريق منذ أيام هرقل. ولكن زيميسكيس استطاع أن يكتسح كثيرا من المدن العريقة في الشهرة، من أمثال الرها وديار بكر وميافارقين ونصيبين الواقعة عند حد الامبراطورية القديم علي

---

[١] مسكويه (ج ٢ ص ١٣٩) ، ويحي بن سعيد (ص ١٢٠ و ١٣٦) ، وأبو شجاع (ص ١٢ و ١٣) . **vasil' ev ., Cambridge mediaeval history , vol . I v . p . 144 . gibbon , vol . v I . p . 58 .**

[٢] – مسكويه (ج ٢ ص ٢١٠ و ٢١١) ، ويحيى بن سعيد (ص ١١٨)

[٣] – يحيى بن سعيد (ص ١٤٧)

[٤] يراد من كيلكيا أو كيليكليا البلاد التي ى فوق زاوية خليج اسكندرونة ، وهى المعروفة عند العرب بقاليقلا

[٥] **vasil' ev ., Cambridge mediaeval history , vol . I v . pp . 146- 147**

مقربة من نهر دجلة.[1]

ولقد تفاقم رعب الناس بما أذاعه الفالة من زيميسكيس وما كان يصحب ذكر اسمه من خوف وهلع، حتي ان المطيع العباسي لم يتمالك، علي ما ذكره مسكويه[2]، ان أعلن أن أسلحته وخراج دولته قد انتزع من يديه، وأنه لم يعد قادرا علي الدفاع عن بغداد

علي ان مخاوف أهل بغداد قد تبددت بانسجام البيزنطيين، الذين لم يقووا علي تحمل العطش والجوع اللذين تعرضوا لهما في حربهم في الصحراء [3]؛ ولم يتمكن العباسيون، بالرغم مما تكبدوه من المشاق في حربهم مع البيزنطيين، الا من استرجاع مدينة كيلكيا وجزيرة قبرص.[4]

(٣) الاحوال التي ساعدت علي استقرار سلطان الفاطميين في مصر وفي الشرق عقب غزوهم مصر

علي أن هذه الحالة التي سادت البلاد الخاضعة لسلطان القاهرة وبغداد قد سهلت – كما بينا من قبل – علي الفاطميين القضاء علي سلطان العباسيين في كل من مصر والشام. إذ أنه بتوطيد نفوذهم في مصر استطاعوا ان يمدوا هذا السلطان إلى الشرق، أعني إلى الشام والحجاز، إن لم يكن إلى أبعد منهما، لأن هذين القطرين كانا في ذلك الحين خاضعين لحكم الأخشيديين.

إعداد المعز المعدات لفتح مصر :

وكان الاستعداد لفتح مصر قائما علي قدم وساق منذ سنة ٣٥٦هـ (٩٦٧م). فقد شرع المعز في إنشاء الطرق وحفر الآبار، وإقامة المنازل للاستراحة في فترات منتظمة ؛

---

[1] مسكويه (ج ٢ ص ٣٠٣ و ٣٠٤) ويحيى بن سعيد (ص ١٣٩ و ١٤٠ و ١٤٧ و ١٤٨ و ١٥٨ و ١٥٩) وأبو الفدا (ج ٢ ص ١١٨)

[2] – (ج ٢ ص ٣٠٦

[3] – – ابن الإثير (ج ٨ ص ٢١٤)

[4] – يحي بن سعيد (ص ١٤٣)

وبدأ في نفس الوقت

يجمع الأموال لينفق منها علي حروبه، ويجزل الأموال علي كتامة يمدوه بجند من انصارهم مجهزين بما يحتاجون إليه من معدات.[1]

وقد ساعد علي فتح مصر ومد سلطان المعز منها إلى الشرق، ذلك الهدوء الذي انتشر في أرجاء إفريقية، وبخاصة بلاد مصر عندما ظهر فيها الاضطراب وسوء النظام وانتشر فيها القحط والوباء بعد وفاة كافور، وانه كان بمصر جماعة يعتد بهم من اصحاب المناصب العالية الذين يدينون بمذهب الشيعة، مما لم يخف علي المعز لدين الله.

وقد أورد لنا المقريزي، ولا تدري من اي مصدر أخذ ولا من اي تاريخ استفي، ان المعز كشف عن سياسته في خطبة القاها علي رؤساء كتامة، لا بأس من نقلها هنا، لآنها ولا شك وثيقة تاريخية متضمنة للخطة السياسية التي اعتزم المعز نهجها من الناحية السياسية والدينية والأدبية قال : "واستدعي المعز وهو بالمنصورية في يوم شات بارد الريح، عدة شيوخ من شيوخ كتامة، وأمر بإدخالهم اليه من غير الباب الذي جري الرسم به. فاذا هو في مجلس مربع كبير مفروش باللبود علي مطارح، وحوله كساء، وعليه جبة، وحواليه أبواب مفتحة تقضي إلى خزائن كتب. وبين يديه مرفع ودواة وكتب حواليه فقال : يا إخواننا ! اصبحت اليوم في مثل هذا الشتاء والبرد فقلت لأم الامراء، وإنها الان بحيث تسمع كلامي : أتري إخواننا يظنون أنا في مثل هذا اليوم ناكل ونشرب، ونتقلب في المثقل والديباج والحرير والفنك، والسمور والمسك والخمر والغناء، كما يفعل أرباب الدنيا ؟ ثم رأيت أن أنفذ اليكم فأحضركم لتشاهدوا حالي اذا خلوت دونكم واحتجبت عنكم. واني لا أفضلكم في أحوالكم الا فيما لابد لي منه من دنياكم، وبما خصني الله به من إمامتكم. واني مشغول بكتب ترد علي من المشرق[2] والمغرب، أجيب عنها بخطي.

---

[1]- ابن أبي دينار (ص ٦٢)

[2] – ذكر أبو المحاسن (طبعة **juynboll** ج ٢ ص ٤٤٣) ، نقلا عن أبن عبدالجبار ، أن الشيعيين في مصر أرسلوا إلى المعز كتبا قالوا فيها " إذا زال الحجر الأسود (هو كافور الذي كان يتولى حكم مصر) ملك مولانا المعز الدنيا كلها " .

واني لا أشتغل بشئ من ملاذ الدنيا إلا بما صان أرواحكم، وعمر بلادكم وأذل أعداءكم، وقمع أضدادكم. فافعلوا يا شيوخ في خلوتكم مثل ما أفعله ؛ ولا تظهروا التكبر والتجبر، فينزع الله النعمة عنكم وينقلها إلى غيركم. وتحننوا

علي من وراءكم ممن لا يصل إلى كتحني عليكم، ليتصل في الناس الجميل ويكثر الخير وينتشر العدل. وأقبلوا بعدها علي نسائكم والزموا الواحدة التي تكون لكم ؛ ولا تشرهوا إلى التكثير منهن والرغبة فيهن، فيتنغص عيشكم وتعود المضرة عليكم، وتهكوا أبدانكم، وتذهب قوتكم ويضعف تمايزكم ؛ فحسب الرجل الواحد الوحدة. ونحن محتاجون إلى نصرتكم بأبدانكم وعقولكم. واغلموا أنكم اذا لزمم ما آمركم به، رجوت أن يقرب الله علينا أمر المشرق كما قرب أمر المغرب بكم. انهضوا رحمكم الله ونصركم".[1]

والسياسة التي جري عليها المعز تظهر ظهورا بينا من هذه الخطبة البليغة ؛ وفيما عني عناية خاصة ببعض المسائل. ولقد انتهزا الخليفة الفاطمي هذه الفرصة، فأوضح لأشياعه عيشة الزهد والتقشف التي يعيشها ؛ فبين لهم أنه خصص وقته وهمته لبلوغ غاية واحدة، هي نشر نفوذه الديني والزمني في الشرق.

وقد شرح لهم بعد ذلك الوسائل التي يستطيع بها ان ينقذ سياسته، حتي يكون لها أثرها فتأتي بالغرض المطلوب منها : فصيانة أرواح رعاياه، وتعمير بلاده، واخضاع أعدائهم واذلالهم (يقصد بذلك قمع الثورات التي قد تذكي نارها الأحزاب المعادية لهم في شمال إفريقية)، كان هذا كله الخطوات التي لا بدله من أن يدرج فيها الاستتباب النظام، عسي أن يتمكن بذلك من نشر ألوية السلام والطمأنينة في كافة ربوع بلاده.

واذا ما تحققت هذه الغاية، لم يفت الخليفة الفاطمي معني المثل المشهور "العدل أساس الملك ". ولا غر و فقد عرف أن الظلم والاستبداد يثيران كامن السخط ويذكيان روح العصيان، مما يؤدي إلى القضاء علي هذه المجهودات التي يبذلها لاستتباب الأمن والعدل في بلاده.

---

[1] – المقريزي : اتعاظ الحنفا (ص ٦٠ – ٦١)

ولا يعزب عن أذهاننا أن هذا الخليفة لم يقرأ تباعه علي التزوج من أكثر من واحدة. "فحسب الرجل الواحد الواحدة "، عبارة تنطوي تحتها كراهة تعدد الزوجات كراهة تكاد تبلغ التحريم، مما يؤدي بلا ريب إلى انهاك أبدانهم وإضعاف عقولهم ؛ وبذلك يكون الخليفة قد ادرك أثره بنفسه. ونحن نستطيع أن نزيد علي هذا القول بأن لهذا الأمر أثرا عظيما في اضعافهم من الناحية الخلقية أيضا.

وقد وثق الخليفة من انهم لو اخلصوا لأوامره ونواهيه، لسهل عليهم أمر المشرق كما سهل عليهم أمر المغرب من قبل. وان ما جاء في آخر هذه الخطبة التي نستطيع أن نعدها وثيقة من الوثائق التاريخية الهامة يمكننا من أن نوازن – ولو بعض الشيء – بين المعز وعمر بن الخطاب، من حيث سياسته التي تنطوي علي الحزم وسمو الأخلاق والقدرة علي تصريف الأمور – هذه الصفات كلها التي سهلت عليه فتح مصر والشام.

وفي الحق، إن ما جاء في بيان هذا الخليقة من أنه كان مشتغلا بما يرد عليه من الرسائل والكتب من المشرق والمغرب، وأنه كان يجيب عليها بنفسه، يبين لنا ما كان هنالك من علاقة بين الخلافة الفاطمية وبلاد المشرق حيث انتشرت الدعوة الفاطمية وتمكنت أصولها.

(٤) اختيار مصر مقرا لدعوة الشيعة

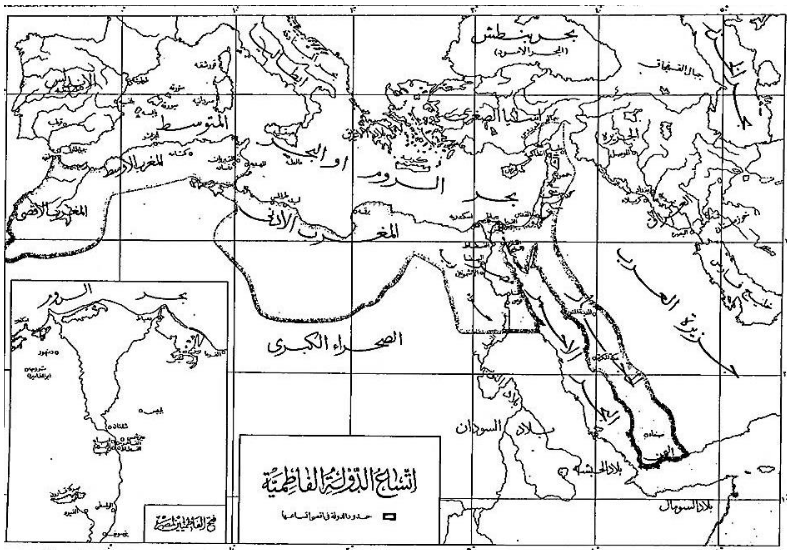
لوفرة ثروتها وقربها من الأمصار الإسلامية

لم تكن موارد بلاد المغرب مما يمكن المقارنة بينها وبين موارد مصر، اذ لا شك في أن مصر كانت تفضلها من حيث ثروتها وموقعها الجغرافي، وبذلك كانت اكثر صلاحية لتكون مركزا لسلطان الامبراطورية الفاطمية. هذا فضلا عن ان مصر أقرب إلى المشرق الذي دأب المعز علي إخضاعه كما دأب علي ذلك أسلافه من قبل. فكأن نجاحه في هذا المشروع يؤدي إلى استيلائه علي المراكز الاسلامية القديمة أو بعضها : وهي المدينة ودمشق، وعلي بغداد التي قد استولي عليها بنو بوية سنة ٣٣٤هـ (٩٤٥م).

أما السهولة التي لاقاها النفوذ الفاطمي، وما كان من امتداد هذا النفوذ إلى سورية

والحجاز بعد فتح مصر، فحلم قد تحقق بالفعل ؛ علي أن الأمل بأن تنحو بغداد منحي دمشق والمدينة بعد، أمر لم تحققه الأيام.

نعم ! لقد كان بنو بو يه من الشيعيين المتحمسين لمذهب الشيعة، كما كان الفاطميون أنفسهم ؛ وكانت مسألة تحويل الخلافة من العباسيين إلى العلويين من المسائل التي فكرفيها بنو بو يه بادي ذي بدء بعد انتقال السلطان اليهم. ولكن الميول في اتحاد المذاهب قل أن يكون لها أثر إذا تنازعت مع المصالح السياسية.



وكان معز الدولة كغيره من آل بويه شيعيا متمسكا في مذهب الشيعة ؛ وقد اعتنق هذا المذهب علي مبادئ الزيدية التي أدخلها في بلاده الحسن بن زيد الملوي. وكان من أثر نشر عقائد هذا المذهب أن اعتقد بنو بو يه أن العباسيين قد اغتصبوا الخلافة من أصحابها وهم العلويون.

بيد أن معز الدولة بن بوية لما فكر في تنفيذ هذه الفكرة، أشار عليه أحد أنصاره بالعدول عنها، كما يتبين لك ذلك من هذه الكلمات التي قالها له أحد هؤلاء الأنصار، تنقلها عن ابن الأثير حيث قال: "فانك اليوم مع خليفة تعتقد أنت وأصحابك أنه ليس

من اهل الخلافة؛ ولو أمرتهم بقتله لقتلوه مستحلين دمه؛ ومتي أجلست بعض العلويين خليفة، كان معك من تعتقد أنت وأصحابك صحة خلافته؛ فلو أمرهم بقتلك لفعلوه".[1]

ونحن نميل إلى ترجيح صحة هذا القول ؛ فقد انتصح بنو بو يه بهذا النصح، فعدلوا عن مسألة تحويل الخلافة إلى العلويين. وستقف من أعمال الفتوح التي قام بها الفاطميون علي أنهم جعلوا مصر المركز الذي انتشرت منه دعوتهم في الشرق والغرب. وسندرك أيضا أن الفاطميين لم يفكروا في الاستيلاء علي بغداد حتي في ذلك الوقت الذي ذكرت فيه أسماؤهم في الخطبة علي منابر الدولة العباسية.

ويحدثنا المقريزي [2]أنه عندما رحل جوهر يريد مصر، خطب المعز في المشايخ الذين انضووا تحت لوائه بهذه الكلمات: " والله لو خرج جوهر يريد مصر، ولتدخلن إلى مصر بالأردية من غير حرب، ولتنزلن في خرابات ابن طولون وتبني مدينة تقهر الدنيا ".

رحيل جوهر إلى مصر :

في اليوم الرابع عشر من شهر ربيع الآخر سنة ٣٥٨ (فبراير سنة ٩٦٩)، خرج المعز لوداع جوهر وجيشه عند رحيلهم لغزو مصر. وبعد ان قبل جوهر يد الخليفة وخافر فرسه، أذن له الخليفة بالمسير. ولما عاد المعز إلى قصره، بعث لجوهر كل ما كان عليه من لباس خارجي عدا خاتمه.[3]

وتقدم جوهر في مسيره حتي وصل إلى الاسكندرية ؛ فسلمت هذه المدينة له بعد أن أجاب اهليها إلى ما التمسوه من شروط ؛ ولم يشك أحد من الأهلين من عنف أو نهب. ولا غرو فقد استطاع جوهر ان يكبح جماح عساكره الذين أغدقت عليهم الارزاق، وكان النظام بين وحدات جيشه يدعو إلى الاعجاب. [4]

---

[1] – ابن الأثير (ج ٨ ص ١٦٢)

[2] – خطط (ج ١ ص ٣٧٨)

[3] – ابن خلكان (ج ١ ص ١٤٨)

[4] – يحي بن سعيد (ص ١٣٢)

وقد اضطرب أهل الفسطاط حين اتصل بمسامعهم نبأ وصول جوهر إلى الاسكندرية واستيلائه عليها، فعولوا علي ندب الوزير ابن الفرات لمراسلة جوهر بشأن الصلح وطلب الأمان علي أرواحهم وأملاكهم، وسألوا أبا جعفر مسلم بن عبيد الله – وكان من الاشراف ومن ذوي المكانة عند قومه، ونسهته إلى الحسين بن علي أمر معترف به غير منازع فيه – أن يذهب بنفسه ويفاوض جوهرا في الصلح. وقد رأوا أن سفيرا من العلويين قد يكون له شأن يذكر مع الشيعيين أمثاله، فتجاب مطالب أهل مصر. فأجابهم ابو جعفر إلى ذلك، وشرط ان يكون معه جماعة من أهالي هذه المدينة.[1]

وتوجه هذا الوفد في يوم الاثنين الثامن عشر من شهر رجب سنة ٣٥٨هـ (١٨يونيه سنة ٩٦٩)، وتلاقوا مع جوهر في مدينة تروجة، وهي قرية علي مقربة من الاسكندرية ؛ فأدي الشريف الرسالة عنهم ؛ فأجابه جوهر إلى ما التمسوه وكتب له عهدا بما طلبوه. وفي السابع من شهر شعبان عاد الوفد ومعه العهد إلى الفسطاط ؛ فركب الوزير ابن الفرات ولقي الناس وقرأ عليهم العهد ؛ فتناظروا فيه، واختلفوا علي قبوله ورجعوا عن الصلح.

وهنا اضطر أهل المدينة اضطرابا شديدا، وعول أنصار الأخشيديين والكافورية وجماعة من العسكر علي عدم الإذعان لعهد الصلح وصد جوهر بجد السلاح، وولوا تحريرا قيادتهم ؛ فسار علي رأس جند المصريين إلى الجيزة، فنزلوا بها وحفظوا الجسور. [2]

وفي الحادي عشر من شعبان وصل جوهر، وقد علم بما اعتزمه أهل مصر من المقاومة، وسار إلى منية الصيادين واستولي علي المخاضة بمنية شلقان ؛ فلم يجد جماعة من عسكر المصريين بدا من العبور في القوارب والتسليم لجوهر وطلب الأمان منه، ووقف غيرهم من العسكر المرابطين في الجانب الاخر من الفسطاط علي المخاضة لحفظها.

---

[1] – الكندي (ص ٥٨٤) ويحي بن سعيد (ص ١٣٢)

[2] – يحيى بن سعيد (ص ١٣٢ و ١٣٣) وابن خلكان (ج ١ ص ١٤٩)

فلما راي جوهر ذلك انتزع بلابسه الخارجية وعبر مع رجاله في مركب، وخاض رجاله واعملوا السيف في الأخشيدية واوقعوا بهم ؛ فهربت الفالة منهم في غلس الظلام (١٦ شعبان سنة ٣٥٨، اول يوليه سنة ٩٦٩)، وحملوا من منازلهم كلي ما قدروا عليه.

ولم ير النساء بدا من طلب الامان. فخرج بعضهن مشاة ودخلن علي الشريف ابي جعفر، وطلبن اليه مكاتبة جوهر بإعادة الامان ؛ فكتب اليه يهنئه بالفتح ويساله الامان من جديد. فقيل القائد الفاطمي ملتمسهم، واذاع علي الجند منشورا يحرم فيه عليهم ان يقوموا بعمل من اعمال العنف والنهب. فهدأت المدينة وسكن الناس، وعاد الامن إلى نصابه، وفتحت الاسواق وعادت الاعمال التجارية إلى ما كانت عليه[1].

ولقد اورد لنا المقريزي شروط الصلح التي عرضها جوهر علي المصريين في بيان واف. ومع ان جوهرا منح المصريين الحرية التامة في امورهم الدينية واقامة شعائرهم — كل حسب المذهب الذي يدين بعقائده — فان اغراضه التي كانت ترمي إلى نشر عقائد المذهب الفاطمي قد سترت مع ذلك وراء ستار من الجهاد السري الحكيم.

هذا، ويجمل بنا ان نورد هنا نص العهد الذي قطعه جوهر علي نفسه ؛ لأنه يمدنا بوصف تام لحالة العالم الاسلامي وقت الفتح الفاطمي، ويرسم لنا صورة واضحة للسياسة التي عول الفاطميون علي الاخذ بها من الوجهة السياسية والدينية في مصر خاصة والشرق عامة. وسنعلم بعد إلى اي حد نجحت سياسة جوهر. والان نأتي بهذا العهد نقلا عن المقريزي :

" بسم الله الحمن الرحيم ! هذا كتاب من جوهر الكاتب عبد امير المؤمنين المعز لدين الله صلوات الله عليه، لجماعة اهل مصر الساكنين بها (من اهلها)، ومن غيرهم، انه قد ورد من سألتموه الترسل والاجتماع معي : وهم ابو جعفر مسلم الشريف اطال الله بقاه، وابو اسماعيل الرسي ايده الله، وابو الطيب الهاشمي ايده الله، وابو جعفر احمد بن نصر اعزه الله، والقاضي اعزه الله، وذكروا عنكم انكم التمستم كتابا يشتمل علي امانكم في انفسكم

[1] – ابن خلكان (ج ١ ص ٣٤٣)

واموالكم وبلادكم وجميع احوالكم ؛ فعرفتم ما تقدم به امر مولانا وسيدنا امير المؤمنين صلوات الله عليه، وحسن نظره لكم. فلتحمدوا الله علي ما اولاكم وتشكروه علي ما حباكم، وتدأبوا فيما يلزمكم، وتسارعوا إلى طاعته العاصمة لكم العايدة بالسعادة عليكم وبالسلامة لكم ؛ وهو أنه صلوات الله عليه لم يكن إخراجه للعساكر المنصورة والجيوش المظفرة، ألا لما فيه إعزازكم وحمايتكم والجهاد عنكم [1]؛ إذا قد تخطفتكم الأيدي واستطال عليكم المستذل، وأطمعته نفسه بالاقتدار علي بلدكم في هذه السنة، والتغلب عليه وأسر من فيه والاحتواء علي نعمكم وأموالكم حسب ما فعله في غيركم من أهل بلدان الشرق ؛ وتأكد عزمه واشتد كليه، فعاجله مولانا وسيدنا أمير المؤمنين صلوات الله عليه بإخراج العساكر المنصورة، وبادره بإنقاذ الجيوش المظفرة دونكم، ومجاهدته عنكم وعن كافة المسلمين ببلدان الشرق الذين عمهم الخزي وشملتهم الذلة، واكتنفتهم المصائب وتتابعت الرزايا، واتصل عندهم الخوف وكثرت استغاثتهم، وعظم ضجيجهم وعلا صراخهم ؛ فلم يغثهم الا من أرمضه أمرهم ومضه حالهم وأبكي عينه ما نالهم، وأسرها ما حل بهم، وهو مولانا وسيدنا امير المؤمنين صلوات الله عليه، فرجا بفضل الله عليه وإحسانه لديه، وما عوده وأرجاه عليه، استنقاذ من أصبح منهم في ذل مقيم وعذاب أليم ؛ وأن يؤمن من استولي عليه المهل ويفرج روع من لم يزل في خوف ووجل. وآثر إقامة الحج الذي تعطل وأهمل العباد فروضه وحقوقه لخوف المستولي عليهم ؛ وإذا لا يؤمنون علي أنفسهم ولا علي أموالهم ؛ وإذا قد أوقع بهم مرة بعد أخري، فسفكت دماؤهم وابتزت أموالهم، مع اعتماد ما جرت به عادته من صلاح الطرقات وقطع عبث العابثين فيها، ليطرق الناس آمنين ويسيروا مطمئنين، ويتحفوا بالأطعمة والأقوات، إذا كان قد انتهي إليه صلوات الله عليه انقطاع

---

[1] – قد تكون الإشارة هنا الى الغارات التي شنتها جيوش الامبراطورية البيزنطية ، وقد استولت على كيليكيا وقبرص ، وكانوا على وشك التقدم نحو بلاد الجزيرة وقلب الشام وتهديد مصر . وقد تقدم القول بأن الجيوش البيزنطية استطاعت أن تصل في غزاتها إلى بلاد الشام تحت قيادة نقفور فوكاس ، الذي وقعت في يده انطاكية سنة ٣٥٩ هـ (٩٦٩ م) ، وأوقع الهزيمة بعساكر الشام والأساطيل المصرية التي كان قد بعث بها جوهر بعد أن تم له فتح مصر سنة ٣٥٨ هـ ؛ وكان قد عول على ارسالها لمحاربة الخليفة العباسي الذي كان ينظر إليه نظرة الخارج على الدين لاعتناق مذهب السنة ؛ وكذلك لمقاتلة القرامطة الذين هاجموا الحجاج وسلبوهم أمتعتهم .

طرقاتها لخوف مارتها، إذا لا زاجر للمعتدين ولا دافع للظالمين ؛ ثم تجويد السكة وصرفها إلى العيار الذي عليه السكة الميمونة المنصورية المباركة، وقطع الغش منها، إذ كانت هذه الثلاث خصال هي التي لا يتسع لمن ينظر في أمور المسلمين الا اصلاحها واستفراغ الوسع فيما يلزمه منها ؛ وما أوعزبه سيدنا ومولانا أمير المؤمنين صلوات الله عليه إلى عبده من نشر العدل وبسط الحق، وحسم الظلم وقطع العدوان، ونفي الأذي ورفع المؤن والقيام في الحق، وإعانة المظلوم مع الشفقة والاحسان، وجميل النظر وكرم الصحبة، ولطف العشرة واقتفاء الأحوال، وحياطة أهل البلد في ليلهم ونهارهم وحين تصرفهم في أوان ابتغاء معاشهم، حتي لا تجري أمورهم الا علي مالم شعثهم وأقام أودهم، وجمع قلوبهم وألف كلمتهم علي طاعة (وليه) مولانا وسيدنا أمير المؤمنين صلوات الله عليه، وما أمره به مولاه من إسقاط الرسول الجائرة إلى لا يرتضي صلوات الله عليه بإثباتها عليكم. وأن أجيركم في المواريث علي كتاب الله وسنة نبيه صلي الله عليه وسلم، وأضع ما كان يؤخذ من تركات موتاكم لبيت المال من غير وصية من المتوفي بها، فلا استحقاق لمصيرها لبيت المال. وأن أتقدم في رم مساجدكم وتزينها بالفرش والايقاد،وأن أعطي مؤذنيها وقومتها ومن يؤم الناس فيها أرزاقهم، وأدرها عليهم ولا أقطعها عنهم ولا أدفعها الا من بيت المال، لا بإحالة علي من يقبض منهم ؛ وغير ما ذكره مولانا وسيدنا امير المؤمنين صلوات الله عليه، من انكم ذكرتم وجوها التمستم ذكرها في كتاب أمانكم، فذكرتها إجابة لكم وتطمينا لأنفسكم ؛ فلم يكن في ذكرها معني ولا في نشرها فائدة ؛ اذ كان الاسلام سنة واحدة وشريعة متبعة، وهي إقامتكم علي مذهبكم، وأن تتركوا علي ما كنم عليه من أداء المفروض في العلم والاجتماع عليه في جوامعكم ومساجدكم، وثباتكم علي ما كان عليه سلف الأمة من الصحابة ﷺ والتابعين بعدهم، وفقهاء الأمصار الذين جرت الأحكام بمذاهبهم وفتواهم ؛ وأن يجري الأذان والصلاة وصيام شهر رمضان وفطره وقيام لياليه، والزكاة والحج والجهاد علي ما أمر الله في كتابه ونصه نبيه صلي الله عليه في سنته ؛ وأجري أهل الذمة علي ما كانوا عليه. ولكم علي أمان الله التام العام الدائم المتصل الشامل الكامل المتجدد المتأكد علي الأيام وكرور الأعوام في أنفسكم وأموالكم، وأهليكم ونعمكم وضياعكم ورباعكم، وقليلكم وكثيركم، وعلي أنه

لا يعترض عليكم معترض ولا يتجنى عليكم متجن ولا يتعقب عليكم متعقب، وعلي أنكم تصانون وتحفظون وتحرسون، ويذب عنكم ويمنع منكم ؛ فلا يتعرض إلى أذاكم ولا يسارع أحد في الاعتداء علي عليكم ولا في الاستطالة علي قويكم فضلا عن ضعفيكم ؛ وعلي ألا أزال مجتهدا فيما يعمكم صلاحه ويشملكم نفعه، ويصل اليكم خيره وتتعرفون بركته، وتغتبطون معه بطاعة مولانا وسيدنا أمير المؤمنين صلوات الله عليه. ولكم علي الوفاء بما التزمته وأعطيتكم اياه، عهد الله وغليظ ميثاقه وذمته وذمة أنبيائه ورسله، وذمة الأئمة موالينا أمراء المؤمنين قدس الله أرواحهم، وذمة مولانا وسيدنا أمير المؤمنين المعز لدين الله صلوات الله عليه، فتصرحون بها وتعلنون بالانصراف اليها، وتخرجون إلى وتسلمون علي، وتكونون بين يدي إلى أن أعبر الجسر وأنزل في المناخ المبارك، وتحفظون وتحافظون من بعد علي الطاعة وتثابرون عليها وتسارعون إلى فروضها، ولا تخذلون وليا لمولانا وسيدنا أمير المؤمنين صلوات الله عليه، وتلزمون ما أمرتم به. وفقكم الله وأرشدكم أجمعين ! [١]".

وإن ما تضمنته هذه الخطبة التي ألقاها المعز علي شيوخ كتامة قبل مسير جوهر إلى مصر، توضح لنا اشتغال الخليفة بما كان يرد عليه من مكاتبات تأتيه من الشرق. وهي حقيقة يؤيدها الواقع من أن جيوش الفاطميين لم تلاق مقاومة ذات بال من جانب السواد الأعظم من المصريين. فمن الجلي أن جوهرا تقدم في السير من تروجة إلى الجيزة من غير قتال ولا حرب ؛ بل ولم نسمع أيضا عن أية مقاومة لاقاها جوهر من حامية الاسكندرية التي سلمت اليه بشروط مقبولة لديهم.

أجل ! لقد مهد السبيل أمام جوهر السلطات المصرية برياسة الوزير ابن الفرات، الذي بعث إلى جوهر بوفد يمثل المصريين جميعا علي اختلاف طوائفهم الدينية ونزعاتهم السياسية. وقد عهد برياسة هذا الوفد إلى أبي جعفر مسلم، وكان –كما تقدم – ذا مكانة عالية، ومن سلالة الحسين بن علي. وقد دفع الوزير إلى اختياره أنه من العلويين، مما جعل له شأنا يذكر في انجاح المفاوضات. ولقد ظهرت الحكمة التي أوحت إلى الوزير

[١] – المقريزي : اتعاظ الحنفا ص ٦٧ – ٧٠

باختياره ؛ فسرعان ما تعاقد معهم جوهر علي هذه الوثيقة التي نقلناها عن المقريزي.

ويحدثنا ابن خلكان أن فتح الفاطميين لمصر كان أمرا منتظر الوقوع لدي العساكر المصريين وبعض رجالات مصر من أصحاب المراتب العالية، وأنهم كتبوا إلى المعز يطلبون اليه أن يرسل جيشا يستولي علي العاصمة [1].

ولا غرو فان المقاومة الوحيدة التي تكلم عنها المؤرخون لم يقم بها الا أشياع الإخشيديين والضباط الذين كانوا في خدمة كافور ؛ علي أن هؤلاء وأولئك لم يكونوا الا أقلية ضئيلة من العساكر المصريين. وإن اعتزال بعض رجالهم الذين عبروا في القوارب واستأمنوا لجوهر، جعل القضاء علي مقاومة الجيوش المصرية أسهل وايسر.

ولم يعارض المصريون في تحويل طاعتهم من خليفة عباسي إلى خليفة علوي، لأنهم كانوا يدركون الادراك كله ان انتقال السلطة من عباسي إلى فاطمي، أو من سني إلى شيعي، ليس من شأنه أن يحدث أي تغيير في حالتهم السياسية، لأنهم سيخضعون في كلتا الحالتين لسلطان هذا الحاكم أو ذاك.

علي أن تغيير الحكم قد يصحبه تحسين في أحوالهم الداخلية. فقد وصلوا تحت حكم العباسيين إلى الدرك الأسفل من البؤس والشقاء. وقد جعل هذا العهد الذي أعطاه جوهر للمصريين تحقيق هذه الآمال أمرا محتمل الوقوع. ذلك أن تأمينهم علي أرواحهم وأموالهم، وحمايتهم مما لحقهم من ظلم حكامهم السابقين، ومن غارات القرامطة الذين طالما تعدوا علي حجاجهم، ومن غزوات الاغريق، وقد وقع في أيديهم إقليم كيليكيا، وكانوا علي أهبة المسير إلى الشام، كل ذلك قد أقره الخليفة الفاطمي في هذا العهد علي لسان قائده.

يضاف إلى ذلك أن المصريين قد رحبوا بهذه الدعوة التي كانت ترمي إلى اصلاح المساجد وتحسين السكة والغاء السخرة، ومنحهم الحرية التامة — مسلمين كانوا أو ذميين

---

[1] – ابن خلكان (ج ١ ص ٣٤٨) .

– في اقامة شعائرهم الدينية، كل حسب دينه ومذهبه.

وقد قصد من هذه السياسة التي تتجلي لك من بيان جوهر العمل لصالح مصر ؛ ودأب جوهر علي تنفيذها هو ومن جاء بعده من الخلفاء الفاطميين، اللهم لا اذا استثنينا من ذلك ما كان من وعده منح الحرية التامة في اقامة شعائر الطوائف الدينية علي اختلاف نحلها ومذاهبها، لأن جوهرا قد أقرفي بيانه ما للعلويين من حقوق ؛ حتي اذا ما تم الفتح، أصبحت السيادة للمذهب الشيعي. وسيتضح لك ذلك في الباب الآتي.

تأسيس القاهرة [1] :

وضح جوهر أساس القاهرة عاصمة الفاطميين الجديدة، والتي لا تزال إلى اليوم، في ١٧ شعبان سنة ٣٥٨ بعد أن استولي علي مدينة مصر (كانت تطلق علي الفسطاط والعسكر والقطائع). وكانت هذه المدينة الجديدة محاطة بسور من آجر كبير الحجم، شاهد المقريزي بقاياه سنة ٨٠٢هـ (١٤٠٠م) ؛ وقد تخلل هذا السور فضاء متسع أطلق عليه فيما بعد "بين القصرين "، وكان يسع عشرة آلاف من الجند، ولا زال بعضه يعرف اليوم بسوق النحاسين. والي الشرق منه يقع قصر الخليفة ؛ ويعرف جزء منه الآن بخان الخليلي، وآخر بمسجد الحسين، وهذا (بين القصرين) اطلق علي الميدان فيما بعد، بعد أن بني العزيز بالله قصرا أصغر من القصر الذي بناه جوهر لمولاه المعز علي جانبه الغربي، عند مبدأ هذه الحديقة الغناء التي أنشأها كافور، واستحوذ عليها الخلفاء الفاطميون فيما بعد.

وقد اختط طريق عام يخترق وسط القاهرة من باب زويلة جنوبا، ويتصل بمدينة الفسطاط مارا فيما بين القصرين حتي باب الفتوح، وكان يوصل إلى القضاء الواقع في الشمال. والي الجنوب الشرقي من قصر الخليفة يقع الجامع الأزهر الذي شرع جوهر في بنائه (في ٢٤ جمادي الأولي سنة ٣٥٩) بعد أن وضع أساس العاصمة الجديدة. وقد تم

---

(١) – prof . margoliouth : cairo , Jerusalem and damasous , p . 21

راجع كتاب الخطط التوفيقية لعلى مبارك باشا الجزء الأول (ص ٤ – ٢٢)

بناء السور المحيط بالقاهرة سنة ٣٥٩هـ. والي الجنوب والشرق منه كانت تقع مدينة الفسطاط التي ظلت مركز الحركة التجارية وموطن الأهلين حتي نهاية عهد الفاطميين. والي الغرب تقع المقس، وكانت تمتد إلى النيل ؛ وظلت ميناء القاهرة إلى أن تحول مجري النيل في القرنين الثالث عشر والرابع عشر الميلاد، فمهد ذلك السبيل لتأسيس بولاق.

وكانت القاهرة وقت إنشائها تمتد من المنارة جامع الحاكم إلى باي زويلة ؛ وكانت حدودها الشرقية هي بنفسها حدود القاهرة الحالية. وأما من الجهة الغربية فلم تتجاوز شارع الخليج.

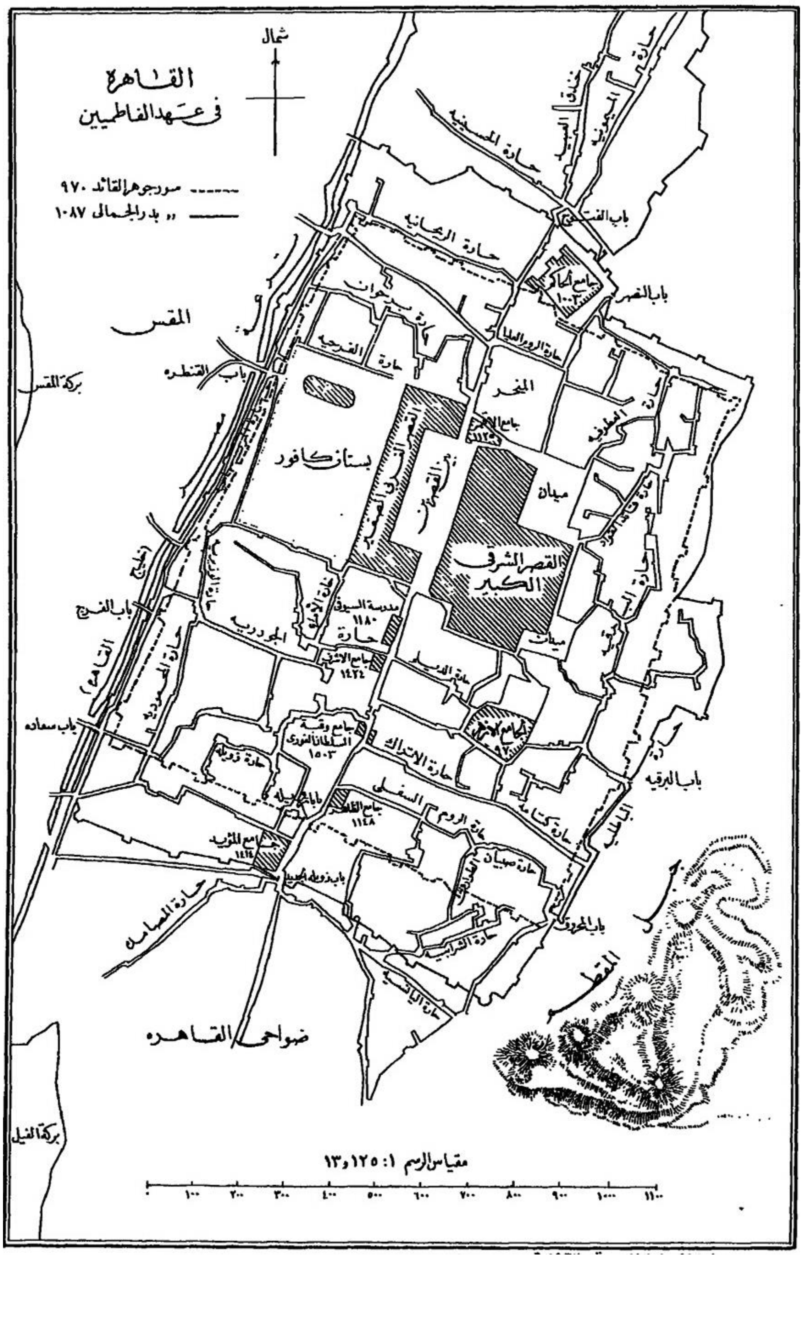
وقد ذكر علي مبارك باشا أن طول كل جانب من جوانب المدينة التي أسسها جوهر (القاهرة) كان يبلغ ألفا ومائتي متر. ومساحة هذا المكان ٣٤٠ فدانا (الفدان ٤٢٠٠ متر مربع)، كان القصر يشغل منها مساحة مقدارها سبعون فدانا ؛ وكانت حديقة كافور تشغل خمسة وثلاثين ؛ وخمسة وثلاثين للمكان المخصص لاستعراض الجند، والباقي وقدره مائتا فدان لسكني العساكر. وقد زاد السور الذي أقامه أمير الجيوش بدر الجمالي في مساحة المدينة ستين فدانا. وقد بني هذا السور من الحجر الكبير الحجم ؛ وكان به ثلاثة أبواب لا تزال باقية إلى اليوم، وهي باب زويلة وباب الفتوح وباب النصر.

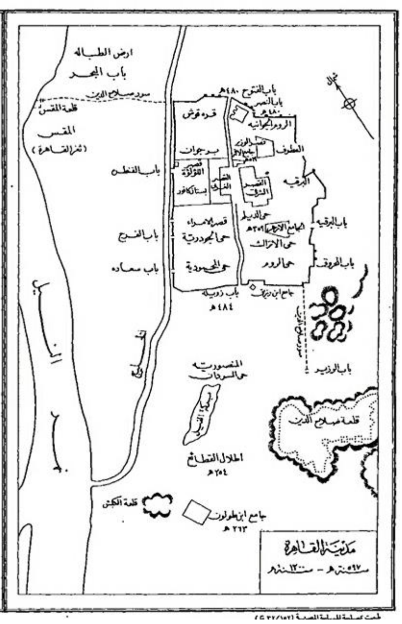
استقرار سلطان الفاطميين في الشام والحجاز :

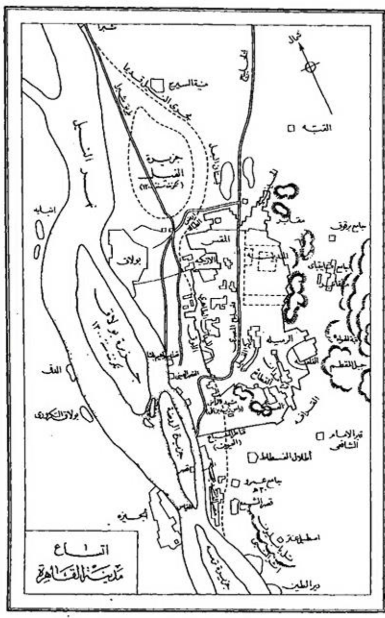
رأي جوهر بحكم ولايته علي مصر ضرورة التدخل في أمور الشام السياسية. وكان بعض جهاتها جزءا من أملاك الدولة الإخشيدية ؛ وكانت تدين لها بالتبعية الاسمية علي الاقل. وقد استقل بولاية حلب أمراء من الشيعة، كما استقل الحسن الإخشيدي (الذي عاد إلى الشام بعد أن صادر الوزير ابن الفرات) بولاية الرملة. وبعث جوهر إلى الحسن هذا جيشا تحت إمرة أحد قواده جعفر ابن فلاح [١]؛ فشن الغارة علي بلاده وأوقع به (ذو القعدة سنة ٣٥٨ سبتمبر سنة ٩٦٩) [٢].

[١] – كان جعفر بن فلاح من قبيلة كتامة من البربر ، ومن قواد المعز ، وقد بعث به فيمن أرسلهم مع جوهر لغزو مصر

[٢] – أسر الحسن وسيق الى الفسطاط ، ثم حبس في شمال إفريقية حيث مات بها سنة ٣٧١ هـ .


القاهرة
في عهد الفاطميين
شمال
سور جوهر القائد ٩٧٠
,, بدر الجمالي ١٠٨٧
المقس
بركة المقس
باب القنطرة
بستان كافور
القصر الشرقي الكبير
ميدان
حارة الحسينية
حارة الريحانية
باب الفتوح
باب النصر
جامع الحاكم ١٠٠٣
باب الفرج
باب سعادة
حارة زويلة
جامع المؤيد ١٤١٩
باب زويلة الجديد
باب البرقية
باب المحروق
حارة الروم
حارة الديلم
جبل المقطم
ضواحي القاهرة
بركة الفيل
مقياس الرسم ١: ١٢٥و١٣





وقد واصل جعفر مسيره إلى طبرية حيث علم أن الدعوة قد أقيمت للخليفة الفاطمي، ثم استأنف المسير إلى دمشق، ودخلها في المحرم سنة **٣٥٩** بعد أن لاقي من الأهلين قليلا من المقاومة. وفي يوم الجمعة التالي حذف من الخطبة اسم الخليفة العباسي، وأقيمت للخليفة الفاطمي[1].

علي ان استيلاء الفاطميين علي دمشق قد أوقعهم في نزاع مع القرامطة ؛ وذلك ان دمشق كانت تدفع الجزية لزعيم القرامطة ردحا من الزمن ؛ فغدت هذه الجزية لا تدفع اليهم بعد استيلاء الفاطميين علي هذه المدينة. وقد صار جعفر إلى الذكة [2]، الواقعة علي نهر يزيد بالقرب من دمشق، لملاقاة الحسن القرمطي الملقب بالأعصم، وكان قد خف للزحف وشن الغارة عليه. ولما دارت رحي للحرب، أسر جعفر وقتل، ووقع كثيرون من أتباعه صرعي في حومة القتال (يوم الخميس ٦ ذو القعدة سنة **٣٦٠** وسبتمبر سنة

[1] – ذكر أبو الفدا (ج ٢ ص ١١٥) أن أهالي دمشق ثاروا على الخلافة الفاطمية وقطعوا الخطبة للمعز ، وسرعان ما قضى جعفر بن فلاح على الثائرين وأعدا سلطان الفاطميين .

[2] راجع هذا اللفظ في معجم البلدان لياقوت .

٩٧١م) [١].

وقد أسرع الحسن بالسير نحو الجنوب بعد استيلائه علي دمشق ؛ فمر بالرملة وانقض علي مصر، وهاجم القلزم (السويس) والفرما علي غزة، وتحكم بذلك علي برزخ السويس، فاعترفت بسلطانه مدينة تنيس. ومن ثم تقدم في داخل البلاد، وعسكر برجاله في عين شمس (هليو بوليس) وهدد القاهرة.

ولما تلقي جوهر نبأ وصول الحسن إلى برزخ السويس، شرع في اعداد وسائل الدفاع، وبعث في الخال رجالا من عنده إلى معسكر القرامطة، فاندسوا بينهم وتظاهروا بالسخط علي الفاطميين ؛ وما زالوا بهم حتي أوقعوا بينهم الفساد. وبعد قليل حاول الحسن الاستيلاء علي الخندق عنوة ؛ ولكنه ارتد علي أعقابه وقد تكبد خسائر فادحة، بفضل ما أظهره المتطوعون من المصريين الذين انضووا تحت لواء جوهر وحار بواقي صفوفه من بلاء لم يكن يتوقع منهم ؛ وأسر من عساكر الإخشيديين خلق كثير، وكانوا قد انضموا إلى الحسن وقاتلوا في صفوفه. وبذلك أرغم القرامطة علي الرجوع إلى القلزم، تاركين المصريين ينهبون أمتعتهم [٢].

وكانت أخبار القرامطة وما كان من حروبهم في مصر قد اتصلت بمسامع الخليفة الفاطمي. ولما وقعت الهزيمة بالحسن القرمطي، وصلت الامداد من القيروان تحت إمرة ابن عمار ؛ فتقوي بذلك جوهر وزخف إلى تنيس، وعفا من هفوات أهلها التي ارتكبوها بانضمامهم إلى العدو.

وسرعان ما ارتد أسطول القرامطة من النيل، تاركا وراءه سبعة مراكب حربية وخمسمائة أسير. وبهذا كله استطاع جوهر أن يقضي علي هذه الحروب التي شنها القرامطة علي مصر، وما لبث أن اقتفي آثارهم وخلص يافا من أيديهم ؛ أما الحسن فانه

---

(١) بعد موت جعفر وجدت هذه الأبيات مكتوبة على باب قصره :

يا منزلا عبث الزمان بأهله فأبادهم بتفرق لا يجمع

أين الذين عهدتهم بك مرة ؟ كان الزمان بهم يضر ونفع

البن خلكان (ج ١ ص ١٤١)

(٢) أبو الفدا (ج ٢ ص ١١٧ و ١١٨)

عاد إلى دمشق وأخذ في التأهب للقتال من جديد.

ويحدثنا أبو الفدا [١] أن قرعوية، الذي آلت اليه ولاية حمص وحلب بعد موت مولاه سيف الدولة الحمداني، أقام الخطبة للمعز ؛ وأقيمت الدعوة في المدينة للمطيع العباسي، وفي مكة للمعز [٢].

رحيل المعز إلى مصر :

ورأي جوهر في ذلك الحين أن الوقت قد حان لحضور المعز بنفسه وتسلم زمام الحكم. ويذكر ابن خلكان[٣] أن جوهرا كتب بذلك للمعز غير مرة، ثم بعث اليه رسولا يحمل خبر خضوع مصر والشام والحجاز [٤] لسلطانه، وأن الدعوة قد أقيمت له في كافة أرجاء هذه البلاد ؛

فسر المعز بذلك سرورا عظيما. ولما تقررت قواعد ملكة في مصر، استخلف بلكين بن زيري ابن مناد الصنهاجي علي إفريقية[٥]، " وتوجه إلى مصر بأموال جليلة المقدار ورجال عظيمة الأخطار، وحمل معه جثث آبائه الثلاثة الذين تولوا الخلافة قبله".

وخرج المعز من المنصورية [٦] دار ملكة يوم الاثنين ٢١ شوال سنة ٣٦١ (٥ اغسطس سنة ٩٧٢)، ومر في طريقه علي برقة ودخل الاسكندرية يوم السبت ٢٣

---

[١] (ج ٢ ص ١١٧)

[٢] – ذكر المقريزي (خطط ج ١ ص ٣٥٣) أن الحسن بن جعفر الحسني أقام الدعوة للمعز على أثر فتح مصر على جوهر ، فبعث جوهر بالخبر للمعز ، فقلده ولاية مكة وخلع عليه . ويقول ابن الأثير (ج ٨ ص ٢٢٠) إن الدعوة كانت تقام في مكة سنة ٣٦٠ هـ للخليفة العباسي ، وفى المدينة للمعز الفاطمي . هذا ، ولم تقم الدعوة للخلفاء الفاطميين الا في عهد العزيز سنة ٣٦٦ هـ ، " حيث خطب للعزيز بمكة والمدينة ، ولم يخطب للطائع " .

تاريخ ابن الجوزي – مكتبة بودليان بأكسفورد ، مخطوط (**pocok**) ٣٧٠ ، ورقة ١٨٧ .

[٣] – (ج ٢ ص ١٣٤)

[٤] – يعلم مما أورده أبو الفدا (ج ٢ ص ١١٧) أن سلطان الفاطميين لم يستقر في الشام والحجاز حيث كانت الدعوة تقام باسم الخيفة العباسي

[٥] – ذكر ابن خلكان (ج ١ ص ١١٥) أن ذلك كان يوم الأربعاء ٢٢ ذي القعدة سنة ٣٦١ (سبتمبر سنة ٩٧٢) . وقد امر المعز الناس بطاعة بلكين الذى أصبحت له ولاية هذه البلاد ، وجبي باسمه الخراج

[٦] أطلق إسماعيل بن المنصور ثالث الخلفاء الفاطميين هذا الاسم على مدينة صبره ، وتتصل بالقيروان . وقد بناها المنصور الفاطمي في سنة ٣٣٧ هـ واستوطنها وسماها المنصورية . (انظر البكري ص ٢٥)

شعبان سنة ٣٦٢ [١](٢٩ مايو سنة ٩٧٣) وهو ممتط جواده ؛ فقدم عليه القاضي أبو الطاهر مُحَّد بن أحمد وأعيان البلاد وسلموا عليه.

وجلس الخليفة عند المنارة ذلك اليوم، وخطبهم خطبة طويلة ؛ فقال إنه لم يرد دخول مصر لزيادة في ملكه لا لمال، وانما أراد اقامة الحق وحماية الحجاج واعلان الجهاد ضد الكفار، وأن يختم حياته بالأعمال الصالحة، ويعمل بما أمر به جده صلي الله عليه وسلم، ووعظهم وأطال في الوعظ حتي استدر دموع بعض الحاضرين ؛ وخلع بعد ذلك علي القاضي وبعض من كان في جماعته، وحملهم علي الخيل المطهمة، ثم انصرفوا [٢].

ثم غادر المعز الاسكندرية في أواخر شعبان، فوصل إلى ساحل مدينة مصر المقابل للجيزة ؛ فخرج اليه القائد جوهر، وترجل عند لقائه وقبل الأرض بين يديه. وأقام المعز في الجيزة ثلاثة أيام ؛ ثم أخذت عساكره في العبور إلى الساحل مصر. وفي يوم الثلاثاء الخامس من شهر رمضان، عبر المعز النيل ودخل القاهرة من غير أن يمر علي مصر في طريقه، وقد أقام له الأهلون معالم الزينة علي جانبي الطريق، ظنا منهم أنه سيشرفها بزيارته.

ولما وصل القاهرة ودخل القصر الذي بناه له جوهر وصار في احدي ردهاته، خر ساجدا الله تعالي ؛ ثم صلي ركعتين، وانصرف الناس عنه. وقد أطلق علي المدينة التي بناها جوهر للمعز اسم القاهرة المعزية، نسبة إلى الخليفة المعز[٣].

وفي يوم الجمعة السابع عشر من محرم سنة ٣٦٤ (٧ أكتوبر سنة ٩٧٤) تسلم المعز من جوهر دواوين مصر وجباية أموالها والنظر في أحوالها. وقد تولي جوهر [٤] أمور مصر زهاء أربع سنين وعشرين يوما حتي دخل المعز القاهرة واستقر في قصره [٥].

---

[١] – خالف ابن خلكان في ذلك ما أجمع عليه المؤرخون ، وهو أن رحليه كان سنة ٣٦٢ هـ

[٢] – ابن خلكان (ج ٢ ص ١٣٤)

[٣] – ابن خلكان (ج ٢ ص ١٣٥)

[٤] – كان جوهر محسنا الى الناس الى أن توفي يوم الخميس العشرين من ذي القعدة سنة ٣٨١ هـ (يناير سنة ٩٩٦ م) ولم يبق شاعر الا رثاه وذكر مآثره .

[٥] – ابن خلكان (ج ١ ص ١٤١ و ١٤٢)

وهكذا ثبتت قواعد الخلافة الفاطمية في مصر، وأصبحت القاهرة، بدل القيروان، مركز هذه الامبراطورية الشاسعة الأرجاء [1].

---

[1] – إن الاسهاب في بيان العلاقات التي كانت بين مصر والشام والعالم الإسلامي عامة في عهد الفاطميين مما لا يتسع له هذا البحث . على أنني لن أغفل الإشارة الى ذلك كلما دعت الحالة اليه . وهذا وقد نجح الفاطميون في تأسيس سلطانهم في القاهرة التي اتخذوها حاضرة لإمبراطوريتهم ؛ فغدت المركز الذى منه انتشرت شعائر المذهب الفاطمي الذي لم يدخر الفاطميون جهدا في نشره وتأييده . ولقد خطب للعزيز سنة وفاته (٣٨٦ هـ ٩٩٦ م) في مصر والشام والحجاز ، وأقيمت الدعوة في الموصل على يد أبي دواد مُحَمَّد بن المسيب أمير هذه البلاد الملقب بحسام الدولة ، وفي اليمن أقيمت الخطبة باسم هذا الخليفة (ابن خلكان ج ٢ ص ٢٠١) .

الباب الثالث

تنظيم الدعوة الفاطمية في مصر

الدعاية العلمية

خطوات الفاطميين الأولي لنشر دعوتهم

لقد آل الملك للفاطميين ونجحوا في تأسيس خلافة علوية مستقلة باسم الدين وبفضل انتسابهم إلى النبي، مؤيدين دعواهم بما نشروه من عقائد ذات صبغة دينية بحتة ؛ ودللوا علي صحة هذه الدعوة بأنهم خلفاء الني حقا، وأن حقهم المقدس في الخلافة قد اغتصب منهم اغتصابا.

ومنذ النصف الأخير من القرن الثالث للهجرة تأثر مذهب الشيعة الأول بما طرأ عليه من تغيرات عظيمة ؛ وذلك من تأثر بعض هؤلاء بالفلسفة الإغريقية وأخذهم ببعض العقائد المبنية علي الرجعة والتناسخ ؛ ومن ثم غدا مذهب الشيعة في عهد الفاطميين خليطا من الدين والفلسفة. وكان من نتيجة هذا المظهر الجديد أن نشأ من الشيعة مذاهب أخري كالدروز والحشاشين، لكل منهما عقائده الخاصة.

وقد حدت هذه الأمور كلها بدعاة الفاطميين وغيرهم ممن دخل هذا المذهب إلى رفع ائمتهم ونسبة صفات التقديس اليهم، هذه الصفات التي رفعتهم إلى مستوي الخلود والألوهية.

ولم يكد يستقر سلطان الفاطميين في مصر حتي رأينا جوهرا لا يدخر وسعا في بث الدعوة للمعز خاصة وللعلويين عامة. بيد أنه لم يكن من السهل عليه أن يجعل المصريين جميعا يعتنقون المذهب الفاطمي ؛ لأن السواد الأعظم كان يدين بالمذهب السني علي اختلاف درجاتهم في الاخلاص له. أما الشيعة فانهم كانوا بالنسبة إلى المصريين أقلية

صغيرة، تحملت قبل فتح الفاطميين لهذه البلادشيئا غير قليل من الاضطهاد وسوء المعاملة. ولا غرو فان المصريين قاموا في وجه نفوذ الإخشيديين ودانوا بالطاعة للفاطميين لأسباب سياسية لا غير.

نعم ! لقد ساعدوا علي إحداث هذه التغيير ورغبوا فيه، لما حاق بالبلاد في أواخر أيام الاخشيديين من مصائب متتابعة، في وقت لم تتمكن فيه السلطة المركزية في بغداد من صد غزو الفاطميين.

وكانت أولي المشاكل التي جابهت جوهرا في هذه البلاد، العمل علي تخفيف وطأة القحط والمجاعة التي انتابها. وكان من حسن حظه، أن المعز لما علم بفتح هذه البلاد بعث اليه بعدد من السفن المحملة بالحبوب، مما خفف علي أهل مدينة مصر كربهم ردحا من الزمن. كذلك أنشأ جوهر في الوقت نفسه مخزنا عاما للحبوب عهد برقابته إلى المحتسب [١]، ومهمته منع احتكار هذه الحبوب والانفراد بتقدير أثمانها، وجلد كل من لم ينزل عند أوامره من أصحاب المطاحن.

علي ان هذه الوسائل لم تؤد إلى انفراج الأزمة نهائيا، وان كان لها أثرها في اكتساب الفاطميين محبة الأهلين ورضاهم. وقد استمرت المجاعة والوباء حتي نهاية سنة ٣٦٠هـ (٩٧٠ –٩٧١م) ؛ ولم تنته المجاعة الا في الشتاء التالي، في غضون الشهور الأولي من سنة ٣٦١هـ (أكتوبر وما يليه من سنة ٩٧١)، حيث بدأت البلاد تسترد نشاطها أثر زوال الوباء [٢].

وبعد أن وضع جوهر أساس مدينة القاهرة حاضرة هذه البلاد الجديدة، بعث إلى مولاه المعز بكتاب ينبئه فيه بفتح مصر ؛ ثم أمر بقطع الخطبة للعباسيين علي كافة منابر مصر، وأن تضرب السكة باسم الخليفة الفاطمي دون الخليفة العباسي ؛ فضرب علي أحد وجهيها " باسم مولاي المعز ". وذكر المقريزي أنه ضرب علي أحد وجهيها " دعا

---

[١] – سنفرد في الباب الخامس كلمة خاصة لبيان واجبات المحتسب

[٢] – يحيى بن سعيد (ص ١٢٩ و ١٣٠)

الامام معد بتوحيد الاله الصمد "، وفي السطر الثاني " المعز لدين الله أمير المؤمنين " وفي السطر الثالث " (بسم الله !) ضرب هذا الدينار [1]بمصر سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة " ؛ وضرب علي الوجه الآخر "لا الله الا الله، مُحَمَّد رسول الله، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره علي الدين كله ولو كره المشركون، علي أفضل الوصيين وزير خير المرسلين "[2].

كذلك أمر جوهر بالكف عن لبس السواد شعار العباسيين [3]؛ وأمر الخطباء بارتداء الملابس البيضاء، ونهي عن التكبير بعد الصلاة الجمعة، وكان من العادات المألوفة عن السنيين [4]. وكان جوهر يعقد في أيام السبت مجلسا للمظالم [5] يحضره الوزير والقاضي وكبار الفقهاء[6]، وكان يصدر الأحكام بنفسه[7].

١-الدعوة الفاطمية في المساجد

(ا) الدعوة الفاطمية في الجامع العتيق

دخل الاسلام مصر سنة ٢٠هـ (٦٤٠م). ولم يكن الباعث علي بناء المساجد منذ ذلك الوقت مقصورا علي الأغراض الدينية وحدها، بل كان ذلك راجعا أيضا إلى أسباب

---

[1] – ذكر ابن ميسر (ص ٤٥) أن قيمة الدينار المضروب باسم الخليفة العباسي الراضي تزلت الثلث ، وأن الدينار المضروب باسم الخليفة الفاطمي المعز قيمته خمسة عشر درهما ونصفا .

[2] – المقريزي : اتعاظ (ص ٧٦)

[3] –كان يلبس هذا الزي أعضاء الأسرة العباسية وغيرهم من كبار الموظفين .

أنظر دي سامي **(de sacy : chrestomathie arabe , tome II . pp . 263 – 266)**

[4] – المقريزي : اتعاظ (ص ٧٦)

[5] – "كان الأمير أو أحد كبار موظفيه يرأس مجلس النظر في المظالم ويحكم في القضايا . ومما دعا إلى إنشاء هذا المجلس ما كان يعترض تنفيذ أحكام القاضي من عوائق ومصاعب ، ولا سيما اذا كان المدعى عليه من أصحاب المراتب العالية ، أو كان يشغل وظيفة من وظائف الدولة . فلم يكن أح\ يجرؤ على عدم الخضوع لما يصدره هذا المجلس من احكام ن ولم يكن أحد من القوة بحيث يستطيع التخلص من بطشه وشده أحكامه " **de slane : ibn khallikan's biographical dictionary , English translation , vol . I . pp . 346 – 347 , n . 14 >**

انظر الماوردي ، الاحكام السلطانية (ص ١٢٨ – ١٦٤)

[6] – لابد أن يكون الفقهاء من الشيعين ، اللهم الا اذا استثنينا القليل من الفقهء السنيين الذين كان يعهد اليهم بالمناصب العالية في الدولة .

[7] – ابن خلكان (ج ١ ص ١٤٩)

سياسية واجتماعية.

" وكانت هذه الأمكنة وأمثالها تستخدم منذ ظهر الاسلام لاجتماع العلماء فيها، كما اتخذها علماء التفسير والحديث مقرا لهم. ولما لم يكن من الممكن الفصل بين السياسة والدين، كان المسجد المكان الذي تذاع فيه الأخبار الهامة التي تتعلق بالصالح العام " [١].

بعد ذلك استخدمت المساجد معاهد للتعليم، يتلقى فيها الأطفال اللغة العربية وأصول الدين [٢]. ومن الأمثلة الصادقة علي ذلك الجامع الازهر، الذي كان مركزا للتعاليم الاسلامية قرونا عدة، ولا تزال شهرته باقية إلى اليوم.

وأقدم هذه المساجد جامع عمرو[٣]. وقد بني عام ٢١هـ، بعد أن فتح مصر عمرو بن العاص مؤسس الفسطاط العاصمة الإسلامية. وقد زاد عدد سكان الفسطاط أيام فتح الفاطميين لمصر عما كانت عليه مدينتا العسكر [٤]والقطائع[٥]، حيث أقيم فيهما مسجدا العسكر وابن طولون.

وقد أقيمت صلاة الجمعة في المسجد العتيق، وخطب فيه للمعز في التاسع عشر من شعبان سنة ٣٥٨هـ (٩٦٩م)، بعد استيلاء جوهر علي الفسطاط بأيام قليلة ؛ وبذلك تحققت الفكرة التي كانت ترمي إلى بث الدعوة الفاطمية [٦] باسم الفاطميين. وقد خطب

---

[١] - **prof . margolionth : cairo , Jerusalem and damasous , p . 40**

[٢] - كانت بعض المساجد بمثابة قلاع محاطة بأسوار عالية سميكة . .
لما كان هذا المسجد أقدم مساجد مصر ، أطلق عليه المسجد العتيق وتاج الجوامع والمسجد الجامع – ابن دقماق (ج ٤ ص ٥٩)

[٣] - أسس هذه المدينة سنة ١٣٣ هـ (٧٥٠ – ٧٥١ م) صالح بن على بن عبدالله بن عباس ، بعد أن تعقب مروان آخر خلفاء الأمويين ، وقبض عليه وقتله . وكان موضع هذه المدينة فضاء قاحلا ، اطلق ق على جزء منه جبل يشكر . وقد استقر فيه صالح بعسكره ؛ ومن هنا اشتق لفظ العسكر . ابندقماق (ج ٤ ص ٣٤)

[٤] - أسس القطائع أحمد بن طولون (٢٥٤ – ٢٧٠ هـ ٨٦٨ – ٨٨٣ م) سنة ٢٥٤ هـ في سفح جبل المقطم ، حين قضت عليه زيادة عساكره من النوبيين والاغريق وغيرهم باقطاعهم اقطاعات خاصة . وقد بدأ ابن طولون في بناء مسجده سنة ٢٦٣ هـ (٨٧٦ – ٨٧٧ م) ؛ وخطب فيه لأول مرة في رمضان سنة ٢٦٥ هـ (ابن دقماق ج ٤ ص ١٢١ و ١٢٢) .

[٥] - ابن خلكان (ج ١ ص ١٤٩) .

[٦] - سورة ٢١ ، آية ١٠٥

في هذا اليوم هبة الله بن احمد خليفة إمام الجامع، وأدخل العبارة الآتية الخطبة بدل ما كان يقال عن العباسيين :

" أللهم صل علي عبدك ووليك، ثمرة النبوة، وسليل العزة الهادية المهدية، عبد الله (الامام) معد أبي تميم المعز لدين الله أمير المؤمنين، كما صليت علي آبائه الطاهرين وأسلافه الأئمة الراشدين. اللهم ارفع درجته، وأعل كلمته، وأوضح حجته، واجمع الأمة علي طاعته والقلوب علي موالاته. واجعل الرشاد في موافقته، وورثه مشارق الأرض ومغاربها، وأحمده مبادئ الامور وعواقبها ؛ فأنك تقول وقولك الحق (ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون [1]. فقد امتعض لدينك، ولما انتهك من حرمتك، ودرس من الجهاد في سبيلك، وانقطع عن الحج إلى بيتك وزيارة قبر رسولك صلي الله عليه وسلم ؛ فاعد للجهاد عدته وأخذ لكل خطب أهبته ؛ فسير الجيوش لنصرتك، وأنفق الأموال في طاعتك، وبذل المجهود في رضاك ؛ فارتدع الجاهل وقصر المتطاول و وظهر الحق وزهق الباطل. فانصر اللهم جيوشه التي سيرها، وسراياه التي ندبها لقتال المشركين وجهاد الملحدين والذب عن المسلمين، وعمارة الثغور والحرم، وإزالة الظلم وبسط العدل في الأمم. اللهم اجعل راياته عالية مشهورة وعساكره غالبة منصورة ؛ وأصلح به وعلي يديه، واجعل لنا منك واقية عليه "[2].

وفي جمادي الأولي سنة ٣٥٩ (٩٧٠م) زيد في الأذان " حي علي خير العمل "، وقرئت البسملة بصوت مرتفع ؛ وذلك في الجامع العتيق، بعد أن انقضي ثمانية شهور علي فتح الفاطميين مصر وقراءة الخطبة باسم الخليفة الفاطمي المعز. وفي رمضان سنة ٣٥٩ أمر جوهر بأن تنقش جدران الجامع العتيق باللون الأخضر شعار العلويين[3].

وكان ذكر كراسم المعز في خطبة الجمعة في التاسع عشر من شعبان عام ٣٥٨هـ بدل اسم الخليفة العباسي حادثا هاما في تاريخ الخلافة الفاطمية في مصر. وهذا يبين لك

---

[1] – المقريزي : اتعاظ (ص ٧٥ – ٧٦) .

[2] – شرحه : اتعاظ (ص ٧٦) .

[3] – رسائل بديع الزمان الهمذاني (ص ٤٢٤) .

ما كان من رواج الدعوة الفاطمية في عهدهم ؛ وإقامة الخطبة للخليفة الفاطمي هي صورة موجزة من هذا البيان الذي أذاعه جوهر علي المصريين، يعرض فيه عليهم السلام والطمأنينة.

ولقد ألقي الخطيب خطبته بصورة شاد فيها بفضائل العلويين – الأئمة الصالحين – الذين انتهك الخارجون من السنيين حقهم، علي ما جاء في كلام الخطيب، وكان ينتمي إلى المذهب السني. أما كلمة الجهاد التي وردت في الخطبة، فانه ينطوي تحتها ما عقد الفاطميون النية عليه من فتح المشرق والمغرب.

وهذا الدعاء للخليفة الفاطمي يبين لنا ذلك المظهر الديني الجلي الذي تذرع به العلويون للوصول إلى أغراضهم الدنيوية. ولقد بدأ النزاع الديني بين الشيعيين والسنيين – كما تقدمت الاشارة إلى ذلك – في عصر متقدم ؛ ولكن هذا النزاع ظهر بصورة أشد عداء في الأجيال التالية، حين أخذ كل حزب يلعن الحزب الآخر ويحط من قيمته، حتي إن الشيعيين أرغموا أحيانا علي دفع الجزية [١]، كما أرغم السنيون علي دفعها حينا آخر في عهد الفاطميين [٢].

وقد وجدت العقائد الشيعية في مصر مرعي أكثر خصبا ونماء منه في شمال إفريقية ؛ وسرعان ما ترعرعت وعم أثرها. وفي يوم الجمعة الثامن عشر من ذي القعدة من السنة نفسها، دعا الخطيب لآل البيت، وزاد في الخطبة العبارة الآتية : " أللهم صل علي مُحَمَّد المصطفي، وعلي علي المرتضي، وعلي فاطمة البتول، وعلي الحسن والحسين سبطي الرسول، الذين أذهبت عنهم الرجس وطهرتهم تطهيرا ؛ اللهم صلي علي الأئمة الراشدين آباء أمير المؤمنين، الهادين المهديين [٣] ".

وفي عهد الخليفة العزيز ٣٦٥ –٣٨٦هـ (٩٧٥ –٩٩٦م) استبدل بمنبر الجامع

---

[١] – رسائل الحاكم بأمر الله ، المكتبة الملكية بالقاهرة ، مخطوطات الشيعة ، رقم ٢٠ ، ورقة ١١١ . انظر العبارة التي كتبتها عن الدعوة الفاطمية في مكتبة القصر .

[٢] – المقريزي : اتعاظ (ص ٧٧) ، وأبو المحاسن (طبعة **juynboll**) (ج ٢ ص ٤٠٨) .

[٣] – ابن دقماق (ج ٤ ص ٦٤) .

العتيق في ربيع الاول سنة ٣٧٩هـ (٩٨٩م) منبر آخر مذهب، بقي إلى أن استبدل به منبر أكبر منه سنة ٤٠٥هـ (١٠١٤م)في عهد الخليفة الحاكم ٣٨٦ – ٤١١هـ (٩٩٦ – ١٠٢١م) ؛ ولا يزال هذا المنبر باقيا إلى اليوم [١].

كان من أثر سيادة المذهب الفاطمي أن عزل بنو عبد السميع، وكانت اليهم الخطبة زهاء ستين سنة ؛ فحل محلها جعفر بن الحسن الحسيني، وعهد اليه بإقامة الخطبة في جامع عمرو كما عهد إلى أخيه بإقامتها في الجامع الأزهر [٢].

ويحدثنا المقريزي [٣] نقلا عن المسبحي، أنه في سنة ٤٠٣هـ نقل من القصر إلى الجامع العتيق أجزاء من المصحف الشريف مختلفة الشكل والحجم، مكتوب بعضها بالذهب ؛ وفي هذا الجامع سمح للعامة بالقراءة في هذه المصاحف. وفي السنة نفسها وضع الحاكم تنورا فيه من الفضة ما يقوم بعشرة آلاف درهم ؛ هذا فضلا عما وقفه هذا الخليفة أيضا علي هذا الجامع من الأوقاف والعطايا. وقد زاد بعض أمراء مصر في بناء الجامع العتيق مذ شيد للمرة الأولي، كما وقف عليه الخلفاء الفاطميون الأوقاف والعطايا.

وفي سنة ٥٦٤هـ (١١٦٨ – ١١٦٩) أصبح الفاطميون في حالة من الضعف لم يتمكنوا معها من مقاومة جيوش الصليبيين التي استولت علي القاهرة وأوقعت الهلع والرعب في قلوب الأهلين، حتي إن شاور وزير العاضد آخر الخلفاء الفاطميين أمر بإحراق الفسطاط، فظلت النار تلتهمها التهاما زهاء أربعة وخمسين يوما ؛ فحل بالجامع العتيق شيء من التلف غير قليل. ولما جاء صلاح الدين وتسلم زمام الأمور في مصر بعد سقوط الدولة الفاطمية، عمر هذا الجامع وزاد فيه سنة ٥٦٨هـ [٤].

---

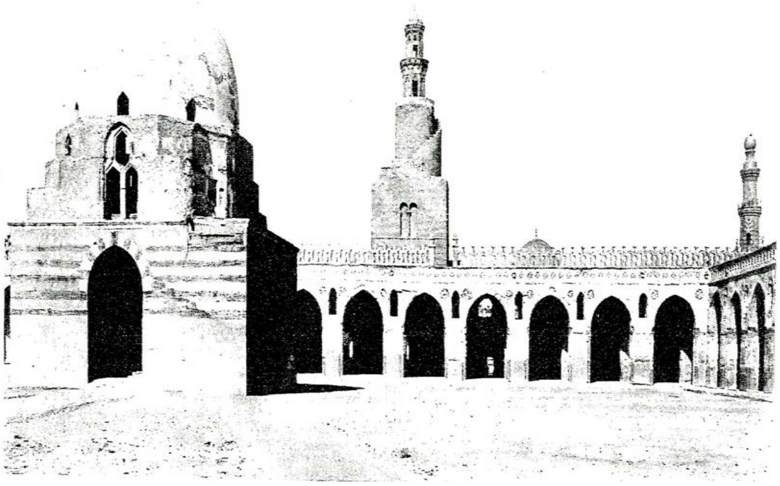
[١] – شرحه .

ذكر ابن دقماق (ج ٤ ص ٦٤) أن أولاد عبدالسميع عزلوا نهائيا سنة ٣٧٩ هـ ، عزلهم الخليفة العزيز

[٢] – خطط (ص ٢ ص ٢٥٠) .

[٣] – ابن الأثير (ج ١١ص ١٣٦) وأبو شامة (طبعة القاهرة ص ١١٥) .

[٤] – ابن الأثير (ج ١١ص ١٣٦) وأبو شامة (طبعة القاهرة ص ١١٥) .



جامع محمد بن طولون – إيوان الجامع وصحنه – تعلوه المنارة – وتظهر فيه قبة بيضاء

(ب) الدعوة الفاطمية في جامع ابن طولون

في يوم الجمعة الثامن عشر من شهر ربيع الثاني سنة ٣٥٩هـ، أي بعد ثمانية شهور من إقامة اول خطبة في جامع عمرو، تطورت الدعوة الشيعية في أيام الفاطميين بما طرأ عليها من زيادات في جامع ابن طولون ؛ وذلك بأن أدخل المؤذنون علي الأذان " حي علي خير العمل "، وهي من العبارات التي يمتاز بها الأذان عند الشيعيين، ومن ثم زيدت هذه العبارة في الأذان في مساجد العسكر، ومنها انتقلت إلى جامع عمرو في شهر جمادي الأولي من السنة نفسها.

كانت هذه الأمور كلها مما أرضت جوهرا ؛ فبعث للمعز يزف اليه هذه الأنباء. وقد حضر الصلاة في جامع ابن طولون في ذلك اليوم عدد غير قليل. وقد أشاد عبد السميع في خطبته بذكر أهل البيت وعدد مآثرهم ؛ كما انه دعا للقائد جوهر[1]. ولم يجهر

[1] – لم بقر جوهر ذكر اسمه في الصلاة ، وقال أن مولاه المعز لم يأمر بشئ من ذلك . المقريزي خطط (ج ٢ ص ٢٧٠)

بالبسملة [١] في الخطبة. وقرأ بعد سورة الفاتحة سورة الجمعة [٢]وسورة المنافقين[٣]، ثم قرأ القنوت [٤] بعد الركعة الثانية. ولما هم بالسجود كان قد فاته أن يركع، فصاح به علي بن الوليد قاضي عسكر جوهر : " بطلت الصلاة، أعد ظهرا أربعا"[٥]

(ج) الدعوة الفاطمية في الجامع الأزهر

كان بناء مسجد يجتمع فيه المسلمون للجمعة أول ما كانت ترمي اليه سياسية أمراء المسلمين، وخاصة عند تأسيسهم عاصمة جديدة لما يفتحونه من بلاد. وكان الفاطميون قد رأوا من الحزم ألا يأخذوا السنيين علي غرة في المساجد في مبدأ حكمهم، بإضافتهم إلى الخطبة هذه العبارة وهي : " السلام علي الأئمة آباء أمير المؤمنين المعز لدين الله ".

وما كاد جوهر يضع أساس القاهرة حتي شرع في بناء مسجد يتلقى الناس فيه عقائد المذهب الفاطمي ؛ وقد شرع في بناء الأزهر [٦] في الرابع والعشرين من جمادي الأولي سنة ٣٥٩هـ، وأقيمت الصلاة فيه أول مرة في اليوم السابع من رمضان سنة ٣٦١هـ [٧].

أما ما كان هناك من زيادة في الأذان والخطبة منذ أقيمت الصلاة في الأزهر إلى أن وصل المعز إلى القاهرة، فشيء لم يكشف لنا التاريخ الستار عنه. ويلوح لنا أن ما زيد في

---

(١) – لا يجهر الحنابلة والحنفية بالبسملة لأنهم لا يعتبرونها جزءا من كل سورة من القرآن . أما الشافعية والمالكية والشيعة فكانوا على العكس يجهرون بها . ولم يرض جوهر أن تحذف البسملة من كل سورة ؛ والمعروف أنها مكتوبة قبل كل سورة منذ كتب المصحف .

(٢) – القرآن سورة ٦٢

(٣) – القرآن سورة ٦٣

(٤) – يقرأ الدعاة الذي يطلق عليه القنوت بعد الركعة الأولى ، ، أو قبل الركوع مباشرة ، أو عند الوقوف بعد الركعة الثالثة من الوتر بعد صلاة العشاء . ويتركب القنوت في أبسط صورة منه من هذه الكلمات : " إنا لك قانتون " .

Muhammad " ali : the holy qur'an , prefece , pp . xxiv , xxv

(٥) – المقريزي : خطط (ج ٢ ص ٢٧٠) واتعاظ الحنفا (ص ٧٩) .

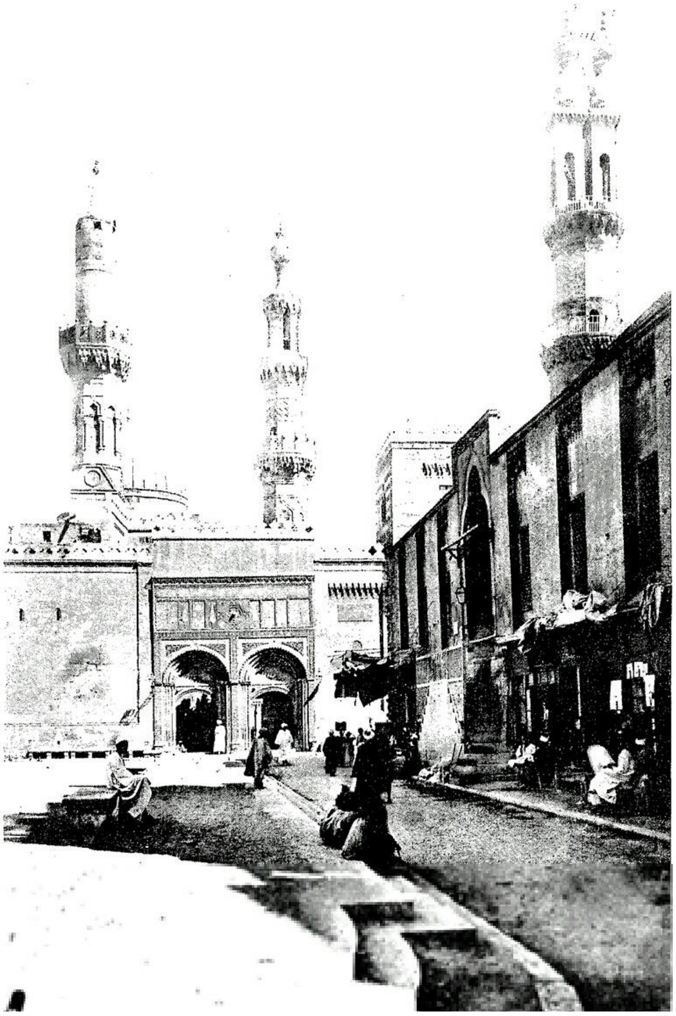
(٦) – أطلق عليه هذا الاسم لأنه كان يحيط به قصور فخمة ، ولأنه كان أكثر الجوامع فخامة ورواء . وقد ذهب بعض المؤرخين إلى القول بأنه سمي باسم فاطمة الزهراء التي ينتسب إليها الفاطميون .

(٧) – المقريزي : خطط (ج ٢ ص ٢٧٣)

الخطبة والأذان في الجامع العتيق ومسجد ابن طولون هو الذي أدخل علي الخطبة الأذان في الازهر ؛ وقد ظلت الحال علي ذلك إلى أن وصل المعز إلى القاهرة، ومن ثم تطورت الحالة تطورا محسوسا من حيث تنظيم الدعوة الفاطمية علي يد الخلفاء أنفسهم.

وقد ذكر لنا المقريزي أن المعز والعزيز كانا يقيمان الخطبة في الأزهر إلى أن فتح مسجد الحاكم سنة ٣٨٠هـ ؛ ومن ثم أصبحت الخطبة تقام بانتظام في مساجد عمرو وابن طولون والحاكم والأزهر علي التوالي. وفي عهد الفاطميين زين الأزهر ومناراته بأفخر زينة، وأنير بالأنوار الساطعة في أيام المواسم العامة، مما حدا بالمعز إلى بناء منظرة في قصره ليشاهد منها هذه الزينات، فأطلق عليها منظرة الجامع الأزهر [(١)].

[(١)] – – المقريزي : خطط (ج ٢ ص ٢٧٣)



الجامع الأزهر — الباب الخارجي للجامع

وفي خلافة المعز تطورت الدعوة الفاطمية في الأزهر تطورا عظيما ؛ فقد أمر هذا الخليفة علي أثر وصوله إلى مصر بأن تنقش العبارة الآتية علي جدران مصر القديمة [١]

[١] – نستطيع أن نفهم من قصر هذه الأوامر على مصر القديمة ، أن القاهرة كانت لا تزال صغيرة جدا بالنسبة الى الفسطاط ؛ اذ كانت تشمل قصر الخليفة والجامع الأزهر وبعض المساكن الأخرى . أضف الى ذلك أن سكان القاهرة كانوا من الشيعة قلوا أو كثروا ، فقد كانوا يؤلفون حرس الخليفة ورجال الحاشية

وهي : " خير الناس بعد رسول الله عليه وسلم أمير المؤمنين علي ابن ابي طالب " [١].

وفي غرة الحرم سنة ٣٦٣هـ (٩٧٣م) أقام الخليفة المعز صلاة العيد في مصلي القاهرة [٢] ؛ وقرأ في الركعة الأولي الفاتحة، ثم سورة الغاشية [٣]، ثم كبر. وقد أطال الركوع والسجود، وسبح في كل ركعة وسجدة ثلاثين تسبيحة [٤]. وذكر لنا المقريزي نقلا عن ابن زولاق الذي أدي صلاة الجمعة خلف الخليفة ذلك اليوم، أنه سبح نيفا وثلاثين تسبيحة في كل ركعة وسجدة ؛ وكان القاضي مُحَمَّد بن النعمان يبلغ عنه التكبير.

---

[١] – ذكر المقريزي (خطط ٢ ص ٢٧١) نقلا عن النسابة الشريف مُحَمَّد بن سعد ، أن على بن مُحَمَّد بن على بن إسماعيل بن الحسن الزيدي هو الذي زاد في الأذان العبارة الآتية : " مُحَمَّد وعلى خير البشر " ؛ وهى تشبه العبارة التي أمر العزيز بزيادتها ، وكان ذلك سنة ٣٤٧ هـ (٩٥٨ م) . وقد زيد في الأذان فيما بعد على منابر حلب " حي على خير العمل " و " مُحَمَّد وعلى خير البشر " المألوفة لدى الشيعيين . وظلت الحال على ذلك الى أيام نور الدين محمود صاحب حلب ، فأمر بإلغائها ، وامر الفقهاء فصعدوا المنارة وقت الأذان وقال لهم مروهم يؤذنوا الأذان المشروع ومن امتنع كبوه على رأسه " .

[٢] – وقد عين المقريزي (ج ١ ص ٤٥١) و (ج ٢ ص ٤٧ و ٣٦٤) موضع هذ المصلي فقال أنه خارج باب النصر ، وان جوهر انشأه في رمضان سنة ٣٥٨ لصلاة العيد . وقال بعد ذلك أن المعز ركب يوم عيد الفطر لصلاة العيد في مصلى القاهرة (الذي هو مصلى العيد أيضا ز وقال بعد ذلك أن المعز ركب يوم عيد الفطر لصلاة العيد في مصلي القاهرة (الذي هو مصلى العيد أيضا) .

[٣] – القرآن سورة ٨٨

[٤] – التسبيح في الصلاة هو أن يقال في الركوع : " سبحان ربي العظيم " مرة أو أكثر ، كما يقال في السجود : " سبحان الله ربي الأعلى " مرة أو أكثر كذلك . وأما ما ذكره المقريزي من ترديد عبارة " سمع الله لمن حمده " ، ووصفه بأن هذا تسبيح هو خطأ ؛ إذ هذا هو التسميع . وأول ما عرف عن التسميح أن موسي بن عمران هو أو لمن ابتدعه ؛ وسار عليه الناس حتى ظهرت المسيحية . وكانوا يسبحون في الهزيع الأخير من الليل ، فيعظمون الله بكلام منزل بالوحى حتى مطلع الفجر ، ويضربون عند ذلك بالآلات الموسيقية كالعود والدف والمزمار ونحوها . أما في الإسلام فكان بدء استعمال التسبيح في مصر في ولاية مسلمة بن مخلد (٤٧ – ٦٢ هـ) . فقد بني مسلمة هذا منارا في جامع عمرو واعتكف فيه ، فسمع أصوات النواقيس ذات ليلة ، فشكا الى عريف المؤذنين ، فأشار عليه أن يأمر بمنع ضرب الناقوس اذا أذن من نصف الليل حتى مطلع الفجر . فما ولى أحمد بن طولون مصر ، فأراد بمنزله حجرة أقام فيها اثني عشر مبكرا ؛ فكانوا يكبرون ويسبحون ، ويقرءون القرآن ويذنون . وكان يقوم بذلك في كل ليلة أربعة منهم ، يجعلون الليل نوبا بينهم ، وأغدق على هؤلاء الأرزاق والعطايا . ولما خلف ابن طولون ابنه خمارويه ٢٧٠ – ٢٨٢ هـ (٨٨٣ – ٨٩٥ م) ، أقر المكبرين على ما كانوا عليه أيام أبيه ، وأجرى عليهم أرزاقهم . عرف الأذان بعد ذلك بالتسبيح ، وبقى على ذلك الى أن آلت مصر الى حكم الفاطميين ، فغدا مألوفا عند الشيعيين . المقريزي خطط (ج ٢ ص ٢٧٢ – ٢٧٣) ، بتصرف واختصار .

وفي الركعة الثانية قرأ الخليفة الفاتحة ثم سورة الضحى [١]، وكرر ما قرأه في الركعة الأولي ؛ ثم جهر بالبسملة، وقد حذا في ذلك جذو علي ابن أبي طالب. ولما فرغ من الصلاة صعد المنبر وسلم علي الناس يمينا وشمالا فقال : " السلام عليكم ورحمة الله ! " وكان في أعلي المنبر وسادة من ديباج مثقل أعدت لجلوس الخليفة بين الخطبتين. وكان معه علي المنبر جوهر وابن عمار من رؤساء كتامة وشفيع صاحب المظلة.

بعد ذلك نشر العلمان اللذان كانا علي المنبر، وقرأ الخليفة خطبة أخري من خلفهما، فبدأها بالبسملة جهرا، وأعقبها بالتكبير مرتين. وقد ألقي الخطبة بخضوع وخشوع ؛ وكانت من الفصاحة والتأثير بحيث استدرت دموع المصلين.

ولما فرغ الخليفة من خطبته وأتم صلاته، انصرف في عساكره وخلفه أولاده الأربعة بالجواشن والخوذ، ممتطين الخيل، وهم في أحسن زي، يحف بهم فيلان. فلما وصل الخليفة إلى القصر سمح للناس بالدخول، فمدت لهم الموائد فأكلوا ما يشتهون [٢].

وفي عهد الفاطميين أدخل علي الدعوة الشيعية مظاهر جديدة لم تكن معروفة في مصر من قبل ؛ وكان أول ما عرف ذلك في الجامع الأزهر. ذلك أنه لما مات بعض بني عم المعز، صلي عليه هذا الخليفة في الجامع الأزهر وكبر عليه سبعا، وكبر علي ميت آخر خمسا فقط، مقتفيا في ذلك أثر علي أبي طالب الذي كان يكبر علي الميت بقدر ما يتناسب مع مكانته ؛ وهذا يخالف مذهب السنة، اذ يكبرون علي الميت أربعا فقط [٣]. يضاف إلى ذلك ما كان من احتفال المعز بعيد الغدير [٤] اول مرة في مصر.

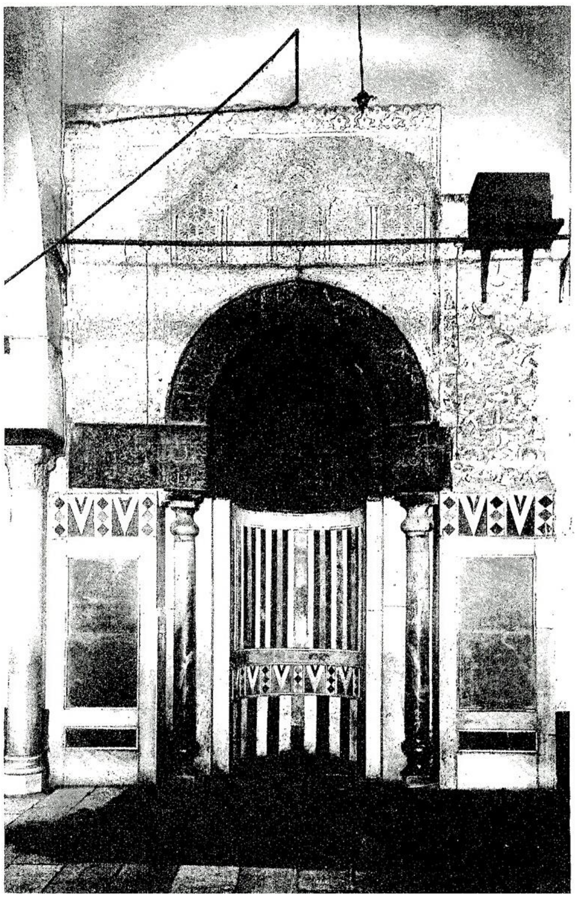
---

[١] – القرآن الكريم ، سورة ٩٣

[٢] – المقريزي : اتعاظ الحنفا (ص ٩٢)

[٣] – المقريزي – خطط (ج ٢ ص ٣٥٣)

[٤] – قد أثر عن النبي صلي الله عليه وسلم أنه قال : " على مني بمنزلة هارون من موسى ؛ اللهم وال من والاه ، وعاد من عاداه ، وانصر من نصره ، واخذل من خذله " . وبروي الشيعيون هذا الحديث عن النبي ، ويقولون أنه قاله في الثامن عشر من ذي الحجة سنة عشر للهجرة ، وهو العام المعروف بحجة الوداع ، أي العام الذي ودع فيه النبي مكة وحج فيه لآخر مرة . فنزل بغدير خم (ويقع بين مكة والمدينة) ، وآخى على بن أبي طالب . ومن ذلك الوقت أصبح يوم غدير خم عيدا يعتني به الشيعيون عناية عظيمة ويحتفلون به .



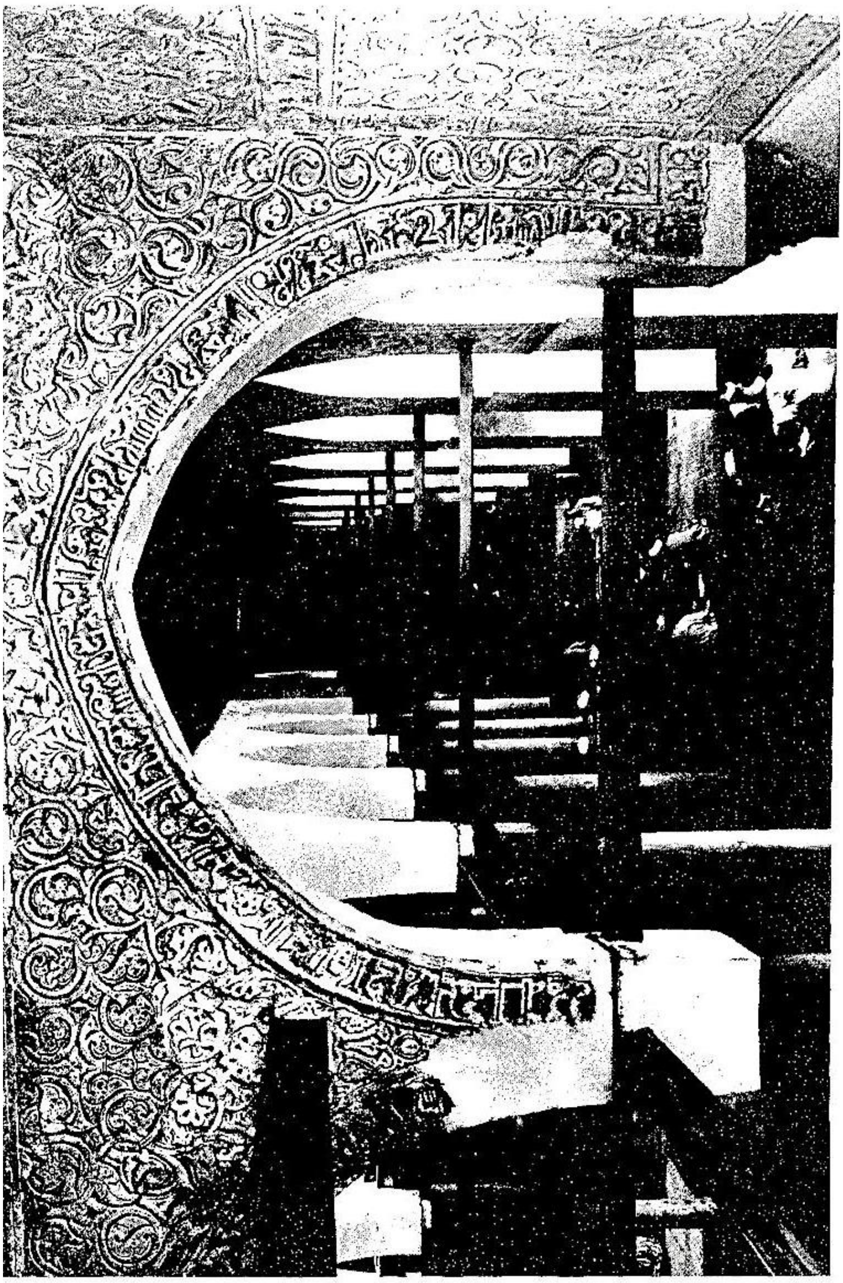
الجامع الأزهر — صحن الجامع ويد القبلة الوسطى

شرف الدين الهدوى ، مكتبة المتحف البريطاني ، القسم الشرقي . رقم ٣٨٦٨ ، ورقة ٣٣١ ا وابن خلكان (ج ٢ ص ١٣٦) والمقريزي ، خطط (ج ١ ص ٣٨٨)

هذا ما رواه بعض المؤرخين . ولكني لا أشك في أن مسألة غدير خم من مخترعات الشيعة ، يريدون بها إثبات أمر ، وهو أن عليا ولي عهد رسول الله عليه وسلم ، ويبنون على ذلك أن أبا بكر وعمر وعثمان غاضبون للخلافة . ولو أن هذه العبارة كانت صحيحة لاحتج بها على ، واستشهد الصحابة على ذلك ، ولما طلبا الأنصار زوهم شهور ليلة الغدير ؛ وفي ذلك يقول المعرى :

ضمنت وقائي للعشائر كلها　　　وأمسكت لما عظموا الغار اوخما

وقد ذكر المقريزي (خطط ج ١ ص ٣٨٨) أن معز الدولة بن بويه احتفل لأول مرة بهذا العدسة ٣٥٢ هـ (٩٦٣ م) ، فاتخذه الشيعة عيدا يحتفلون به كل عام .



الجامع الأزهر – بعض عقود الجامع، وهي من عمد إنشائه

وأهم خصائص الأزهر أنه وان بدأ كثير من المساجد، الا أنه لم يلبث أن أصبح جامعة يتلقى فيها طلاب العلم ورواده من كل صوب وحدب الكثير من مختلف العلوم والفنون. وأول من فكر في تحويل هذا الجامع إلى جامعة هو يعقوب بي كاس، وكان يدين باليهودية أولا، ثم تحول عنها إلى الاسلام ؛ وهو الذي أشار علي المعز الفاطمي بفتح مصر.

ولما صارت الوزارة إلى ابن كلس، سار علي ما كان عليه الوزراء من فبله من حيث تشجيع العلوم والآداب[١]. وفي سنة ٣٧٨هـ وقف العزيز الجامع الأزهر علي العلم، فأصبح نبراسا للجامعات الاسلامية ز ولقد رغب الخلفاء الفاطميون في جعله من الأهمية وعظم الشأن بحيث يجتذب طلاب العلم من كافة أرجاء البلاد الاسلامية. ولكي يشجع الطلاب وطنيين وأجانب، كان يقدم اليهم المأكل والمسكن وكل ما يوفر عليهم وسائل المعيشة وأسباب الراحة من غير أجر.

ولقد تعاقبت الزيادات علي البناء الأصلي، وزيد في العين الموقوفة عليه عاما بعد عام ؛ وتحول الأزهر من مسجد صغير إلى مركز عظيم للعلم، وغدا يشغل مساحة قدرها ١٢٠٠٠ متر مربع، وبلغ عدد أعمدته ثلاثمائة وخمسة وسبعين.

وقد زاد في بناء هذا الجامع كثير من الأمراء الذين ولوا مصر بعد المعز، فاستغني بما أغدقوه عليه من هبات وأوقاف. وكان العزيز الفاطمي أول من حول الأزهر إلى جامعة، وأول من ابتني بجواره دارا لجماعة من الفقهاء عدتهم خمسة وثلاثون ؛ فكانوا يجتمعون فيه بعد صلاة الجمعة ويقرءون القرآن إلى الصلاة العصر. وقد أجري عليهم هذا الخليفة الأرزاق، وأغدق عليهم وزيره ابن كلس الصلات.

ولقد أمر الخليفة الحاكم بنقل الكتب التي كانت بدار الحكمة [٢]الي مساجد الأزهر والحاكم والمقس، فخص الأزهر منها بما يقرب من النصف. وقد أورد لنا المقريزي[٣] وثيقة

---

[١] – prof . margoliouth : cairo , jerusulem and damasous , p. 40

[٢] – وتسمى دار العلم أيضا . وقد وزعت معظم الكتب التي كانت بدار العلم ، لعى ما ذكره المقريزي (خطط ج ٢ ص ٢٧٣ – ٢٧٥) على المساجد الثلاثة التي ذكرناها قبل .

[٣] المقريزي (خطط ج ٢ ص ٢٧٣ – ٢٧٥)

تاريخية نتبين منها ما كان يجري علي المؤذنين وغيرهم من خدام المساجد، وما وقف عليها من العين والمال، وقد اتخذت كل الوسائل الممكنة للمحافظة علي حرمة هذا المكان.

وفي الوقت نفسه نقل إلى جامعي راشدة والأزهر ثلاثة تنانير وتسعة وثلاثون قنديلا، فخص الأزهر منها تنوران وسبعة وعشرون قنديلا. وكان في محرابه منطقة من الفضة علي مثال المنطقة الموجودة بمحراب المسجد العتيق، فاقتلعهما صلاح الدين وغيرهما من المناطق في كافة المساجد، وذلك في ١١ربيع الأول سنة ٥٦٩هـ (١١٧٣م)، أي بعد سقوط الدولة الفاطمية بسنتين[١].

وقد زاد الخليفة الحاكم الفاطمي ٣٨٦ – ٤١١هـ (٩٩٦ –١٠٢٠م) في بناء الازهر، وزاد علي ما وقفه عليه أبوه من قبل من أوقاف وما قدم له من هبات [٢].

وفي سنة ٥١٩هـ (١١٢٥م) بني الخليفة الآمر في الجامع الأزهر مقصورة عليها كتابة منقوشة حفرا. وفي عهد الأيوبيين حل بهذا الجامع الدمار، لما قام به هؤلاء السنيون الغلاة مت إزالة آثار الفاطميين الشيعين ؛ فأبطل صلاح الدين الخطبة في الأزهر، كما انتزع كثير من الأوقاف التي وقفها عليه الحاكم الفاطمي ؛ وظلت صلاة الجمعة معطلة في هذا الجامع نحوا من قرن، إلى أن أمر الملك الظاهر بيبرس بإقامة الخطبة فيه من جديد ؛ وقدم اليه الهبات واتخذه معهدا للعلم، وذلك سنة ٦٦٥هـ (١٢٦٦م).

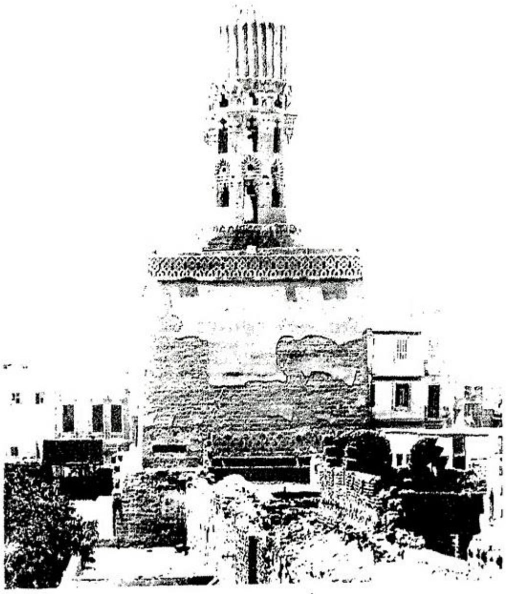
وقد سار بعض الأمراء علي مثال الظاهر. ومنذ ذلك الحين غدا الأزهر مسجدا ودارا للعلم كما كان أيام الفاطميين، فأزهر وأينع. وفي سنة ٧٠٢هـ (١٣٠٢م)أضربه الزلزال الذي كان بمصر في ذلك العهد، فسقط الجامع ؛ فتولي الأمير سلار عمارته، وجدد ما تصدع من بنيانه ؛ ومن ثم بنيت حوله المدارس التي ألحقت به فيما يعد، ولا تزال تابعة له إلى اليوم[٣].

---

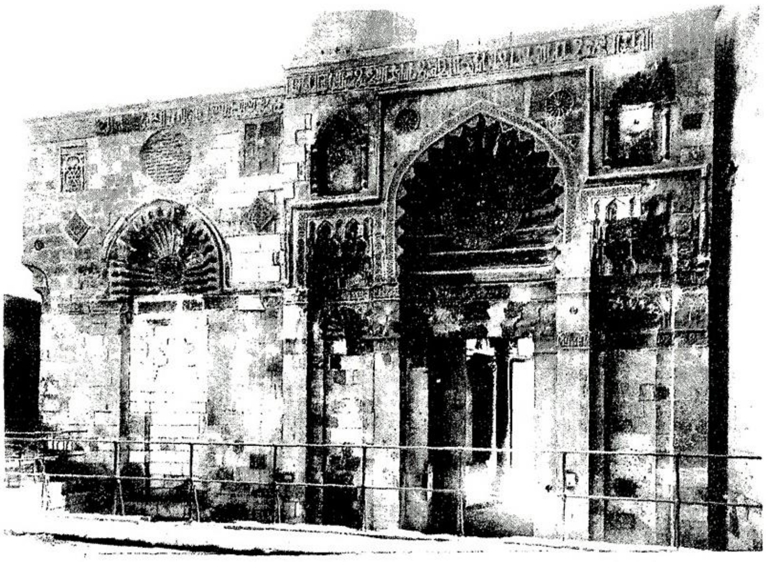
[١] المقريزي (خطط ج ٢ ص ٢٧٣ – ٢٧٥)

[٢] – وزعت هذه الهبات حصصا على جوامع الأزهر والحاكم وراشدة وعلى دار العلم – المقريزي ، خطط (ج ٢ ص ٢٧٣ و ٢٧٤)

[٣] – المقريزي (خطط ج ٢ ص ٢٧٦)



جامع الحاكم ـ منارة الجامع



جامع الأقمر — واجهة الجامع الذي بناه الآمر بأحكام الله سنة ٥١٩ هـ

(د) الدعوة الشيعية في المساجد الأخرى

١ – في مسجد الحاكم :

أسس مسجدا الحاكم الخليفة العزيز أبو الحاكم سنة ٣٧٩هـ (٩٨٩م) تحت إشراف وزيره يعقوب بن كلس. وقد وضع أساسه العزيز في العاشر من شهر رمضان من هذه السنة خارج باب الفتوح ؛ ولكنه أصبح داخل القاهرة بعد ان وسع بدر الجمالي هذه المدينة. ولما كمل بناء هذا المسجد، انتقلت اليه الخطبة وقراءة القرآن بعد ان كانت مقصورة علي الجامع الأزهر ؛ فكان يطلق عليه جامع الخطبة.

ويحدثنا المقريزي [١] عن المسبحي أن الخليفة العزيز صلي الجمعة وخطب في هذا المسجد في الرابع عشر من رمضان سنة ٣٨١هـ، وذلك قبل أن يتم بناؤه ؛ وسار في ركابه ذلك اليوم ثلاثة آلاف، وعليه طيلسان وبيده الصولجان.

وزاد المسبحي أن الحاكم أمر سنة ٣٩٣هـ (٩٠٥م) بإتمام بناء هذا الجامع. فتم ذلك في سنة ٤٠٣هـ (١٠١٢م) ؛ وعلق علي سائر أبوابه الستور، ووضع فيه أربعة تنانير من الفضة وكثيرا من القناديل الفضية أيضا، ونصب فيه المنبر وفرش بالحصر. وفي يوم الجمعة السادس عشر من رمضان من هذه السنة أذن فيه المؤذن أذان الصبح، وصلي فيه الحاكم صلاة الجمعة، وهي أول صلاة أقيمت فيه بعد الفراغ من بنائه ؛ وفي سنة ٤٠٤هـ حبس الحاكم عليه الأوقاف مع ما وقفه علي المساجد الأخري، فخصه الشئ الكثير منها [٢].

وفي سنة ٧٠٢هـ تخرب هذا المسجد مع ما تخرب من المساجد من جراء الزلزال الذي حدث بمصر في ١٣ ذي القعدة من هذه السنة ؛ فأعاده إلى ما كان عليه سنة ٧٠٣هـ (١٣٠٣– ١٣٠٤م) [٣]الأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكير، ووقف عليه

---

[١] – (خطط ج ٢ ص ٢٧٧)

[٢] – شرحه

[٣] – ذكر المقريزي (خطط ج ٢ ص ٢٧٨) أنه سقط في هذا الزلزال كثير من بدنات الجامع ، وخرب أعالي المئذنتين وتشققت سقوفه وجدرانه

أوقافا، وعين فيه فقهاء لتعليم الفقه علي المذاهب الأربعة والحديث والنحو والقراءات السبع ؛ وجعل فيه من يقوم بتلقين القرآن الكريم، وطائفة من القراء يتناوبون قراءة القرآن، ومعلما يعلم أولاد المسلمين، وجعل فيه خزانة كتب جليلة (٤).

٢- في جامع راشدة :

اشتق اسم هذا الجامع من اسم الخطة التي بني فيها، وهي خطة راشدة. وقد روي لنا ابن دقماق والمقريزي أنه بدئ ببناء هذا الجامع في ١٧ ربيع الثاني سنة ٣٩٣هـ (١٠٠٣م)، وكان في المكان الذي بني فيه كنيسة حولها مقابر لليهود والنصاري. وفي رمضان سنة ٣٩٥هـ تم بناؤه وفرش وعلقت فيه القناديل وأصبح معدا للصلاة [١].

وفي رمضان سنة ٣٩٨هـ (١٠٠٨م) صلي الحاكم الجمعة وأقام الخطبة في جامع راشدة. وفي سنة ٤٠٠هـ علق فيه تنور من الفضة وقناديل من الفضة الثقيلة الوزن. وفي رمضان سنة ٤٠٣هـ صلي الحاكم الجمعة في هذا الجامع، وعليه عمامة خالية من الجواهر، وكان يحمل سيفا محلي بالفضة البيضاء الدقيقة الصنعة. ومشي الناس في ركابه ؛ فكان يتناول بيده شكاياتهم ويقف لبحثها واستقصاء أسبابها [٢]. ومن أعجب ما حدث بجامع راشدة ما كان من إقامة خطبتين علي منبره في يوم الجمعة ١١ جمادي الآخرة سنة ٤١٤هـ، وذلك أن أبا طالب علي بن عبد السميع العباسي استقر في الخطابة بأمر قاضي القضاة أبي العباس أحمد بن مُحَّد العوام، بعد سفر خطيب هذا الجامع إلى الشام ؛ فعهد الخليفة الظاهر (٤١١ -٤٢٧ و ١٠٢٠ – ١٠٣٥)الي ابن عصفورة أن يقيم الخطبة فيه.

وكان من تعيين رجلين علي هذه الصورة لإقامة الخطبة في هذه الجامع أن صعدا المنبر في آن واحد، ووقف أحدهما دون الآخر وخطبا معا ؛ ولما علم بذلك الخليفة وقاضي

---

[١] – شرحه (ج ٢ ص ٢٨٧ – ٢٨٢) .

[٢] – ابن دقماق (ج ٤ ص ٧٨ و ٧٩) والمقريزي (خطط ج ٢ ص ٢٨٢) .

القضاة أقرا أبا طالب في إقامة الخطبة، وجعلا ابن عصفورة خليفة له [1].

(٣) في جامع المقس [2] :

بني هذا الجامع الخليفة الحاكم بأمر الله علي شاطئ النيل بالمقس، وكانت ميناء مصر في ذلك الحين. وقد بينا أن الأوقاف التي وقفها الحاكم شملت جامع الحاكم والجامع الأزهر ودار العلم وجامع المقس ؛ وذكر المقريزي أن الكتاب الذي تضمن وقفية الحاكم نص علي ان يصرف جميع ما يتبقى مما تصدق به الخليفة علي هذه الأماكن فيما يتطلبه جامع المقس ؛ هذا عدل ما وقفه الخلفاء الفاطميون عليه من النخل الكثير [3].

وفي الثامن عشر من ذي الحجة سنة ٣٦٢هـ احتفل لأول مرة في مصر بعيد غدير خم. وفي هذا اليوم ركب الخليفة المعز إلى منظرة المقس [4]؛ فعرض الأسطول ثم عوذه [5] و ليحفظه الله سبحانه وتعالي من السوء. وقد بني صلاح الدين قبة شامخة علي أطلال هذه المنظرة، أطلق عليها قلعة المقس، بقيت إلى سنة ٧٧٠هـ (١٣٦٨م) ؛ وأنشئ في مكانها حديقة [6].

لقد أتينا عند كلامنا علي تطور الشعائر الفاطمية في المساجد علي طائفة من هذه

---

[1] -- المقريزي خطط (ج ٢ ص ٢٨٢)

[2] – المقس أو المكس أو المكسم (لفظ يحتمل أن يكون مشتقا من رجل روماني أسمه مكسيموس ((maximus ، وهو ميناء القاهرة على النيل .

[3] – المقريزي (خطط ج ٢ ص ٢٨٣)

[4] – ذكر المقريزي أنه كان بالمقس ثلاث مناظر : إحداها تقع بين باب الذهب وباب البحر ، والثانية على قوس باب الذهب ، وأما الثالثة فكان يقال لها الزاهرة والناضرة والفاخرة . وكان الخليفة يجلس في إحدى هذه المناظر لعرض العساكر يوم عيد الغدير ؛ ويقف الوزير في قوس باب الذهب (خطط ج ١ ص ٤٠٤) .

[5] – يطلق لفظ " معوذتان " على سورتين من سور القرآن الكريم ، لأن كلا منهما تبتدئ بعبارة (قل أعوذ) ؛ أو لأن قراءتهما تحفظ القارئ من كل سوء . والمعوذة الأولى (وهى سورة الفلق — القرآن الكريم سورة ١١٣ى) هي كما يلي : (قل أعوذ برب الفلق من شر ما خلق ، ومن شر غاسق اذا وقب ، ومن شر النفاثات في العقد ومن شر حاسد إذا حسد) . والمعوذة الثانية كما يلى : (قل أعوذ برب الناس ، ملك الناس إله الناس ، من شر الوسواس الخناس ، إلى يويوي في صدور الناس من الجنة والناس) .

[6] – المقريزي اتعاظ (ص ٩٤) وخطط (ج ٢ ص ٢٨٣) .

المساجد التي كانت تقام فيها هذه الشعائر، وبينا أن هذه الشعائر كانت تقام في جميع المساجد. علي أنه ينبغي ألا يفوتنا أن نذكر أنه كانت هناك فترات من الزمن أبطل فيها بعض عبارات من هذه الشعائر، أي من الخطبة أو الأذان.

ذلك أنه في سنة ٤٠٠هـ (١٠٠٩م)أبطلت عبارة " حي علي خير العمل " التي أمر جوهر بأن تزاد علي الأذان بعد أن استقر سلطان الفاطميين في مصر. وقد دعا الحاكم في نفس هذه السنة (٤٠٠هـ) المؤذنين في قصره وفي المساجد الأخرى إلى اجتماع حضره قاضي القضاة، وأصدر مرسوما يحرم ذكر هذه العبارة في الأذان، وأن يقول مؤذنو القصر بدلها عبارة " الصلاة خير من النوم "، فيذكرها المؤذنون عند ذكر عبارة " السلام علي أمير المؤمنين ورحمة الله ".

وفي ربيع الثاني سنة ٤٠١هـ (١٠١٠م) عاد المؤذنون إلى ذكر "حي علي خير العمل " ؛ وفي سنة ٤٠٥هـ (١٠١٤م) أمر هذا الخليفة مؤذني الجامع الأزهر بأل يستعملوا عبارة " السلام علي أمير المؤمنين " في الأذان، وأن يقولوا بدلها عبارة "الصلاة رحمك الله " [١].

---

[١] – روى المقريزي عن البلاذري (لم نقف على هذا في كتاب فتوح البلدان للبلاذرى) أن بلالا مؤذن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقف ببابه ويقول : السلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته ، حي على الصلاة ، حي على الفلاح ، الصلاة يا رسول الله ! فلما ولى أبو بكر كان المؤذن يقف ببابه ويقول : السلام عليك يا ليفة رسول الله ورحمة الله وبركاته ، حي على الصلاة حي على الفلاح ، الصلاة يا خليفة رسول الله ! وفي خلافة عمر بن الخطاب كان المؤن يردد هذه الكلمات مبتدئا بقوله : السلام عليك يا خليفة رسول الله ... الخ . ومنعا لتكرار لفظ خليفة بالنسبة إلى من يتولى أمور المسلمين ممن تا خلفاء بعد أبي بكر ، أمر عمر بن الخطاب أن يستبدل هذا اللفظ بعبارة أمير المؤمنين ، وأن تزاد عبارة رحمك الله على الأذان (ذكر المقريزي أن عثمان هو الذي أمر بإضافة هذه العبارة – الخطط ج ٢ ص ٢١٧) . ويقول ابن خلدون (مقدمة ن طبعة بيروت سنة ١٩٠٠ ص ٢١٧ – ٢١٩) أن المؤذنين كانوا يختمون الأذان بعبارة " السلام عليك " ، يعنون بذلك الخلفة أو احد عماله . وظلت الحال على ذلك طوال عهد الأمويين وفي الصدر الأول من أيام العباسيين ، حين تولي الخلفاء والولاة الصلاة بأنفسهم . على أن الخلفاء تخلفوا عنها في أواخر أيام العباسيين ، لوقوعهم تحت سلطان الاتراك ؛ فتخلى الخلفاء عن إقامة الصلاة بأنفسهم ، فبطل استعمال هذه الكلمات ؛ وحذا حذوهم الخلفاء الفاطميون ممن لم يقيموا الصلاة ، فلم تذكر هذه الكلمات الا في أذان الفجر . الأحكام السلطانية للماوردي (ص ٩٦ – ٩٩) وابن خلون ، مقدمة (ص ١٩٧ – ١٩٩) . وقد أورد لنا كاتب " محاسن الملوك " ورقة ٢٥ – ٢٧ ، وهو مخطوط بالمكتبة الملكية بالقاهرة – راجع كتاب التاج طبعة أحمد ذكي باشا ص ٨٨ –

وقد أبطل الحاكم عادة تقبيل الأرض بين يديه ولثم يديه وركابه [١] ؛ وعلل المقريزي سبب العدول عن هذه العادة بأنها كانت من عادات البيزنطيين [٢]. كذلك أمر هذا الخليفة ألا يزاد علي السلام " السلام علي أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته ! " [٣]، وأن يقتصر في مكاتبته علي هذه الكلمات ط سلام الله وتحياته ونوامي بركاته علي أمير المؤمنين ! " وأن يقتصر الخطباء علي ذكر العبارة الآتية : " اللهم صلي علي محمد المصطفي، وسلم علي أمير المؤمنين علي المرتضي، اللهم وسلم علي أمراء المؤمنين آباء أمير المؤمنين، اللهم اجعل أفضل سلامك علي عبدك وخليفتك " [٤].

وقد قال المقريزي عند كلامه علي الدعوة الفاطمية أيام الوزير الأفضل بن أمير الجيوش بدر الجمالي : " وكان الأفضل أبطل الموالد الأربعة : النبوي والعلوي والفاطمي والإمام الحاضر، فأعيدت في سنة ست عشرة وخمسمائة " [٥].

وفي سنة ٥٢٤هـ (١١٣٠م) تقليد أبو علي بن الأفضل بن أمير الجيوش بدر الجمالي الوزارة في خلافة الحافظ ؛ فقبض علي الخليفة وحبسه، واستولي علي ما في القصر من الأموال والذخائر، وقبض علي زمام الأمور. وكان إماميا مغاليا ؛ فأظهر الدعاء للامام المنتظر، وأزال من الأذان اليه الاسماعيلية. ولما قتل في السادس عشر من المحرم سنة ٥٢٦ هـ عاد الأمر إلى الخليفة الحافظ، وعاد الأذان إلى ما كان عليه [٦].

حاشية ٣ ص ٨٦ – ٨٨) عن هذا الاستعمال منذ أيام عمر ما نصه : " قال المغيرة لعمر رضي الله عنهما : يا خليفة الله ! فقال عمر : ذاك نبي الله داود . قال : يا خليفة رسول الله ! قال : ذاك صاحبكم المفقود . قال يا خليفة خليفة رسول الله ! قال : ذاك أمر يطول . قال يا عمر ! قال لا تنجس مقامي شرفه ؛ أنتم المؤمنون وأنا أميركم . فقال المغيرة . يا أمير المؤمنين ! " .

[١] – يحيى بن سعيد (ص ٢٠٥) ، وابن ميسر (ص ٧٥)

[٢] – خطط (ج ٢ ص ٢٨٨)

[٣] – يحيى بن سعيد (ص ٢٠٥)

[٤] – المقريزي : خطط (ج ٢ ص ٢٨٨)

[٥] – المقفي الكبير ، مكتبة الجامعة بليدن ، مخطوط ١٣٦٦ ، المجلد الثاني ، ورقة ٢٠٦ ب .

أنظر كتاب " تاريخ الخلافة الفاطمية " لوستنفلد – gesohiote der fatimiden – chalifen , pp . 270 – 289

[٦] – ابن ميسر (ص ٧٥) ، وأبو الفدا (ج٣ ص ٥ و ٦) ، والمقريزى (خطط ج ٢ ص ٢٧١) .

ولما استبد صلاح الدين يوسف بن أيوب بالأمر في مصر أبطل شعائر الفاطميين، فأعاد سنة ٥٦٧ هـ (١١٧١ م) إلى أذان الفجر " السلام عليك يا رسول الله ! ".

٣ – الدعوة الفاطمية في مكتبة القصر

رغب الفاطميون في الحصول علي أكبر عدد من الكتب ابتغاء نشر تعاليم مذهبهم. وقد حمل المهدي معه، علي ما ذهب اليه ابن الأثير [١]، من سلمية جميع الكتب والوثائق التي كانت لآبائه ؛ ولكنها سرقت منه وهو في طريقه إلى سجلماسة، في مكان يقال له الطاحونة بالقرب من طرابلس. ويزيد هذا المؤرخ علي ما تقدم أن أبا القاسم بن المهدي استعاد هذه الوثائق حال مسيره لغزو مصر للمرة الأولي سنة ٣٠٠هـ (٩١٢م).

أما كون هذه الكتب أو بعضها قد حملها المعز معه إلى القاهرة، فشيء لا يمكننا الجزم به. ولقد كان مذهب السنة هو المذهب السائد في مصر قبل أن يتم فتحها علي يد الفاطميين ؛ ولهذا نشك فيما إذا كان في مكاتب الفسطاط والقطائع شيء من الكتب التي تتناول الكلام عن المذهب الشيعي، اذ ليس هناك دليل واضح يشير إلى أنه كانت هناك مكاتب عامة. ولهذا نرجح أن المعز قد حمل معه إلى مصر عددا عظيما من الكتب التي كانت في مكتبته الخاصة بالقيروان مع ما حمله من الأثقال عند رحيله إلى هذه البلاد.

وقد ولع خلفاء الفاطميين ووزراؤهم منذ العصر الأول من خلافتهم باقتناء الكتب الخطية النادرة في مختلف العلوم. وقد تحققت أغراضهم، ففاقت مكتبة القصر في القاهرة غيرها من مكاتب العالم الاسلامي.

وكان للوزير يعقوب بن كلس[٢] نصير العلوم والآداب مركز رفيع بين وزراء

---

[١] – (ج ٨ ص ١٤) .

[٢] كان يعقوب بن كلس يهوديا . ولد في بغداد ونشأ بها , وسافر مع أبيه إلى الشام , فأنقذه منها إلى مصر سنة احدي وثلاثمائة للهجرة , فاتصل ببعض خواص كافور , فعهد اليه بعمارة داره , ورأي فيه النجابة والنزهة , فعينه في ديوانه الخاص . ولم تزل حظوته تزداد مع كافور حتي أمر أصحاب الدواوين ألا يصرف شيء من المال الا بتوقيع ابن كلس (سنة ٣٣٦) . وفي شعبان سنة ٣٥٦ هـ أظهر ابن كاس إسلامه وصلي في الجامع , فزادت خطوته عند كافور . بعد ذلك لزم ابن كلس الصلاة وقراءة القرآن , ورتب لنفسه شيخا من أهل العلم يعرف القرآن ويجيده , ويحفظ كتاب السيرافي في النحو (ياقوت : ارشاد ج ٣ ص ٨٤ , وابن خلكان ج ٢ ص ٤٦١) فكان يبيت عنده ويصلي به ويقرأ

الفاطميين. فقد كان يحب العلم ويجمع بداره العلماء ؛ وكان يعقد مجلسا في كل ليلة جمعة يقرأ فيه مصنفاته علي الناس ؛ وتحضره القضاة والفقهاء والقراء والنحاة وغيرهم من وجوه الدولة وأصحاب الحديث. وكان في داره قوم يكتبون القرآن الكريم، وآخرون ينسخون كتب الحديث والفقه والأدب حتي الطب ؛ وكانوا يعارضونها [١] ويشكلونها وينقطونها.

وقد صنف يعقوب نفسه كتابا في الفقه أخذه عن المعز وابنه العزيز، يتناول فيه الكلام علي العقائد الفاطمية، ويغرف بالرسالة الوزيرية. وفي رمضان سنة ٣٦٩ (مارس — أبريل سنة ٩٨٠)

دعا ابن كلس الناس علي اختلاف مراتبهم إلى اجتماع وقرأ عليهم من تصانيفه ؛ وكان يعقد المجالس بالجامع العتيق، فيقرر المسائل الفقهية علي حسب المذاهب التي وضعها [٢].

ولا غرو فقد استفادت مكتبة القصر أيما استفادة من غيرة ابن كلس وولعه بجمع الكتب. هذا اذا صح القول بأن عددا منها قد نفل من داره إلى هذه المكتبة بعد وفاته. وقد روي المقريزي عن ابن الطوير أن المكتبة كانت في المارستان العتيق في القصر الشرقي ؛ وكان بها عدد من الرفوف مقسم إلى أقسام، لكل قسم منها باب. وزاد هذا المؤرخ أن هذه المكتبة كانت تحتوي علي مائتي ألف كتاب مجلد، عدا الكتب الأخرى. وقد

عليه . وظل ابن كلس علي خطوته عند كافور إلى أن مات . وكان الوزير ابن الفرات مجسدا ابن كلس ويحقد عليه فحبسه , فتدخل بعض الناس في الأمر , وبذل ابن كاس له الأمور حتي أطلق من اعتقاله , فاقترض من أخيه وغيره مالا , ثم سار مختفيا يريد بلاد المغرب . وقيل انه لقي جوهرا وهو في طريقه لغزو مصر فعاد معه , وقيل أيضا انه سار إلى بلاد المغرب واتصل بخدمة المعز , ثم ولي معه إلى مصر . ومهما يكن من الأمر فان ابن كلس ظل في خدمة المعز , واكتسب خطوة ابنه العزيز ونولي أموره , ثم ولي الوزارة في رمضان سنة ٣٦٨ هـ (١٩ أبريل سنة ٩٧٩ م) , وأدار شيء وان الدولة الفاطمية بمهارة وهمة إلى أن مات سنة ٣٨٠ هـ . ابن منجب (ص ١٩ — ٢٢) , وابن ميسر (ص ٤٥ و ٥١)

[١] يقابلون بين نسخ الكتاب الواحد

[٢] ابن منجب (ص ٢٢)

وقد أتي المقريزي (خطط ج ٢ ص ٣٤١) بيان موجز عن هذا الكتاب الذي صنفه ابن كلس , وقال انه كان في حوزته , وأنه يتكلم عن أصول المذهب الاسماعيلي .

اشتملت هذه الكتب علي مصنفات في الفقه في جميع المذاهب، واللغة العربية والحديث والتاريخ والسير، والفلك والدين والكيمياء ؛ هذا عدا المصاحف التي احتوتها المكتبة، ومجموعة القوائم المكتوبة بخط ابن مقلة وابن البواب [1] وغيرهما من مشاهير الخطاطين.

وكان من عادة الخليفة إذا زار المكتبة أن يترجل، ثم يسير إلى دكة مرتفعة فيجلس عليها ؛ فيأتيه الخازن بنسخ من المصحف مختلفة الحجم، وبكتب أخري في مواضيع مختلفة لمصادقة الخليفة علي اقتنائها [2].

وقد روي المقريزي عن مؤلف كتاب " الذخائر " أنه كان في القصر أربعون خزانة، من جملتها خزانة بها [3] ١٨.٠٠٠ مجلد في العلوم القديمة [4]. وذكر أبو شامة، نقلا عما أورده ابن أبي طي عن القصر بعد سقوط الخلافة الفاطمية، أن مكتبة الخلفاء كانت من بين محتويات القصر التي باعها الأيوبيون في عهد صلاح الدين.

وقد وصف هذا المؤرخ مكتبة القصر بأنها كانت من عجائب الدنيا فقال : " ويقال إنه لم يكن في جميع بلاد الاسلام دار كتب أعظم من التي كانت في القاهرة في القصر. ومن عجائبها أنه كان فيها ألف ومائتان وعشرون نسخة من تاريخ الطبري ؛ ويقال انها كانت تشتمل علي ٦٠٠.٠٠٠ كتاب، وكان فيها من الخطوط المنسوبة أشياء كثيرة "[5].

ولقد دأب الخلفاء الفاطميون في جمع أكثر ما يمكن الحصول عليه من نسخ كتاب واحد، حتي لا يتاح لمكاتب بغداد وقرطبة اقتناء هذه الكتب ؛ لذلك نجح الفاطميون في جمع عدد عظيم من النسخ بعض الكتب التي لم يكن لها وجود في المكاتب الأخرى.

---

[1] ذكر ياقوت (ارشاد ج ٥ ص ٤٤٥– ٤٥٣) وابن خلكان (ج ١ ص ٤٣٥ و٤٣٦) وأبو الفدا (ج ١ ص ١٦٠) ترجمة علي بن هلال الكاتب المعروف بابن البواب ؛ وهو شاعر وخطاط مشهور مات ببغداد سنة ٤١٣ هـ

[2] المقريزي : (خطط ج ١ ص ٤٠٩)

[3] لابد أن يكون هذا العدد أكثر من ١٨.٠٠٠ مجلد , لأن بعض هذه الكتب كان يقع في أكثر من مجلد واحد .

[4] المقريزي : (خطط ج ١ ص ٤٠٩)

[5] كتاب الروضتين لأبي شامة (طبعة القاهرة) (ج ١ ص ٢٠٠) . وقد روي هذا الكاتب عن عماد الدين الأصفهاني ان عدد كتب هذه المكتبة يبلغ ٢.٠٠٠.٠٠٠ كتاب .

ويحدثنا المسبحي أن اب العين للخليل بن أحمد [1] ذكر عند الخليفة العزيز ؛ فأمر خازن مكتبته فأخرج من خزانته نيفا وثلاثين نسخة من هذا الكتاب، منها نسخة من خط الخليل نفسه.

وفي مناسبة أخري أحضر رجل إلى الخليفة نسخة من تاريخ الطبري كان قد اشتراها بمائة دينار ؛ فأمر الخليفة خازن مكتبته أن يحصل علي نسخة أخري من هذا الكتاب، فحصل علي أكثر من عشرين، منها نسخة بخط الطبري نفسه. وذكر عنده أيضا كتاب الجمهرة لابن دريد، فأحضر في الحال أكثر من مائة نسخة منه [2].

أما ما كان من مقتنيات المكتبة الملحقة بقصر الخلفاء الفاطميين، وما كان لها من شهرة في أنحاء العالم الاسلامي، فقد دلل عليه أسامة بن منقذ فيما أورده لنا من حقائق رواها عن أبيه فقال ما نصه : " وكان الوالد السعيد مجد الدين أبو سلامة مرشد بن علي بن مقلد بن نصر بن منقذ ﷺ، حدثني أنه لما توجه إلى خدمة السلطان ملك شاه رحمه الله و وهو اذ ذاك بأصفهان، قصد القاضي الامام الصدر العالم أبا يوسف القزويني رحمه الله، عائدا ومسلما بمعرفة قديمة كانت بينهما، ويد كانت عنده للمجد سديد الملك ذي المناقب أبي الحسن علي بن مقلد رحمه الله. وذاك أن القاضي المذكور سافر إلى مصر في أيام الحاكم صاحب مصر، فأحسن اليه وأكرمه، ووصله بصلات سنية، فاستعفي منها وسأله أن يجعل صلته كتبا يقترحها من خزانة كتبه، فأجابه إلى ذلك :؛ فدخل الخزانة واختار منها ما أراد من الكتب، ثم ركب في مركب وتلك الكتب معه يريد بلاد الاسلام التي في الساحل ؛ فتغير عليه الهواء، فرمي بالمركب إلى مدينة اللاذقية وفيها الروم، فبعل بأمره وخاف علي نفسه وعلي ما معه من الكتب، فكتب إلى جدي سعيد الملك رحمة الله تعالي كتابا يقول فيه : قد حصلت بمدينة اللاذقية بين الروم ومعي كتب الاسلام، وقد

---

[1] انظر ترجمته في ارشاد الأديب لياقوت (ج ٤ ص ١٨٠ – ١٨٢) وابن خلكان (ج ١ ص ٢١٦ – ٢١٨) . وقد مات الخليل سنة ١٦٠ هـ أو ١٧٠ هـ علي ما ذهب اليه ياقوت (ارشاد ج ٢ ص ١٨٠) . وأتي لنا ابن خلكان بتاريخين لوفاته هما ١٧٠ و ١٧٥ هـ

[2] المقريزي : (خطط ج ١ ص ٤٠٨)

وقعت لك رخيصا، فهل أجدك حريصا ؟ فسير اليه من يومه ولده عمي عز الدولة أبا المرهف نصرا رحمه الله، وسير معه خيلا كثيرا من غلمانه وجنده وظهرا لركوبه وحمل أثقاله، فأتاه وحمله وما معه ؛ فأقام عند جدي رحمه الله مدة طويلة " [1].

دار العلم :

ولع الخلفاء الفاطميون بتشجيع المشتغلين بنشر المذهب الشيعي ؛ فكان من ذلك أن جعل العزيز الجامع الأزهر مقرا للطلاب تحت إشراف وزيره الكبير يعقوب بن كلس، فنقل اليه والي غيره كثيرا من المصاحف والكتب.

وفي جمادي الآخرة سنة ٣٩٥ هـ (١٠٠٥م) أنشا الحاكم جمعية علمية " أكاديمية " علي مثال " الأكاديميات " الموجودة ببغداد وغيرها من البلاد، وأطلق عليها دار الحكمة. فالتحق بها عدد من القراء والفقهاء والمنجمين والنحاة واللغويين والاطباء ؛ وألحق بدار الحكمة مكتبة أطلق عليها دار العلم، حوت ما لم يجتمع مثله في مكتبة من المكاتب. وأجري هذا الخليفة ومن جاء بعده من الخلفاء علي خدامها ومن بها من الفقهاء الأرزاق السنية، وجعل فيها ما يحتاج اليه المطالعون والنساخ من الحبر والأقلام والمحابر والورق [2].

وفي سنة ٤٠٣ هـ عقد الحاكم في قصره مجلسا من مشاهير العلماء في الرياضة والمنطق والفقه والطب وغيرها من العلوم، فتناظروا في شتي المسائل. وعند ارفضاض هذا المجلس منح الخليفة هؤلاء العلماء الخلع والجوائز الثمينة [3].

وقد ظلت هذه المكتبة مفتوحة ينتفع الجمهور بما فيها من الكتب إلى سنة ٥١٦ هـ (١١٢٢ م)، حيث أمر الوزير الأفضل بن أمير الجيوش بدر الجمالي بأغلاقها، اذ نمي اليه أن رجلين يعتنقان عقائد الطائفة المعروفة بالبديعية التي يدين أشياعها بمذاهب السنة الثلاثة : وهي الشافعي والحنفي والمالكي، يترددان علي هذا المكان، وأن كثيرين من

---

[1] Derenbourg : vie d'ousama , pp . 503 , 504 .

[2] المقريزي : (خطط ج ١ ص ٤٥٨ و ج ٢ ص ٣٤٢) , عن المسبحي .

[3] لم تلبث أن انقطعت هذه الاجتماعات من دار الحكمة في القصر . وهذا التغيير من جانب الحاكم مما لاندهش له , اذا علمنا أن موظفيه توقفوا عن تنفيذ أوامره بعد ما أصاب عقله من خبل وسياسته من اضطراب .

الناس أصغوا اليها واعتقوا هذا المذهب. وقد اعتنق هذا المذهب شيخان من الأساتذة المحنكين في القصر. لهذا وذاك أمر الأفضل بإغلاق هذه المكتبة، لأن وجودها أصبح لا يتفق مع الغرض الذي أنشئت من أجله، وهو بث عقائد المذهب الشيعي لا غير. وكان من أثر ذلك أن قتل نفر ممن دانوا بعقائد هذا المذهب [١].

وبعد وفاة الأفضل أصدر الخليفة الآمر ٤٩٥ – ٥٢٤ هـ (١١٠١ – ١١٣٠م) أمرا بإعادة دار العلم إلى ما كانت عليه ؛ فتردد عليها حامد القصار أحد زعماء البديعية، وادعي الربوبية ؛ ونمي إلى الخليفة أنه دان بمذهب أبي الحسن الأشعري ([٢]، ثم انسلخ عن الاسلام. ويقول المقريزي [٣] ان حامد هذا سلك طريق الحلاج [٤] في التمويه، فاستهوي من ضعف عقله وعميت بصيرته.

أما المكتبة الكبرى التي كانت في القصر وما أودع فيها من الكتب الجليلة المقدار، فقد كان لها أن تعاني ما عاناه غيرها من المصائب والبلايا التي حات بالخلافة الفاطمية في عهد المستنصر (٤٢٧ – ٤٨٧ هـ ١٠٣٥ – ١٠٩٤ م) وانتهت بسقوط الفاطميين.

ولقد تلاشي أغلب الكتب التي كانت في القصر وفي دار العلم في غضون الشدة التي حلت بالبلاد سنن طويلة في عهد المستنصر [٥]؛ ونزع من هذه المكتبة ما يقرب من ألفين وأربعمائة " ختمة " مكتوبة بخط محلي بالذهب والفضة ؛ وذهب ذلك كله فيما أخذه الأتراك في مقابل ما كان متأخرا لهم من الأرزاق، فلم يبق في خزائن القصر الخارجية شيء مطلقا. أما الخزائن الداخلية التي يتعذر الوصول اليها، فقد عثر فيها علي صناديق ملأي بالأقلام، براها وشذب أطرافها ابن مقلة ابن البواب وغيرهم من الخطاطين [٦].

ويحدثنا المقريزي عن مؤلف كتاب " الذخائر " الذي زار هذه المكتبة فيقول : "

---

[١] المقريزي : (خطط ج ١ ص ٤٦٠)

[٢] وهو إمام من أئمة التوحيد , ومن أساطين مذهب السنة

[٣] خطط (ج ١ ص ٤٦٠)

[٤] وهو أحد المتصوفين . ويروي عنه أنه قال ما في الجبة غير الله – يعني جبته – وقد قتل من أجل ذلك .

[٥] سنتكلم عن هذا القحط في الباب السابع .

[٦] المقريزي (خطط ج ١ ص ٤٠٨)

وكنت بمصر في الفسطاط في العشر الأول من المحرم سنة إحدى وستين وأربعمائة، فرأيت خمسة وعشرين جملا موقرة كتبا مرسلة إلى دار الوزير أبي الفرج مُحَمَّد بن جعفر المغربي ؛ فسألت عنها، فعرفت أن الوزير أخذها من خزائن القصر هو والخطير بن الموفق في الدين [١] عما يستحقانه وغلمانهما ".

هذا، ويستطرد بعض من شاهد ذلك بنفسه فيقول : " إن الكتب التي نقلت إلى دار الوزير وفاء لخمسة آلاف دينار، بلغت قيمتها أكثر من مائة ألف دينار ".

أضاف إلى ذلك أن الكتب التي كانت بدار العلم وغيرها من الكتب التي صارت إلى عماد الدولة بن أبي الأفضل بن المحترق والتي حملها معه إلى الإسكندرية [٢]، وكذا الكتب التي ظفرت بها بنو لواتة، كان خسارة فادحة لحقت بدور الكتب.

ذلك أن عددا عظيما من هذه الكتب قد بيع أو نهب، أو حمل في النبل إلى الاسكندرية سنة ٤٦١ هـ (١٠٦٨ – ١٠٦٩ م) وما بعدها. ويقول هذا المؤرخ إن عددا غير قليل " من الكتب الجليلة المقدار المعدومة المثل في سائر الامصار صحة وحسن خط وتجليدا وغرابة "، قد اتخذ من جلودها عبيدهم وإماؤهم نعالا وأحذية، ثم أحرقوا أوراقها، زعما منهم أنها تحوي كلام المشارقة الذي يخالف مذهبهم [٣] (يعني أهل السنة).

وقصاري القول، فان الكتب التي كانت بمكتبة القصر ودار العلم، وإما أن تكون قد سرقت أو أغرقت في النيل، أو حملت إلى سائر الأقطار، أو آلت إلى الإحراق. أما ما تعرض منها للجو فقد سفت عليه الرياح التراب، فصار تلالا عرفت بتلال الكتب [٤].

وقد بدأت هذه المحن التي حاقت بمجموعتي الكتب (بمكتبة القصر ودار العلم) سنة

---

[١] يحدثنا ابن ميسر أن أبا غالب عبد الظاهر بن فضل بن الموفق في الدين تولي الوزارة ثلاث مرات , وقتل في نفس اليوم الذي قتل فيه ابن حمدان .

[٢] نقلت هذه الكتب إلى بلاد المغرب بعد وفاته .

[٣] المقريزي (خطط ج ١ ص ٤٠٩)

[٤] شرحه .

٤٦١ هـ، وتوالت عليها سنون عدة. علي أنه في الوقت الذي سقطت فيه الدولة الفاطمية، أي بعد هذه الفترة التي تخللت سنتي ٤٦١ و ٤٦٥ هـ بنحو قرن، كانت لا تزال هناك مكتبة كبيرة في قصر العاضد آخر الخلفاء الفاطميين.

ويظهر ان هذه المكتبة قد استعادت شيء من سابق عظمتها وروائها، إما باسترجاع بعض كتبها التي ضاعت في هذه المحن، أو بإضافة كثير من الكتب الجديدة. يؤيد هذا القول ما أجمع عليه المؤرخون من أنه كانت هناك سنة ٥٦٧ هـ (١١٧١ م) مكتبة عظيمة في قصر آخر الخلفاء الفاطميين، وأن هذه الكتب قد تم بيعها شيئا فشيئا علي يد رجل خبير يدعي ابن صورة، واستغرق هذا البيع بضع سنين.

ولم يبق من هذه الكتب شئ كثير : فمنها ما حمل إلى المدرسة الفاضلية التي أسسها القاضي الفاضل عبد الرحيم بن علي البيساني [١] سنة ٥٨٠ هـ. ويحدثنا المقريزي أن المكتبة التي كانت بهذه المدرسة قد اشتملت من الكتب علي ما يقدر بمائة ألف مجلد، آلت كلها إلى الضياع سنة ٦٩٤ هـ (١١٩٤ – ١١٩٥ م) في غضون المجاعة التي أصابت البلاد في ذلك الوقت، اذ با ع طلبة هذه المدرسة جميع ما كان فيها من الكتب، وكانوا يبيعون كل مجلد برغيف [٢].

وقد اختلف المؤرخون في مسألة عدد الكتب التي كانت بمكتبة القصر في ذلك الوقت : فذكر أبو المحاسن [٣] أنها بلغت مليون مجلد ؛ وقال ابن واصل إن هذه المكتبة

---

[١] كان شافعي المذهب . تقلد أبوه قضاء بيسان (وهي بلدة من بلاد الأردن بين حوران وفلسطين) , ومن هذا اللفظ اشتق اسمه (البيساني) نسبة إلى هذه المدينة . قدم القاهرة , وخدم في ديوان الانشاء في أيام الخليفة الحافظ الفاطمي (٥٢٤ – ٥٤٤ هـ و ١٠٣٠ – ١٠٤٩ م) , وترقي حتي صار صاحب هذا الديوان . ولما قدم أسد الدين شيركوه الديار المصرية , اتخذه كاتبا له (سكرتيرا) . فلما مات أسد الدين وآلت الوزارة إلى صلاح الدين , استخلص البيساني واستعان به في إزالة الدولة الفاطمية , ثم جعله وزيرا له ومشيرا ؛ فظل في الوزارة إلى سنة ٥٩٦ هـ (١١٩٩ م) , حيث مات وهو في طريقه لقتال الملك العادل بن أيوب , وكان اذا ذاك يسير لأخذ مصر . ابن خلكان (ج ١ ص ٣٥٧ – ٣٥٩) والمقريزي (خطط ج ٢ ص ٣٦٦ – ٣٦٧)

[٢] شرحه (ج ٢ ص ٣٦٦)

[٣] طبعة جو ينبول (ج ٢ ص ٤٨٢)

اشتملت علي مائة وعشرين ألف مجلد [١] ؛ وبذلك خالف ابن واصل وأبو المحاسن غيرهما من المؤرخين من أمثال ابن أبي طي وابن الطوير وعماد الدين الأصفهاني [٢] ؛ فقد ذكروا أن هذا العدد بلغ مائتي ألف (٢٠٠.٠٠٠)وستمائة ألف (٦٠٠.٠٠٠) ومليونين (٢.٠٠٠.٠٠٠) علي التوالي.

هذا، ولا يعزب عن أذهاننا ما سبق أن أوردناه عن المقريزي : وهو أنه بعد سقوط الدولة الفاطمية، حمل من مكتبة القصر مائة ألف مجلد إلى المدرسة الفاضلية التي تأسست سنة ٥٨٠ هـ (١١٨٤ م) [٣].

هذا ما يجعل ذلك التقدير الذي أتي به ابن واصل غير صحيح. بيد أن العدد الذي ذكره ابن الطوير هو ثلاثة أمثال العدد الذي ذكره ابن أبي طي، في حين أن العدد الذي أورده عماد الدين الأصفهاني يبلغ عشرة أمثال ما أتي به ابن أبي طي.

لكننا لو طرحنا عدد الكتب التي حملها البيساني من هذه المكتبة، وهو ١٠٠.٠٠٠ مجلد، من مجموع الكتب الذي ذكره ابن أبي طي، وهو ٢٠٠.٠٠٠ مجلد، لما بقي لابن صورة الا عدد قليل جدا يتولى بيعه علي مر السنين. وكيف يعقل هذا اذا علمنا أن مدرسة واحدة وهي الفاضلية كان نصيبها نصف مجموع هذه الكتب ؟ أضف إلى ذلك ما ذكره ابن ميسر [٤]، وهو أنه لما مات الوزير الأفضل بن أمير الجيوش بدر الجمالي سنة ٥١٥ هـ (١١٢١ م)، صادر الخليفة الآمر كافة ممتلكاته، فكان من ضمنها خمسمائة ألف مجلد (٥٠٠.٠٠٠)[٥] نقلت كلها إلى مكتبة القصر.

---

[١] ابن واصل , المكتبة الأهلية بباريس , مخطوط ١٧٧٠ , ورقة ٣٢ ب

[٢] ذكر ابو شامة , نقلا عن عماد الدين الأصفهاني , أن بيع مقتنيات القصر استغراب عشر سنين , وأنه قد خصص يومان في الأسبوع لبيع الكتب بطريقة المساومة , فبيعت بأبخس الأثمان . وتبعثرت المجلدات – وبعضها يشتمل علي خمسين جزءا في شتي الأماكن – حتي استحال جمع كل أجزاء الكتاب الواحد . ويزيدنا عماد الدين الأصفهاني أن هذه الكتب كانت بالوزن (أبو شامه , طبعة القاهرة ج ١ ص ٢٦٨)

[٣] المقريزي (خطط ج ٢ ص ٣٦٦)

[٤] تاريخ مصر (ص ٥٧)

[٥] ذكر ياقوت في كتابه ارشاد الأديب (ج ٥ ص ١٥٠) أن مكتبة الوزير أبي القاسم بن عباد المتوفي ٣٨٥ هـ (٩٩٥ م) (ابن خلكان ج ١ ص ٩٣ – ٩٥) اشتملت علي ٢٠٦.٠٠٠ مجلد .

وليس من السهل أن تأتي بإحصاء دقيق لهذه الكتب، اذا عرفنا أن هذا التقدير الذي أتي به المؤرخون علي اختلافهم يشير إلى ظروف عدة، أي قبل هذه المجاعة التي انتابت البلاد في أيام الخليفة المستنصر (٤٦١ – ٤٦٥ هـ) وبعدها، وكذا قبل سقوط الخلافة الفاطمية (٥٦٧ هـ) وبعده.

يظهر لنا أن العدد الذي أورده ابن الطوير : وهو ٦٠٠.٠٠٠، يقرب من العدد الحقيقي لهذه الكتب، الذي كان في هذه المكتبة في هذه الظروف كلها.

ومهما يكن من الأمر، فلا شك في أنه كان في القصر وفي دار العلم مجموعة عظيمة من الكتب، الغرض منها تعضيد نشر عقائد الفاطميين وتلقينها الناس. ولا غرو فقد عني الفاطميون

عناية خاصة بازدياد عدد الكتب والحصول علي النسخ الفريدة النادرة كما قلنا، حتي أتيح لمكتبة القصر في القاهرة أن تنافس وتبذ غيرها من المكاتب في العالم الاسلامي[1]

علي أن ضياع هذه المجاميع جعل من الصعب، إن لم يكن من المستحيل، علي الباحثين في التاريخ الفاطميين في مصر أن يقفوا وقوفا تاما علي تاريخ الأمبراطورية الفاطمية العظيمة. فالأيوبيون السنيون الغلاة، الذين كانوا أعداء ألداء للشيعة، لم يحاولوا القضاء علي الشعائر الشيعية فحسب، بل عملوا علي إزالة كل معالم الحضارة الفاطمية وثقافتها.

التعاليم الفاطمية في مصر :

كان داعي الدعاة في عهد الفاطميين من كبار الموظفين ؛ وكان يلي قاضي القضاة في

---

[1] ذكر الأستاذ نيكلسن في كلامه عن مكتبة الحكم الثاني في أسبانيا : "كان القرن العاشر الميلادي عصر إزهار وبهاء في تاريخ الأندلس ... ... وكان الحكم محبا للكتب شغوفا باقتنائها . وكان يرسل عماله إلى مختلف النواحي لا بتياع المخطوطات , فجمع من وراء ذلك أربعمائة ألف مجلد أودعها قصر الذي غص بخازني الكتب وبالنساخ والمجلدين "

Literary history of the arabs , p . 419

انظر ايضا ابن خلدون (ج ٤ ص ١٤٦) والمقري : نفح الطيب (ج ١ ص ١٨٢)

الرتبة ويتزيا بزيه. وكانت وظيفتا قاضي القضاة وداعي الدعاة تسندان في كثير من الأحيان إلى رجل واحد. وقد خصص لداعي الدعاة قسم كبير من قصر الخليفة. وكان يساعد في نشر التعاليم الفاطمية اثنا عشر نقيبا، كما كان له نواب ينوبون عنه في البلاد.

وكان فقهاء الدولة تحت نفوذه، ولهم مكانة خاصة بالقصر : هو دار العلم ؛ فكانوا يتصلون به ويتلقون عنه الأوامر، ويقدمون اليه في يومي الاثنين والخميس ما أعدوه للمحاضرة في أصول المذهب

. ويجدر بنا أن نلاحظ أن هذه المحاضرات كانت تعرض قبل القائها علي الخليفة، فيقرها ويذيلها بإمضائه، ثم تبلغ اليهم عن طريق داعي الدعاة الذي كان يعرضها بنفسه(١)

وكان داعي الدعاة يعقد المجالس ويقرأ علي الناس من مصنفاته، ويجلس علي كرسي الدعوة في الإيوان الكبير فيحاضر الرجل، ويعقد للنساء مجلسا خاصا هو مجلس الداعي، وفيه يلقنهن أصول مذهب الاسماعيلية.

لم يكن ذلك كل ما قام به الفاطميون في هذا السبيل. فقد ذكر لنا المقريزي نقلا عن ابن عبد الظاهر، أن هذه المجالس كانت تفرد للناس كل حسب طبقته : فكان لآل علي مجلس، وللخاصة وشيوخ الدولة مجلس، ولمن يتصل بالقصور من الخدم وغيرهم مجلس، وللعامة والطارئين من البلاد الأجنبية مجلس. وللحرم وخواص نساء القصور مجلس خاص بهن. وكان النساء يحضرن في الجامع الأزهر (٢).

واذا فرغ داعي الدعاة من إلقاء محاضرته علي المؤمنين والمؤمنات، أقبلوا عليه يقبلون يده، فيمسح علي رؤوسهم بالجزاء الذي عليه إمضاء الخليفة. ومن خصائص داعي

(١) المقريزي (خطط ج ١ ص ٣٩١)

(٢) المقريزي (خطط ج ١ ص ٣٩١) .

الدعاة جمع النجوى [١] من الاسماعيلية، وأن يدون اسم من يدفع اليه أكثر من المال المقرر ؛ وفي عيد الفطر كان يجمع مال كثير يودع بعضه في بيت المال [٢].

ويظهر أن الفاطميين هم أول من أفرد لداعي الدعاة مكانا كبيرا في القصر : ذلك أنه في ربيع الآخر سنة ٣٨٥ هـ (٩٩٥ م) في خلافة العزيز، قلد قاضي القضاة مُحَمَّد بن النعمان وظيفة الدعوة إلى مذهب آل البيت في القصر، كما كان أخوة الحسين في القاهرة وأبوه في بلاد المغرب. ويحدثنا المقريزي عن المسبحي أن الزحام اشتد بالناس فمات منهم أحد عشر رجلا [٣].

وقد لاقت الدعوة الفاطمية السياسية منها والدينية نجاحا عظيما في خلافة الحاكم بأمر الله ؛ فقد بذل مجهودا كبيرا في سبيل نشر هذه الدعوة، حتي لقد أرغم كثيرا من الناس علي اعتناق المذهب الفاطمي بما سنه من القوانين الجائرة. كما كان من أثر إقبال الناس علي الدخول في هذه الدعوة أن جعل لهم يومان في الأسبوع لتلقي تعاليم هذا المذهب [٤]. وفي السادسة عشر من رجب سنة ٣٩٧ هـ (٩٣٨ م) صرف قاضي القضاة عبد العزيز بن النعمان، وأقر في الدعوة مكانه مالك ابن سعيد الفارقي ؛ فتسلم منه كتب الدعوة التي كانت تقرأ علي الناس في القصر [٥].

أما كتب الدعوة التي يشير اليها المقريزي، فهي من غير شك الكتب التي ألفها رجال من أمثال أبي حنيفة النعمان المغربي ويعقوب بن كلس ؛ وقد وصف لنا المقريزي نسخة من كتاب ابن كاس

كان في حوزته. هذا، ويجب أن نشير هنا الى وثيقة أخرى لها أهمية عظيمة، وهى

---

[١] زاد المقريزي (خطط ج ١ ص ٣٩١) علي هذا فقال : إن النجوى كانت ثلاثة دراهم وثلث ؛ ومن سراة الاسماعيلية من دفع النجوى ثلاثة وثلاثين دينارا وثلثي دينار , فيمتاز بذلك عن غيره في المحول , ويعطي رقعة مذيلة بإمضاء الخليفة , وفيها ما يأتي : بارك الله فيك وفي مالك وولدك ودينك ! " , فيدخر ذلك ويفخر به

[٢] شرحه (ج ١ ص ٣٩١)

[٣] المقريزي (خطط ج١ ص ٣٩١ و ج ٢ ص ٣٤١ – ٣٤٢)

[٤] شرحه (ج ٢ ص ٢٨٦)

[٥] شرحه (ج ٢ ص ٢٨٦)

الرسائل المخطوطة بدار الكتب الملكية بالقاهرة [١] وعنوانها : " رسائل الحاكم بأمر الله والقائمين بأمر دعوته ".

وأنا أشك في أن هذه الرسائل الموجودة بدار الكتب الملكية بالقاهرة هي نسخة ثانية من المجلد الأول للمطويات الأربعة التي اعتمد عليها دي ساسي في كتابيه **expose de la druzes ،religion des chrestomathie arabe** ز فقد ذكر لنا دي ساسي في الكتاب الأول أنه لم يطع من المخطوطات التي تتناول الكلام على الدروز الى على ما يوجد منها بمكاتب اوربا فقط.

‘ je ne puis dispenser de faire connaitre sommairement ces differents ecrits ; et d’indiquer les manusscrits des diversesbibliotheques de l’ Europe dans les quells ils se trouvent. “ [2]

وليست هذه المسألة مما يحط من قدر بحث هذه الرسائل الموجودة بدار الكتب الملكية بالقاهرة ؛ لأنني اقتصرت في بحثها على اقتباس بعض العبارات التي لم يتصد دي ساسي ولا غيره من المؤرخين لترجمتها أو بحثها بشئ من الاسهاب. والمخطوط الذي أطلع عليه دي ساسي هو بالمكتبة الاهلية بباريس تحت أرقام ١٥٨٠ / ١٥٨١، ١٥٨٢، ١٥٨٣ (**ancient fonds، ie. 1408، 1415، 1419 ، 1427**) على التوالي ؛ وعنوانه : "كتاب الشاهد والأسرار التوحيدية لمولانا (الحاكم) " [٣].

والمجلد الأول من مجلدات هذا المخطوط يشتمل على ست وعشرين رسالة ؛ ويكاد يتقفى ست عشرة منها مع مثيلاتها من رسائل المخطوط الموجود بدار الكتب الملكية بالقاهرة. على أن دى ساسي اقتصر على ترجمة أربع من هذه الرسائل[٤] ؛ أما الأخرى فانه تناول الكلام عليها بشيء كثير من الإيجاز ؛ فذكر خلاصة كل منها، وشرح

---

[١] هذا المخطوط الذي يحتوى على ٦٤ ورقة يشتمل على عشرين رسالة ، ويوجد بدار المكتبة الملكية بالقاهرة (مخطوطات الشيعة) رقم ٢٠

[٢] **De sacy : expose , tome I . pp . ocoo . liv**

[٣] **Ibid : expose , tom I , pp , ccoo . lix**

[٤] **Chrestomathie arabe , tome ii . pp . 209 – 226**

موضوعها، وذكر التاريخ الذي دونت فيه [١]

وسنبحث الان في الأساليب التي اتخذها الخلفاء الفاطميون في سبيل تأييد عقائدهم، والطرق التي انتهجها أشياعهم في هذا السبيل، معتمدين في ذلك علي مخطوط القاهرة ؛ ومنها يتجلى للقارئ ما ادعاه الحاكم من صفات الألوهية. ولا غرو فقد أصبح قسم كبير في القصر مركز حركة الدعوة الفاطمية. وفي هذا المكان كان داعي الدعاة وأعوانه يلقنون الناس تعاليم هذا المذهب في أوقات منتظمة.

أما اللهجة التي كتبت بها هذه الرسائل، فإنها تدلنا علي ما توقعه الفاطميون من مقاومة الأهلين، وما تنبأوا به أيضا من معارضة من الجانب الأعظم من المصريين. يؤيد هذا القول ما جاء بهذه الرسائل عن الحاكم وأهل مصر : " وتنزه عن سوء الظنون ؛ إشارة ذلك أنه لما غاب، ظنوا به ظن السوء من العجز والعدم والظلم "[٢]

هذا، وقد قرئت هذه الرسائل بعد أن قام الدرزي (حمزة بن علي) بتعلم العقائد الجديدة التي انتحلها الحاكم الذي ظهر سنة ٤٠٨ هـ (١٠١٧ م) بصورة التوحيد، علي ما يتبين من هذه العبارة : " فلما غاب مولانا الحاكم بصورة التوحيد انكشف المكنون : الإشارة إلى قيامه في الكشف سنة ثمان وأربعمائة، انكشف المكنون : الإشارة إلى قيامه في الكشف سنة ثمان وأربعمائة، انكشف المكنون، يعني التوحيد، واستمر مكنونا من غيبة

---

(١) **Expose , tome I . pp . coooxxii – cooooxxxii**

قد ذكرت هذه التواريخ حسب تقويم حمزة بن على ولى الزمان وقائم الزمان (**de sacy : chrestomathie arabe tome ii . p . 246 , n . 71) .**

والسنة الأولى من تقويم حمزة توافق سنة ٤٠٨ هـ (**tome ii . p . 246 , n . 73**) ز ويسمى حمزة أيضا الامام حمزة بن على . المكتبة الملكية بالقاهرة ، مخطوط ٢٠ ، ورقة ٢١ (ب) . وهذه الألقاب خاصة بقائم الزمان ووليه ، أعني حمزة بن على ، قد ذكرت بوضوح في الرسالة التاسعة عشرة من المخطوط الموجود بالقاهرة ، ورقة ٤٩ ب) حيث يقول : " توسلت اليه بوليه قائم الزمان حمزة بن على " .

(٢) رسائل الحاكم بأمر الله , مخطوطات الشيعة , المكتبة الملكية بالقاهرة , مخطوط ٢٠ , ورقة ٤٣

الباري " [1].

وهذه الرسائل قد بنيت علي آراء فلسفية مصدرها عقائد الباطنية والمعتزلة ؛ لأن الفلسفة، وهي أساس الشريعة عند الفاطميين، قد حلت في عهد الحاكم محل القرآن والسنة. ومما تختص به هذه الرسائل ما جاء فيها من أن داعي الدعاة كان يعاونه مائة وواحد وخمسون داعيا، فضلا عما قام به المؤذنون وخطباء المساجد في سبيل نشر الدعوة الفاطمية [2].

والرسالة الأولي ليس لها عنوان يدل علي موضوعها ؛ ولكنها بمثابة تمهيد لما تلاها من الرسائل ؛ وهي تعرض للكلام علي ما استجد في عهد الحاكم من عقائد. ويقوم كاتب هذه الرسالة : " العالم ناطق الشريعة، لأن ناطق الحقيقة الإمام ؛ وهو مبدع الكل، يعني العشرة : الخمسة [3] حدود ([4] الحق (الحقيقة)، والخمسة حدود الشريعة "، وعال

---

(1) يدل لفظ "كشف " علي الفترة التي كانت بين اختفاء الحاكم إلى وقت دعوته واظهار دينه الجديد للناس . وقد ذكر دي ساسي (CHRESTOMATHIE arabe , tome II . p . 275 , n 144) أن هذه الفترة يعبر عنها في كتب الدروز بالكشف .

(2) شرحه , ورقة ٤ (ب) .

(3) كان الخمسة حدود الحق عبد الرحيم ولى عهد الخليفة ، وعباس ، وختكين الداعي ، وجعفر ، وأحمد بن العوام قاضى القضاة . المكتبة الملكية بالقاهرة ، مخطوط ٢٠ ، ورقة ٢ (ب) . وذكر دي ساسي عن الرسالة السابعة عشرة (المكتبة الاهلية بباريس ، مخطوط ١٤٠٨) ، وعنوانها " التنزيه " ، أن الخمسة حدود هم : عبدالرحيم بن الياس ، وعباس بن شعيب ، والداعي ختكين ، وجعفر الملقب بالضرير ، وأحمد بن العوام قاضى القضاة (expose , tome I , pp . ccclxxii seq ..)

(4) ذكر دي ساسي أن كلمة " حدود " في اصطلاحات الدروز ز الدينية تشير – بطريق المجاز لما جاء في القرآن – إلى الحدود التي لها السلطة الدينية حسب أصول هذا المذهب . وعلى ذلك ، فان " إقامة الحدود " معناها الشرائع التي أوجدها الأئمة (الحدود) في طائفة الدروز (chrestomathie , tome ii . pp . 199 , 242 , n . 45) . وقد أوضح دي ساسي في كتابه chrestomathie arabe , tome ii . p 275 , n . 147) كلمة حدود ، فزعم أن المؤلف يشير بقوله " شرح الحدود " الى الرسالة الثامنة عشرة من المخطوط المرجود بالمكتبة الملكية (اذ ذاك) بباريس تحت رقم ١٥٨١ (ancient fonds , no . 1415 , bibliotheqe nationale) ، وعنوانها : " ذكر معرفة الإمام وأسماء الحدود العلوية روحانيا وجسمانيا " . .

علتهم [١] ؛ والعلة العقلي الكلي، ومصدر صورهم الدينية [٢].

" أما موضوع هذا الكتاب، فهو بيان الدقائق بالاختصار في إبطال قول من قال إن مولانا هو الناطق والأساس و ثم ذكر هذه الحجج العظيمة التي هي السجلات "[٣].

بعد ذلك يفسر لنا الداعي كلمة إمام التي تقول مقام " ذو معة "، وهو العقل الكلي الذي يربي الدعاة، وعنه يتلقون العلم (لأن السابق الحقيقي هو الإمام الأعظم... الذي هو العقل الكلي... أن الامام الكلي هو الذي يربي الدعاة... يأخذون العلم، يعني الدعاة).

وفي الرسالة الثانية (رسالة النساء) يؤكد الداعي خطر تعدد الآلهة، ويدافع عن ضرورة الاعتقاد بوحدانية الحاكم (الخالق الرازق) [٤] و (علام الغيوب) [١] ؛ ثم يستطرد الداعي

---

[١].– ذكر دي ساسي (**chrestomathie , tome ii . pp . 219 , 274 , 274 , n. 136**) أن حمزة بن على هو علة الوجود . ويسمى في شرائع الموحدين تارة بالعقل ، وتارة أخرى بعلة العلل ؛ وتدين له بوجودها الأشياء كافة . ويزيد دي ساسي هذه المسألة بيانا فيقول : إن الحاكم هو الاله الأعلى ، ويسمى أحيانا العلة الفعالة لعلة العلل (**la cause officiente de la cause des causes**) بيد أن دي ساسي لم يجزم بذلك حيث يقول : " إن هذه الآراء ليست خاصة بالدروز ، بل قالها بها الإسماعيليون أيضا ؛ وأعتقد انها شائعة عند من يقولون بما وراء الطبيعة بين بعض الطوائف الإسماعيلية " .

[٢]– – المكتبة الملكية بالقاهرة ، مخطوط ٢٠ ، ورقة ١١ .

[٣] قال دي ساسي إن النبي أن الناطق يخلفه سبعة من الأئمة ، أولهم يدعى الأساس أو السوس ، وهو خليل الناطق والأمين على تعاليمه في الزهد ،والناطق والأساس هما مُحَمَّد وعلى ، وهما خادما الحاكم ليس غير . وينوب عنهما عبدالرحيم بن الياس وعباس بن شعيب . ويزيد دي ساسي هذا الموضوع بيانا فيقول : ونقرأ عبارة تستحق الذكر في كتاب آخر ألفه حمزة في نفس هذه السنة (٤٠٩ هـ) وعنوانه رسالة التنزيه (أي تنزيه الحاكم) . ويريد هذا الكتاب أن يدلل على أن مولانا – أي الحاكم – لا يشترك في شيء ما مع الناطق والأساس ، وهما مُحَمَّد وعلى ، بل ولا في عقائدهما ن أي الإسلام أو التنزيل ، وعقيدة مولانا المجازية التي يمثلها عبدالرحيم بن الياس وعباس بن شعيب – (**dans un autre ecrit de hamzadate de la meme annee – a , h . 409 et intitule "** رسالة التنزيه **" ,**
on lit un passage ramaruable . l'autour veut prouver que notre seigneur , c'est – a – dire le mahometismeblitteral ou tenzil , et la doctrine allegorique , serviteur de notre – soigneur , representes par abd- arrahim , fils d'fils d'elyas , et abbas , fils de schouib (cherstomathie arabe , tome ii p . 238 , n . 23
ويشير المؤلف في رسالة النساء (المكتبة الملكية بالقاهرة ، مخطوط ٢٠ ورقة ١٠ (ب) الى عبد الرحمن وعباس كالناطق والأساس . شرحه ورقة (ا ب)

[٤] رسائل الحاكم بأمر الله , ورقة ١٢ (ب)

في الكلام فيقول : " والمراد بالدين هنا المجالس والسجلات " [٢]. ومن هذا يتبين أن الدين الاسلامي قد عطل في عهد الحاكم، وعمل بدين جديد مبني علي التعاليم التي قام بها دعاته و التي شرحها الشراح في مجالس الحكمة، وفي الوثائق التي قامت مقام القرآن والحديث.

والرسالة الثانية تبين لنا أيضا أن مجالس الحكمة إنما كانت تنعقد لتعليم طائفة من الناس أصول مذهب الباطنية، لكي يتجنبوا بذلك معارضة السواد الأعظم من المصريين. ومع ذلك فانه يظهر لنا من نفس هذا الكتاب أن روح السخط قد ظهرت بين المصريين، بل ولم تلاق هذه السياسة قبولا عند قاضي القضاة عبد العزيز بن النعمان، فكان نصيبه أن عزله الخليفة سنة **٣٩٨** هـ (**١٠٠٧** م)، وأقر مكانه مالك بن سعيد.

وكان من عزل ابن النعمان أن لعن في هذه الرسالة. علي أن الفارقي لم يصادف من النجاح شيئا، فلحق بسلفه بحجة أنه لم يعتقد بصحة مذهب الحاكم، ولأنه اغتصب أموال اليتامى. ويتبين ذلك مما جاء في هذه الرسالة حيث يقول الداعي الذي كتبها :

" لأن المجالس الباطنية لا تقرأ علي كل الناس "... وعبد العزيز كان قاضي مصر، ثم بعده تولي مالك بن سعيد قضاء مصر... فنظرنا إلى قولهم تيس من تيوس بني أمية... وجدناه عبد العزيز مُحَمَّد بن النعمان... ولد عبد العزيز في أيام العزيز أيضا إلى أيام الحاكم، وعزله سنة ثمان وتسعين وثلاثمائة، وولي مكانه مالك بن سعيد آكل أموال اليتامى والمتبرئ من دين الرحمن " [٣]

ولقد كان من أثر هذه السياسة التي سار عليها الحاكم ان أطلت مجالس الحكمة سنة **٤٠٣** هـ (**١٠١٢** م) [٤]. نعم ! قد حال دون نجاح الفاطميين ما كان من مقاومة السواد الأعظم من الأهلين واستهجان فريق من علية القوم لهم. ولا عجب في ذلك ؛ فقد بلغت

---

[١] شرحه ورقة ١١ (ب) .

[٢] شرحه ورقة ١٠ (ب)

[٣] شرحه ورقة ٨ (ب) .

[٤] المقريزي (خطط ج ١ ص ٤٥٨)

الجرأة بالحاكم أن أبطل الأديان كافة، وطلب إلى الناس اعتناق مذهبه الذي بني عليه هذه الكتب التي كانت تتلي في مجالس الحكمة

وقد جاهر دعاة الفاطميين بهذا المذهب الجديد (وانقطعت المجالس... أهل التأويل والأقاويل الباطلة من جهة المقام جل ذكره والكتاب...[1] وهذه الفصول التي تقدمت جميعها تشير إلى بطلان الشرائع ودحض الألوهية من الأساس ([2]... والمراد بالدين هنا المجالس والسجلات [3].

أما الرسالة الثالثة عشرة وعنوانها " المناجاة "، فهي تشتمل علي الدعاء الذي كان يقوله المؤمنون في مجلس الحكمة. أما الداعي فانه يبث الدعوة بين الناس، مؤيدا ألوهية الحاكم وسر مدينته (سر مدي الثبات) [4]، وغيرها من الصفات التي هي من صفات الله سبحانه.

فكأن الحاكم في نظر هذا الداعي هو رب العرش [5] (فأنت صاحب العاجلة، أي الدنيا، واليك حكم الآجلة، أي الآخرة) [6]، و (باري البرايا) [7]. ولا شك في أن غرض الداعي كان حث الناس علي اعتناق مذهب الحاكم ونبذ غيره من المذاهب (التي هي باطل وزور) [8].

والرسالة الرابعة عشرة، وعنوانها " الدعاء "، كتبت بنفس الأسلوب والروح الذي كتب به ما سبقها من الرسائل، وفيها يوضح الداعي الاصطلاحات التي كان يلقنها من يدين بمذهب الحاكم. وبحذف هذه الشروح المطولة التي لا حاجة إلى نقلها لطولها يصبح

---

[1] المكتبة الملكية بالقاهرة , مخطوط ٢٠ ورقة ٨ (ب) .
[2] شرحه , ورقة ١٠ (ا)
[3] شرحه , ورقة ١٠ (ب)
[4] شرحه , ورقة ٢٠ (ا)
[5] شرحه , ورقة ٢٢ (ا)
[6]. شرحه , ورقة ٢٥ (ا)
[7] شرحه , ورقة ٢٧ (ب)
[8] شرحه , ورقة ٢١ ا وما يتبعها

الدعاء كما يأتي :

"سبحانك يا مبدع الأشياء، يا مخترع العالمين، يا صفوة العالمين ! سبحانك يا من تعزز بالكبرياء والجبروت ! سبحانك يا من تعاظم أن يكون كمثله شيء، أو يلحقه وصف واصف ! سبحانك يا من تعالي عن المساوئ ! سبحانك يا من لا تلحقه صفة ولا له صفة ! شهدت وآمنت وأيقنت بأنك الله المبدع العزيز الواحد الأحد، وأنك باري لا باري لك، وخالق لا ضد لك، وقادر لا مقدور عليك، وحاكم لا محكوم عليك. أسالك يا مولانا وسيدنا بعظيم جلال قدرتك ونور سلطانك ؛ أسالك يا مولانا بأول شيء ظهر من توحيدك وتنزيهك ونفي التشبيه عنك، أن تمن علي بخالص معرفتك وحميد طاعتك، والبلوغ إلى مرضاتك والثبات علي أمرك والتجنب لنهيك، والصبر علي ما ينالني في عبادتك من شدائد المحن والبلوي. يا أرحم الراحمين ! بحقك علي من يصرف هويته عن تسبيحك وتمجيدك إلى سواك. لا أصرف ذاتي إلى غيرك، تائب اليك معترف بألوهيتك، متبرئ من كل عدو لك ؛ لا شريك لك ولا دافع لأمرك ؛ تجاوز عني واغفر ذنبي، واجعل معرفتك التي منت بها علي مخلدة في نفسي. لا إله غيرك ولا معبود سواك (١) ".

وهكذا كان الدعاء الذي قام به الداعي في القصر والمؤمنون بوحدانية الحاكم. ومع ذلك فقد أنكر كثير من الناس هذه الصفات، علي ما يشير اليه كاتب هذه الرسالة. بيد أن هذا الكاتب قد ذكر أن الحاكم ظهر في صورة إنسان، وتسمي باسم إنسان، وقام بأفعال البشر، ثم تجرد عن صفاتهم. وأخيرا دعا الناس إلى الاعتقاد بألوهيته وتنزيهه و اذ صار البرهان المطلق. ويتضح ذلك من هذه العبارة التي ننقلها بنصها :

" يعني أنهم أنكروا بعد أن ظهرت الصورة عند الإثبات المحض، يعني وجوده في صورة مرئية ظاهرة مكشوفة حيث صورنا ؛ وتسمي بأسمائنا وظهر بجميع أفعالنا، ثم تجرد عن صفات البشر، ودعا الخلق إلى معرفته ووجوده وتنزيهه، فصار إثباتا محضا، أي خالصا(٢)"

(١) رسائل الحاكم بأمر الله , ص ٢٧ (ب) – ٣١ (ا)

(٢) شرحه , ورقة ٣١ (ب)

الباب الرابع

الدعاية الأدبية

تشجيع الشعراء والعلماء والكتاب بالصلاة والمناصب

الكتاب والعلماء

لقد عني الفاطميون عناية عظيمة بالشعراء والكتاب وغيرهم من رجال الادب لنشر مذهبهم وإذاعة ما بلغته خلافتهم من أبهة وسلطان. وكان من بين هؤلاء عدد غير قليل من الكتاب ومن طبقة الموظفين المتصلين بديوان سر الخليفة (السكرتيرية) أو بدار العلم ؛ وكان الخلفاء يجزلون لهم الأموال الكثيرة ويجودون عليهم بالخلع.

ولقد أتي لنا القلقشندي ببيان رواتب الموظفين، ومنه يتبين لنا أن الكتاب كانوا يتقاضون رواتب كبيرة، فضلا عما كان يغدق عليهم من هبات ويدفع لهم من ارزاق. فكان صاحب الانشاء والمكاتبات يتقاضي راتبا شهريا قدره مائة وخمسون دينارا ؛ وكان يتقاضي كل كاتب من الكتاب الذين يعملون تحت ادارته ثلاثين دينارا [1].

ويلي صاحب الانشاء [2]في الرتبة صاحب القلم الدقيق الذي كان يوقع علي المظام ويجالس الخليفة في خلوته، فيذاكره ما يحتاج اليه من كتاب الله أو سير الأنبياء والخلفاء وعظماء الرجال، ويحدثه عن مكارم الأخلاق ويعلمه تجويد الخط. وكان راتبه مائة دينار في كل شهر.

واذا جلس وضعت أمامه دواة محلاة بالذهب والفضة ؛ فاذا انتهي المجلس ألقي في

---

[1] القلقشندي : صبح الأعشى (ج ٣ ص ٤٩٠)

[2] زاد القلقشندي علي ذلك أن هذا الكاتب كان يطلق عليه أيضا اسم صاحب الدست الشريف ؛ ومن واجبانه سلم المكاتبات الواردة , ثم عوضها علي الخليفة لبحثها واعتهادها . ويستشيره الخليفة في أكثر أموره (ج ٣ ص ٤٩٠) . وقد ذكر ابن ميسر (ص ١١٣) أن كاتب الانشاء كان يطلق عليه كاتب السر , وأن أبا الفرج مُحَمَّد بن جعفر المغربي كان أول من تلقب بهذا اللقب في عهد المستنصر الفاطمي سنة ٤٥٤ هـ (١١٥٩ م) .

هذه الدواة كاغدة فيها عشرة دنانير، وقرطاس فيه ثلاثة مثاقيل ند (ممزوج بالمسك) ليتبخر به عند دخوله علي الخليفة في المرة التالية.

وفي الشطر الأخير من الخلافة الفاطمية، حين اصبح الوزير صاحب السيف والقلم، كان يجلس الوزير للمظالم، والي جانبه صاحب القلم الدقيق يقوم مقام كاتب السر، وكانت له سلطة التوقيع تحت توقيع الوزير، بل والنظر في الشكاوي فبل انعقاد الجلسة [١].

ويلي صاحب القلم الدقيق في الرتبة صاحب القلم الجليل ([٢]، ومهمته تسلم رقاع المظالم من صاحب القلم الدقيق ووضعها في الصيغة القانونية قبل أن تعرض علي الخليفة للتصديق عليها [٣].

وكان الكتاب يختارون عادة ممن اشتهروا بسعة الاطلاع في الأدب، ويمتازون بالمقدرة في فن الانشاء، كما كانوا من كبار رجال الدولة ممن تجري عليهم الصلات والهبات.

الشعراء

(ا) الشعراء في الصدر الأول من عهد الفاطميين

(٣٦٢ – ٤٦٦ هـ، ٩٧٢ – ١٠٧٣ م)

(١) الشعراء في عهد المعز :

أكثر رجال الأدب في قول الشعر لمدح الخلفاء الفاطميين، لما كان يغدقه هؤلاء من العطايا الجزيلة والخلع والجوائز والأرزاق المخصصة لهم. ولقد دفعت الرغبة في الحصول علي هذه الجوائز والهبات بالشعراء من أهل السنة إلى محاكاة الشعراء الشيعيين، فاتصل

---

[١] القلقشندي (ج ٣ ص ٤٩١)

[٢]. ولو أن هذه العبارة تدل علي أن هذا الموظف كان أعلي في المرتبة من صاحب القلم الدقيق , الا أن مرتبته كانت في الواقع أدني من مرتبة صاحب القلم الدقيق , إذ كانت تسمي الخدمة الصغرى

[٣] شرحه (ج ٣ ص ٤٩١ و ٤٩٢)

بعضهم ببلاط الخلفاء الفاطميين. علي أن الشعراء السنيين، وان كانوا في مدحهم أكثر اعتدالا من الشيعيين كابن هانئ وغيره، فقد انتشر الغلو في شعرهم للإشادة بمجد الفاطميين. وكثيرا ما دفع بهم هذا الغلو إلى الكفر والإلحاد.

ولما كان ابن هانئ [١] أول من ضرب المثل في ذلك لغيره من الشعراء الذين جاءوا بعده، راينا أن نأتي بشيء من سيرته، عسي أن نتبين تلك العناية العظيمة بالشعر والشعراء التي كانت تظهر لدي الخلفاء الفاطميين في نشر دعوتهم ونجاح سياستهم. ولقد ناط المعز بابن هانئ الآمال الكبار، عساه أن يحاكي الشعراء العباسيين ويبذهم. يؤيد هذا القول أنه لما بلغت المعز وفاة ابن هانئ وهو بمصر، أسف عليه أسفا شديدا وقال : " هذا الرجل كنا نرجو أن نفاخر به شعراء المشرق فلم يقدر لنا ذلك " [٢].

ولا شك في أن المعز قد أصاب فيما قاله ؛ لأننا إذا تصفحنا ديوان ابن هانئ الذي يقع في مائتين وست وأربعين صفحة، ألفينا أن أكثره قد نظم في مدح المعز وأسرته. وليس لدينا دليل تاريخي علي أن ابن هانئ قد اعتنق مبادئ المذهب الشيعي في صباه. غير أنه

---

[١] أبو القاسم , ويلقب بأبي الحسن أيضا , هو مُحَّد بن هاني , من قبيلة أزد . ولد في إشبيلية في بلاد الأندلس فقضي بها أيام صباه . وكان أبوه هاني من قرية من قري المهدية في شمال إفريقية (في بلاد تونس الآن) . وقد تجلت موهبته في الشعر والفلسفة , وانتقل إلى الأندلس , فولد له مُحَّد الذي اتصل فيما بعد بصاحب إشبيلية وحظي عنده , وانهمك في الملاذ واتهم بمذهب الفلاسفة , ولما اشتهر عنه ذلك , نقم عليه أهل هذه المدينة وأخذوا يسيئون الظن بالملك بسببه , حتي اتهمه الناس باعتناق مذهب هانئ , فأشار عليه الملك بالبعد عن مذهب المدينة ريثما ينسي الناس ما كان كم أخباره . فرحل عنها وله من العمر سبع وعشرون سنة (سنة ٣٤٧ أو ٣٥٣ هـ , ٩٥٨ أو ٩٦٤ م) , فلقي جوهرا القائد ومدحه , ثم ارتحل إلى جعفر ويحي ابن علي بن أحمد بن حمدان الأندلسي أمير المسيلة وإقليم الزاب , ومن أنصار العلم والعلماء , فبالغا في إكرامه والاحسان إليه , فنمي خيره إلى المعز فطلبه منها . فلما وفد عليه بالغ في الانعام عليه . ثم توجه المعز إلى الديار المصرية , فشيعه ابن هانئ ورجع إلى المغرب لأخذ عياله واللحاق بمولاه . وقد أعد ابن هانئ معداته للرحيل وسار يريد مصر . فلما وصل برقة أضافة شخص من أهليها , فأقام عنده أياما في مجالس الأنس والطرب . ويقول ابن خلكان إنهم عر بدورا عليه فقتلوه .وفي رواية أخري أنه خرج سكران , فنام في الطريق فوجد ميتا في الصباح , فلم يقف الناس علي سبب وفاته . وكان ذلك صبيحة الأربعاء الثالث والعشرين من رجب سنة ٣٦٢ (٣٠ أبريل سنة ٩٧٣) , وعمره ست وثلاثون سنة , وقيل اثنتان وأربعون (ياقوت – إرشاد (ج ٧ ص ١٢٦ و ١٢٧) , ابن خلكان (ج ٢ ص ٥) , المقري – نفح الطيب (ج ٢ ص ١٠١٠) , أبو المحاسن – طبعة جو ينبول (ج ٢ ص ٤٣٧ – ٤٣٨)

[٢] ابن خلكان (ج ٢ ص ٥)

لا بد أن تكون نفسه قد أشربت روح العطف علي هذه العقائد ؛ يدلك علي هذا ما كان من إظهار هذه العواطف حال وصوله إلى بلاد المغرب.

ويظهر لنا أن ابن هاني أصبح شيعيا متحمسا لهذا المذهب استدرارا لكرمهم، لا حبا في عقائدهم واستمساكا بها، حتي لقد ذهب به هذا التحمس إلى أن ينسب لحسامه من صفات التشيع ما نسبه إلى نفسه. وقد تكلم عن ذلك في هذين البيتين :

لي صـــارم وهـــو شـــيعي كحاملـــه | يكـــاد يســـبق كـــراتي إلى البطـــل
إذا المعـــز معـــز الـــدين ســـلطه | لم يرتقـــب بالمنـــايا مـــدة الأجـــل [1]

وربما كان أمر اعتناقه المذهب الشيعي راجعا إلى ما لقيه من عطف المعز وكرمه كما يتبين لنا من إحدى قصائده في مدح المعز، حيث يذكر لنا كيف أخذ يتلمس السبيل إلى المعز طمعا في صلاته وعطاياه، فيقول :

٢٧ وطفقت أسال عن أغر [2] محجل [3] | فـــأذا الأنام جبلـــة [4] دهمـــاء [5]
٢٨ حـــتي دفعـــت إلى المعـــز خليفـــة | فعلمـــــت أن المطلـــــب الخلفـــــاء
٢٩ جود كأن اليم [6] فيه نفاثة [7] | وكأنمـــا الـــدنيا عليـــه غثـــاء [8]

ويقول ابن هانئ في قصيدة أخري رائعة، قيل إنها أول ما أنشد بالقيروان في مدح المعز :

٢١ قـد كـان رشـح حديـده أجـلا ومـا | صـــاغت مضـــاربه الرقـــاق قيـــون [9]

---

[1] ديوان ابن هانئ (ص ١٨٢

[2] الأغر السيد في قومه

[3] التحجيل بياض يكون في قوائم الفرس , وقيل هو أن يكون البياض في ثلاث منهن دون الأخري في رجل ويدين

[4] الجبلة بمعني الطبيعة والخليقة والغريزة

[5] من الدهمة وهي السواد

[6] أليم البحر

[7] النفاثة البصقة

[8] الغثاء الزبد – ديوان ابن هانئ (ص ٧)

[9] القيون الحدادون

ملاحظة : الأرقام التي علي يمين الأبيات تشير إلى ترتيبها في قصائدها .

٢٢ وكأنما يلقي الضريبة دونه | بأس المعز أو اسمه المخزون
٢٣ هذا معد والخلائق كلها | هذا المعز متوجا والدين
٢٤ هذا ضمير النشأة الأولي التي | بدأ الاله وغيبها المكنون
٣٨ وصواهل، لا الهضب يوم مغارها | هضب، ولا البيض الحزون خرون
٤٢ عرفت بساعة سبقها لا أنها | علقت بها يوم الرهان عيون
٤٣ وأجل علم البرق فيها أنها | مرت بجانحتيه وهي ظنون
٤٤ في الغيث شبه من نداك كأنما | مسحت علي الانواء منك يمين
٤٥ أما الغني فهو الذي أوليتنا | فكأن جودك بالخلود رهين
٥١ وأذن له يغرق أمية معلنا | ما كل مأذون له مأذون
٧٦ النور أنت وكل نور ظلمة | والفوق أنت وكل فوق دون
٨٣ فارزق عبادك منك فضل شفاعة | وأقرب بهم زلفي فأنت مكين ([١])

وعلي هذا النحو نظلم ابن هاني مدائحه في المعز معليا مآثره مشيدا بأحقية الفاطميين بالخلافة..وقد غلا في ذلك فنسب إلى مولاه بعض صفات النبوة والألوهية. وبهذا مهد ابن هانئ السبيل لمن جاء بعده من الشعراء. يدل علي ذلك هذه القصيدة الطويلة التي أنشدها في حضرة المعز، تنقل منها هذه الأبيات :

٣١ هو علة الدنيا ومن خلقت له | ولعلة ما كانت الأشياء
٦٨ ولك الجواري المنشآت مواخرا[٢] | تجري بأمرك والرياح رخاء ([٣])
٨٦ فعنت لك الأبصار وانقادت لك ال | أقدار واستحيت لك الأنواء
٩٩ لا تسألن عن الزمان فانه | في راحتيك يدور حيث تشاء ([٤])

---

[١] ديوان ابن هانئ (ص ٢١١ – ٢١٦)

صدرنا ناشر ديوان ابن هانئ هذه القصيدة بمقدمة ننقلها فما يلي :

" وقيل إن هذه القصيدة أول ما أنشده بالقيروان , وأنه (المعز) أمر له بدست قيمته ستة آلاف دينار , فقال له : " يا أمير المؤمنين ! مالي موضع يسع الدست اذا بسط " , فأمر له ببناء قصر , فغرم عليه ستة آلاف دينار , وحمل اليه آلة تشاكل القصر والدست , قيمتها ثلاثة آلا ف دينار "

[٢] مقتبسة من القرآن سورة ٥٥ أية ٢٤

[٣] شرحه سورة ٣٧ آية ٣٦

[٤] ديوان ابن هانئ (ص ٧ – ١١)

هذا، ولم يفتر ابن هانئ عن مواصلة مدحه للمعز ؛ ولكنا رأيناه يفرق فيجعله في منزلة عيسي ومحمَّد، بل وينسب اليه بعض صفات الألوهية، كما يتضح ذلك في قصيدة أخري حيث يقول :

١٩ تــدعوه منتقمــا عزيــزا قــادرا   غفــار موبقــة الــذنوب صــفوحا
٥٨ أقسـمت لـولا أن دعيـت خليفـة   لـدعيت مـن بعـد المسـيح مسـيحا
٥٩ شهدت بمفخرك السموات العلي   وتنــزل القــرآن فيــك مســيحا (١)

وفي قصيدة أخري يصف المعز فيشبهه بمحمد، ويشبه أشياعه بأنصار النبي حيث يقول :

١ مـا شـئت لا مـا شـاءت الأقـدار   فــاحكم فأنــت الواحــد القهــار
٢ وكأنمــــا أنـــت النـــبي محمَّد   وكأنمــــا أنصــــارك الأنصـــــار
٦ هـذا الـذي تجـدي شـفاعته غـدا   حقــا وتخمــد أن تــراه النــار (٢)

ولم يفت ابن هانئ أن يعلي من شأن الانتصار الذي حازته جيوش المعز علي جند البيزنطيين في سورية حيث يقول :

١ يــوم عــريض في الفخــار طويــل   مــا تنقضــي غــرر لــه وحجــول
٢٠ لـو أبصـرتك الـروم يومئـذ درت   أن الإلــــه بمــــا تشــــاء كفيــــل
٢١ يا ليت شعري عن مقاولهم اذا   سمعـت بـذلك عنـك كيـف تقـول
٢٢ ودوا ودادا أن ذلــك لم يكــن   صــــدقا وكــــل ثاكــــل مثكــــول
٢٥ قل للدمستق مور الجمع الذي   مــا أصــدرته لــه قنـا (٣) ونصــول
٢٦ سـل رهـط منويـل وأنـت غررتـه   في أي معركــــة ثــــوي منويــــل
٢٧ منـع الجنـود مـن القفـول رواجعا   تبــــا لـــــه بالمثنيـــــات قفـــــول
١٠٣ مـن يهتـدي دون المعـز خليفـة   إن الهدايــــة دونهــــا تضــــليل (٤)

---

(١) ديوان ابن هانئ (ص ٣٤ – ٣٦)
(٢) شرحه (ص ٩٦)
(٣) القنا الرمح
(٤) شرحه (ص ١٤٧ – ١٥٣)

ومما قاله في عيد النحر يمتدح المعز ويذكر هذا اليد :

١٩ هذا ابن وحي الله تأخذ هديها — عنه الملائك بكرة وأصيلا
٣٠ ذعرت مواكبة الجبال فأعلنت — هضباتها التكبير والتهليلا
١٠٨ وعلمت من مكنون سر الله ما — لم يؤت في الملكوت ميكائيلا
١١٢ لو كان آتي الخلق ما أوتينه — لم يخلق التشبيه والتمثيلا [1]

هذا و ولقد بلغ تمجيد ابن هانئ للمعز أقصي حد يمكن أن نتصور، حيث ينسب اليه القدرة علي إتيان المعجزات فيقول :

١٤ فقد شهدت له بالمعجزات كما — شهدت لله بالتوحيد والأزل[2]

وبلغت علي أن ابن هانئ تأثر في عقائد بآراء الفلاسفة اليونان، وأن كرم المعز أوحي اليه أن يشيد بذكر مآثر الفاطميين، وأن يأخذ بنصيبه فبما قاموا به في سبيل نشر دعوتهم، كما يتجلى ذلك في هذين البيتين من قصيدة قد تكون آخر ما نظمه هذا الشاعر، وقد بعث بها إلى المعز وهو بمصر فيقول :

٣١ و روح هد في جسم نور يمده — شعاع من الأعلى الذي لم يجسم
٣٦ فأقسم لو لم يأخذ الناس وصفه — عن الله لم يعقل ولم يتوهم [3]

(٢) الشعراء في عهد العزيز والحاكم

(٣٦٦ – ٤١١هـ، ٩٧٥ – ١٠١٢ م) :

لقد قدمنا لك ما كان من أثر هذه الأموال التي كان يغدقها الوزير ابن كلس والخليفة العزيز علي الشعراء، مما دفع بهم إلى نظم القصائد الرائعة. ولآن تأتي بأمثلة قليلة تبين أعمالهم في هذا السبيل :

من هؤلاء أبو عبد الله مُحَمَّد بن أبي الجرع، وهو من الشعراء الذين عاشوا في زمن العزيز الفاطمي. ولقد بلغ هذا الشاعر مرة أن الوزير كان يشكو من ألم في يده ابن أبي

[1] ديوان ابن هانئ (ص ١٥٣ – ١٦٠)
[2] شرحه ص ١٦٤
[3] شرحه (ص ١٨٨)

قصيدة يظهر فيها شديد حزنه لمرض الوزير، ويصف ما كان لمنح العزيز عليه من أثر. وفي ذلك يقول :

يد الوزير هي الدنيا فان ألمت رأيت في كل شيء ذلك الألما
تأمل الملك وانظر فرط علته من أجله واسأل القرطاس والقلما
وشاهد البيض في الأغماد حائمة إلى العدا، وكثيرا ما روين دما
وأنفس الناس بالشكوى قد اتصلت كأنما أشعرت من أجله سقما
هل ينهض المجد الا أن يؤيده ساق تقدم في إنهاضه قدما
لولا العزيز وآراء الوزير معا تحيفتنا خطوب تشعب [١] الأمما
فقل لهذا وهذا أنتما شرف لا أوهن الله ركنيه ولا انهدما
كلاكما لم يزل في الصالحات يدا مبسوطة ولسانا ناطقا وفما
ولا أصابكما أحداث دهركما ولا طوي لكما ما عشتما علما
ولا انمحت عنك يا مولاي عافية فقد محوت بما أوليتني العدما [٢]

يضاف إلى ذلك ما أورده لنا ابن خلكان [٣]، وهو أنه غداة وفاة ابن كلس زار الشعراء قبره، فرثاه مائة شاعر، فأجيز كل منهم.

ولم تقتصر هذه المنح علي الخلفاء والوزراء، بل كان لغيرهم من كبار رجال الدولة يد في ذلك أيضا. ومن هؤلاء القائد الفضل بن صالح، وكان من الأمراء الذين يسيرون في ركاب الخليفة العزيز اذا خرج في الموكب. ولقد نظم أبو القاسم عبد الغفار شاعر الحاكم قصيدة يمدح فيها الفضل، نذكر منها هذه الأبيات :

إنما الفضل غرة في وجوه المدائح
أريحي رياحه عبقات الروائح
كعب الجود كفه بين غاد ورائح

---

(١) تشعب بمعني تصدع
(٢) المقريزي (خطط ج ٢ ص ٧)
(٣) (ج ٢ ص ٤٤٣)

إنمـــــا تصـــــلح الأمـــــو ر بـــــرأي ابـــــن صـــــالح [١]

ومع ذلك فأن ما أظهر الوزراء من جود وكرم لم يكن الا صورة مصغرة لهبات الخلفاء أنفسهم، وعلي الأخص في الصدر الأول من أيام الفاطميين، حين كانت سطوة الخلفاء لا تزال في أشدها. يدلك علي صحة ما نقول هذه الأبيات التي نوردها من هذه القصيدة التي أنشدها الشاعر المشهور أبو حامد الأنطاكي [٢] يمتدح فيها العزيز ووزيره ابن كلس. ومن هذه الأبيات نتبين أن الوزير كان يستمد نفوذه من نفوذ مولاه وتعضيده:

لم يـــدع للعزيـــز في ســـائر الأر ض عـــــدوا إلا وأخمــــد ناره
كـــل يـــوم لـــه علـــي نـــوب الـــده روكـــر الخطـــوب بالبـــذل غـــاره
ذو يـــد شـــأنها الفـــرار مـــن الـــبخ ل وفي حومـــة النـــدي كـــراره
قـــد أقلـــت عـــن العزيـــز عـــداه بالعطـــايا وكثـــرت أنصـــاره
هكـــذا كـــل فاضـــل يـــده تم ي وتضـــحي نفاعـــة ضـــراره
فاســـتجره فلـــيس بأمـــن الا مـــن تفيـــا ظلالـــه واســـتجاره
واذا مـــا رأيتـــه مطرقـــا يـــع مـــل فيمـــا يريـــده أفكـــاره
لم يـــدع بالـــذكاء والـــذهن شـــيئا في ضـــمير الغيـــوب إلا أثاره
لا، ولا موضـــعا مـــن الأرض الا كـــان بالـــرأي مـــدركا أقطـــاره
زاده الله بســـطة وكفـــاه خوفـــه مـــن زمانـــه وحـــذاره [٣]

ولم ينقطع تشجيع الخلفاء للشعراء إلى آخر أيام خلافتهم. ويحدثنا المقريزي [٤] في عبارة شائقة أوردها في سياق كلامه عن المنظرة التي كانت تطل علي بركة الحبش، التي

---

[١] الثعالبي , يتيمة الدهر (ج ١ ص ٣٤٧)

[٢] كان أبو حامد أحمد الأنطاكي من أهل أنطاكية بالقرب من مدينة حلب , وكان من مشهوري الشعراء . وقد تكلم عنه الثعالبي في كتابه " يتيمة الدهر " (ج ١ ص ٢٣٨) فقال : " هو نادرة الزمان وجملة الاحسان .... وهو أحد المداح المجيدين والشعراء المحسنين , هو بالشام كابن حجاج بالعراق " وذكر ابن خلكان أنه أقام بمصر زمانا طويلا , وأن معظم شعره قد نظم في مدح أمرائها ورؤسائها , فمدح من الخلفاء الفاطميين المعز والعزيز والحاكم , وشاد بذكر جوهر وابن كلس وغيرهم . وقد ذكره المسبحي في كتابه " تاريخ مصر " فقال إن وفاته كانت سنة ٣٩٩ هـ (١٠٠٨ – ١٠٠٩ م) – ابن خلكان (ج ١ ص ٤٨ – ٤٩)

[٣] الثعالبي , يتيمة الدهر (ج ١ ص ٢٣٩)

[٤] خطط (ج ١ ص ٤٨٦ – ٤٨٧)

شيدها الخليفة الآمر فيقول : " في هذه المنظرة طاقات، وعليها صور الشعراء، كل شاعر واسمه وبلده. وعلي جانب كل من هذه الطاقات قطعة من القماش، كتب عليها قطعة من شعر الشاعر في المدح. وعلي الجانب الآخر رف لطيف مذهب. فلما دخل الخليفة وقرأ الأشعار، أمر أن توضع علي كل رف صرة مختومة فيها خمسون دينارا، وأن يدخل كل شاعر ويأخذ صرته بيده ".

(٣) الشعراء في عهد الظاهر (٤١١ – ٤٢٧ هـ، ١٠٢٠ – ١٠٣٥ م) :

هكذا كان تشجيع الشعر والشعراء علي يد الفاطميين، مما دفع بكثير من الشعراء إلى هجرة أوطانهم والاستقرار في مصر رجاء التمتع بسخاء الفاطميين ورجال بلاطهم. ولا غرو فانهم لم يلقوا من تشجيع في بلاط الخلفاء العباسيين في بغداد، وقد ذهب ما كان لهم من حول وطول. بيد أن بلاط الفاطميين كان يرحب بمن يفد عليه من الشعراء النابهين، سنيين كانوا أو شيعيين.

فقد كان عبد الوهاب بن نصر المالكي من أهل بغداد، وكان فقيها مالكيا مبرزا، كما كان أديبا وشاعرا. وقد وصفه أبو بكر البغدادي في كتابه " تاريخ بغداد " فقال إنه كان ثقة في الحديث، وانه لم يلق من المالكيين أحدا أفقه منه ([1]). وكان عبد الوهاب هذا من كبار الشعراء الذين تركوا بغداد وارتحلوا إلى القاهرة.

ولقد تولي ابن نصر القضاء ببادرايا وباكسايا، وهما مدينتان تقعان علي مقربة من النهروان. وقد روي ياقوت عن ابن بسام، أنه تولي القضاء أيضا بمدينة إسعرد الواقعة في أرض الجزيرة، علي مقربة من نهر دجلة، علي مسيرة يوم ونصف يوم جنوبي ميافارقين. وخرج في أخريات أيامه إلى مصر بعد أن نبذته بغداد ([2])

ويحدثنا ياقوت أنه في اليوم الذي رحل فيه ابن نصر المالكي عن بغداد، خرج كبار رجالها يودعونه، فقال هذا الفقيه والشاعر الكبير، معبرا عما كان يشعر به من ألم الفراق،

---

[1] ابن خلكان (ج ١ ص ٣٨٢) والكتبي (ج ٢ ص ٢٧)

[2] ياقوت : معجم البلدان , انظر لفظ بغداد

إنه ما فارق هذه المدينة " عن كره لها، بل لأن الأرزاق فيها لم تساعفه "، ثم ختم كلامه بهذه الكلمات : " لو وجدت بين ظهر انيكم رغيفين كل غداة وعشية، ما عدلت عن بلدكم لبلوغ أمنية " ([1])

ولقد أصاب ابن بسام حيث يقول هذه الكلمات التي تنطوي علي غاية الاحتقار : " والخبز يومئذ كل ثلثمائة رطل بدينار. وهذا في غاية الذم لهم، لأنه أراد أن يخبرهم. سقوط (بسقاطة في الأصل) همتهم وخسة نفوسهم " ([2])

وقد أظهر ابن نصر ما كان يخالج نفسه من حزن لمفارقة بغداد في إحدى قصائده، وفيها يودع بلده ويشير إلى هذه الأحوال التي أحاطت برحيله حيث يقول :

سلام علي بغداد من كل منزل — وحق لها مني السلام المضاعف
فوالله ما فارقتها عن قلي ([3]) لها — واني بشطي جانبيها لعارف
ولكنها ضاقت علي برحبها — ولم تكن الأرزاق فيها تساعف
وكانت كخل كنت أهوي دنوه — وأخلاقه اتنأى به وتخالف ([4])

ويصف لنا ابن نصر في قصيدة أخري معيشته في بغداد فيقول :

بغداد دار لأهل المال طيبة — وللمفاليس دار الضنك والضيق
أصبحت فيها مضاعا بين أظهرهم — كأنني مصحف في بيت زنديق ([5])

هكذا كان ما عاناه هذا الفقيه الكبير، والقاضي والشاعر المشهور ؛ فقد بلغت معاملة الناس له إلى هذا الحد من الإهمال، حتي هام علي وجهه في شوارع عاصمة العباسيين، حيران لا يلوي علي شيء. وقد لجأ في النهاية إلى القاهرة عاصمة الخلافة الفاطمية الشيعية واتخذها مقرا ووطنا ثانيا له.

---

(١) بن خلكان (ج ١ ص ٣٨٢)

(٢)(٢) ابن الجوزي , مكتبة بودليان بأكسفورد , مخطوطات بوكوك , القسم الشرقي , مخطوط ٣٧٠ , ورقة ١٦ (ا)

(٣) القلي البغض

(٤) ابن خلكان (ج ١ ص ٣٨٣)

(٥) ياقوت : معجم البلدان , انظر لفظ بغداد .

رحل ابن نصر إلى مصر [١]، واجتاز في طريقه معرة النعمان ([٢]، وبها يومئذ أبو العلاء المعري ؛ فأضافه عنده، ثم أشار إلى هذا الحادث في قصيدته إلى خازن دار العلم ببغداد حيث يقول :

والمـــالكي ابـــن نصـــر زار في ســـفر　　بـــلادنا فحمـــدنا النـــأي والســـفرا
إذا تفقـــه أحيـــا مالكـــا جـــدلا　　وينشر الملك الضليل [٣]إن شعرا ([٤]

ولما وصل إلى مصر، استقبله الناس أحسن استقبال. وقد وصف ذلك ابن خلكان ([٥] في هذه العبارة حيث يقول : " فحمل لواءها، وملأ أرضها وسماءها، واستتبع ساداتها وكبراءها، وتناهت اليه الغرائب وانثالت في يديه الرغائب ". وقد زاد هذا الكاتب فذكر أن ذلك كان في خلافة الظاهر سنة ٤٢٢ هـ (١٠٣٠ م)، وهي نفس السنة التي مات فيها. وذكر لنا ابن خلكان سبب موت ابن نصر فقال : إنه ما كاد يصل مصر حتي مات من أكلة اشتهاها، وقال وهو علي فراش الموت : " لا اله الا الله، إذا عشنا متنا ! ".

(ب) الشعراء في الشطر الأخير من أيام الفاطميين

(٤٦٦ – ٥٦٧ هـ، ١٠٧٣ – ١١٧١ م)

لقد أمدنا كاتب من الكتاب المعاصرين لهذا العهد، وهو عماد الدين الأصفهاني [٦]،

---

[١] أيد ابن الجوزي (مكتبة بودليان لأكسفورد , مخطوطات يوكوك , القسم الشرقي , مخطوط ٣٧٠ , ورقة ١٦ "ا") هذا القول , مستندا إلى ما ذكره ابن عساكر من ابن نصر وصل إلى دمشق في طريقة إلى مصر سنة ٤١٩ هـ . ويظهر لنا عدم صحة هذا القول لأن ابن نصر وصل إلى مصر سنة ٤٢٢ قبل وفاته بقليل . وغير محتمل أن يكون قد أقام وقال : قدم دمشق سنة تسع عشرة وأربعمائة مجتازا إلى مصر "

[٢] هي مدينة من أعمال حمص , وتقع بين مدينتي حلب وحماه

[٣] الملك الضليل لقب لأمرئ القيس الذي عده النبي صلي الله عليه وسلم أشعر الشعراء . وقد روي الكتبي (ج ٢ ص ٢٧) هذه الأبيات الأربعة التي ذكرها في كلامه عن ابن نصر .

[٤] أبو العلاء المعري : ديوان سقط الزند (ص ١٣٤)

[٥] ج ١ ص ٣٨٣

[٦] ولد أبو عبد الله محمد بن الرجاء ... هبة الله الأصفهاني الملقب عماد بأصبهان سنة ٥١٩ هـ (١١٢٥ م) ؛ وكان فقيها شافعي المذهب , تفقه بالمدارس النظامية ببغداد وتخرج فيما , وأتقن المجادلة وفنون الأدب , واتصل بخدمة الوزير عون الدولة بن هبيرة , فأحسن اليه وقربه وشمله بعطفه . فلما توفي الوزير رحل عماد الدين إلى دمشق , فوصلها سنة

بمادة غزيرة استعنا بها في كتابة هذه الكلمة عن أثر الشعراء في الشطر الأخير من أيام الدولة الفاطمية.

علي أن هناك كثيرين من الكتاب المعاصرين غير عماد الدين، من أمثال عمارة اليمني وأسامة بن منقذ، وكانا يتصلان بغيرهما من شعراء هذا العصر بروابط المودة والصداقة. وقد أمدنا كل منهما بمعلومات عن هذا الموضوع. وكذلك الحال مع ابن مسير الذي استقي أخباره من بعض الكتاب المعاصرين للفاطميين.

والعصر الذي يتكلم عنه عماد الدين في كتابه يمكن تقسيمه إلى قسمين :

الأول – ويبحث في الشعراء الذين عاشوا في المدة التي تتخلل سنتي ٤٨٦ و ٥٤٩ هـ (١٠٩٣ – ١١٥٤ م)، وذلك في عهد الخلفاء المستعلي ٤٨٧ – ٤٩٥ (١٠٩٤ – ١١٠١) والآمر ٤٩٥ – ٥٢٤ (١١٠١ – ١١٣٠ م) والحافظ ٥٢٤ – ٥٤٤ هـ (١١٣١ – ١١٤٩ م) والظافر ٥٤٤ – ٥٤٩ هـ (١١٤٩ – ١١٥٤).

الثاني – ويتناول الكلام علي الشعراء الذين عاشوا في عهد الخليفتين الأخيرين من الخلفاء الفاطميين، وهما الفائز ٥٤٩ – ٥٥٥ (١١٥٤ – ١١٦٠ م) والعاضد ٥٥٥ – ٥٦٧ هـ (١١٦٠ – ١١٧١ م).

لقد بينا فيما تقدم أن كثيرين من الشعراء هاجروا إلى مصر رغبة في التمتع بتعضيد الخلفاء الفاطميين ووزرائهم وغيرهم من كبار رجال الدولة، وضربنا لذلك مثلا هذا الشاعر الكبير عبد الوهاب بن نصر الملكي. ولقد أمدنا عماد الدين الأصفهاني بفوائد عظيمة عن غير من ذكرنا من الشعراء الذين غادروا بلادهم إلى مصر فاتخذوها دار اقامة.

---

٥٥٢ هـ (١١٦٥ م) , وهناك عهد اليه بادارة البريد . وفي سنة ٥٦٧ هـ (١١٧١ م), فوض اليه التدريس بالمدرسة في دمشق . فلما توفي نور الدين ذهب إلى الموصل حيث مرض بها مرضا شديدا , وبقي فيها سنة ٥٧٠ هـ (١١٧٤ م) . ولما عاد إلى دمشق , رحل إلى حلب واتصل بخدمة صلاح الدين , فحاز ثقته , ولما توفي صلاح الدين عاد إلى دمشق , وكرس بقية حياته علي الأدب حتي توفي سنة ٥٩٧ هـ (١٢٠٠ م) .

أنظر ياقوت , ارشاد الأديب (ج٨ ص ٨١ – ٩٠) , وابن خلكان (ج ٢ ص ٩٧ – ١٠٠) , وأبا الفدا (ج ٨ ص ١٠٥)

(١) الشعراء بين سنتي (٤٨٦–٥٤٩ﻫ، ١٠٩٣–١١٥٤م) :

نزل مصر أبو الفتيان مفضل بن حسن بن خضر العسقلاني، فتمتع بما أغدقه عليه الأفضل بن أمير الجيوش من صلات. ولقد امتدح ابن خضر في قصيدة نقتطف منها هذه الأبيات :

١ أقول والنجوم مرقوم بغرته سطرا نظرت وضوء الصبح مبتسم
٣ أماء خديه أضحي في زجاجته يدير أم ماؤها في وجنتيه دم ؟
٤ صيغ الصباح ضياء من مياسمه فاستنبطت حلكا في شعره العتم [١]

هذا، وقد اجتذب جود الأفضل وكرمه إلى مصر شاعرا آخر، هو أبو الحسن علي ابراهيم الملقب باين العلاني، من أهل معرة النعمان منبت الشاعر أبي العلاء المعري. أتي ابن العلاني إلى مصر فحاز تشجيع الأفضل ونعم بما أغدقه عليه من صلات. يدل علي ذلك هذه الأبيات القليلة التي ننقلها من قصيدة يمدح فيها ولي احسانه ونعمه حيث يقول :

٣ فمكة مصر والحجيج وفوده ويمناه ركن البيت والنيل زمزم
٤ وشاكر ما تولي مقر بعجزه ولو أنه في كل عضو له فم [٢]

وهناك طائفة أخري من الشعراء الذين وفدوا علي مصر، رجاء الحصول علي ما حصل عليه غيرهم من تشجيع الخلفاء الفاطميين ووزرائهم. ومن بينهم أبو الحسن علي بن جعفر بن البوين [٣]، وهو من أهل المعرة أيضا. ولقد اعتمد عماد الدين في عبارته علي ما ذكره أسامة بن منقذ [٤]، وهو أن ابن البوين " حاز ثقة الأفضل ونال حظوته،

---

[١] عماد الدين الاصفهاني , المكتبة الملكية بباريس , مخطوط ٣٣٢٨ , ورقة ١٨١ (ب) .

[٢] شرحه ورقة ١٣٣ (ب)

[٣] ذكر أسامة بن منقذ _(Deren bourg . Vie) اسم ابن البوين فقال : ان جده سديد الملك أبا الحسن علي بن مقلد اتخذه كاتبا له . وزاد علي ذلك أنه تقابل معه في بيت أبيه ببغداد , فلم يعرفه أبوه لكبر سنه . لكنه لما سمع اسمه عرفه واحنفي به وقال له : أنت الشاعر النحوي الكاتب ؟

[٤] لم يذكر أسامة شيئا عن ذلك في كتبه . ونحن نظن أن عماد الدين دون هذه العبارة أن التقي بأسامة في سورية أو في غيرها من البلاد .

وأنه أفاض عليه من سحائب إحسانه، وأدر عليه حلوبة إنعامه، ولقبه بأمين الملك واستخلصه ".

ويحسن بنا أن ننقل هنا بضعة أبيات من قصيدة يمدح فيها الأفضل :

يا مـن تنـافس فيـه السـمع والبصـر كمـا تغـاير فيـه الشـمس والقمـر
ومـن تحكـم في الأرواح فاحتكمـت ألا يحكـم فيهـا بعـده بشـر (١)

وقد أمدنا أيضا عماد الدين بمعلومات نافعة عن أبي الحسن علي بن مُحَمَّد الأخفش، وهو شاعر من أشراف المغاربة، أجاد في مدح الخليفتين الآمر والحافظ وغلا في تمجيد الفاطميين وإعلاء شأنهم. يدل علي صحة ذلك هذا البيت الذي ننقله من قصيدة يمدح فيها الخليفة الآمر :

إلي ذروة النـور العلائـي (٢) إنـه إلى ذروة النـور الإلهـي ينسـب (٣)

وقال هذا الشاعر في قصيدة أخري يمتدح فيها الخليفة الحافظ :

بشـر في العـين إلا أنـه مـن طريـق العقـل نـور وهـدي
جـل أن تدركـه أعيننـا وتعـالي أن تـراه جسـدا (٤)

هذا كان حال الشعراء الذين وفدوا علي مصر في ذلك العصر. أما غيرهم من الشعراء المصريين الذين رحلوا عن بلادهم، فانهم لم يلقوا ما لقيه هؤلاء من رعاية وتقدير في عاصمة العباسيين. وجعفر ابن أبي زبيد مثال صالح لما ذكرنا ؛ فقد عبر عما خالج ضميره من أسي بعد مغادرته مصر إلى بغداد في قصيدة تذكر منها هذين البيتين :

ومـا قصـدنا بغـداد شـوقا لأهلهـا ولا خفيـت مـذ قـط أبصـارنا عنـا ؟

---

(١) عماد الدين الأصفهاني شرحه , مخطوط ٣٣٢٩ , ورقة ١٤٣ (ا)
(٢) ذكر هذا اللفظ في المخطوط " العلاني " . ويظهر أنه نسخ خطأ بدل لفظ العلائي .
(٣) شرحه , ورقة ١١٨ (ا)
(٤) شرحه , ورقة ١٤٢ (ا)

ولا أننـا اخـترنا علـي مصـر بلـدة سـواها، ولكـن المقـادير سـاقتنا ([1])

وقد يتبين مبلغ جود الخلفاء الفاطميين وكرمهم من هذين البيتين اللذين نظمهما أبو العباس أحمد بن مفرج، أحد الشعراء الذين عاشوا في عهد الخليفة الحافظ، الذي أمر الشعراء أن يختصروا قصائدهم إذا يقول :

أمرتنـا أن نصـوغ المـدح مختصـرا لم لا أمـرت نـدا كفيـك مختصـر ؟
والله لابـد أن تجـري سـوابقنا حـتي يبـين لهـا في مـدحك الأثـر ([2])

والآن نسوق اليك مثلا آخر من الشعراء الفاطميين الذين كان لهم أثر عظيم في نشر العقائد الفاطمية ؛ مثل أبي الحسن بن الزيد ([3]) الذي وصفه عماد الدين، نقلا عن القاضي الفاضل، فقال : " وإنه في فنه لم يسمح الدهر بمثله ". وقد قال يهنئ الخليفة الحافظ بالانتصار علي الصليبيين : " الحمد لله الذي فضل دولة أمير المؤمنين علي سائر الدول... وجعل أيامه واضحة الحجول والغرر، مخصوصة بالفتوح والظفر، يخفق النصر علي بنوده، وتسير السعادة أمام جنوده، نسأل الله أن يجعل الأرض قبضة يده، والأفلاك الجارية من أعوانه وعدده ([4]) ".

ولم تقتصر مدائح ابن الزبد علي الخلفاء الفاطميين وحدهم، بل تعدتهم إلى غيرهم من الوزراء وكبار رجال الدولة، فتراه يمدح الأفضل في قصيدة يقول فيها :

خلـع الزمـان علـي حلـة مفخـر شـرفا بمـدح الأفضـل المفضـال
يلقـي المـدائح بالمنـائح واهبـا ويصـدق الأقـوال بالأفعـال ([5])

ويمدح ابن الزبد هذا الوزير في قصيدة أخري فيقول :

لـولا وجـودك في الزمـان وجـودك ال محـي المكـارم بعـد بعـد وفاتهـا

([1]) شرحه , مخطوط ٣٣٢٨ , ورقة ١١٠ (ا)

([2]) عماد الدين الاصفهاني , مخطوط ٣٣٢٨ , ورقة ١٠٨ (ب)

([3]) أطلق عليه عماد الدين (مخطوط ٣٣٢٨ , ورقة ١١٠ "ب") اسم أبي علي حسن بن زبيد . وخالفه في ذلك عمارة اليمني (ص ٣٥) حيث أطلق عليه علي بن الزبد , وسماه في مكان آخر (ص ١٤٤) المكرم علي بن الزبد .

([4]) شرحه , مخطوط ٣٣٢٨ , ورقة ١١٠ (ب)

([5]) شرحه , ورقة ١١٨ (ب)

لم يعــرف المعــروف في الــدنيا ولــو		طفنــا عليــه في جميــع جهاتهــا [1]

وقد ذكر عمارة [2] ابن الزبد عند كلامه عن الكتاب في عهد الوزير ابن رزيك، فوصفه بأنه كان من رجالات الدولة الذين نالوا حظوة لدي الوزير، وأنه كان يتردد عليه ؛ وزاد أنه كان فاطميا مغاليا. وقد بلغ من وفائه لبني رزيك أن خاطر بحياته في الدفاع عن هذا الوزير، وقاتل عنه أشد قتال، ولم يزل يضرب بسيفه حتي انقطع من وسطه. وهنا ألقي بنفسه علي الوزير ووقاه من الضربات التي انهالت عليه، وبذلك هيأ السبيل لنجاة الوزير.

فلينس من عجب اذا ارتفعت مرتبة ابن الزبد وعلت منزلته في عين الوزير، فأمر الشعراء أن ينظموا القصائد في مدحه [3]. ولقد أشار عمارة اليمني إلى ذلك في بعض قصائده حيث يقول :

أوجبــت في ذمــة الأشــعار والخطــب		دينــا أبا حســن يبقــي علــي الحقــب
أيامــك البــيض لا تحصــي، وأفضــلها		يــوم خصصــت بــه في قاعــة الــذهب
وفيــت للصــالح الهــادي وقــد غــدرت		بـــه الصـــنائع مـــن ناء ومقـــترب [4]

وبالرغم مما قام به ابن الزبد في سبيل نشر الدعوة الفاطمية، فقد ختمت حياته بمأساة محزنة. فقد روي عماد الدين عن القاضي الفاضل، أن رجلا يدعي ابن قادوس [5] نظم بيتين من الشعر هجا فيهما الحسن بن الخليفة الحافظ، ثم دسهما ضمن أوراق لابن الزبد وسعي به إلى الحسن فأمر به فقتل [6].

---

[1] شرحه , ورقة ١٢١ (ب)
[2] (ص ٣٥ و ١٤٤ و ١٤٥)
[3] عمارة اليمني , النكت العصرية (ص ٦٣ _ ٦٥ و ٤٦ و ٥٠ – ٥٣ و ١٤٦ و ١٤٧)
[4] شرحه (ص ١٤٦)
[5] ذكر عمارة (ص ٣٥) أبا الفتح مُحَمَّد بن قادوس في سياق كلامه علي رجال الأدب الذين اتصل بهم في مصر , فوصفه بأنه من مشهوري شعراء هذا العصر . ويسميه ابن ميسر (ص ٩٧) القاضي المفضل أبا الفتح محمود بن قادوس , ويذكر أنه توفي في ٧ المحرم سنة ٥٥٣
[6] عماد الدين الاصفهاني , مخطوط ٣٣٢٨ , ورقة ١١٠ (ب) .

ولقد أتي عماد الدين بعبارة أخري رواها عن علي بن عباد [1]، وهو من أهل الاسكندرية، وكان شاعرا نابها، نال في بلاط الحافظ الفاطمي حظوة كبيرة. ولما اعتقل أبو علي بن الوزير الأفضل الخليفة الحافظ، نظم ابن عباد قصيدة يهنئ فيها الوزير وفيها يقول :

تبسم الدهر لكن بعد تعبيس	وقوض الدهر لكن بعد تعريس
اذا دعونا بأن تبقي لأنفسنا	دعاؤنا : فابق يا ابن السادة السوس
وقد أعاد إليه الله خاتمه	فاسترجع الملك من صخر [2] بن ابليس [3]

وهذا البيت الذي هجا فيه ابن عباد الخليفة كان سببا في قتله بعد أن أطلق الخليفة من اعتقاله، واسترجع ملكه بعد وفاة هذا الوزير.

ولم تقتصر مدائح الشعراء علي الخلفاء الفاطميين ووزرائهم ؛ فقد كان لغير هؤلاء من كبار رجال الدولة نصيب وافر من المدائح هؤلاء الشعراء الذين طمعوا في صلاتهم. ومن الأدلة علي هذا أبو الفضل جعفر بن المفضل الملقب بالمهذب، وكانت معظم قصائده في مدح الوزير الأفضل.

وقد بين لنا عماد الدين ما كان بين المهذب ووالي الاسكندرية من علاقات، ويقول إن أحد الحاضرين سأل المهذب أن ينظم شعرا يصف خاتم الأمير وقد ضاق عن خنصره، فقال مرتجلا :

---

[1] اللفظ الذي جاء في المخوط هو ابن عبادة . ومع ذلك فقد ذكر هذا اللفظ ثلاثة مرات : عبادة وعباد وعياد . وواضح أن اللفظ الأخير خطأ , اذ لا يتسمى به غير القبط . أما لفظ عباد فهو الصحيح (مخطوط ٣٣٢٨ ورقة ٩٧ (ب) وما يتبعها) . انظر ابن ميسر (ص ٨١)

[2] هو اسم الجن الذي أخذ الخاتم من سليمان بن داود , الذي يوازن هذا الشاعر في قصيدته بينه وبين الوزير . (انظر تفسير الجلالين – طبعة القاهرة سنة ١٣٤٢ هـ , ج ٢ ص ١٣٨) . وهذا الأبيات عبارة عن مقارنة بين الوزير الأفضل وسليمان الذي فقد خاتمة وملكه , ولكنه استرده بعد أربعين يوما (أنظر الباب الثامن من هذا الكتاب) .

[3] شرحه , ورقة ٩٨ (ا) . ذكر ابن ميسر (ص ٨١) الشطر الأول من البيت الأول , وذكر البيت الرابع كما يلي :

هذا سليمانكم قد رد خاتمه   واسترجع الملك من صخر بن ابليس

وزاد ابن ميسر علي ذلك أن عبادا لما أنشد البيت الرابع في حضرة الوزير , قام القاضي عبد الله مُحَّد بن ميسر طربا لهذا البيت , فكان ذلك سببا لصرفه عن القضاء وقتله بعد أن أطلق الخليفة من اعتقاله .

قصـــــر في أوصـــــافك العـــــالم فـــــاعترف النــــاثر والنــــاظم
مـــن يكـــن البحـــر لـــه راحـــة يضـــيق عـــن خنصـــره الخـــاتم ([1])

فأمر له الأمير بعطاء فأخذه، فسئل أن يصف غزالا قد استأنس في حجر الأمير، فأنشد علي الفور :

عجبـــت لجـــرأة هـــذا الغـــزال وأمـــر تخطـــي لـــه واعتمـــد
وأعجـــب بـــه إذ بـــدا جاثيـــا فكيـــف اطمـــأن وانـــت الأســـد ([2])

فأمر له الأمير بعطاء آخر، فسأله الرجل ممتحنا أن ينظم في هذه الشبكة المسدولة علي هذه الدار فقال :

رأيـــت ببابـــك هـــذا المنيـــف شـــباكـــا فـــأدركني بعـــض شـــك
وفكـــرت فيمـــا جـــري لي فقلـــت مكـــان البحـــار يكـــون الشـــبك
فقـــال الأمـــير لممتحنـــه: دعـــه وإلا أخـــذ مـــا علـــي ! ([3]).

وهكذا كان كرم الخلفاء الفاطميين ووزرائهم وقادة عصرهم. فلا ندهش اذا غلا بعض هؤلاء الشعراء في مدحهم، حتي أدي بهم ذلك إلى الإلحاد والمروق عن الدين. وكان عماد الدين –كما بينا – سنيا، يري أن الشعر الذي يتعرض لهذه المسائل يؤدي بصاحبه إلى الخروج عن الدين. لذلك لا نجد في هذا الكتاب القيم الذي خلفه لنا عماد الدين، إلا أمثلة قليلة من هذه القصائد التي نظمها غلاة شعراء الفاطميين.

هذا، وكان ابن الضيف، وهو من شعراء الفاطميين الذين عاشوا في عهد الخليفة الآمر، ملحدا في نظر عماد الدين، الذي أبي أن يودع كتابه بعض القصائد التي نظمت في مدح الفاطميين، معللا ذلك بهذه الكلمات :

" ابن الضيف كان من دعاة الأدعياء، المغالين لهم في الولاء. وكان في حدود سنة خمسمائة في عهد آمرهم. وله فيه مدائح كثيرة... وكنت عازما علي حطه، لأنه أساء

---

[1] عماد الدين الأصفهاني , مخطوط ٣٣٢٨ , ورقة ٨٧ (ب) .
[2] شرحه , ورقة ٨٧ (ب) .
[3] شرحه , ورقة ٨٧ (ب) .

شرعا وان أحسن شعرا، بل أظهر فيه كفرا... لكنني لم أر أن أترك كتابي منه صفرا ؛ لأن البحر الزاخر يركبه المؤمن والكافر، ويقصده البر والفاجر " [١].

(٢) الشعراء بين سنتي (٥٤٩-٥٦٧، ١١٥٤_١١٧١م) :

والمهذب أبو مُحَمَّد الحسن بن علي بن الزبير [٢]، الذي وصفه عماد الدين بقوله : " ولم يكن في زمانه أشعر منه " [٣]، مثل بين للشعراء الذين جذبهم تعضيد الخلفاء الفاطميين ووزرائهم وغيرهم من علية القوم، آملين في نيل عطاياهم والتمتع بصلاتهم.

وإليك ما قاله في قصيدة طويلة يخاطب بها الوزير الصالح طلائع بن رزيك ويصفه بأنه بطل من أبطال المسلمين حيث يقول :

أفارس المسلمين اسمع، فلا سمعت	عداك غير صليل البيض في القلل
مقال ناء غريب الدار قد عدم ال	أنصار، لولاك لم يسمع ولم يقل
يشكو مصائب أيام قد اتسعت	فضاق منها عليه أوسع السبيل
وكيف ألقى من الأيام مرزية	حلت ولي من بني رزيك كل ولي [٤] ؟

هذا من جهة الوزراء. أما من جهة الخلفاء الفاطميين، فان الشعراء كانوا يدركون ما بينهم وبين وزرائهم من تباين في الرتبة ؛ يدل عليه ما قاله هذا الشاعر في إحدى قصائده

---

[١] عماد الدين الأصفهاني , مخطوط ٣٣٢٨ , ورقة ٥٢ ب وما يتبعها .

[٢] ذكر عمارة (ج ١ ص ٨٦ و ٩٦ و ١٨٤ و ٢٦٨) و (ج ٢ ص ٥١٤ و ٥٧٣ و ٦٠٠ و ٦٠٢ و ٦٣٦ و ٦٣٧) الرشيد بن الزبير وولديه أحمد والحسن . ووصف ولديه (ج ١ ص ١٨٤) بأنهما شاعر ان نابهان , عاشا في زمن الوزير الصالح بن رزيك . وفي احدي قصائده (ج ١ ص ١٨٤) يمدح عمارة أحد هذين الشاعرين (البيت الأخير من هذه الصفحة هو مدح الحسن) . ويقول في " النكت العصرية " (ص ٣٥) إن الحسن كان من مشهوري شعراء هذا العصر , ممن كانوا يحضرون مجلس الوزير ابن رزيك . وقد سماه عمارة المذهب في موضع آخر (ص ٤١٥) .
وقد اقتصر أسامة بن منقذ (سيرة أسامة (ص) ١٨ حاشية ٢) و (ص ٢٠٧ و ٢٨٩ حاشية ٦) و (ص ٤١٩ و ٥٣٢ و٦٢١) وعماد الدين (المكتبة الأهلية بباريس مخطوط ٣٣٢٨ ورقة ٣٥ ب) وابن ميسر (ص ٩٥) وابن خلكان (ج ١ ص ٦٣) علي ذكر ابي الحسين الملقب بالقاضي الرشيد أحمد بن الزبير .
وقد أورد لنا الكتبي (ج ١ ص ١٥٩ – ١٦١) نبذة عن الحسن بن علي بن الزبير , وقال انه اتصل بالوزير ابن رزيك , فاستفاد كثيرا من وراء اتصاله به (شرحه ص ١٥٩) .

[٣] عماد الدين الأصفهاني , المكتبة الأهلية بباريس , مخطوط ٣٣٢٨ , ورقة ٣٧ (ب)

[٤] عماد الدين الاصفهاني , مخطوط ٣٣٢٨ شرحه , ٣٩ (ا) .

يمدح فيها رضوان ابن الوخشي حيث يقول :

ما كان بعد أمير المؤمنين فتي فيه الشجاعة إلا أنت والنيل [(١)]

ويمدح ابن الزبير هذا الوزير في البيت الآتي مترنما بجوده وكرمه حيث يقول :

لا يرتضي في الجود سبق سؤال من يرجوه حتي يسبق الآمالا

وإن هذا البيت الذي نرويه لابن الزبير، ليدلنا علي مبلغ ما كان يلقاه الشعراء في مصر من حفاوة وإكرام.

حيث اغتربت فلي من عفتي وطن آوي اليه وأهل من ذوي الأدب [(٢)]

وقد شاد بعض الشعراء بذكر الفاطميين وأنصارهم، وهم في بلادهم لم يفدوا إلى مصر في وقت من الأوقات. ومن بين هؤلاء المهذب بن أسعد. وكان من أهل الموصل، ثم اشتغل بالتدريس في مدرسة حمص. وقد كان من الفقهاء الأعلام ومن الشعراء النابهين. استمع الأصفهاني لشعره عند ما لقيه بحمص سنة ٥٦٣ هـ (١١٦٧ – ١١٦٨ م). وهو مثل لهؤلاء الشعراء الذين بعثوا بقصائدهم رغبة في عطاء الوزراء ونوالهم.

وقد قال عماد الدين إن ابن أسعد نفسه أنشده في سنة ٥٦٥ هـ (١١٦٩ – ١١٧٠ م) قصيدة يمدح فيها الوزير ابن رزيك، وكان قد نظمها وبعث بها اليه، فأتته من هذا الوزير جائزة سنية. ومن هذه القصيدة الأبيات الآتية :

٩ هادي الدعاة أبو الغارات خير فتي أدنى عطياته أدنى أمانيكا

١٤ يشكو اليك بنو الآمال فقرهم فينثنون وبيت المال

١٥ يخافك الملك ناء عنك منزله ويقتر المرء عن بعد فيرجوكا

٣٠ من أرتجي يا كريم الدهر تتعشني جدواه ن خاب سعي في رجاييكا ؟

٣١ أأمدح الترك أبغي الخير عندهم والشعر مازال عند الترك متروكا ؟ [(٣)]

ولما دالت الدولة الفاطمية وغدا الأيوبيون أصحاب النفوذ في مصر، نظم ابن أسعد

---

(١) شرحه , ٤٢ (ا)

(٢) شرحه , مخطوط ٣٣٢٩ , ورقة ١٧٧ (ب) .

(٣) المكتبة الأهلية بباريس , مخطوط ٣٣٢٩ , ورقة ١٧٧ (ب) – ١٧٨ (ب)

قصائده في مدح نور الدين وصلاح الدين. ولقد زاد عماد الدين أن صلاح الدين لما رحل عن مصر إلى بلاد الشام سنة ٥٧٠ هـ (١١٧٤ م) وعسكر بظاهر حمص، قصده ابن أسعد ومدحه. وكان القاضي الفاضل لا يزال يذكر هذا البيت الذي نظمه ابن أسعد عن الترك (سطر ٣١)، فأنشده صلاح الدين وقال له : " فعجل جائزته لتكذيب قوله وتصديق ظنه "، فأجابه إلى ذلك صلاح الدين (١).

ولقد ساعد ما بذله الفاطميون من عطاء وما أغدقوه من صلات علي زيادة أنصارهم وأشياعهم. ولا غرو فان هذا الاطراء الذي صاغه قلم شاعر نايه كابن أسعد في مدح الفاطميين، قد اشتهر أمره وذاع خبره في كافة الأقطار الاسلامية. ويتبين لنا ما كان من إغداق الفاطميين الهبات علي الشعراء من هذا البيت الذي نظمه ابن أسعد (٢) يعبر فيه أمنيته في العودة إلى وطنه – الموصل – ويذكر أن تحقيق هذه الأمنية يتوقف علي جود ابن رزيك وكرمه :

ثقـــي بإيابي عـــن قريـــب فـــإنني بجود ابن رزيك علي القرب واثق ((٣)

ولم يكن لهذا الجود الذي أظهره الفاطميون إلا غرض واحد ، هو تعظيم خلافتهم وأكبارهم سلطان دولتهم. وكان ذاك هو الفرض الذي كانت ترمي اليه أعمالهم.

ولقد عرف الوزير ابن رزيك ما للشعراء من أثر. فكان يؤثر هؤلاء الشعراء علي نفسه وينزلهم منزلة أصدقائه. ولا غرو فقد كان بعض وزراء الفاطميين شعراء (بطبيعتهم). فكان طبعيا أن ينصروا الشعر والشعراء، بدليل ما كان هنالك من روابط بين ابن رزيك وهذا الفقيه والشاعر المشهور، وهو نصر بن عبد الرحمن، وكان من أهل الاسكندرية، وقد لقيه عماد الدين في بغداد سنة ٥٦٠ هـ (١١٦٤ – ١١٦٥ م). وقد أورد لنا عماد الدين قصيدة نظمها ابن رزيك، يرد بها علي قصيدة أخري يمدحه فيها هذا

---

(١) المكتبة الأهلية بباريس , مخطوط ٣٣٢٩ , ورقة ١٧٨ (ب)

(٢) ذكر ابن خلكان (ج ١ ص ٢٩٨ – ٢٩٩) المهذب عبد الله بن أسعد , وهو من أهل الموصل ونزيل حمص , في العبارة التي أوردها عن الوزير ابن رزيك .

(٣) عماد الدين , مخطوط ٣٣٢٩ , ورقة ١٨١ (ب) .

الشاعر. وفيها يقول الوزير :

أهـدي لي القاضـي الفقيـه عرايسـا فيـه بـديع الوشـي مـن تنميقـه
فأجلـت طـرفي بـديع رياضـه مـن ورده بهـاره وشـقيقه
فكأنمـا اجتمـع الأحبـة فـانبرت يـد عاشـق يهـوي إلى معشـوقه
نزهـت في بسـتان نظمـك ناظـري فحظيـت مـن زهـر الـريا بأنيقـه
وأنا أري تقـديم حاجـة صـاحبي مـن دون حاجـاتي أقـل حقوقـه
وكـذا الكـريم فمهمـل لحقوقـه لا مهمـل أبـدا حقـوق صـديقه (١)

ولم تقتصر جميع قصائد ابن نصر علي امتداح الوزير، فقد خص بعضها بالإشادة بذكر الخلفاء الفاطميين. بيد أننا، لسوء الحظ، نري عماد الدين لم يضرب لنا أمثلة مما قاله هذا الشاعر في مدح الخلفاء. ويحتمل أن يكون ذلك لما كان من غلو هذا الشاعر في تعظيم الفاطميين والاشادة بذكرهم، كما يتجلى ذلك من وصف عماد الدين الأصفهاني لابن نصر حيث يقول : " وما أكمله، لولا أنه من مذاح المصري والله له غافر ! " ((٢).

ولقد روي لنا عماد الدين بضعة أبيات نظمها أحد الشعراء، وقد اتصل به أن رجلا من أنصار الشعراء بعث اليه مع رسول بنصف دينار فلم يوصله اليه :

اتانا نصـف دينـار سماعـا فهممنـا لـه في نصـف شـكر
وهـذا ممسـك لوصـول هـذا فتوصـل مثلـه قـدرا بقـدر
ولم زدتم علـي الأحسـان زدنا وأحسـنا لواحـدة بعشـر (٣)

ولقد أمدنا أبو مُحَمَّد هبة الله بن علي بن عرام السديد (٤) بمثل آخر لشاعر عبر عن استيائه وسخطه، وقد خابت آماله في اكتساب جائزة رجل من أنصار الشعر بعد أن

(١) المكتبة الأهلية بباريس , مخطوط ٣٣٢٨ , ورقة ٦٩ (ا)

(٢) المكتبة الأهلية بباريس , مخطوط ٣٣٢٨ , ورقة ٥٩ (ا)

(٣) عماد الدين الاصفهاني , المكتبة الأهلية بباريس , مخطوط ٣٣٢٨ ورقة ١٤٢ (ب) . وقد زاد هذا الكاتب أن هذا الشاعر عاش في أيام الوزير ابن رزيك (شرحه ورقة ١٤٣ "ا") .

(٤) نقل عماد الدين الأصفهاني (شرحه , ورقة ١٧٦ "ب") عن قاضي اسوان الذي أهدي اليه ابن عرام ديوانه , فنقل عنه عبارته التي يصف فيها هذا الشاعر . وقد مات ابن عرام سنة ٥٥٠ هـ (١١٥٥ م) ؛ ووصفه الأصفهاني بأنه كان شاعرا نابها

مدحه علي غير جدوي فقال :

اتعبـــــت نفســـــي وفكـــــري ... في مـــــــدح قـــــــوم لئـــــــام
وغـــــــرني حســـــــن شـــــــر ... مـــــــنهم وطيـــــب كـــــــلام
فمـــــا حصـــــلت لـــــديهم ... الا علـــــــــي الإعـــــــــدام
ولـــــو جعلـــــت قريضـــــي ... مراثيـــــــــا في الكـــــــــرام
لحـــــزت ذكـــــرا جمـــــيلا ... يبقـــــــــي علـــــــــي الأيام (1)

ويقول ابن عرام من قصيدة أخري يمدح فيها الوزير رضوان بن الولخشي ويشيد في بعض أبياتها بذكر الأسرة الحاكمة ويصفها بأنها عامل قوي من عوامل تمكين قوة الاسلام فيقول :

جـــددت بعـــد دروســـه الإســـلاما ... ومحـــوت عنـــه الظلـــم والإظلامـــا
وطويـــت رايات الضـــلال مجاهـــدا ... ونشـــرت في غـــر الهـــدي أعلامـــا (2)

عمارة اليمني (3) :

لقد كان لنفوذ الخلفاء الفاطميين الأدبي، ذلك النفوذ الذي عملوا علي تأييده بعطفهم علي الشعراء وتشجيعهم رجال الأدب، أثر عظيم في نفس عمارة اليمني، حتي أصبح من أنصارهم ومن الشعراء المماليين لهم. وكان عمارة هذا شاعرا سنيا شافعي المذهب ؛ ظهرت له أعمال عظيمة في تاريخ الخلافة الفاطمية. ولكنه قتل في آخر أمره

---

(1) شرحه , مخطوط ٣٣٢٨ , ورقة ١٧٦ (ب) .

(2) شرحه , مخطوط ٢٩ , ٣ , ورقة ١٨١ (ب) .

(3) لقد خلف لنا عمارة بن أبي الحسن الحكمي نجم الدين أبو محمد سيرته , وكان من أهل تهامة باليمن (النكت العصرية ص ٧ و٨) . وفي سنة ٥٤٩ هـ (١١٥٤ – ١١٥٥ م) حج إلى مكة , وبعث به القاسم بن فليته أمير مكة رسولا من قبله إلى مصر , فدخلها في غرة ربيع الأول سنة ٥٥٠ (١١٥٥ م) ؛ فتلقاه الخليفة الفائز ووزيره الصالح طلائع بن رزيك بالعطف والقبول علي أثر انشاده أولي مدائحه في قاعة الذهب بالقصر . وقد أقام في مصر إلى شوال سنة ٥٥٠ (شرحه ص ٣٢ – ٣٤ و ٤١) . ثم عاد إلى مكة , ومنها أنفذه أميرها بمهمة أخري في صفر سنة ٥٥١ (أبريل سنة ١١٥٦) (ص ٤٢) . ومن ثم أقام في القاهرة وصار من مشاهير البلاط في عهد الخليفتين الفائز والعاضد , آخر خلفاء الفاطميين . وقد شنق في اليوم الثاني من شهر رمضان سنة ٥٦٩ (أبريل سنة ١١٧٤) .
أنظر أيضا عماد الدين الأصفهاني , المكتبة الأهلية بباريس , مخطوط ٣٣٢٩ , ورقة ٢٥٧ (ا) وما يتبعها , وعمارة اليمني (ج ١ ص ٣٩٥ و ٣٩٦) , وابن خلكان (ج ١ ص ٤٧٥ – ٤٧٧) وابن دقماق (ج ٥ ص ٩٣ _ ٩٤)

لاشتراكه في المؤامرة التي قامت لتقويض سلطان الأيوبيين.

وهو من الأمثلة الواضحة علي تعلق الفاطميين بالشعراء والاستفادة من شعرهم. ويحسن بنا أن تنقل بعض أبيات من أولي قصائده، وقد أنشدها في قاعة الذهب في قصر الخلفاء الفاطميين :

١ الحمد للعيس بعد العزم والهمم — حمدا يقوم بما أولت من النعم
٣ قر بن يعد مزار العز من نظري — حتي رأيت إمام العصر من أمم
٤ ورحن من كعبة البطحاء والحرم — وفدا إلى كعبة المعروف والكرم
٦ حيث الخلافة مضروب سرادقها — بين النقيضين من عفو ومن نقم
٧ وللإمامة أنوار مقدسة — تجلو البغيضين من ظلم ومن ظلم
٨ وللنبوة آيات تنص لنا — علي الحقيقين من حكم ومن حكم
٦ وللمكارم أعلام تعلمنا — مدح الجزيلين من بأس ومن كرم
١٠ وللعلي ألسن تثني محامدها — علي الحميدين من فعل ومن شيم
١٢ أقسمت بالفائز المعصوم معتقدا — فوز النجاة وأجر البر في القسم
١٣ لقد حمي الدين والدنيا وأهلهما — وزيره الصالح الفراج للغمم
١٤ اللابس الفخر لم تنسج غلائله — إلا يد الصانعين السيف والقلم
١٥ وجوده أوجد الأيام ما اقترحت — وجوده أعدم الشاكين للعدم
١٦ قد ملكته العوالي رق مملكة — تعير أنف الثريا عزة الشمم
١٧ أري مقاما عظيم الشأن أوهمني — في يقظتي أنها من جملة الحلم
١٩ ليت الكواكب تدنو لي فأنظمها — عقود مدح فما أرضي لكم كلمي
٢٠ تري الوزارة فيه وهي باذلة — عند الخلافة نصحا غير متهم
٢٢ خليفة ووزير مد عدلهما — ظلا علي مفرق الاسلام والأمم
٢٣ زيادة النيل نقص عند فيضهما — فما عسي يتعاطى منه الديم [(١)]

ولقد ذهب الخليفة الفائز ووزيره في استحسان هذه القصيدة كل مذهب، كما يحدثنا بذلك عمارة نفسه، حيث يقول إنه بعد أن أنشد قصيدته خلعت عليه الخلع الموشحة

[(١)] النكت العصرية , (ص ٣٢ – ٣٤)

بالذهب، ودفع اليه الوزير خمسمائة دينار، وأتته مثلها من السيدة أخت الخليفة. يضاف إلى ذلك هذه الرسوم التي أطلقت له من دار الضيافة في مناسبات كثيرة مما لم يطلق لأحد قبله، وما كان أيضا من الولائم التي أقامها أمراء الدولة في بيوتهم تكريما له، ومن نظمه في سلك جلساء الوزير ؛ يدل عليه ما ذكره عمارة وهو : " فأوسعني إكرامهما توقيرا وإنعامهما توفيرا " [١].

بقي عمارة في مصر يمرح في بحبوحة الرفاهة والمجد. وقبل رحيله بزمن قصير، أنشد قصيدة يودع فيها الخليفة ووزيره، فنفحه الخليفة وأخته ألف دينار، ومنحه الوزير ابن رزيك مائتي دينار لقصيدة أخري أنشدها له في داره. كما كان لتدخل هذا الوزير أثر في إعفاء عمارة من دفع ثلاثة آلاف دينار كانت عنده لداعي اليمن السابق وقد مات، فأشير علي ولده وورثته أن يعدل عن دعواه في المطالبة بها. ويحدثنا عمارة عن هذه المسالة فيقول : " فلما وقف عليه (كتاب الوزير اليه) صاحب عدن، أسقط عني الآلاف وأبرأني منها ". [٢]

ولما مات ابن رزيك آلت الوزارة إلى شاور [٣]، فتقلد أعباءها تسعة أشهر [٤]. فقرب هذا الوزير عمارة اليه، وأولاه رعايته وضمه إلى جماعته ؛ فصار يتردد علي داره ويجلس إلى مائدته مرتين في كل يوم، ونال الخير الكثير علي يديه.

ولقد أحصي لنا عمارة هبات الوزير ابن رزيك [٥] وذوي قرباه وغيرهم من الأمراء، وختم هذا الشاعر قوله بهذه الكلمات : " ذكر الله أيامهم بحمد لا يكل نشاطه ولا يطوي بساطه، فقد وجدت فقدهم وهنت بعدهم " [٦].

ولما عاد عمارة إلى مصر في شوال سنة ٥٥٠ (ديسمبر سنة ١١٥٦)، أحسن اليه

---

[١] النكت العصرية , (ص ٣٧)

[٢] النكت العصرية , (ص ٣٨ و ٤٠)

[٣] النكتة العصرية , (ص ٦٨)

[٤] النكتة العصرية , (ص ٧٣)

[٥] النكتة العصرية , (ص ٩٣ – ١٢٠)

[٦] النكتة العصرية , (ص ١٢٠)

الوزير الصالح بن رزيك وبنوه وأهله كل الاحسان، وصحبوه لما امتاز به من حسن الصحبة وسمو المواهب، بالرغم من اختلافه عنهم في العقائد المذهبية [(١)].

ولقد ابي عمارة اعتناق عقائد الفاطميين، وأشار إلى ذلك في ديوانه بأبيات خاطب بها الوزير الذي ألح عليه في التحول إلى مذهب الشيعي، ومنحه ثلاثة آلاف دينار، ووعد أن يزيد في إغداقه عليه إن هو أجاب إلى ما طلبه منه. ولكن عمارة لم يكن بالرجل الذي تنفع معه الحيلة. فرفض في شيء من الحصافة، ولم يتأثر بنصح الوزير [(٢)]. ويشير عمارة إلى هذا الاختلاف في العقيدة الذي كان بينه وبين الفاطميين في هذا البيت :

مذاهبهم في الجود مذهب سنة   وان خالفوني في اعتقاد التشيع [(٣)]

ولما مات ابن رزيك في ١٩ رمضان سنة ٥٥٦ (سبتمبر سنة ١١٦١)، أصبح حزن عمارة علي وفاته مثارا لنظم أشعاره، وظل علي ولائه للفاطميين حتي بعد أن زال سلطانهم وسقطت دولتهم. وقد نظم في هذا الحادث قصيدة طويلة تناقلها عنه الكتاب، من أمثال ابن واصل والقلقشندي والمقريزي. ولقد نظم عمارة شعرا كثيرا في الإشادة بذكر صلاح الدين وغيره من أهل بيته. ولكن إخلاص هذا الرجل للفاطميين أقصاه عن عطف هذه الدولة الجديدة. ونستطيع أن نقف علي مبلغ ما لحقه من بؤس وشقاء من هذه القصيدة التي وجه بها إلى صلاح الدين، وعنوانها : " شكاية المتظلم ونكاية المتألم " [(٤)].

ولا غرو فان تحيز عمارة للفاطميين قد جلب عليه كراهة الأيوبيين، وانتهت حياته الحافلة بشنقه في رمضان سنة ٥٦٩ هـ (١١٧٤ م) لاتهامه بالاشتراك في التآمر لإعادة سلطان الفاطميين [(٥)] .

---

(١) ابن خلكان (ج ١ ص ٤٧٦)

(٢) النكت (ص ٤٥)

(٣) ديوان عمارة (ص ٢٨٨ و ٤٩٣)

(٤) ديوان عمارة اليمني (ص ٢٨٧ — ٢٩١)

(٥) ديوان عمارة اليمني (ص ٢٨٧ — ٢٨٨)

ابن دقماق (ج ٥ ص ٩٣ — ٩٤) , نقلا عن ابن المتوج (٧٣٠ هـ , ١٣٣٠ م) في كتابه خطط مصر المسمي ايقاظ المنغفل واتعاظ المتأمل . انظر الحاشية التي كتبها مسيو درنور (سيرة عمارة ج ٢ ص ٥٥٢) .

الباب الخامس

إسناد المناصب إلى المتشيعين خاصة – عمل الفاطميين علي حمل المصريين علي اعتناق المذهب الفاطمي

قد بينا أنه بعد أن تم للفاطميين فتح مصر، لم يلبث جوهر أن أمر بإبطال الخطبة للعباسيين علي كافة المنابر في أرجاء هذه البلاد، وحرم لبس السواد شعار العباسيين، وأمر بأن تضرب السكة باسم الخليفة الفاطمي بدل اسم الخليفة العباسي ؛ وأدخلت مراسم المذهب الشيعي في المساجد لتحل محل مراسم المذهب السني. ولقد خطا الفاطميون خطوات واسعة في سبيل تحويل جميع المصريين إلى جماعة واحدة تعتنق المذهب الفاطمي وتدين بعقائده.

علي أن نجاح هذه السياسة نجاحا تاما لم يكن بالأمر السهل، وبخاصة في أوائل حكم الفاطميين ؛ فقد كان السواد الأعظم من السكان سنيا، علي حين كان الشيعيون أقلية ضئيلة، تتألف من بعض المصريين ومن مقاتلة المغاربة. ولهذا لم يكن بد من أن تسند أمور الدولة إلى هؤلاء المغاربة، وإلي الكتاميين منهم بوجه خاص.

ولا يعزب عن بالنا أن الفاطميين قد اعتبروا مصر إقليما آل اليهم بطريق الفتح والغزو. فكان طبعيا إذا أن تؤول أكثر وظائف الدولة إلى أنصارهم – وهم المغاربة كما قدمنا – كما كانت الحال في الدولة العباسية، حين أسند المنصور كثيرا من أمور الدولة إلى الخراسانيين لما بذلوه من مساعدة في إقامة دولتهم، وكما فعل المأمون معهم بعد أن وقعت بغداد في يده بفضل مساعدتهم ومعونتهم.

ولقد أخذ كل أثر من آثار قوانين المذهب السني وتقاليده، سواء أكان من الوجهة الدينية أم المدنية، يزول وينهار شيئا فشيئا. ولا عجب في ذلك، فقد كان الفاطميون ينظرون إلى السنيين نظرة الخارج علي الدين. ولقد فعلت هذه السياسة التي انتهجها

الفاطميون فعلها في الناس ؛ فلعنوا أبا بكر وعمر وعثمان، بل والصحابة من أمثال طلحة والزبير ومعاوية وعمرو بن العاص، ممن قاتلوا عليا بعد مقتل عثمان.

ومنذ بدأ سلطان الفاطميين يسود ربوع هذه البلاد، أمر الفاطميون فنقشت فضائل علي وأولاده من بعده علي السكة، وعلي جدران المساجد والمنازل والحوانيت. علي أن هذا لم يكن كل ما قام به الفاطميون في سبيل نشر دعوتهم. فقد عملوا أيضا علي نقش السباب في لعن الصحابة، كما حاولوا أن يبثوا عقائدهم، وعملوا علي أن يعتنق الناس مذهبهم، لا في مصر فحسب، بل في كافة أرجاء العالم الاسلامي.

علي أنه لم يكن من المنتظر أن تصادف هذه السياسة شيئا من النجاح في مصر لو كان القائمون علي تنفيذها من أهل السنة. فكان طبعيا اذا أن تسند المناصب الكبرى — كما قدمنا — إلى رجال ممن يعتنقون مذهبهم ويدينون بنحلتهم في التشيع.

ولما كان السنيون يشغلون أكثر مناصب الدولة في العهد السابق، كان من شأن كل تغيير فجائي في حالة هؤلاء الموظفين كافة أن يحدث ارتباكا في سير الأعمال الادارية. ولقد فطن جوهر نفسه إلى هذه السياسة ؛ فأقر جعفر بن الفرات في وزارته.

بيد أنه يلوح لنا أن ابن الفرات لم يكن له من مركز الوزارة إلا الاسم فقط. يدلك علي ذلك ما ذكره المقريزي ([1]) من أن جوهرا عين خادما فرض عليه أن يلازم الوزير في داره، وأن يسير في ركابه أني سار، ليكون عينا عليه يراقب حركاته وسكناته. وهذه العبارة التي أدلي لنا بها المقريزي لا تترك مجالا للشك في أن سلطة الوزير قد زالت أو كادت، وأنه انما سمح له بالبقاء في مركزه لإرضاء شعور السنيين لا غير.

ولقد ذكر ياقوت أن الخليفة الفاطمي المعز عرض الوزارة علي ابن الفرات، فاعتذر عن قبولها ؛ فأظهر له الخليفة رغبته في ضرورة بقائه في هذه البلاد بعد اعتزاله، ليستأنس برأيه في مهام الأمور ؛ فأجابه إلى ذلك ([2]).

([1]) إتعاظ الحنفا (ص ٥٨) .

([2]) ارشاد الأديب (ج ٢ ص ٤١٢) .

وفي المحرم سنة ٣٦٣ هـ أسند الخليفة المعز إلى ابن كلس وعسلوج بن الحسن ادارة شئون الدولة الحربية والمدنية. ولا ريب في أن اسناد ادارة شؤن الدولة إلى هذين الرجلين قد آذن بانتهاء سلطة ابن الفرات.

ومع ذلك فقد بقي اسم ابن الفرات ذائعا بعد هذه السنة، كما ذكر ابن خلكان في عبارته التي أوردها عن الوزير يعقوب بن كلس [١] أن ابن الفرات هذا كان يغدو اليه ويروح، وأن الوزير قد أولاه ثقته، وكان يعول عليه في محاسبة العمال ؛ ويجالس الوزير، فيدعوه إلى تناول الطعام معه [٢]. ومن المدهش أن تكون هذه العلاقة بين الرجلين علي هذا النحو الذي ذكره ابن خلكان، بالرغم مما كان بينهما من العداوة القديمة التي كان منشؤها التنافس علي الوزارة.

ويتضح لنا مما ذكره ابن ميسر عن وزراء العزيز الفاطمي، أن ابن الفرات تقلد الوزارة في عهد هذا الخليفة، وأن وزارته في عهد الفاطميين لم تدم أكثر من سنة واحدة، وأنه تقلد بعض المناصب الحكومية مرتين في عهد العزيز : فقد تقلد الخراج في سنة ٣٨٢ هـ، بعد أن قبض علي الوزير أبي الحسن علي بن عمر العداس لاتهامه بتبديد أموال الدولة ؛ ثم أسندت اليه الوزارة في ربيع الأول من السنة التالية [٣].

ويقول ابن ميسر [٤] أن ابن الفرات بقي في دست الوزارة سنة واحدة. وفي سنة ٣٩١ [٥] توفي هذا الوزير العظيم، بعد أن تقلد الوزارة في عهد العباسيين والأخشيديين والفاطميين.

---

[١] ١٨ رمضان سنة ٣٦٨ (ابن خلكان ج ٢ ص ٤٤٠) . وقد ذكر لنا ياقوت أن أبا العباس الفضل بن الوزير ابن الفرات تزوج بابنة الوزير ابن كلس . وقد كان لهذا الزواج أثر كبير في تمكن أواصر الصداقة بين هذين الوزيرين .

[٢] ابن خلكان (ج ٢ ص ٤٤١) .

[٣] ابن منجب (ص ٢٤ و ٢٥) .

[٤] (ص ٥١) .

[٥] ياقوت : ارشاد الأديب (ج ٣ ص ٤٠٥) . وقد ذكر ابن خلكان (ج ٣ ص ١٣٩) أنه توفي في يوم الاحد الثالث عشر من صفر ؛ وذكر في رواية أخري أن وفاة هذا الوزير كانت في شهر ربيع الأول من هذه السنة . وقد أورد ابن سعيد (كتاب المغرب ص ٨٧) أنه توفي في صفر سنة ٣٩١ , وفي رواية أخري في سنة ٣٩٢

١- إسناد المناصب العالية للمتشيعين

بعد أن تم للفاطميين فتح مصر، وأصبح أكثر المناصب العالية في أيدي المتشيعين؛ حتي اذا ما دخلت سنة ٣٦٣ هـ، كان من بين كبار الموظفين الذين شغلوا هذه المناصب في عهد المعز، القائد جوهر، وكانت إليه إدارة الدواوين وجباية الخراج والإشراف علي أمور الدولة ؛ وأبو الطاهر، وكان علي القضاء ؛ وعبد السميع بن عمر العباسي، وكانت إليه إمامة الجامع العتيق وخطابته؛ والحسن بن موسي الخياط، وكان إمام للصلوات الخمس؛ وشفيع الصقلبي، وكان صاحب المظلة؛ وموسي بن العازار، طبيب الخليفة الخاص.

أما جباية الخراج فقد جعلت قسمين : أحدهما في يد علي بن مُحَمَّد بن طباطبا وعبد الله بن عطاء الله، وثانيهما في يد الحسن بن عبد الله والحسين بن أحمد الروذباري [(١)]. وكان صاحب بيت المال مُحَمَّد بن الحسين بن مهذب ؛ كما قسمت الشرطة قسمين : (ا) الشرطة العليا [(٢)]، وقد أسندت إلى جبر (ب) والشرطة السلفي، وقد أسندت إلى عروبة بن ابراهيم وشبل المعرضي [(٣)]

ولم يمض قليل من الزمن حتي أدخل علي ادارة المناصب الحكومية تغيير كبير. فقد

[(١)] كان هؤلاء الموظفون تحت اشراف يعقوب بن كلس وعسلوج بن الحسن , ينوبون عنهما في جباية الخراج .

[(٢)] ذكر ابن دقماق (ج ٤ ص ١١) أن الموظف الذي كان يشغل هذا المنصب قد توفي في اليوم الذي وصل فيه جوهر إلى مصر .

أما عن الشرطتين , فانه بعد فتح مصر علي يد عمرو بن العاص , كانت دار الشرطة في مدينة الفسطاط . ولما تأسست مدينة العسكر أنشئت فيها دار أخري للشرطة أطلق عليها دار الشرطة العليا ؛ كما أطلق علي دار الشرطة الأولي الشرطة السلفي . وفي أيام الفاطميين انقسمت الشرطة قسمين :

(ا) الشرطة العليا ومقرها القاهرة .

(ب) والشرطة السفلي ومقرها الفسطاط .

[(٣)] المقريزي : اتعاظ الحنفا (ص ٩٥)

ذكر ابن ميسر أن جوهرا صرف عن ادارة هذه المناصب في يوم الجمعة ١٤ المحرم سنة ٣٦٣ ؛ ولابد وأن يكون اسناد الأعمال الادارية إلى يعقوب بن كلس وعسلوج بن الحسن قد أثر في نفوذ جوهر .

ذكر ابن ميسر [1] أن يعقوب بن كلس وعسلوج بن الحسن قد عهد اليهما سن نظام جديد للضرائب، وقلدهما الخليفة في منتصف المحرم سنة ٣٦٣ الخراج وجميع وجوه الأعمال والحسبة [2] والسواحل والأعشار [3] والجوالي [4] والأحباس [5] والمواريث والشرطتين وكل ما يضاف إلى ذلك في مصر وسائر الأعمال [6].

٢- جباية الخراج

بقي علي بن يحي بن العرمرم قائما علي جباية الخراج ؛ ولكنه لم يمض شهر حتي

---

[1] (ص ٤٥)

[2] كانت أعمال المحتسب , علي ما ذكره الماوردي (ص ٢٢٧ – ٢٣٠) , متعددة مختلفة . فكان اليه النظر في الأسواق , والمحافظة علي الآداب والفضيلة , وادارة الشرطة . وكانت وظيفته واسطة بين القاضي وصاحب النظر في المظالم (ص ٢٢٩) . ومن أهم أعماله المحافظة علي الآداب وعلي الفضيلة والأمانة , وايقاف مضايقة الجمهور , والاشراف علي الموازين والمكاييل , وعلي استيفاء الديون , والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر , والحيلولة دون بروز الحوانيت مما يعوق نظام المرور . وقد ارتقي نظام الحسبة في عهد الفاطميين ؛ فكان المحتسب , علي ما رواه المقريزي عن ابن الطوير (خطط ج١ ص ٤٦٣ و ٤٦٤) , ينتخب من وجوه المسلمين وأعيان المعدلين , لأن وظيفته كانت دينية إلى حد كبير . وكان ينوب عنه في القيام بهذه الأعمال نواب في القاهرة ومصر وغيرها من المدن . وكان يجلس للحكم في جامعي القاهرة ومصر يوما بعد يوم , ويطوف نوابه علي أرباب الحرف وعلي النجار , ويفتشون قدور الأطعمة ويختمون اللحوم , ويباشرون محال الجزارة والمطاعم , ويحولون دون مضايقة الجمهور , ويلزمون رؤساء المراكب بألا يحملوا أكثر مما يجب حمله من السلع . وكانوا كذلك يشرفون علي السقائين لضمان تغطيتهم القرب , ويرقبون لبسهم السراويل حتي لا يخرجوا علي الآداب العامة , ويراعون عيار القرب (وهو أربعة وعشرون دلوا) , ويمنعون معلمي الكتاتيب من ضرب صغار الأولاد ضربا مبرحا , ويحولون دون تغرير معلمي السباحة بالصغار , وينظرون الموازين والمكاييل . وللمحتسب النظر في ضرب العيار . وكان يخلع عليه ويقرأ سجله بمدينة مصر (الفسطاط) والقاهرة علي المنبر ؛ فغدت سلطته من الاتساع بحيث لا يحال بينه وبين ما يريد ؛ كما كان له أن يستعين بالشرطة علي تنفيذ أحكامه للمحافظة علي الآداب والنظام . وكان يتقاضي مرتبا قدره ثلاثون دينارا في كل شهر .

أتي ابن خلدون (" مقدمة " , طبعة بيروت سنة ١٩٠٠ ص ٢٢٥ و ٢٢٦) علي كثير من أعمال المحتسب التي ذكرها المقريزي .

[3] كان عمر بن الخطاب ﷺ أول من فرضها علي التجار من غير المسلمين , لأنهم كانوا يأخذون في بلادهم عشر ما مع المسلمين من التجارة ؛ ففرض عليهم عمر العشر , وعلي أهل الذمة نصف العشر , وعلي المسلمين ربع العشر.

[4] الجوالي هي اختيار الأحسن من كل شيء , سواء أكان من الممتلكات أو من الشاء , الهزيل منها والصغير . وربما كانت هذه هي الوظيفة العامل في الزكاة

[5] الأحباس هي كل ما يوقف علي جهة من جهات الخير ؛ وما تحصل من أموالها يصرف فيما أراده الواقف .

[6] ابن ميسر (ص ٤٥)

شاركه في ذلك رجل آخر، هو رجاء بن صولاب [(١)]. ومع أن المقريزي لم يذكر لنا أكان هذا العامل الجديد مصريا سنيا أو شيعيا، أو مغربيا، فانه من المحقق لدينا أنه كان مغربيا، كما يؤخذ من العبارة التي ننقلها عن المقريزي (اتعاظ ص ٨٧) وهي : " أن جوهرا لم يدع عملا الا جعل فيه مغربيا شريكا لمن فيه ".

وقد أبطل نظام جباية الضرائب القديم، وأنشئ نظام جديد في تقدير الأملاك وتعيين ما يخص كلا منها من الضرائب، وجمعت كل دوائره في مركز واحد وفحصت مصادر الضرائب علي اختلافها، وتشددت الحكومة الجديدة في تحصيل ما تأخر منها، كما اهتمت بالنظر في كل ما تقدم اليها من الالتماسات والشكاوي. وسلكت الحكومة في تنفيذ نظام الضرائب الجديد سبيل الحزم، وحمت دافعي الضرائب من دفع الأموال كرها وعسفا. فكانت نتيجة هذه السياسة الرشيدة أن زادت موارد الدولة زيادة كبيرة ؛ فبلغ ما كان يستخرج من الفسطاط في يوم واحد مقدارا يتراوح بين خمسين ألفا ومائة وعشرين ألف دينار، واستخرج من تنيس ودمياط والأشمونين في يوم واحد أكثر من مائتين وعشرين ألف دينار.

٣ – الوزير

ولم يكن سلوك الوزير ابن الفرات إزاء هذه الدولة الشيعية أقل أثرا من سلوك غيره من المتعصبين السنيين. فلقد أبي في بادئ الرأي أن يستقبل المعز في الاسكندرية، غير مكترث بما قد يجره هذا الامتناع عليه وعلي السنيين جميعا من اضطهاد الحكومة

---

(١) أورد القضاعي (المكتبة الأهلية بباريس ؛ مخطوط ١٤٩١ , ورقة ١١٧ ب) هذا اللفظ " رجا " . وقد أتي لنا نفس مؤلف هذا المخطوط علي أسماء خمسة من الموظفين تقلدوا هذا المنصب في عهد جوهر فقال : " متولي الخراج منذ دخل جوهر علي بن العرمرم , أبو محمد الروذباري , رجاء بن صولاب , عبد الله بن عطاء الله , أبو الحسن الكرخي " . علي أن هذه العبارة لا تدل علي أن هؤلاء الموظفين الخمسة تقلدوا هذا المنصب في وقت واحد , فان المؤلف أو الناسخ لم يضع علامة العطف الدالة علي الترتيب بين كل اسم آخر . هذا إلى أن لفظ " منذ " يقرب إلى الذهن أن هؤلاء الخمسة قد تقلدوا هذه الوظيفة بالتعاقب , أو شغلها واحد منهم أو اثنان أحيانا , وذلك منذ استولي جوهر علي مصر سنة ٣٥٨ هـ , إلى أن وصل المعز إلى هذه البلاد سنة ٣٦٢ هـ , وأسند كافة أمور الدولة إلى يعقوب بن كاس وعسلوج بن الحسن

الفاطمية. ولكن تدخل كبار السنيين من المصريين، ونصحهم للوزير بالعدول عن هذا العمل، قد حال دون الوقوع فيما كانوا يخشونه من أعمال العنف والقوة. فقد أتوا اليه في الليلة السابقة ليوم وصول المعز القاهرة، واتهموه بتعريض أرواح السنيين للخطر وتهيئة الأسباب للفاطميين لحملهم علي الانتقام والتشفي.

فلم يكن بد اذا من أن يذعن الوزير لهم ؛ حتي اذا ما بزغ صبح اليوم التالي، دخل فيمن دخلوا علي الخليفة المعز. وقد حاول الخليفة أن يتلمس وسيلة للايقاع به واتخاذ الشدة والعنف معه، فساله قائلا : " أحج الشيخ ؟ قال : نعم ! فقال الخليفة : وزرت قبر الشيخين (أبوبكر وعمر) ؟ " .

وكان الوزير ذكي الفؤاد حاضر البديهة، فأجابه علي الفور : " شغلني عنهما رسول الله صلي الله عليه وسلم، كما شغلني أمير المؤمنين عن السلام علي ولي العهد ؛ السلام عليك يا ولي عهد المسلمين ورحمة الله وبركاته ! ".

وقد زادنا ياقوت [1] أنه كان من أثر هذا الحديث أن عرض المعز علي ابن الفرات أن يستمر في الوزارة، فاعتذر. وبذلك انتهت مدة وزارته في عهد الدولة الفاطمية بدخول المعز.

وكان لعسكر المغاربة قاض يدعي علي بن الوليد، وكل اليه النظر في قضاياهم. ولا شك في أن هذا القاضي كان اليه النظر أيضا في كثير من القضايا التي نشأت من هذا العداء الذي ظهر بينهم وبين المصريين.

٤ – حالة مصر الداخلية

لم تكن الحالة الداخلية قد استتبت بعد في مصر ؛ لأن أنصار الاخشيديين وجماعة الكافورية لم يكن قد تم القضاء عليهم. أضف إلى ذلك الحملات التي وجهها القرامطة إلى هذه البلاد، وانتصار كثيرين من المناوئين لسلطان الفاطميين لهذا العدو الطارئ [2].

---

[1] ارشاد الأديب (ج ٣ ص ٤١٠ , ٤١١)

[2] ابن القلانصي (ص ٣)

ولإيضاح ذلك نقول، انه في سنة **٣٦١** هـ ثار عبد العزيز بن هيج الكلابي في الصعيد ودعا للعباسيين. فأرسل اليه جوهر جيشا قضي علي الثوار وأسر رئيسهم، وبعث به إلى القاهرة مكبلا في قفص، فسلخ جلده وصلب جسمه (١).

وطالما أثار المغاربة الفتن والقلاقل بما أتوا من أعمال العنف والشدة ضد الأهلين. فلم يكن بد من أن يعدهم هؤلاء من أعدائهم، لاختلافهم في المذهب، ولاغتصابهم ما كان لهم من حقوق سياسية. ويتضح ذلك من هذه الحوادث التي نأتي بها للقارئ علي سبيل التمثيل : ففي شهر ذي الحجة

من سنة **٣٦١**، نهبت المغاربة بعض أحياء مدينة مصر ؛ فثار الأهلون، ونشب بين الفريقين القتال. فأنفذ اليهم جوهر سعادة بن حيان في الحال ؛ فحسم النزاع وعوض جوهر الناس ما نهب منهم (٢).

ويظهر لنا أن سلوك المغاربة قد استثار الأهلين ودفعهم إلى إعلان ما جاش في نفوسهم من الاستياء والسخط في مناسبات مختلفة. ففي ربيع الأول من سنة **٣٦٢** أنب المحتسب جماعة من الصيارفة لسبب لم يكشف لنا التاريخ اللثام عنه. وكانت نتيجة ذلك أن شغب غيرهم من الصيارفة احتجاجا علي ما أتاه هذا المحتسب وصاحوا بهذه الكلمات : " معاوية ابن عم علي بن أبي طالب " ؛ كما أن شعور الكره الذي أضمره السنيون نحو الشيعة يكشف لنا عما كان يضمره السنيون في مصر للفاطميين.

ولم يبين لنا المقريزي (٣) السبب الذي أدي إلى إثارة هذا الشغب ؛ وإنما اقتصر علي القول بأن جوهرا فكر في إحراق رحبة الصيارفة. وكان المحتسب إلى عهد الفاطميين مصريا، فأقيل (ربيع الثاني سنة **٣٥٩**) علي أثر الفتح – كما تقدم – وحل محله رجل آخر من المغاربة.

---

(١) المقريزي : اتعاظ الحنفا (ص ٨٧)

(٢) المقريزي : اتعاظ الحنفا (ص ٧٨) .

(٣) شرحه .

أما سليمان بن عشزة الذي حدث هذا الشغب في عهد ولايته الثانية علي الخراج، فقد أعيد إلى الحسبة بعد موت المحتسب المغربي. ونستطيع أن نستخلص من أقوال المقريزي أن المحتسب كان مصريا سنيا ؛ لأنه لو كان شيعيا، لأقره جوهر في منصبه.

ولم تنقطع القلاقل والاضطرابات بعد وصول المعز. فمن ذلك ما حدث عند الاحتفال بعيد غدير خم (١٨ ذي الحجة سنة ٣٦٢). ولم يدل لنا المقريزي [١] بشيء جلي عمن كانوا سبب إثارة هذه القلاقل. وكل ما قاله أن جوهرا قتل جماعة، لأنهم نهبوا بعض جهات القرافة. إلا أن هذا لا يمنعنا أن نقول إن المغاربة كانوا السبب في إثارة هذا الشغب الذي آل إلى التطاحن، وأن جوهرا أمر بجماعة منهم فضربت أعناقهم ليضيع بذلك حدا لما أتوه من ضروب التعدي [٢].

وهذا، وإن مسألة قيام المتشيعين من المصريين بنصرة المغاربة، أو وقوفهم في صف بني وطنهم وأبناء جلدتهم دفاعا عن أملاكهم، مسألة جديرة بالنظر والاعتبار. وإنه وإن لم يكن في المصادر التي رجعنا اليها ما يرجح أحد هذين الرأيين، فلا شك في أن المغاربة إنما قاموا بنهب أملاك الأهلين، غير آبهين بأي حزب أو دين ينتمي اليه أي شخص، وأن الأهلين — سنيين وشيعيين وغير مسلمين — هبوا يدفعون عن أنفسهم هذا التعدي الذي كان قوامه السلب والنهب. وإن إظهار الشيعيين شعورهم العدائي نحو أهل السنة، أمر كان يتجلى في احتفالاتهم ببعض أعيادهم ومواسمهم.

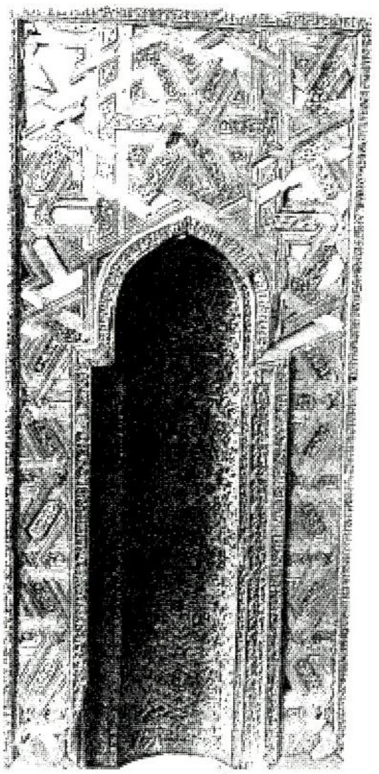
وفي سنة ٣٦٣ هـ تفاقم شر هذا العدوان الذي أضمره المتشيعون للمصريين. وعاد المغاربة سيرتهم الأولي في القرافة ؛ فاحتلوا الدور وأجلوا سكانها عنها ؛ فشكا الأهلون إلى المعز واستغاثوا به — وكان قد أمر المغاربة أن يسكنوا أطراف المدينة — فأصدر الأوامر إلى المغاربة بإخلاء هذه الدور والتحول إلى الخندق الكائن علي مقربة من عين شمس ؛ وركب هو بنفسه فعين مواضع لنزولهم، وأقر المال المطلوب للبناء، كما جعل لهم واليا وقاضيا

---

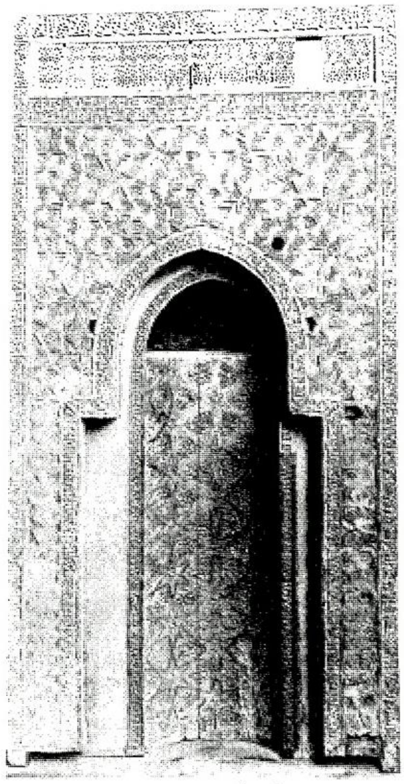
[١] شرحه (ص ٩٤) .

[٢] ابن ميسر (ص ٤٥) ، والمقريزي : اتعاظ الحنفا (ص ٩٤) .

عهد اليهما النظر في أحوالهم [1].



محراب من خشب أصله من مشهد السيدة نفيسه



محراب من خشب أصله من مشهد السيدة رقيه

علي أن هذه الاجراءات لم تكفل للمصريين الاطمئنان علي أنفسهم وأموالهم من المغاربة ؛ فقد ظلوا يخالطون أهل مصر حتي يتم إعداد مساكنهم الجديدة. أما المتشيعون من المصريين فكان عددهم قليلا ؛ غير أنهم كانوا أقوياء بالمغاربة الذين كانوا يشدون أزرهم، وبوجود حكومة شيعية تعضدهم، ولا سيما بعد وصول المعز.

وطالما كان يثور بركان العداء المستحكم بين هاتين الطائفتين في مناسبات كثيرة، وبخاصة عند الاحتفال ببعض الأعياد والرسوم الشيعية. أما الشيعيون فكانت تناصرهم

[1] ابن ميسر ص ٤٥

الحكومة طوال العهد الفاطمي، كما كان المغاربة يشدون أزرهم.

وكثيرا ما كان يصحب هذا العداء الذي أضمره السنيون للشيعيين الفتن والقلاقل. ففي العاشر من المحرم سنة ٣٦٣ هـ – وهو ذكري اليوم الذي قتل فيه الحسين بكربلاء – انصرف جماعة من المصريين المتشيعين، ومعهم فريق من فرسان المغاربة ورجالتهم من مشهدي أم كلثوم (بنت مُحَّد بن جعفر الصادق) ونفيسه ([١])، وساروا في موكبهم ينوحون ويبكون علي الحسين ؛ وحملوا الناس علي مشاركتهم في الحزن حملا ؛ فكسروا أواني السقائين في الأسواق، وسبوا من ظهر بغير مظاهر الحزن والأسي في هذا اليوم. فأغلقت الدكاكين وتعطلت حركة الأسواق، وكثرت القلاقل بين السنيين والشيعيين. فخرج ابن عمار – وكان من زعماء المغاربة – علي جناح السرعة، وتم علي يديه انفصال الفريقين بعضهما عن بعض [٢].

وكانت تقوم هذه الاضطرابات في مصر عند الاحتفال بهذا العيد، حتي قبل ان يتم فتح هذه البلاد علي يد الفاطميين. ففي عهد الدولة الأخشيدية، كان يتجمع السودانيون الذين أتي بهم كافور – وقد عرفوا بالتعصب ضد مذهب الشيعة – في الطرقات، وكانوا يسألون كل من يمر عليهم : من خالك ؟ فان قال معاوية، أكرموه وسمحوا له بالمسير ؛ وإن سكت لقي المكروه، وانتزعت ثيابه وأخذ ما معه. ولقد حاول كافور أن يحول دون وقوع هذا العدوان، فكان يعين في هذا اليوم حراسا علي أبواب المدينة المؤدية إلى الصحراء، فيمنعون الناس من الخروج [٣].

وقد تم عزل المغاربة عن أهل مصر بإنشاء الأحياء الخاصة بهم ؛ فحظرت عليهم السكني مع المصريين والمبيت في المدينة. وكان ينادي كل عشية، ألا يبين في المدينة أحد

---

[١] هي نفيسة بنت الحسن بن زيد بن احسن بن على بن أب ي طالب . دلت مصر مع زوجها اسحق بن جعفر الصادق ، وكانت صالحة تقية ، سمع منها الشافعي الحديث . ولما مات أدخلت اليها جنازته فصلت عليه ؛ وتوفيت في شهر رمضان سنة ثمان ومائتين .

[٢] المقريزي : اتعاظ الحنفا (ص ٩٦)

[٣] شرحه .(ص ٩٧)

من المغاربة [1]. ولم يسمع بعد موت المعز بشيء من أعمال العنف الكثيرة التي كنا نسمع بها من قبل، اللهم إلا عند إقامة بعض الأعياد الدينية، حيث كانت تتجدد الشحناء بين السنيين والشيعيين.

٥ – قاضي القضاة

كان جوهر ينوب عن الخليفة الفاطمي في حكم بلاد دخلت في حوزة الفاطميين منذ أمد قريب؛ وكانت سياسته تنطوي علي كثير من الحكمة وبعد النظر. ولقد رمي جوهر من وراء هذه السياسة إلى إفساح المجال أمام المغاربة، ليلموا بالنظم الادارية التي كانت تسير عليها الحكومة المصرية. ولكنه رأي بصائب نظره أن يكون تنفيذ هذه السياسة تدريجيا ؛ لأن العلاقات التي كانت بين السنيين والشيعيين، وبين المغاربة والمصريين، لم تكن علي صفاء دائما.

يؤيد هذا القول أن صيام شهر رمضان عند السنيين ينتهي بمجرد ظهور القمر، سواء أكان شهر شعبان تسعة وعشرين يوما أم ثلاثين، وذلك عملا بقوله صلي الله عليه وسلم : " صوموا لرؤيته

(هلال رمضان) وأفطروا لرؤيته (هلال شوال) ؛ فان غم عليكم (يعني إذا لم يكن من الممكن رؤية الهلال في نهاية اليوم التاسع والعشرين من شعبان بسبب تكاثف الغيم في السماء)، فأكملوا عدة شعبان ثلاثين يوما ".

ولكن جوهرا لم يرتض السير وفق هذه الطريقة التي لا تتفق مع أصول المذهب الشيعي. ففي سنة ٣٥٨ هـ أبطل الصوم بعد اليوم التاسع والعشرين من رمضان، وصلي العيد رؤية الهلال. فاعترض أهل الفسطاط علي ما فعل، وصاموا اليوم الثلاثين حسب أصول المذهب السني، ثم جعلوا العيد بعد ذلك بيوم، أي بعد رؤية الهلال ؛ واتبعوا في ذلك قاضيهم السني الذي تلمس الهلال جريا علي هذه العادة فوق سطح الجامع العتيق،

---

[1] أبن ميسر (ص ٤٥)

وأعلن انقضاء شهر الصوم. ولما بلغ ذلك جوهرا أنكر علي القاضي ما فعل وتهدده ([1]).

وظل أبو الطاهر – الذي تقلد القضاء قبل وصول الفاطميين – في منصبه حتي سنة ٣٦٦ هـ. ولكن سلطة القاضي قد ضعفت ضعفا شديدا علي أثر وصول المعز إلى القاهرة ؛ وكان في ذلك أشبه بالوزير الذي أقر في منصبه لاعتبارات سياسية لا غير.

وأولي هذه الاعتبارات هي أن المصريين لم يكن ينتظر منهم أن يسارعوا إلى اعتناق المذهب الشيعي. لذلك كان بقاء أبي الطاهر رغم كونه سنيا من الأمور السياسية التي لا مندوحة عنها، وإن كان ذلك صوريا، ولا سيما أن جوهرا أخذ علي نفسه العهود والمواثيق بأن يطلق للمصريين الحرية التامة في اعتناق مذهبهم. فكان عزل هذا القاضي الذي ظل في منصب القضاء منذ ربيع الأول سنة ٣٤٨ وإحلال قاض من الشيعة محله، مما يثير شعور الجمهور.

وإن سلوك أبي الطاهر عند وصول المعز ليدل علي مقدار ما كان يضمره المتعصبون من السنيين من عداء للمتشيعين في شخص هذا الحاكم الشيعي ؛ فقد نزل جميع المستقبلين عن مطاياهم وقبلوا الأرض بين يديه ما عدا أبا الطاهر. يدلك علي ذلك ما أورده لنا المقريزي في مخطوطه المقفى الكبير حيث يقول :

" لما ورد المعز مصر، استقبله الناس علي طبقاتهم مشاة ؛ فلما رأوه، قبلوا الأرض بين يديه كلهم، سوي القاضي أبي الطاهر، فإنه كان راكبا. ولما قرب ترجل وسلم عليه، ولم يقبل الأرض. فالتفت المعز إلى خواص حجابه وقال : من هذا الذي خالف الناس كلهم ؟ فقيل قاضي مصر، وهو من أهل العلم والدين. ثم لامه أحد الحجاب سرا (هكذا) فيما فعل ؛ فرفع صوته وقال جهرا بحيث يسمع المعز : وما (هكذا) هذا ؟ (أ) هو الشمس التي قال رسول الله صلي الله عليه وسلم، من علامات الساعة طلوع الشمس من مغربها ن وقال الله تعالى (ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر ؛ لا تسجدوا للشمس ولا للقمر، واسجدوا لله الذي خلقهن ان كنتم إياه تعبدون) ؟، فأرضاه بذلك، واستحسن

[1] الكندي ص ٥٨٦) , والمقريزي : اتعاظ الحنفا (ص ٧٦)

قوله ؛ فرجع وهو قاض وعلت منزلته " [١]

وليس ما يمنعنا من أن نظن أن هذا القاضي انما بقى في منصبه طبقا لهذه السياسة العامة التي جرى عليها الفاطميون ؛ لا لأن الخليفة قد اقتنع بخطابه الذي نتبين من ثناياه ما أضمره هذا الفقيه من كراهة لأهل الشيعة ؛ فان سلطة أبي الطاهر ما لبثت أن اضمحلت، وألزم في أواخر عهده في القضاء أن يصدر أحكامه وفق قوانين المذهب الشيعي [٢] .

٦- تضاؤل نفوذ القاضي

ظل القضاء والإمامة والخطابة في يد رجال من السنيين الذين تقلدوا هذه المنصب في أواخر أيام الأخشيديين. ثم ظهر تضاؤل نفوذ القاضي في سنة **٣٦٣** هـ، بل ألزم —كما قلنا — أن يصدر أحكامه طبقا لأصول المذهب الشيعي الذي ساد البلاد في ذلك الوقت، كما اشترك معه في منصبه قاضيان من المغاربة.

ويحدثنا ابن ميسر [٣] أن أباب سعيد عبد الله ابن أبي ثوبان، الذي صحب المعز الى مصر، تقلد في شوال سنة **٣٦٢** النظر في المظالم [٤]الخاصة بالمغاربة. ولم تلبث أن ازدادت سلطة ابن ابي ثوبان هذا، فلم تقتصر على النظر في قضايا المغاربة وحدهم، أو في القضايا المشتركة بينهم وبين المصريين، بل آل اليه النظر في قضايا المصريين أنفسهم، وغدا يطلق عليه اسم قاضى مصر والإسكندرية [٥].

كذلك نصب من المغاربة قاض آخر — صحب المعز الى مصر أيضا — وشارك

---

[١] المقريزي : المقفي الكبير ، مكتبة الجامعة بليدن ، مخطوط ١٣٦٦ ، المجلد الأول ، ورقة ١٨٢ .

[٢] الكندي ص ٥٨٤

وقد خالف ابن زولاق ذلك فقال ، انه بعد ان وصل الخليفة المعز الى الأسكندية ، خلع على أبي الطاهر الذي سار معه الى القاهرة وهو ممتط جواده ، وقد سأله المعز وهو في الطريق : "كم رأيت يا قاضي خليفة ؟ " فقال القاضي : " واحدا والباقي ملوك ! " .

[٣](ص ٤٤)

[٤] هي محكمة عليا كانت تعقد من قبل برياسة الخليفة نفسه .

[٥] الكندي (ص ٣٨٧)

القاضي أبا الطاهر في سلطته. وهذا التنصيب يدل على ما ظهر في سياسة الفاطميين من تغير جديد بعد ان تم لهم فتح مصر، حيث أصبح القضاء يقلد لاثنين من الموظفين، أحدهما سني والآخر شيعي. وليس معنى ذلك زوال سلطة القاضي السني تدريجا فحسب، بل ذلك ايذان أيضا بانتهاء عهد تقلد السنيين منصب القضاء [١].

ولم يذكر لنا المؤرخون تاريخ تقلد على بن النعمان القضاء. غير أنه يظهر مما ذكره ابن ميسر (ص ٤٤) أنه بدأ حياته في القضاء منذ سنة ٣٦٣ هـ، أي بعد أن تقلد ابن

---

(١) نعم ! كان منصب القضاء يعهد به لبعض السنيين أحيانا ، اذا أن الفاطميين في أواخر عهدهم لم يسيروا دائما على قاعدة اسناد القضاء الى المتشيعين خاصة . ولنضرب لذلك مثلا ما كان من اسناد الحاكم بأمر الله هذا المنصب في العشرين من شعبان سنة ٤٠٥ لجل من أهل السنة ، بقى فيه أثنتي عشرة سنة وسبعة أشهر ، ثم مات في عهد الخليفة الظاهر . ويحدثنا ابن حجر (رفع الإصر ، ورقة ٢١٤ ب) أن القاضي مالك بن سعيد الفارقي قتل لأربع بقين من شهر ربيع الأول سنة ٤٠٥ هـ ، فخلا منصب القضاء ثلاثة أشهر وثلاثة وعشرين يوما ، أي الى العشرين من شعبان ، فتقلده أبو العباس ابن العوام الحنبلي المذهب . وان خلو هذا المنصب طوال هذه المدة يؤيد ما ذهبنا اليه ، من أنه لم يكن من المهل العثور على فقيه من الشيعيين يطلح لتولى هذا المركز . ولقد أدلى لنا ابن حجر (رفع الإصر ورقة ٤٣ ب وما يتبعها) بالظروف الت أدت الى تقلد ابن العوام أعباء هذا المنصب فقال : " وكان قد قدم مصر رجل مكفوف يقال له أبو الفضل جعفر ، من أهل العلم بالنحو واللغة ، قدم على الحاكم فأعجب به وخلع عليه ، وأقطعه اقطاعا ولقبه عالم العلماء ، وجعله يجلس في دار العلم التي أنشأها ، ليدرس للناس اللغة والنحو . فخلا به الحاكم فجعل يسأله عن الناس واحدا واحدا ، من يصلح منهم للقضاء ؛ وكان الحاكم عارفا بهم … … فلم يزل يذكر ، حتى وقع الاختيار على أبي العباس ، فقيل للحاكم : ليس هو على مذهبك ، ولا على مذهب من سلف من آبائك ، فقال : هو فقيه مأمون مصري مأمون مصري ، عارف بالقضاء وبأهل البلد ، وما في المصريين من يصلح لهذا الأمر غيره " .

ومن المهم أن نلم بما ذكره ابن حجر (رفع الإصر ، ورقة ٤٥ ا) من أن ابن العوام قد شهد عند القاضي محمد بن النعمان (الكندي طبعة رومة ، سنة ١٩٠٨ ، ص ١٦٢) في سنة ٣٨٤ هـ . ومن هنا يتضح ما كلن لمنصب القضاء من حرمة وقداسة ، حيث يقف رجل سبق له تولية هذا المنصب أمام القاضي . ويغلب أن يكون ذلك في القضايا الهامة التي قد يكون هذا القاضي أعلم من غيره .

ويزيدنا أبن حجر (رفع الإصر ورقة ٤٤ ب) أن ابن العوام تقلد وخلع عليه (واضيف اليه في الأحكام مصر وبرقة وصقلية والشام والحرمان ، ما عدا فلسطين ، فان الحاكم كان قد ولاها أبا طالب بنت الزيدي الحسيني ، وجعل للعباس النظر في العيار ودار الضرب والصلاة والمواريث والمساجد والجوامع) بسبب ما كان لابي الفضل من نفوذ لدى الخليفة الحاكم . ولكنه لما لم يكن هذا القاضي يدين بعقائد المذهب الشيعي ، اشتمل سجله الذي قرئ في القصر وعلى منبر الجامع العتيق على فقرة شرط فيها عليه أن يصدر أحكامه طبقا لقانون الشيعة ، وأن يكون معه في مجلس القضاء أربعة من القضاة (الشيعيين بلا مراء) يعينون من قبل الخليفة . ومن ذلك يتضح أن تعيين غير الشيعيين كان قليلا حدوثه ، وعلى شريطة خضوعهم لأحكام مذهب الشيعة .

أبي ثوبان منصبه بأشهر قلائل.

ولما أقتسم القضاء ابن النعمان وأبو الطاهر، كان لكل منهما شهوده الذين يستعين بهم في أحكامه. وجلس أولهما للحكم في الجامع العتيق، وثانيهما في الجامع الأزهر [١]؛ وظلت الحال على ذلك الى شهر صفر سنة ٣٦٦، وفيه أضلع على بن النعمان بالقضاء عامة .

وتظهر لنا صحة ما رواه ابن حجر عن استقالة هذا القاضي. وهو يختلف عما ذكره القضاعي [٢] والمقريزي ؛ فقد أيد كل منهما القول بأن القاضي قدم استقالته الى الخليفة العزيز [٣] لأسباب صحية. وزاد المقريزي أن العزيز ركب في صفر سنة ٣٦٦ الى الموضع المعروف بالجنان في جزيرة الروضة على مقربة من جامع عمرو، حيث يعقد أبو الطاهر مجلس الحكم. وهناك استقبل أبو الطاهر وشهوده الخليفة العزيز، وسأله أن يأذن له في استخلاف ولده [٤] بسبب ضعفه. ولقد قبلت استقالة القاضي على الفور، وكأن الخليفة كان ينتظرها بتلهف.

ونحن نعلم أن سياسة الفاطميين كانت ترمى الى إضعاف نفوذ السنيين تدريجيا، بحيث لا يقف معها دولاب الأعمال الحكومية أو يتكدر صفاء البلاد بتذمر السنيين وسخطهم. ولم تنقض ثلاثة أيام على تقديم القاضي استقالته، حتى قلد العزيز على بن النعمان الشيعي المذهب [٥].

ويحدثنا الكندي [٦] أنه قرئ على منبر الجامع العتيق سجل بتقليد ابن النعمان

---

[١] ابن حجر : رفع الإصر ، المكتبة الملكية بالقاهرة ، مخطوط ٢٢١٥ ورقة ١٩٤ ب .

[٢] المكتبة الاهلية بباريس ، مخطوط ١٤٩١ ، ورقة ١١٩ ب .

[٣] ذكر المقريزي (المقفى الكبير ، ليدن ، مخطوط ١٣٦٦ ورقة ٨١ ا) أنه الخليفة المعز (المتوفى سنة ٣٦٥ هـ) . ويرجح عندنا أن ذكر لفظ العزيز خطأ من الناسخ ، بدليل ايراده بعد ذلك في سياق أقوال هذا المؤرخ .

[٤] قد أورد ابن زولاق هذه الحقيقة التاريخية (الكندي ص ٥٨٧) .

[٥] الكندي ص ٥٨٥

[٦] شرحه .

القضاء. وزاد ابن حجر [1] فقال إنه " ولى القضاء على مصر وأعمالها، والخطابة والإمامة والقيام في الذهب والفضة ". ويستطرد هذا المؤلف الكلام فيقول إن أبا الطاهر امتنع عن العمل مع ابن النعمان، فاستخلف هذا أخاه مُحَمَّدًا والحسن بن خليل الفقيه الشافعي، وشرط عليه أن يصدر أحكامه وفق المذهب الشيعي الذي يدين بعقائده الفاطميون.

ولقد ظل القضاء في يد الشيعيين من الإسماعيلية، وبقي أولاد النعمان يتقلدون هذا المنصب الى سنة ٣٩٨ هـ ؛ ففي صفر سنة ٣٩٣ . تقلد الحسين بن على بن النعمان القضاء في مصر وما يتبعها من الأعمال، وأسندت مقاليد الدعوة أول مرة لقاضي القضاة ؛ فغدا يطلق على ابن النعمان لقب " قاضي القضاة وداعى الدعاة ".

أما عن الخطابة، فقد أقيل بنو عبد السميع بعد أن تقلدوها نحو أربع وستين سنة، وأسندت الى جعفر بن الحسن الحسيني في الجامع العتيق، والى أخيه في الجامع الأزهر [2].

وفي سنة ٣٧٩ هـ كانت أكثر أمور الدولة المدنية والحربية والدينية قد تحولت ألى أيدي الشيعيين، وكان لزاما على الموظفين السنيين الذين ظل في أيديهم بعض المناصب الصغيرة، أن يسيروا وفق أحكام مذهب الإسماعيلية. وأصبح عزل كل من رمى منهم بالتقصير في مراعاة هذه الأحكام أمرا لا مفر منه ؛ وقد يكون ذلك خشية العزل أو الاضطهاد، أو لرغبة الناس في تقلد مناصب الحكومة أو الترقي في سلكها، مما دفع الكثيرين من الموظفين السنيين وغيرهم الى اعتناق المذهب الفاطمي.

وكذلك كانت الحال بالنسبة الى غير المسلمين من النصارى واليهود ؛ فقد دفع بهم الخوف من سوء معاملة الحكومة الى سلوك الطريق الذي سلكه غيرهم من المصريين.

٧ – قانون الوراثة في عهد الفاطميين

لقد ذكر لنا ابن حجر قضية رجل ادعى ملكية حمام كان لجده، وكان ينبغي أن ينتقل

---

(١) رفع الإصر ورقه ١٩٤ ب .

(٢) ابن دقماق ج ٤ ص ٦٤ ، والمقريزي خطط ج ٢ ص ٢٤٨ . كان ذلك في سنة ٣٧٩ هـ ، على ما ذكره ابن دقماق (ج ٤ ص ٦٤) .

الى امه حسب قانون الشيعي. وكان القاضي أبو الطاهر قد حكم في هذه القضية بأنه لم يكن لهذا الشخص حق في ادعاء الملكية، لأن جده قد وقف هذا الحمام على الأعمال الخيرية. ولقد أثارت هذه القضية شعور القاضيين السني والشيعي، وهذا الأخير قد حكم للمدعى، وأبطل بذلك ما حكم به أبو الطاهر.

ويظهر أن هذه المسألة قد أحدثت اهتماما خاصا ؛ لانها أفضت الى الخلافة في وجهة نظر كل من القاضيين اللذين حكم كل منهما حسب قانون المذهب الذي يدين بعقائده. ويحدثنا ابن حجر نقلا عن ابن زولاق (المتوفي سنة ٣٨٧ هـ) أن المدعى شكا الى الخليفة المعز، فامر قاضيه الشيعي بأن ينظر في هذه القضية ثانية. [١]

ولقد ذكر أبن زولاق أن هذه الحوادث هاجت شعور التمرد في نفوس الشهود الذين كانوا يعملون مع ابن أبي ثوبان، حتى أن الخليفة المعز أمر أخيرا بأبطال الحكم الذي أصدره أبن أبي ثوبان، ليزيل السخط الذي دب في نفوس الشهود السنيين في ذلك الوقت على الأقل [٢].

وكانت نتيجة هذه الحوادث أن امتنع الشهود عن حضور مجالس الحكم التي كانت تعقد برياسة ابن أبي ثوبان ؛ فبدلهم هذا بشهود آخرين، ولعلهم كانوا من الشيعيين. على أ، هؤلاء اضطروا الى الاستقالة. وكان غضب أبي الطاهر والشهود سببا في عله ابن أبي ثوبان التي أودت بحياته[٣].

ونستطيع مما أدلى به ابن حجر أن نقول إن العلاقات بين أبي الطاهر وأبن أبي ثوبان لم تكن تنطوي على شيء من الود والصداقة. وهذا أثر الخلاف المذهبي الذي أدي بهذين الرجلين الى الحالة التي وصفناها. فقد أصدر القاضي الشيعي أحكامه طبقا لعقائد مذهب الشيعية الذي يخالف مذهب القاضي السني.

---

[١] الكندي ص ٥٨٧ و ٥٨٨

[٢] شرحه ص ٥٨٨

[٣] شرحه .

ويجيز قانون الشيعة للبنت أن ترث كل ما يترك أبوها، إذا لم يكن لها أخ أو أخت.

وهذا يخالف قانون مذهب السنة الذي يقضي بألا ترث البنت أكثر من نصف الثروة. ولقد تمسك القاضي الشيعي بتطبيق قانون الشيعة على أحكامه، وغدا في استاعته نقض ما يصدره أبو الطاهر من أحكام.

وللمقريزي كلام مستفيض عن قانون الوراثة في عهد الفاطميين، عند كلامه عن الفقيه المالكى مُحَّد بن الوليد الطرطوشي. ويحدثنا ياقوت أن الطرطوشي ينتسب الى مدينة طرطوشة [1] التي ولد فيها سنة ٤٥١ هـ (١٠٥٩ م)، وهى مدينى بالأندلس تقع الى الشرق من مدينة بلنسية الى تتصل بالكورة المسماة باسمها.

وقد تنقل الفقيه الطرطوشي في الحجاز والشام والعراق، ولقي العلم على أئمة العلماء والفقهاء في أمهات العواصم الإسلامية، من أمثال مكة وبيت المقدس وبغداد والبصر ؛ ثم رحل أخيرا لمشاهدة مصر، ونزل الإسكندرية واستوطنها، وبقى بها الى أن مات سنة ٥٢٠ هـ (١١٢٦ م). ولم يلبث أن تقرب الى الوزير المأمون، وأهدى اليه كتابه " سراج الملوك" [2].

وكان من مظاهر سرور الوزير بإهداء الطرطوشي له هذا الكتاب، أن رتب له خمسة دنانير في كل يوم من مال الجوالى ؛ فلم يقبل منها غير دينارين كان الوزير الأفضل بن أمير الجيوش بدر الجمالى قد أجراهما عليه.

وقد عدلت القاعدة التي تجيز للبنت بمقتضى قانون الشيعة أن تستولى على جميع الثروة التي يخلفها ابواها [3] اذا انفردات بالميراث. " وكان الداعي لحضور الطرطوشي أمر

---

[1] ذكر هذا اللفظ السمعاني في كتاب الانساب (ورقة ٣٧٠ ا) ، وابن خلكان (ج ١ ص ٦٠٧) . وخافه في ذلك ياقوت ، ذكره في " معجم البلدان " طرطوشة.

[2] ذكر ابن خلكان (ج ١ ص ٦٠٦) ان هذا الكتاب ليس " سراج الملوك " ، وانما هو كتاب " سراج الهدى " .

[3] السر في الشيعة يورثون البنت كل المال ويجعلونها حاجبة للاعمام أمران : أحدهما ان أبا بكر أخذ فدك (قرية بخيبر) من يد فاطمة ، وكان رسول الله أعطاها تلك الضيعة للارتفاق بها ، فادعت أنها ترث ذلك ؛ فاحتج أبو بكر بأن الأنبياء لا يورثون ، واستدل بحديث سمعه من رسول الله صلي الله عليه وسلم في ذلك . ثانيهما أن بني العباس يدعون أيلولة ميراث رسول الله من امامة المسلمين لهم ، لأنه عم رسول الله واولارث له يوم وفاته ، لأن ابنته فاطمة لا تحرز كل

المواريث ما يأخذه أمناء الحكم من أموال الأيتام، وهو ربع العشر، وتوريث البنت نصف المال، وكانوا يورثونها جميع المال مع وجود ذوى العصبية، كما هو مذهب آل البيت. فاعتذر المأمون (البطائحي) بأن هذه قضية لم يقل بها، وأن أمير الجيوش بدرا هو الذي أبتكرها..... واستمرت المناقشة الى أن

قال المأمون للفقيه : أنا لا أرى مخالفتك.....، وكتب توقيع شملته العلامة الآمرية والمأمونية، وهذا نصه بعد البسملة :

(١) يخلص لحرم ذوي الشيع الوارثات جميع موروثهم، و هو المنهاج القويم لقوله تعالى (وأولوا الارحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله، إن الله بكل شيء عليم) [١].

(٢) إن كل دارج من الناس على اختلاف طبقاتهم وتباين مذهبهم واعتقاداتهم، يحمل ما يترك من موجوده على حكم مذهبه في حياته، والمشهور من اعتقاده الى حين وفاته..... ويحمل اليه جزء من أموالهم الت أحلها الله لمن بعدهم.

(٣) إن أخذ ربع العشر من أموال الأيتام يعود ألى ما كانت عليه الحال.

(٤) أن يعوض أمناء الحكم عن ربع العشر من مال المواريث الحشرية.

(٥) من لا وارث له، حاضرا أو غائبا، فموجوده لبيت المال، إلا ما يستحقه زوج أو دين عليه.

(٦) وإن كان للمتوفي وارث غائب، فليحتفظ الحكام والمستخدمون بتركته. واذا حضر وأثبت استحقاقاه في مجلس الحكم بالباب على الأوضاع الشرعية الخالصة من الشبه والارتياب، فليخرج الامر بتسليمه اليه.

(٧) يعتمد القاضي ذلك بالباب، ويصدر الإعلام به الى سائر النواب. وبعد تلاوة هذا

المال ، وعلي أنزل من العباس . فقالوا هم انها تحرز كل الميراث ، ليمنعوا بني العباس من دعواهم . والى ذلك يشير شاعر بني العباس بقوله :

أني يكون وليس ذاك بكائن   لبني البنات وارثة الاعمام ؟

[١] سورة ٨ آية ٧٦

التوقيع بالمسجدين الجامعين [1]، وبالمعزية القاهرة المحروسة ومدينة ممصر على رءوس الاشهاد، ترسل نسخ منه الى جميع النواب عنه في البلاد ؛ وليخلد في مجلس الحكم بعد ثبوته في ديواني المجلس والخاص الآمرى.

لليلتين بقيتا من ذي القعدة سنة ٥١٦ هـ [2] "

ومما هو جدير بالذكر أن تغير قانون الوراثة أوائل القرن الرابع في حكم العباسيين قبل هذا التغيير الذي حصل في عهد الفاطميين. وذلك أنه في سنة ٣١١ هـ (٩٢٣ م) مات ببغداد رجل من أصحاب اليسار يدعى أبا عيسى أحمد، ولم يخلف ولدا، فآلت ثروته الى بيت المال بمقتضى قانون الوراثة المعمول به في ذلك الحين [3].

حدث ذلك في خلافة المعتمد العباسي ٢٥٦ – ٢٧٩ هـ (٨٦٩ – ٨٩٢ م)، فأمر خلفه المعتضد ٢٧٩ – ٢٨٩ هـ (٨٩٢ – ٩٠٢ م) بإرجاع القانون الى ما كان عليه من قبل. وظل الحال على ذلك الى عهد المكتفي ٢٨٩ –٢٩٥ هـ (٩٠٢ – ٩٠٨ م) [4] ، فصدر الأحكام في الميراث على حسب التعديل الذي أدخل على هذا القانون. [5]

ولقد أنكر هذا التعديل الوزير أبو الحسن على بن مُحَمَّد بن الفرات، وعده مخالفا لما جرى به قانون مذهب السنة، فحصل على موافقة الخليفة بتعديل قانون الوراثة، وصدر مرسوم مذيل بإمضاء الخليفة المقتدر يقضي [6] :

١– بأن يصرف القائمون بأعمال المواريث في سائر النواحي ويبطل أمرهم، ويرد النظر في أعما المواريث الى الحكام على ما كان يجري عليه قبل أيام المعتمد على الله.

---

[1] جامع عمرو والجامع الأزهر .

[2] المقفي الكبير للمقريزي ، ليدن ، مخطوط ١٦٤٧ ، المجلد الثالث ، ورقة ١٩٥ ا – ١٩٧ ب .

[3] هلال الصابئ ، تاريخ الوزراء ص ٢٤٦

[4] هلال الصابئ ص ٢٤٧ – ٢٤٨

[5] شرحه ص ٢٤٨

[6] شرحه ص ٢٤٨

٢- بأن يرد على ذوى الارحام ما أوجب الله عز وجل، ورسوله ﷺ، وعمر بن الخطاب وعلى بن أبي طالب، ومن اتبعهم من أئمة الهدي.

٣- وبأن ترد تركة من مات من أهل الذمة ولم يخلف وارثا على أهل ملته.

٤- وأن يعمل على إذاعة ما أمر، وإظهاره وقراءته على الناس في المسجدين الجامعين بمدينة السلام (بغداد)، ليكون مشهورا متعارفا، والخبر به الى الأدانى والاقاصي واصلا [١].

ولنشرع الآن في الكلام عن حالة غير المسلمين بالأعمال الكتابية والحسابية والتحرير في ديوان الخليفة، وكانوا هم وبعض النصارى الملكيين يستخدمون في كافة فروع الإدارة، وتدرجوا في المناصب حتى أسندت إليهم الوزارة.

ولقد حازت هذه السياسة القبول من الوجهة العملية. إلا أنه قد دبت لهم الكراهة لهم في النفوس عند ما أصبح منهم كل جباة الضرائب والقائمون على أموال الدولة.

ويقول أوليري (o'leary) : " ان النظام الاداري للشئون المالية في الشرق قد أمد القبط واليهود بفرصة أظهروا فيها ما انطوت عليه نفوسهم من الظلم والخيانة، تلك العواطف التي لم يستطيعوا كبح جماحها ؛ حتى لقد قام الدليل على صحة ما رموا به من التهم الكثيرة. على أن استخدام النصارى واليهود في المناصب المدنية هو عرف شائع قليلا أو كثيرا في البلاد الإسلامية، فقد بالغ الفاطميون أنفسهم في استعماله أكثر مما جرت به العادة من قبل " [٢].

والآن نبحث في سياسة الفاطميين مع المصريين. ويمكن تقسيم هذا الموضوع الى ثلاثة أقسام من حيث العلاقة التي كانت بينهم وبين : (١) أهل الذمة – وهم النصارى واليهود (٢) أهل السكان عامة

---

[١] شرحه ص ٢٤٨ – ٢٥٣

[٢] O'leary de laey , p . 114

الباب السادس

سياسة الفاطميين للمصريين

١- سياسة الفاطميين للنصارى واليهود

سنبين في هذا الباب كيف كانت أعما الفاطميين السياسية والدينية موجهة الى غاية واحدة، هي العمل بكل جد لحمل الناس على اعتناق مذهبهم وجعل المذهب الفاطمي سائدا في كافة أنحاء الديار المصرية وغيرها من البلاد التي كانت تحت حكمها.

لقد كان العزيز يعطف على النصارى واليهود كما كان أبوه قبله. ولكن العزيز كان أكثر عطفا على النصارى لما كان بينه وبينهم من صلة النسب ؛ فانه تزوج بنصرانية وعمل على تعيين أخويها بطيرقين ملكين – أعني بطريرقين للكنيسة التابعة للكنيسة الاغريقية الأرثوذكسية المخالفة لكنيسة اليعاقبة – وجعل أحدهما في الإسكندرية، والآخر في بيت المقدس [١].

ولقد توالى عطف الخليفة على الكنيسة القبطية، كما توالى أيضا على جماعة الملكيين التي كانت تتبعها زوجته، وسمح للبطريق القبطي إفراهام بإعادة كنيسة أبي سيفين المخربة بظاهر الفسطاط [٢].

ورفع العزيز عيسى بن نسطورس الى كرسي الوزارة، كما عين منشأ اليهودي واليا على الشام. فأظهر ابن نسطورس ومنشأ محاباة حلية بلني متلهم ؛ فعينوهم في مناصب الدولة بعد أن أقصو المسلمين عنها [٣] ؛ ومن ثم عاد شعور الكراهة نحو أبناء الطائفتين اليهود والنصارى. ولقد تجلى ذلك الشعور، فقدم المسلمون الاحتجاجات على تلك

---

[١] يحيى بن سعيد ص ١٤٤ – ١٤٥

[٢] أبو صلاح ص ٤٥ و ٤٦

[٣] أبو شجاع ص ١٨٦ **mann : the jews in Egypt , etc , pp . 19 , 20**

المحاباة التي أظهرها الخليفة لغير المسلمين. وبلغ من حال هؤلاء الساخطين أن كتب أحدهم شكاية واعطاها امرأة [1]، ورغبها بالمال لتقف في سبيل الخليفة العزيز [2] وتقدمها اليه، وفيها : " أعز النصارى بعيسى ابن نسطورس، واليهود بمنشأ بن إبراهيم الفرار، وأذل المسلمين بك، إلا نظرت في أمرى " ؟

ويقول أبو شجاع إن العزيز أمر بالبحث عن هذه المرأة، فلم يعثروا عليها. فأمر في الحال بالقبض على ابن نسطورس [3]وسائر الكتاب من النصارى ن وكتب إلى الشام بالقبض على منشأ وغيره من الموظفين اليهود ؛ أمر برد الدواوين والأعمال إلى الكتاب المسلمين، وعين القضاة للإشراف على أعمالهم في جميع أنحاء الإمبراطورية الفاطمية. ولكن الأميرة ست الملك ابنة الخليفة شفعت له، فرد العزيز الوزارة إلى ابن نسطورس ثانيا، وشرط عليه استخدام المسلمين في دواوين الحكومة [4]. غير أن ابن نسطورس إلى الوزارة لم يحز رضى المسلمين، بل زاد في كراهتهم ؛ فسرعان ما أنفجر بركان هذه الكراهه

---

[1] روى أبو الفدا (ج ٢ ص ١٣٨) وأبن اياس (ج ١ ص ٤٧ و ٤٨) عن المسبحي ، أن هذه المرأة التي اعترضت العزيز لم تكن امرأة حقيقية ، وانما هي صورة مصنوعة من المورق على هيئة امرأة . ويقول ابن اياس إن الصورة كانت عبارة عن مبخرة حديدية في زي مرأة ، ويدها ممتدة بالشكوى ؛ وهذا يخالف ما ذكره أبو شجاع وغيره من الكتاب الذين عاشوا قبله كابن القلانسي (ص ٣٣) ، بل وغيره من المؤرخين الذين جاءوا بعده كالسيوطي (ج ٢ ص ١٧) .

[2] ذكر اوليري (ص ١٤٣) ان هذه الحادثة كانت في خلافة الحاكم ؛ وربما كان ذلك لأن أبا الفدا ، الذي روى أوليري عنه هذه الحكاية ، قد ذكرها عند كلامه على سنة ٣٨٦ هـ ، وهى السنة التي توفى فيها العزيز وتولى الحاكم . ويظهر لنا أن رواية أبي الفدا لا تعتمد على مرجع صحيح ؛ لأن هذه الحادثة وقعت سنة ٣٨٠ هـ (أنظر " أبو شجاع " ص ١٨٦ وابن القلانسى ص ٣٣) .

[3] ذكر ابن زولاق (المكتبة الأهلية بباريس ، مخطوط ١٨١٧ ، ورقة ٥٠ ا) أ، العزيز " أرسل من وقته وساعته وصلب النصراني على باب القصر ، وارسل لليهودي بدمشق ،وسصلبه على باب المدينة " . ولكن ابن زولاق لم يبين لنا ان كانت هذه المدينة هي القاهرة أو دمشق . على أن يظهر من كلام ابن زولاق أن الصلب كان على باب القاهرة ؛ لأن قوله " أرسل لليهودي بدمشق " رسولا يحضره) تقرب الى الذهن أن الصلب كان على باب مدينة القاهرة ، وأن صلب ابن نسطورس لا يقتضى موته ، لأنه عاش بعد ذلك ما يقرب من سبع سنين . وموته مع ابن زولاق في سنة واحدة ، وهو همدتنا في هذه المسألة ، مما يجعل هذه الرواية أقرب الى الصحة من غيرها ؛ فان رواية ابن إياس (ج ١ ص ٤٩) التي نقلها عن المسبحي بأن ابن نسطورس ومنشا شنقا ، وأن الأول شنق على باب القصر والثاني على أحد أبواب دمشق ، بعيدة عن الصحة ؛ لأن ابن نسطورس عاش بعد ذلك عدة سنوات .

[4] أبو شجاع ص ١٨٧

عندما ارتقي الحاكم عرش الخلافة. فتقدم الكتاميون – وهم عصب الخلافة الفاطمية وقوتها في مصر – إلى الخليفة الجديد، طالبين عزل ابن نسطورس وتولية زعيمهم أبي مُحَمَّد الحسن بن عمار،و هددوا هاذ الخليفة بالكامتناع عن تقديم فروض الطاعة والولاء، بل وبالقتل إذا لم يصغ إلى شكواهم ويعمل على تحقيق رغباتهم [١]. فلم ير الحاكم با من إجابتهم.

وفي ٣ شوال سنة ٣٨٦ تقلد ابن عمار أزمة الأمور، وتلقب بأمين الدولة [٢]. وكان الحاكم في غضون الأربع السنوات الأولى من خلافته (٣٨٦ – ٣٩٠) صغيرا لا يستطيع القيام بمهام الدولة، فانه ارتقى عرش الخلافة في الحادية عشر من عمره ؛ وعهد بالوزارة – اتلى كان يطلق عليها " الوساطة " في ذلك الوقت – إلى ابن عمال (٣ شوال سنة٣٨٦ – ٢٧ شعبان سنة ٣٨٧)، ومن بعده إلى برجوان [٣]. (٢٧ شعبان سنة ٣٨٧ – ٢٦ ربيع الثاني سنة ٣٩٠) أستاذ الحاكم ومستشاره [٤].

ولقد ظهر سوء إدارة ابن عمار في كثير من الاعمال بما أتاه في عهد تقلده الوساطة. إذ بالغ في محاباة الكتاميين وأبطل أعطيات الاتراك [٥]، واعتمد على معونة أحداث المغاربة الذين أتو من الأعمال ما أثار عليهم الاتراك وأدى الى التطاحن بين الفريقين. وكان برجوان ينافس ابن عمار ويناوئه العداء، مع تعضيد الاتراك له ؛ فكان من أثر هذا

[١] ابن القلانسي ص ٤٤ و ٤٥

[٢] أبو شجاع ص ٢٢٢

[٣] أنظر ترجمة برجوان في ابن خلكان (ج ١ ص ١١٠) . وقد أطلق عليه أبو شجاع وابن الأثير (ج ٩ ص ٤٢) أرجوان . وذكر هذا اللفظ الأستاذ مرجوليوث في ترجمته لكتاب " تجارب الأمم " لمسكويه ، المذيل بتاريخ أبي شجاع . ويستعمل هذا اللفظ في أغلب كتب تاريخ الأدب باسم برجوان ، ولا يزال باقيا الى اليوم في الحارة المسماة بحارة برجوان في القاهرة بجهة الخرنفش . ويطلق عليه أبو شجاع بتليس . ونقل ناشر الأصل العربي لتاريخ أبي شجاع هذا اللفظ عن أبن القلانسي (ص ٤٤) .

أنظر يحيى بن سعيد (ص ١٨٤) وابن القلانسي (ص ٤٤) وابن منجب (ص ٢٧) وابن ميسر (ص ٥٣) وابن خلكان (ج ١ ص ١١٠) والمقريزي (خطط ج ٢ ص ٢٨٧) .

[٤] ابن منجب ص ٢٧

[٥] هذه الحقيقة قد أدلى بها ابن منجب (ص ٢٨) .

التطاحن أن هرب ابن عمار إلى الصحراء [١]. وحل محله برجوان [٢]

وبالرغم مما أظهره الكتاميون من الكراهة الشديدة للنصارى واليهود، فان الحاكم قد قلد ابن نسطورس ديوان الخاصة. ويغلب على الظن أن ذلك كان يسعى برجوان ونفوذ ست الملك أخت الخليفة التي كانت السبب في حفظ حياته وإرجاعه الى مركز الوساطة. ويحدثنا ابن ميسر [٣] أن ابن نسطورس قتل في المحرم من سنة ٣٨٧ [٤]، أي بعد تقلده هذه الوظيفة الجديدة بعدة أشهر.

والعبارة التي أوردها لنا أبو شجاع [٥] عن قتل ابن نسطورس تشوبها شائبة الغموض. فانه قد ذكر أن ابن عمار قتله (ابن نسطورس) وهو في الوزارة. وفي ذلك يقول : " وكان عيسى ابن نسطورس على حاله في الوزارة، فبلغه عنه ما أنكره فضرب عنقه " [٦]

ولعل هذا الغموض الذي يبدو في عبارة أبي شجاع يرجع الى جهله بالتاريخ الذي تقلد فيه ابن عمار مقاليد الوساطة (الوزارة ؛ ويؤيد ذلك أنه لم يذكر لنا شيئا عن هذا التقليد. ولكن ما ذكره أبو شجاع من زعامة ابن عمار للكتاميين وتلقيبه بأمين الدولة، يجعلنا نميل إلى القول بأنه تقلد الوزارة قبل قتل ابن نسطورس.

يضاف الى ذلك ما قاله يحي بن سعيد من أن ابن نسطورس لم يكن حين وفاته في دست الوزارة حيث يقول : " وكان عيسى بن نسطورس قد رسم أيام نظره رسوما جائرة، وأحدث مكوسا زائدة... فحذف ابن عمار جميع ذلك ورد الأمور الى ما كانت عليه،

---

[١] ذكر ابن منجب (ص ٢٧) أن ابن عمار قدم استقالته الى الخليفة التي بادر الى قبولها وعين برجوان في محله . ولكن فراره إلى الصحراء مع جماعة من أعوانه وبقاءه مختفيا مدة من الزن الى أن امته برجوان ، يقرب الى الذهن أنه لم يستقل (انظر أبا شجاع ص ٢٢٦) . وقال يحي بن سعيد (ص ١٨١) إنه بقى مختفيا في داره في القاهرة ؛ وخالفه ابن القلانسي في ذلك فقال ان ابن عمار اختفى في بيت رجل من العامة ؛ وهذا أرجح في نظرنا .

[٢] ابن القلانسي ص ٤٤

[٣] ص ٥١ و ٥٤

[٤] يقول المقريزي (خطط ج ٢ ص ٢٨٧) إن وفاة ابن نسطورس كانت ففي سنة ٤٠٣ ، وهو خطأ واضح

[٥] يظهر أن ابن القلانسي (ص ٣٣) قد نقل هذه العبارة .

[٦] ص ٢٢٣

وقبض على ابن نسطورس واعتقله ثم قتله "[1]

ومع ذلك فان ما أورده يحيى بن سعيد يناقض ما ذكره ابن ميسر [2]، من أن ابن نسطورس تقلد ديوان الخاصة للخليفة إلى أ، قتل بع شهور قلائل.

وإنا نميل الى صحة عبارة ابن منجب ونراها أرجح من رواية يحيى بن سعيد، ولو أن وفاته (٥٤٢ هـ) كانت بعد وفاة يحيى بن سعيد (٤٥٨ هـ) بما يقرب من ثمانين سنة. فانه فضلا عن كونه مصري المولد والدار، فقد تقلد أيضا ديوان الرسائل ؛ فيحتمل أن يكون قد حصل على هذه الأخبار من وثائق رسمية. واذا فأنا أرجح أن ابن نسطورس قد نقل الى ديوان الخاصة للخليفة عند صرفه من الوزارة، أو بعد ذلك بقليل، وأنه قد اتهم بالعبث بأموال الدولة، فأعطى بذلك خصمه زعيم الكتاميين سلاحا للتخلص منه بقتله.

ولقد ظل الخليفة الحاكم تحت إشراف برجوان الى اليوم السادس والعشرين من شهر ربيع الثاني سنة ٣٩٠، وهو اليوم الذي قتل فيه برجوان [3]. وفى الشطر الأول من خلافة الحاكم (٣٩٠ – ٣٩٥ هـ)، حين أصبح عقله مختلا وسياسته مضطربة، أظهر تعصبا شديدا للمذهب الفاطمي. وفي الشطر الثاني من خلافته (٣٩٦ – ٤٠١ هـ)، اضطر أن يغير سياسة التعصب المذهبي، لما كان من اضطراب حبل الأمور في داخل البلاد، بسبب ما نزل بها من المجاعة والضنك وتهديد الأعداء بالإغارة على حدودها الغربية ؛ فكان لا بد له من القضاء على الثورة الداخلية وصد هؤلاء الأعداء المهاجمين.

ففي سنة ٣٩٣ هـ نشط في عمارة المساجد وفي إغداق الإحسان على المساجد. " وأهتم مع ذلك بتشجيع مبادئ المذهب الفاطمي، وقسا على اليهود والنصارى في المعاملة، مسوقا بضغط الرأي العام الذي لا يشك في أنه قد هاجه ما رآه من الخلفاء

---

[1] ص ١٨٠

[2] ص ٥٤

[3] ذكر هذا التاريخ ابن منجب (ص ٢٧) . وقال أبو شجاع (ص٢٣٠ و ٢٣١) بعد أن أدلى بالأسباب التي افضت الى قتل برجوان ، إن وفاته كانت في سنة ٣٨١ ، أي قبل ولاية الحاكم الخلافة بخمس سنين . وذكر ابن القلانسي (ص ٥٥) أن الخطوات التي أتخذت لقتل برجوان بدأت في سنة ٣٨٩ . واتفق الذهبي مع ابن منجب (شرحه ، حاشية ١ ، فذكر كل منهما أن وفاة برجوان كانت سنة ٣٩٠ هـ .

الفاطميين من محاباة غير المسلمين "[1] .

كان من أثر هذه السياسة التي جرى عليها الحاكم أن قتل فهد بن إبراهيم في الثامن من جمادي الأولى سنة ٣٩٣. وقد بينا قبل أن برجوان تقلد الوساطة في السابع والعشرين من رمضان سنة ٣٨٧ هـ، وجعل فهذا كتابا له، وتلقب بالرئيس، وعهد اليه بفض الشكايات والاشراف على غلمان القصر، ومعاونة برجوان في إدارة شئون الدولة والنيابة عنه اذا غاب. فلما مات برجوان وحل محله الحسين بن جوهر، كان فهد معه كما كان مع سلفه، وبقى كذلك أن قتل في أيامه [2].

ولقد تعصب الجمهور وتعصب الكتاميين بوجه خاص، وروح التبرم الت أثارت عليه حفيظة رجال الدولة، وشعور الكراهة التي سادت النفوس ضد النصارى تأثير كبير في قتل فهد بن إبراهيم.

ففي جمادي الثانية من سنة ٣٩٣ هـ أشار ابن العداس — وكان من وزراء العزيز الفاطمي — على أبي طاهر النحوي الذي كان يعرف بالكاتب، وكان يتولى ديوان الشام [3]، وأن يخبر الخليفة بما تشكوه العامة من النصارى ومناصرة فهم لهم وتفويضه اليهم الأموال والدواوين [4]، وأن يضيف الى ذلك فهدا " آفة على المسلمين وعدة للنصارى ".

وقد أجاب أبو طاهر الى ذلك. ولقى الحاكم عشية ذلك اليوم وكررها ما كان قد سمعه من ابن العداس ثم قال : " يا مولانا ! ان كنت تؤثر جميع الأموال واعزاز الإسلام، فأرني رأس فهد بن إبراهيم في طست، وإلا لم يتم من هذا شيء ". فقال الحاكم : " ويحك ! ومن يقوم بهذا الأمر " ؟ فاقترح اسم ابن العداس ؛ فرضى الحاكم على كره منه، كما

---

[1] O'leary , 143

[2] يحيى ابن سعيد (ص ١٨٥) ، وابن القلانسي (ص ٥٦)

[3] كان أبو طاهر متقلدا ديوان الحجاز على ما ذكره ابن القلانسي (صص٥٩) .

[4] ابن القلانسي (ص٥٩) .

يظهر ذلك من ملاحظته على كلام ابن النحوى [١].

ثم أعلم ابن النحوي ابن العداس بما كان من موقفه الخليفة ؛ فلم يشك هذا في أن الحاكم سوف يثأر لقتل فهد وقال له : " ويحك ! قتلتني نفسك ".

وأن هذا الرأي الذي أبداه ابن عداس، يبين بوضوح ان الحاكم شعر بشيء من التبرم لارتكاب هذا العدوان على رعاياه من غير المسلمين. وعلى كل، فقد خلف ابن العداس فهدا في مركزه ؛ ولم يمض تسعة وعشرون يوما حت قتل وأحرق (٦ شعبان سنة ٣٩٣).

وفي الخامس عشر من رجب – أي بعد مقتل فهد بأسبوع واحد – لحق به أبو طاهر [٢].أما فهد، فان الحاكم أحضر أولاده على أثر مقتله، وخلع عليهم وكتب لهم سجلا بحمايتهم ومنع الأذى عنهم [٣].

وكانت الخطوة الأولى التي اتخذها الحامك لتنفيذ سياسته أو اشتد على كبار موظفيه وحملهم على الإسلام، ليزيل بذلك الأمور التي أتهموا بها ؛ فأمر بالقبض على بعض رؤساء الكتاب من النصارى. ولكن الحاكم قد أطلق سراحهم وأعيدوا الى مراكزهم بشفاعة أبي الفتح سهل بن مقشر النصراني، طبيب الخليفة الخاص الذي كان مقربا منه كما كان مقربا من ابيه العزيز [٤].

وفي سنة ٣٩٥ هـ (١٠٠٤ – ١٠٠٥ م) أمر الحاكم النصارى واليهود بشد الزنار ولبس الغيار [٥].

وفي سنة ٣٩٨ هـ (١٠٠٧ – ١٠٠٨ م) بأن سياسة الحاكم العدائية إزاء النصارى

---

[١] ابن القلانسي (ص ٥٩ و ٦٠) ، والمقريزي خطط (ج ٢ ص ٣١) .

[٢] ابن القلانسي (ص ٦٠ و ٦١) .

لقد تناول كل من ابي شجاع (ص ٢٢٦ و ٢٣٠ و ٢٣٢ و ٢٣٦) ويحيى بن سعيد (ص ١٨٥) الكلام على هذه المسائل بايجاز .

[٣] ابن القلانسي (ص ٦٠).

[٤] يحيى بن سعيد (ص ١٨٥ و ١٨٦) ، والقفطي (١٧٨ و ٤٣٨) .

[٥] هو الشارة التي يعرف بها كل من الرعايا غير المسلمين التابعين للحكومة الإسلامية .

واليهود ؛ فهدم بعض الكنائس ونهب البعض، واستولى المسلمون على ما فيها من الأواني المقدسة والاثاث، وبيعت الاواني في الأسواق [(١)].

وقال يحيى بن سعيد [(٢)] إنه قد سمح للنصارى بأن ينوا ثلاث كنائس في مقابل الكنائس التي هدمت. وقد يكون السبب الذي دعا الى ذلك أن موقع الكنائس التي بني على أطلالها مسجدا الحاكم وراشدة قد اعتبر من المنافع العامة، فهدم لذلك لا لشيء آخر.

وفي سنة ٤٠٠ هـ تقلد الوزارة منصور بن عبدون النصراني بدل صالح بن على الروذباري [(٣)] (١١ صفر سنة ٤٠٠، في وقت كان الاضطهاد قائما على قدم وساق. ولقد أطلقت يد ابن عبدون وأصبحت له السلطة التامة في دارة البلاد، حتى إنه كان يوقع نيابة عن الخليفة. وعهد تقلد ابن عبدون الوزارة أمر جدير بالملاحظة، لما كان من إشارته على الخليفة بوجوب هدم كنيسة القمامة [(٤)] في بيت المقدس [(٥)].

وقد أصدر الحاكم الأوامر بمنع النصارى من الاحتفال بالنوروز على شواطئ النيل، وحرم الألعاب التي كانت تقام عند الاحتفال بهذا العيد [(٦)].

ويقول ابن زولاق إن المعز أبطل إقامة هذا الاحتفال (وربما كان ابنه العزيز هو الذي أعاده) بسبب ما كان يلازمه من المفاسد ؛ فكان ينادي بعدم الاحتفال وصلب كل من لم يطع أمره. ونحن ننقل قول ابن زولاق للقارئ : " ثم لما تولى المعز بمصر، منع القبط من

---

(١) يحيى ابن سعيد ص ١٨٦ و ١٩٥

(٢) ص ١٨٦

(٣) هذا اللفظ مشتق من روذبار وهى ، على ما ذكره السمعاني (كتاب الانساب ورقة ٢٦١ ب) ، أما كن معينة تقع في جهات مختلفة على الأنهار الكبيرة . ويطلق هذا اللفظ كذلك على قرى كثيرة تقع مقربة من أصبهان ، وعلى قرية قريبة تقع من بغداد .

(٤) اطلاق لفظ القمامة على الكنيسة المعروفة في القدس ، لان موضعها مان قد اتخذه اليهود مزبلة ، حتى جاءت هيلانة أم قسطنطين وسألت عن المكان الذي يزعمون أن المسيح صلب وغسل ودفن فيه ؛ فدلت على القمامة . فأزالت منه القمامات وبنت في موضعها الكنيسة . ويطلق هذا اللفظ أحيانا على الكنيسة بغير أداة التعريف .

(٥) يحيى بن سعيد ص ١٩٤ ، أبن القلانسي ص ٦١ و ٦٧ ،

(٦) يحيى بن سعيد ص١٩٦ ،

صب المياة في يوم النوروز في الطرقات، ووقود النار (في) تلك الليلة، ومن النزول في المراكب، وضرب الخيام على شاطئ البحر (يعني النيل) عن المقياس، لأنه كانت تحصل بسبب ذلك مفاسد عظيمة ؛ فأبطل ذلك جميعه، ونادي أن كل من يفعل ذلك يصلب"[١].

ولقد اتسع نطاق اضطهاد النصارى الذي قام به الحاكم. وربما كان ذلك ناشئا من إسناده مركز الوزارة إلى بعض النصارى واليهود ؛ فقد كان ذلك يوغر صدور المسلمين عليهم. ولما غضب عليهم الحاكم، اشتدت حكومته عليهم في تنفيذ الأوامر التي تقضي بلبس الغيار.

ففي المحرم سن ٤٠١ أقيل ابن عبدون من الوزارة بعد أن تقلدها أحد عشر شهرا، وتربع في دستها رجل من المسلمين، هو أحمد بن مُحَّد القشيري [٢]، ولكن هذا عزل بعد عشرة أيام [٣]، ثم قتل وحل محله في الوزارة زرعه أخو عيسى بن نسطورس، وتلقب بالشافي، وظل يطلق عليه هذا اللقب الى حين وفاته في صفر سنة ٤٠٣ [٤]. وفي ذلك الوقت بدأت سياسة الحاكم تظهر بمظهر أكثر تقلبا وتذبذبا، وأصبح عقله أكثر ارتباكا واضطرابا. اما سياسته مع غير المسلمين، وخاصة النصارى، فقد كانت تابعة لرأي جمهور الامة. ولم يكن استياؤهم راجعا لنحلتهم الدينية فحسب، بل ولأنهم كانوا يشتغلون بجمع الضرائب.

وفي سنتي ٤٠٠ و ٤٠١ هـ لم يقتصر الاضطهاد على غير المسلمين، بل تعداهم الى

---

[١] المكتبة الاهلية بباريس ، مخطوط ١٨١٧ ، ورقة ٤٨ ا . ذكر ابن ميسر (ص٤٦) وان اياس عن المسبحي (ج ١ ص ٤٦) أن المعز اصدر الأوامر بمنع إيقاد النيران في الليلة التي قبل يوم النوروز ، ومنع صب الماء في هذا اليوم .

[٢] قد أورد يحيى بن سعيد (ص ١٩٨) القسورى . ويحتمل أن يكون هذا اللفظ محرفا عن لفظ القصيري (انظر كتاب الأنساب للسمعاني ، ورقة ٤٥٥ ب) . وذكره ابن منجب (ص ٢٨) قشورى ، وصحته كما ذكره السمعاني (كتاب الأنساب ، ورقة ٤٥٣ ا وما يتبعها قشيري ، منسوب الى بني قشير وهى قبيلة كانت تقم في البصرة ، بنتسب اليها المحدث المشهور مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابورى صاحب الصحيح .

[٣] أو تسعة أيام على ما ذكره يحيى بن سعيد ص ١٩٨

[٤] يحيى بن سعيد ص ١٩٨ و ١٩٩) .

وقد وافانا ابن منجب (ص٢٨) بتاريخ وفاته .

بعض دوى المناصب العالية من الفاطميين، ثم انتهى بشموله جميع السكان على اختلاف طبقاتهم. فهرب من البلاد الحسين بن جوهر وأولاده، وعبدالعزيز بن النعمان قاضي القضاة سابقا، وأبو القاسم الحسين المغربي [1]، ومن الوزراء السابقين، وقتل كثير من كتاب " البلاط " والدواوين وخدام القصر. وفي شوال سنة ٤٠٠ قتل صالح بن على الروذبارى الذي كان قد اقيل وحل محله ابن عبدون. وقتل أيضا أحمد بن مُحَمَّد القشيري (١٤ محرم سن ٤٠١)، ولحق به بعد قليل ابن عبدون وصودرت أملاكه. كذلك قتل الحسين بن جوهر والحسين بن النعمان وصودرت أموالهما، بعد أن أخذا من الحاكم أمانا عادا على إثره الى القاهرة [2].

وفي سنة ٤٠٢ هـ صدرت قوانين ضد النصارى واليهود أكثر صرامة من القوانين اتلى سبقتها.

فقد أمرهم الحاكم بلبس الطيالس وبوضع صلبان على أعناقهم، طول كل صليب منها قدم وزنته خمسة أرطال (أي ما يقرب من عشرة أرطال الآن) وأمر اليهود بحمل قرامي الخشب في رقابهم، زنة كل منها زنة صليب النصارى، وألا يركبوا الدواب المحلاة السروج، وأن تكون ركابهم من خشب، وألا يستخدموا أحدا من المسلمين، وأرا يركبوا حمارا لمكار مسلم ولا سفينة ربانها مسلم ؛ وأن تكون الصلبان في أعناق النصارى إذا دخلوا الحمامات العامة

والجلاجل في أعناق اليهود ليتميزوا بذلك عن المسلمين [3]. ثم افرد في سنة ٤٠٨ حمامات اليهود [4] وحمامات النصارى عن حمامات المسلمين، وميز حمامات النصارى بوضع الصلبان فوقها، وميز حمامات اليهود بالقرامى [5].

---

[1] قتل ابنه مُحَمَّد بعد مقتل ابن النعمان والحسين بن جوهر (أبو شجاع ص ٢٣٣) .

[2] ابن القلانسي (ص ٦١) .

[3] يحيى بن سعيد (ص ١٨٧) .

[4] يظهر من كلام ابن زولاق (ورقة ١ ا) وابن إياس (ج ١ ص ٥٠) أن تخصيص حارة لليهود كان في ذلك الوقت

[5] ابن خلكان (ج ٢ ص ١٦٦)

ومن الصعب علينا أن نحدد الوقت الذي انتهر فيه الاضطهاد تحديدا تماما. ولكن نظن – كما يظن دي ساسي – أن وطأته أخذت تخف حول سنة ٤٠٠ [١]. وزادنا دي ساسي أنه حول سنة ٤٠٤ اجتمع النصارى واليهود وقابلوا الحاكم، كما يعلم ذلك من كتب الدروز.

وبينما كان الحاكم يسير يوما في مقبرة قباب الطير، اذ قابله جماعة من ممثلي الطائفتين، وكانوا في انتظاره، واستأذنوه في الكلام والتعبير عما خالج نفوسهم من أحزان وآلام. فأذن لهم وأمنهم وأعطاهم الحرية في القول ؛ فتكلموا وقالوا له إن سلوكه معهم يغاير ما كان عليه النبي صلي الله عليه وسلم والخلفاء من بعده، وسألوه كيف يبرر هذه السياسة التي تناقض العهد والميثاق الذي اعطى لهم، فأمرهم لانصراف والحضور لمقابلته في نفس المكان من الليلة التالية مع عمائهم، وأكد لهم أنه لا ينالهم منه ضرر اذا ما تكلموا عما بأنفسهم.

وفي الليلة التالية أخبرهم الحاكم بأن هذا السلوك الذي كان في عهد النبي، كان القصد منه الترغيب في دخول الدين الإسلامي ؛ لكنه لم يؤت ثمرته المنتظرة. والآن وقد مضي على الإسلام أربعة قرون، وكان في مكنتهم الدخول فيه، لأنه في متناول كل انسان، وكانت مبادئه تحت انظار الجميع، وفي قدرتهم أن يفحصوها ويمحصوها، " فليس لكم الآن عندي الا اختيار واحدة من اثنتين : أما اعتناق الإسلام بعد كل هذا التأخير، واما العقوبة العاجلة اذا ابيتم الدخول فيه ". فلم يجسر المندوبون على الاحتجاج على ما فاه به الخليفة وانصرفوا من حضرته [٢].

ويحدثنا يحيي بن سعيد [٣] أن الحاكم أجاز لليهود والنصارى الذين لم يدخلوا في

---

[١] Vie de khalife hakem – riamr – allah , vol . I p . 376

[٢] شرحه (ج ١ ص ٣٧٦) وما يتبعها .

[٣] (ص٢٠٧)

الإسلام ولم يخضعوا لقوانينه بالهجرة الى بلاد الإغريق [١]. فهاجر كثير منهم الى بلاد الدولة الرومانية الشرقية، والى بلاد النوبة والحبشة ؛ و من بقي منهم دخل في الإسلام [٢].

كانت سياسة الحاكم مضطربة لا تستقر على حال. ففي سنة ٤١١ هـ تأثر بتعاليم الدرزي الذي كان ينادي بأن روح الاله حلت في الحاكم [٣] ؛ وكذلك تأثر بتعاليم الأخرم الذي نادى بكل جسارة في المسجد العتيق وبحضرة قاضي القضاة، " باسم الحاكم الرحمن الرحيم ! " ؛ وبذلك أعطاه الصفات التي هي من صفات الله سبحانه. كما أنه تأثر بتعاليم حمزة الذي كان أصحابه يركعون [٤] عندما يرون الحاكم في الشوارع ويصيحون قائلين له : " أنت الواحد الاحد المحيي المميت ". وبذلك انصرفت الحكومة الفاطمية عن تأييد المذهب الفاطمي الى تأييد هذه العقائد الجديدة.

انتهى في ذلك الوقت اضطهاد النصارى واليهود تماما ؛ وزاد اختلال عقل الحكام، فاعتقد أنه الشخص الأعلى والمخلوق الأعظم، وان الإسلام ليس بأرقى من الأديان الأخرى. وهذا التغيير الفجائي في سياسة الحاكم كان في غضون المدة من سنة ٤٠٨ الى ٤١١ هـ. ولا شك في أن هذا الانقلاب كان راجعا الى التعاليم الإسماعيلية التي تلقاها في أرقى درجاتها من الغلو.

ففي سنة ٤١١ هـ (نوفمبر – ديسمبر سنة ١٠٢٠) رجع جماعة ممن اعتنقوا الإسلام خوفا الى دينهم القديم [٥]. وفيها امر الحاكم بإعادة الكنائس التي كان قد

---

[١] ذكر المقريزي (خطط ج ٢ ص ٢٨٨) ان كافة النصارى واليهود امروا بالهجرة الى بلاد الاغريق . ويظهر أن دي ساسي (vie de khalife hakem , etc . vol . I . p. 376) أخذ عبارته عن يحيى بن سعيد (ص ٢٠٧) .

[٢] المقريزي (خطط ج ٢ ص ٢٨٨) .

[٣] يحيى بن سعيد (ص ٢٢٠ و ٢٢١) .

[٤] ذكر أبو المحاسن (ج ٢ رقم ١ ص ٩٧) أ، عادة الركوع كانت شائعة منذ سنة ٣٩٦ هـ ، حين أقيمت الخطبة للحاكم ، لا في مصر وحدها ، بل وفي المدينتين المقدستين مكة والمدينة ، وسائر الولايات الفاطمية .

[٥] يقول ابن زولاق (المكتبة الاهلية بباريس ، مخطوط ١٨١٧ ، ورقة ٥١ ب ، وابن إياس ج ١ ص ٥١) أنه قد أرتد أكثر من سبعة آلاف يهودي الى دينهم القديم في يوم واحد .

هدمها، وأعاد اليها أملاكها . وكان من أثر هذا التغير الجديد في سياسة الحاكم إزاء النصارى واليهود أن عاد الى مصر كثير ممن كانوا قد هاجروا الى البلاد الأجنبية — وذلك في سنة ٤١١ هـ، وهى السنة التي انتهى فيها الاضطهاد [١].

هكذا كان مسلك الحاكم طوال حياته في منتهى الغرابة. وبعد وفاته، أ، بعبارة أدق بعد انتهاء اضطهاده الذي دام تسع سنين (٣٩٨ — ٤٠٨ هـ)، تمتع النصارى واليهود بحريتهم الدينية في عهد الخلفاء من بعده ؛ وأخذ الشعور العدائي الذي كان في نفوس المسلمين نحو مخالفيهم في الدين يقل ويضعف. وما كان يظهر له أثر الا في فترات قصيرة، وبخاصة عند ما يتقلد نصراني أو يهودي منصبا من مناسب الدولة، ولا سيما الوزارة ؛ فان انتقالها الى يد رجل من غير المسلمين يترتب عليه تقوية نفوذهم واستئثارهم بكثير من هذه المناصب.

وقد أمدنا ابن ميسر بأمثلة كثيرة من هذا النوع، حيث يصف لنا وفاة أبي سعيد التستري اليهودى عند كلامه عن سنة ٤٣٩ هـ (١٠٤٧ م). وقال إن أم الخليفة المستنصر كانت من قبل أمة في بيت التسترى، وأنه أهداها إلى الخليفة الظاهر. وبعد وفاة الظاهر ارتفع قدر التستري وتقرب من الخليفة المستنصر، وإن كان لم يستطع أن يناوئ سلطة الوزير أبي القاسم الجرجرائي [٢].

ولكن بعد وفاة الجرجراني عظمت سلطة التستري، لأنه تولى نظارة الخاصة لأم الخليفة المستنصر، وقبض على أزمة الأمور في عهد الوزير أبي منصور صدقة بن يوسف الفلاحي [٣].

فحقد عليه الوزير، لأنه لم يكن له من الوزارة معه إلا الاسم فقط [٤] .

---

[١] يحيى بن سعيد (ص ٢٣١ و ٢٣٢) .

[٢] ذكر ابن منجب (ص ٣٦) أن الجرجراني تقلد الوزارة في ذي الحجة من سنة ٤١٨ ؛ وأتى لنا ابن القلانسي (ص ٨٠ — ٨٤) بنص سجل تقليده الوزارة التي بقى فيها إلى حين وفاته في ٦ رمضان سنة ٤٣٦

[٣] أطلق عليه ابن الفلانسي (ص ٨٤) أبا نصر صدقة بن يوسف .

[٤] ابن منجب ص ٧٦ و ٧٧ ، وابن ميسر ص ١ و ٢

أما الأسباب التي أدت إلى قتل التستري فقد وافانا بها ابن ميسر، فذكر أن بني قرة من سكان البحيرة قاموا بثورة عظيمة أشتد وقعها على الدولة. فأنفذ المستنصر اليهم عزيز الدولة ريحان على رأس قوة كبيرة لقمعها. وكانت نتيجة انتصاره عليهم أن نال الحظوة عند الخليفة، وشمله بعطفه ورعايته، وقربه إليه ؛ واجتذب ريحان المغاربة إليه بزيادته في أعطياتهم وتقليله من أعطيات الأتراك واشتداده عليهم. فكان من أثر هذه السياسة أن وقع الخصام والتطاحن بين الفريقين. ومات ريحان في ذلك الوقت من مرض ألم به على حين غفلة ؛ فانتهز الوزير الفلاحي هذه الفرصة ونال من خصمه التستري القديم الذي كان يحقد عليه لاستئثاره بالسلطة دونه، وعزا موت ريحان إلى أنه سقاه سما ونشر ذلك بين الجنود.

وفي ٣ جمادي الأولى من سنة ٤٣٩ (١٠٤٧ م) بينما كان التستري في طريقه الى القصر انقض عليه ثلاثة من الاتراك وقتلوه. ثم مثل الاتراك بجثته، فطعوها إربا إربا، وأحرقوا بعضها، ثم دفنوه في التراب ؛ وما بقي من جثته أخذه أهله ووضعوه في نعش وأحاطوه بالشموع الموقدة، وتركوه في مكان منعزل ؛ فامتدت النار الى النعش فأحرقته بما فيه [١].

وبعد مقتل التستري أسند الخليفة المستنصر ديوان خاصته إلى أخيه أبي نصر، وقلد ابنه إدارة أحد الدواوين الحكومية. ولكن قتل التستري قد آلم أم الخليفة، ولم يكن بالحادث الذي تتناساه. ولا غرو فقد أثار حفيظتها على الفلاحي، فأقيل وحبس، ثم قتل في المحرم سنة ٤٤٠ [٢].

والحقيقة أن شعور المسلمين العدائي نحو التستري أهل ملته كان من الشدة بحيث أعطى الفلاحي فرصة للإيقاع به. ويحدثنا ابن ميسر أن التستري كان مكروها لدى المسلمين، وأن أبناء دينه الذين كانوا بعيدين عن مناصب الحكم بدءوا يشغلون في عهد كثيرا من مناصب الدولة ويضطهدون المسلمين إلى درجة أن شاعرا من الشعراء

---

[١] انظر ابن ميسر (ص٢)

[٢] ابن منجب (ص٣٧ و ٣٨) ، وابن ميسر (ص٢)

المعاصرين يسمى الرضي [1] كتب هذه الأبيات :

يهـــود هـــذا الزمـــان قـــد بلغـــوا	غايـــة آمـــالهم وقـــد ملكـــوا
العـــز فـــيهم والمـــال عنـــدهم	ومـــنهم المستشـــار والملـــك
يا أهـل مصـر إني قـد نصـحت لكـم	تهـــودوا ن قـــد تهـــود الفلـــك [2]

[1] يحتمل أنه الرضي بن البواب . وقد ورد في تاريخ ابن ميسر لفظه " البواب " من غير نقط ، الامر الذي يحقق صحتها . والمخطوط الموجود بالمكتبة الاهلية بباريس لا يحل هذه الصعوبة ، فأن ناشر هذا الكتاب لم يستطع أن يبين صحة هذا اللفظ .

[2] السيوطي (ج ٢ ص ١١٦)

وقد نقل هذه الابيات الأستاذ ا ز ج ز براون في كتابه " الأدب الفارسي في عهد التتار " ١٢٦٥ – ١٥٠٢ م – ص ٣٢ ، (Persian literature under tartar dominion , 1265 – 1502 a . d . , p 32) عن كتاب " تاريخ وصاف " (ألفه عبدالله بن فضل الله المعروف بوصاف الحضرة – انظر كتاب "كشف الظنون " لحاجي خليفة ، طبعة بولاق ج ١ ص ١٨١) ن عند كلامه عن أرغون (١٢٨٤ – ١٢٩١ م) الذي كان وزيره سعد الدولة يهوديا ، وكان مكروها لدى المسلمين الذين اتهموا مولاه بأنه يكيد الإسلام ويتآمر عليه . وهذه المسألة تشبه كثيرا ما كان من التستري مع أبناء دينه ؛ فإن اليهود قد استفادوا من مركز سعد الدولة ، وتغلغلوا في الحكومة وشغلوا كثيرا من المناصب العالية ، وزادوا في ذلك إلى درجة أحفظت المسلمين حتى نظم شاعر من الشعراء المعاصرين قصيدة ننقل منها هذه الأبيات :

يهـــود هـــذا الزمـــان قـــد بلغـــوا	مرتبـــــة لا ينالهـــــا فلـــــك
الملـــك فـــيهم والمـــال عنـــدهم	ومـــنهم المستشـــار والملـــك
يا معشـــر النـــاس قـــد نصـــحت لكـــم	تهـــودوا ، قـــد تهـــود الفلـــك
فـــانتظروا صـــيحة العـــذاب لهـــم	فعـــن قليـــل تـــروهم هلكـــوا

والحق أن هذه الأبيات تشبه الأبيات الأولى في بحرها وقافيتها ، بل وجل ألفاظها . وليس للشاعر الثاني أكثر من تغيير بسيط في بعض الألفاظ . وهذا يجعلنا نرجح أن هذا الشاعر ، الذي عاش بعد الشاعر الأول بقرنين ونصف قرن قد نقل عنه البحر والقافية والمعني وكثيرا من الألفاظ . ومما يجب ملاحظته ، أن ابن ميسر ناقل الابيات الأولى قد توفى في القرن السابع الهجري (سنة ٦٨٨ هـ) ، وصاحب " تاريخي وصاف " توفي بعد سنة ٧١٧ هـ (لم يعين حاجى خليفة تاريخ وفاة هذا الرجل) ، وهى آخر سنة تناول الكلام عليها في تاريخه (*) .

والبيت الرابع من أبيات الشاعر الثاني يتنبأ بما سيحل باليهود جميعا من الاضطهاد . وقد كا ما تنبأ به هذا الشاعر . فانه بعد مقتل سعد الدولة ووفاة أرغون ، حلت بهم الاضطهادات من نهب وقتل في كثير من الأحيان . وهناك قصيدة ثالثة من البحر والقافية لا بأس من نقل أبيات منها ، فإنها تمدنا بحادثة أخرى مشابهة للحوادث السابقة . وناظم هذه القصيدة هو زين الدين بن سعيد الخطيب ؛ ومنها نستدل على ما كان يضمره مسلمو هذا العصر من كراهة لليهود ، وكيف كان يثأر المسلمون منهم عند سنوح الفرصة ، لأنهم كثيرا ما اضطهدوهم عند ما كانت أمور الدولة بأيديهم :

١ نحمـــد مـــن دار أسمـــه الفلـــك	هـــذه القـــرود اليهـــود قـــد هلكـــوا

هذا وقد وصف لنا ابن ميسر [١] عند كلامه على حوادث سنة **٥٢٣** هـ (**١١٢٨ – ١١٢٩** م) سبب موت أبي نجاح، وهو نصراني يعرف بالراهب ؛ وكان موته على يد المقداد والى مدينة مصر في ذلك الوقت. وقد أمر بجثمانه فصلب، ثم أنزل وربط على لو من الخشب، ثم قذف به في النيل. وأصدرت المنشورات الى الأقاليم داعية الناس الى التفرج عليه ؛ وكان جثمانه كلما جذبه التيار الى الجهة من الجهات، خرجوا لرؤيته. وكانوا يضعون في طريق الجثة شيئا يرفعها الى الأعلى ؛ فاذا تم لهم غرضهم من التفكه برؤيتها، ورفعوا هذا الحاجز، فتنحدر الجثة الى النهر. وهكذا دواليك، حتى سار جثمانه الى البحر الأبيض المتوسط، فكان مقره الأخير.

ويزيدنا ابن ميسر أن أبا نجاح كان في مبدأ أمره في خدمة أبي البركات يوحنا بن الليث، ويظهر لنا أنه نصراني كما يدل على ذلك اسمه هذا. وقد اتصل أبو نجاح بخدمة الخليفة الآمر بعد وفاة المأمون البطائجي (٢٠ رجب سنة ٥٢٢)، وبذل له في مصادرة قوم من النصارى مائة ألف دينار ؛ فأطلقت يده فيهم، وامتد بلاؤه إلى كبار الموظفين ومن بينهم القضاة والكتاب بل وسائر الناس عامة.

وكان يجلس بالجامع العتيق ويستدعي من أراد مصادرته. وقد طلب يوما رجلا من

---

٢ وفــارق الــنحس ســعد (+) دولــتهم   وافتضــحوا في الــبلاد وانتهكــوا
٣– وشــتت الله شمــل ملكهــم   وبالحســام الصــقيل قــد ســبكوا
٤ كـم حكمـو في الـبلاد لا حكمـو   وارتكبــوا الموبقــات وانتهكــوا
٦ ســقاهم الحتــف ســادة خشــن   فــامتلأت بالجمــاجم الســكك
٧– واستخلصـوا المـال مـن ديارهـم   والحــريم الحــرام قــد هتكــوا
١٠ فــأنتم شــر أمــة ســلفت   وأنــتم ســر امــة تركــوا
٢٢ هجــوتهم ، أبتغــي بهجــوهم   جنــان خلــد يزيــدها الــبرك
٢٣ رغمــا لمــن قــال في قصــيدته   " تهــودوا ، قــد تهــود الفلــك "

(*) حاجى خليفة ، طبعة القاهرة (ج ١ ص ١٨١) **browne : Persian literature under tartar dominion , p . 33 seq**

(+) سعد الدولة هنا معناه حسن حظ الدولة . وفي هذا البيت من المحسنات البديعية التقابل بين لفظى سعد الذي يطلق على أثر الكواكب السعيدة ، والنحس الذي يطلق على أثر الكواكب المشئومة .

[١] ص ٧١

العدول الممتازين يعرف بابن الفرس، وهو ممن نال اجلال الناس واحترامهم، فأهانه. فخرج من عنده ووقف في الجامع في يوم الجمعة حيث يشتد ازدحام الناس، وعبر عما شعر به من آلام وأحزان فقال : " يا أهل مصر ! انظروا عدل مولانا الامر في تمكينه النصراني من المسلمين ". فهاجت هذه الكلمات عوامل الغضب في النفوس، وكادت تفضي الى نشوب الفتن والاضطرابات، لولا أن تداخل خواص الخليفة في الامر، وأعلموا مولاهم بما حل بالمسلمين من عدوان الوزير، وخوفوه سوء العاقبة [١].

فبعث الخليفة في طلب أبي نجاح. فلما مثل بين يديه انطلق رجل من الأشراف كان في حضرته، فأنشده هذا البيت :

ان الذي شرفت من أجله　　　يزعم هذا أنه كاذب

وعندئذ التفت الخليفة الى ابي نجاح وقال له : ما تقول يا راهب ؟ فسكت ؛ فأمر به فقتل [٢].

وهذه الحادثة تشبه ما حدثنا به ابن ميسر عند كلامه على سنتي **٥٢٩** و **٥٣٥**، حيث يقول إنه في **١٦** جمادي الثانية [٣] من سنة **٥٢٩**، قدم الى القاهرة بهرام الأرمني والى الغربية، فحاصرها يوما ؛ فرأى الخليفة الحافظ أن يوليه الوزارة ؛ فأشار عليه بعض خاصته أن يعدل عن هذا الرأي :

أولا – لان نصراني، فلا يرضى عنه المسلمون اذا تقلد هذا المنصب.

ثانيا – أن الوزير كان حتما عليه أن يصعد المنبر مع الامام في الأعياد ليزرر عليه المزرة (الستارة) التي تحجبه عن الناس.

ثالثا – ان القضاة كانوا نواب الوزراء منذ أيام امير الجيوش. وكانت هذه النيابة تذكر

---

[١] شرحه .

[٢] شرحه (٧١ و ٧٢) .

[٣] أورد ابن ميسر هذا التاريخ في محل آخر ، وهو اليوم الحادي عشر من نفس الشهر .

في الوثائق الرسمية التي تنفذ الى الآفاق، كما كانت تكتب أيضا في وثائق الزواج [1].

فلم يصغ الحافظ لقول النصحاء، وتقلد بهرام الوزارة بالرغم من نفور الناس من هذا التقليد الذي لم يدم طويلا [2] .

ويزيدنا ابن ميسر على ما تقدم أن نفوذ بهرام سرعان ما تزايد، وأنه سأل الخليفة أن يأذن له بإحضار إخوته وأهله وكانوا في تل باشر وأرمينية، وما لبث أن بلغ عدد الأرمن ثلاثين ألفا بعد زمن قصير ؛ فسلكوا مع المسلمين مسلكا عدائيا وصادروهم في أموالهم وجاروا عليهم، وبنوا الكنائس والأديرة حتى بلغت من الكثرة درجة أقلقت بال المسلمين وخوفتهم عاقبة هذا وطغيان المسيحية على الإسلام.

لم يجد المسلمون بدا من رفع شكاياتهم الى الخليفة من بهرام ومن اهله. وزاد في غضب المسلمين ما لاقاه أهل قوص من أخي بهرام المعروف بالباساك واليهم من الجور والظلم واستباحة الأموال. وقد ظلت الحال على ما وصفنا حتى نفد صبر المسلمين ؛ فبعث الامراء الى رضوان ابن الولخشي [3] والى الغربية يستحثونه على المسير وتخليصهم

[1] كانت الخصال التي يتحتم توافرها عند تعيين القاضي ، على ما أورده الماوردي كما يأتي :

أن يكون ذكرا بالغا . بيد أن أبا حنيفة رأى أنه يجوز أن تقضي المرأة فيما تصحح فيه شهاداتها ؛ أما الطبري فيرى أنه يجوز أن تتولى القضاء مطلقا .

(٢) العقل ن بمعنى أ، يكون صحيح التمييز جيد الفطنة بعيدا عن السهو والغفلة .

(٣) الحرية . ولا يجوز أن يقلد الذمي القضاء على المسلمين .

(٤) الإسلام . ولا يجوز أن يقلد الذمي في القضاء عل المسلمين .

(٥) العدالة .

(٦) السلامة في البصر والسمع . ولا يتعبر مالك العمي مانعا من القضاء .

(٧) أن يكون عالما بالأحكام الشرعية ملما بأصولها وفروعها .

وبمقتدى قوانين الشريعة الغراء لم يتحقق في بهرام الشرط الرابع . ويبعد أن يكون متحققا فيه الشرط السابع (الماوردي ص ١١٤)

[2] ابن ميسر (ص ٩٧) .

[3] ذكر ابن ميسر (ص ٧٩ – ٨٠) أن رضوان كان يلي حجابة باب ابن الخليفة الحافظ وقت تقلد بهرام الوزارة ؛ وكان من الامراء ، عرف بالشجاعة والاقدام ، كما كان شوكة في جنب بهرام الذي كان يخشى منه أن يكيد له ويحل محله ؛ فجد بهرام في التخلص منه ، فولاه عسقلان في آخر رجب من سنة ٥٢٩ . ولم يكد يستقر برضوان المقام في مركزه الجديد ، حتى علم بوصول جماعة من الأرمن الى عسقلان قاصدين مصر ؛ فوضع العراقيل في سبيلهم وأرغم

مما هم فيه من كرب وبلاء [1].

فوصلت الى رضوان استغاثة الامراء ؛ فاتجهت آماله الى الوزارة. وفي سخا – إحدى مدن الغربية – صعد المنبر وخطب في الناس خطبة بليغة حضهم فيها على الجهاد ؛ ثم جمع ثلاثين ألف رجل سار بهم الى القاهرة. فلما دنا رضوان من هذه المدينة خرج بهرام على رأس جيش كثيف لصد هجماته.

ولما تقارب الجيشان أمر رضوان برفع المصاحف على رؤوس الرماح ؛ فلم يكن من عسكر المسلمين الا ان اعتلوا بهرام وانضووا تحت لواء رضوان ز ويحدثنا ابن ميسر أن هذا الأمر كان على أثر اتفاق سابق بين المسلمين من جند بهرام وجند رضوان [2]. وهذه الخدعة الحربية تشبه من بعض الوجوه الخطة التي ابتدعها عمرو بن العاص في موقعة صفين المشهورة.

ولما وقف بهرام على حقيقة الحال ارسل الى الحافظ يعلمه بكل ما حدث ؛ فأمره الخليفة بالمسير الى ولاية قوص بالوجه القبلي، والإقامة مع أخيه حتى يرى رأيه ويقرر ما ينبغي اتباعه في هذا الامر. فعاج بهرام الى القاهرة وأخذ معه ما خف حمله وغلا ثمنه، وسار في الحادي عشر من شهر جمادي الأولى ؛ فأتاح مسير بهرام للغوغاء فرصة لنهب دور الأرمن في حي الحسينية – الواقع في ظاهر باب الفتوح – وبعض كنائسهم، وبنبش قبر أخيه الذي كان بطريرقا للأرمن. وفي هذا الوقت ثار أهالي قوص المسلمون على الباساك أخي بهرام وقتلوه، وجعلوا في رجله كلبا ميتا، ورموا بجثته في صندوق القمامة .

ثم وصل بهرام الى قوص بعد قتل أخيه بيومين في جماعة من أهله وجنده ؛ فثأر له ونهب المدينة وقتل الكثير من أهلها ؛ ثم رحل الى أسوان، فأقام في الموضع الحصين

كثيرين منهم على الرجوع الى بلادهم . وكان من أثر هذه الإجراءات التي اتخذها ضد هؤلاء القوم أن صرف عن هذه الولاية ، واستدعى الى القاهرة، وولى الغربية في صفر سنة ٥٣١

[1] شرحه (ص ٨٠) .

[2] شرحه (ص ٨١) .

المعروف بالأديرة البيض [١].

أما رضوان فقد خلا له الجو بمبارحة بهرام القاهرة ؛ فتقلد الوزارة في الحادي عشر من شهر جمادي الأولى سنة٥٣١، وخلع عليه وتلقب بالأفضل. وكان أول ما بدأ به رضوان أن أنفذ اخاه ناصر الدين على رأس جيش كثيف، فوصلوا الى الأديرة البيض. غير أنه لم يدر بين الفريقين قتال ؛ وتم الاتفاق على أن يبقي بهرام في هذه الجهة، وأن يطلق من كان معه من الجند ليعودوا الى القاهرة، ومنها يسرحون إلى بلادهم [٢].

ولكن هذا الاتفاق لم يطل أمده. فقد ذكر لنا ابن ميسر أن العداء ظل مستكما بين المسلمين والأرمن الى سنة ٥٣٥، وانه في سنة ٥٣٢ شدد رضوان على أعوان بهرام الى العمل على إبادة الأرمن. ويظهر أن هذه الأعمال لم ترض الخليفة الحافظ، بدليل أنه بعث في سنة ٥٣٣ من احضر بهرام، فأسكنه في قصره وأحله من نفسه محل الاكرام والتعظيم [٣]. فعظم ذلك على رضوان، وأخذ الحافظ يثير الجند على هذا الوزير ؛ فنشب التطاحن بين الفريقين. وطلب رضوان من الخليفة أن ينزله في القصر ؛ فلم يجب طلبه ولم يره التفاتا ؛ فأدى ذلك الى ازدياد الوحشة والنفور بينهما.

بذلك ضعف أمر رضوان ؛ فلم يقو على منازلة خصمه، وخرج في الخامس عشر [٤] من شهر شوال من هذه السنة هاربا من القاهرة، ولحق بوالي صرخد [٥] ؛فتلقاه بالإكرام، وأقام معه الى آخر المحرم سنة ٥٣٤، حيث عاد الى القاهرة على رأس جيش كثيف [٦]، وحارب جند الخليفة بقرب باب الفتوح. ولكنه أرغم على المسير الى الوجه القبلي ؛ وهناك طارده الأمير أبو الفضل ابن مصال، فلحق به وأمنه. وفي اليوم الرابع من شهر

---

(١) ابن ميسر (ص ٨١) .

(٢) شرحه ص ٨٢ .

(٣) شرحه .

(٤) خالف ابن ميسر ذلك فذكر الوم الثالث عشر من شوال .

(٥) بلد ملاصق لبلاد حوران من أعمال دمشق — انظر لفظ صرخد في " معجم البلدان " لياقوت .

(٦) ابن القلانسي (ص ٢٧٠) .

ربيع الثاني، مثل رضوان بين يدي الخليفة ؛ فأمر به فحبس في القصر [١]، على حين غفلة عفا عن الجند الاتراك الذين حاربوا معه ؛ ولكنه فر في سنة ٥٤٢ هـ [٢]

وكانت سنة ٥٣٥ نهاية هذا النزاع الطويل الذي قام به بهرام ورضوان ؛ وفيها انتهت حياة بهرام. ويحدثنا ابن ميسر أن بهرام عاش في القصر مع الخليفة، يشاروه في أمور الدولة من غير أن يخلع عليه أو يقلده عملا من الأعمال الرسمية.

وقد ظلت الحال على ما وصفنا الى أن توفي بهرام في الرابع والعشرين من شهر ربيع الثاني سنة ٥٣٥. فحزم عليه الخليفة حزنا شديدا، وأمر بإغلاق الدواوين ثلاثة أيام، وبعث في طلب بطريرق الأرمن، وأعدت معدات المأتم. فلم حان وقت صلاة الظهر، أرج النعش من القصر يجلله الديباج ويحف به النصارى يحملون المباخر ؛ وشيعه الاشراف وغيرهم من علية القوم مشاة. وسار الخليفة الحافظ في الموكب راكبا بغلة، وعليه عمامة خضراء وثوب اخضر. وما زال الناس في سيرهم، والقسس يرتلون الانجيل، حتى وصلوا الى دير الخندق ؛ فنزل الخليفة وجلس على حافة القبر وبكى بكاء شديدا [٣].

وبالجملة، فقد عامل الفاطميون النصارى واليهود معاملة تنطوي على العطف والرعاية. وما كان الاضطهاد الذي قام به الحاكم ازاءهم الا حلقة من سلسلة حلقات الظلم الذي حاق بالمصريين عامة. والحق، أن أبناء هاتين الطائفتين قد عوملوا غير مرة معاملة تتجلى فيها المحاباة [٤].

ولقد تقلدوا أرقى المناصب واعلاها في عهد الخليفة العزيز ٣٦٥ — ٣٨٦ هـ (٩٧٥ — ٩٩٦ م)، وشغلوا في عهد المستنصر ٤٢٧ — ٤٨٧ هـ (١٠٣٥ — ١٠٩٤ م) ومن جاء بعده من الخلفاء معظم المناصب المالية في الدولة، بل وتقلدوا الوزارة أيضا، وتمتعوا بقسط وافر من سياسة التسامح الديني ؛ وهو أمر نستطيع تحقيقه بما

---

[١] ابن القلانسي (ص ٢٧٢ و ٢٧٣) ، وابن ميسر (ص ٨٣ و ٨٤) .

[٢] ابن القلانسي (٢٩٦) .

[٣] ابن ميسر (ص ٨٤) .

[٤] أبو صالح (ص ٣٢ و ٤٣ و ٤٤ و ٧٧ و ٧٨) .

كان من بناء عدد من الكنائس أو من إعادتها إلى ما كانت عليه.

ولم تقتصر هذه المعاملة على ما تقدم ؛ فقد ولع بعض الخلفاء الفاطميين –كالحافظ مثلا – بزيادة أديرة النصارى. وكان الآمر يعطى الرهبان في دير نهيا الواقع الى القرب من الجيزة عشرة آلاف درهم كلما خرج للصيد بالقرب من هذا الدير [١]. ويحدثنا أبو صالح النصراني أن موارد الكنائس المصرية زادت زيادة عظيمة في عهد الفاطميين [٢].

٢ سياسة الفاطميين مع أهل السنة

لقد عمل الفاطميون على لعن الخلفاء الثلاثة الأول (أبو بكر وعمر وعثمان) وغيرهم من الصحابة إذ عدوهم أعداء لعلى ؛ ونقشت فضائل على وأولاده على بعده على السكة وعلى جدران المساجد. ويحدثنا ابن زولاق [٣] أن الخطباء كانوا يلعنون الصحابة على كافة منابر مصر.

وقد ألزم جميع الموظفين المصريين أن يعتنقوا المذهب الفاطمي ، كما حتم على القضاة أن يصدروا أحكامهم وفق قوانين هذا المذهب. ويلوح لنا أن الرغبة في الحصول على مناصب الدولة هي التي دفعت بفريق من السنيين إلى التحول الى المذهب الشيعي أ منا دفعت تلك الرغبة أيضا بعض الذميين إلى اعتناق الإسلام واتخاذ التشيع مذهب لهم.

ويظهر أيضا أن هذه الرغبة كانت في أشدها حتى قبل تأسيس الخلافة الفاطمية في مصر. ولقد أشار ابن خلكان إلى هذه الحقيقة، معتمدا في ذلك على ما ذكره أخو محسن الذي شهد هذه الحوادث بنفسه حيث يقول : " رأيت يعقوب بن كلس قائما يسار كافور ؛ فلما مضى، قال لى : أي وزير بين جنبيه [٤]! " ويزيدنا ابن عساكر أن كافور

---

[١] شرحه ص ٧٧ و ٧٨ وناصري خسرو ص ١٥٥ و ١٥٦ والأستاذ سير توماس أرنولد " تعاليم الإسلام " ص ١٠٦ و ١٠٧ . prof . sir Thomas w . Arnold : the preaching of islam , pp . 106 , 107 .

[٢] انظر لفظ " kibt " في دائرة المعارف الإسلامية (encyolopaedia of islam ; mann , the jews in Egypt and in Palestine under the fatimid calips) .

[٣] المكتبة الاهلية بباريس ، مخطوط ١٨١٧ ، ورقة ٤٨ ب

[٤] ابن خلكان ج ٢ ص ٤٤٢

قال : " لو كان مسلما لصلح أن يكون وزيرا " ؛ فأسلم طمعا في الوزارة [١].

وعند ما عدد ابن ميسر [٢] أسماء من تقلدوا الوزارة للمستنصر (٤٢٧ – ٤٨٧ هـ)، ذكر أسماء عدة من الوزراء غير المسلمين ؛ ومن هؤلاء الوزراء أبة على الحسن بن أبي سعيد بن سهل التستري، وأصله يهودي ثم أسلم. ولكن ابن ميسر لم يذكر لنا اذا كان التستري قد اعتنق الإسلام قبل تقلده الوزارة أم بعده.

كذلك تكلم بن ميسر عن أبي منصور بن أبي اليمن [٣] بن مهرواه بن ونبور – وكان نصرانيا – فاتخذ الإسلام دينا، وذكر أن النصارى قد أنكروا إسلامه [٤].

وكانت تنزل العقوبة الصارمة بمن يمتدح بذكر الخلفاء السنيين. ويحدثنا المقريزى [٥] أن الخليفة العزيز أبطل صلاة التراويح [٦]في سنة ٣٧٢ هـ (٩٨٢ – ٩٨٣ م) من جميع مساجد الديار المصرية.

ويظهر أنها قد أبطلت في سورية قبل ذلك بعدة سنوات. ويدلنا على ذلك ما ذكره الذهبي عند كلامه على حوادث سنة ٣٦٣ هـ (٩٧٣ – ٩٧٤ م)، وهو أنه في أوائل شهر رمضان أصدر المعز الأوامر بإبطال التراويح. وما كاد أبو القاسم الواسطي يرفع صوته احتجاجا على هذا القانون، حتى قبض عليه أعوان الفاطميين وأودعوه غياهب السجون ؛ وكان من أثر رفع هذا الحادث إلى السلطات في القاهرة أن صدر الامر بقطع

---

(١) المكتبة الأهلية بباريس ، مخطوط ٢١٣٧ ، ورقة ١٨ ا وما يتبعها .

(٢) ص ٣٢

(٣) ذكر ابن ميسر (ص ٣٣) أن هذا الاسم " أبو الين " .

(٤) ابن منجب ص ٥٤ وابن ميسر ص ٣٣

(٥) الخطط ج ٢ ص ٣٤٠

(٦) التراويح (جمع ترويحة) هي سنة كان يفعلها النبي صلي الله عليه وسلم بعد صلاة العشاء في رمضان ، ولكنه أبطلها بعد ذلك خشية أن تصير فرضا . ولما جاء عمر بن الخطاب أحيا هذه السنة ، وجمع الناس على إمام واحد ، ووافقه المسلمون على ذلك ؛ فكان إجماعا سكوتيا . والسر في امتناع الشيعيين عن صلاة التراويح هو ما يعتقدونه من أن عمر ابن الخطاب هو أول من سنها .

لسان أبي القاسم وضربه خمسمائة سوط وصلبه بعد ذلك [1].

واشتد الفاطميون في ذلك الوقت على أهل السنة ومنعوهم من إقامة مراسمهم. ففي سنة ٣٨١ هـ – في هد الخليفة العزيز – ضرب رجل من أهل مصر وطيف به في المدينة، لأنهم وجدوا عنده كتاب " الموطأ " لمالك بن أنس [2]. وفي صفر سنة ٣٨٥ (٩٩٥ م) أمر الخليفة العزيز بنقش سب الصحابة على الجدران داخل الجامع العتيق وخارجه، وكذا على أبواب الحوانيت والحجرات وعلى المقابر، ولون ذلك كله بالذهب في كثير من أحياء القاهرة وفي غيرها من المدن ولقد كان لهذه السياسة أثرها في تحويل كثير من أحياء القاهرة وفي غيرها من المدين ولقد كان لهذه السياسة أثرها في تحويل كثير من السنيين الى المذهب الشيعي [3].

وعندنا كثير من الأدلة على أن تعصب الفاطميين لمذهبهم زاد في أيام الحاكم عما كان عليه في عهد الخلفاء من قبله. ذلك أنه في جمادى الأولى من سنة ٣٩١، ألقى القبض على رجل من الشام لاتهامه بعدم الاعتراف بفضل على، وحبسه قاضي القضاة وبعث أربعة من الفقهاء للتحقيق معه ؛ فبذلو قصارى جهدهم في حمله على الاعتراف

---

[1] ونحن نشك في صحة ما أورده لنا المذهبي ونراه بعيدا عن الحقيقة التاريخية . ويتبادر إلى الذهن من سياق هذه العبارة أن أبا القاسم كان مؤذنا في بعض مساجد سورية ؛ ويحتمل أنه بيت المقدس : أخبرنا الشيخ أبو بكر محمد ابن الحسن قال : كنت مجاروا ببيت (هكذا ذكر) ؛ فأمروا في أول رمضان بقطع التراويح ؛ فصحت ، أنا وعبد الله والإسلام ، وامحمداه ! فأخذني الأعوان وحبست ؛ ثم جاء الكتاب من مصر بقطع لساني فقطع . وبعد أسبوع رأيت النبي صلى الله عليه وسلم نفل في فمي برد ريق رسول الله ﷺ ، وقد زال عنى الألم . فتوضأت وصليت ، وعمدت الى المأذنة فأذنت : الصلاة خير من النوم ! فأخذوني وحبست وقيدت ، وكتبوا الى مصر ، فورد الكتاب بقطع لساني وبضرب خمسمائة سوط ، وبصلبي ، ففعل بي ذلك " .

المكتبة الملكية بالقاهرة ، مخطوط ٤٢ ، ورقة ١٠٥ ا) .

وما أورده لنا المذهبي من قطع لسان أبي القاسم وعدم استطاعته أداء الأذان ، وأنه هو الذي حدث بما ناله بعد قطع لسانه للمرة الثانية ، وضربه خمسمائة سوط ثم صلبه –كل ذلك يظهر لنا أنه بعيد عن الصحة كل البعد ، أما أنه قد ناله بعض العقوبة على هذه الادلة ، فأمر محتمل الوقوع ؛ لأن هذا هو مسلك الفاطميين ضد من يجهر بمخالفتهم في عقائدهم .

[2] المقريزي (خطط ج ٢ ص ٣٤١) .

[3] المقريزي (خطط ج ٢ ص ٢٨٦) .

بإمامة على. ولكن هذا الرجل ظل على إبائه، بالرغم من تدخل قائد القواد الحسين بن جوهر في الامر وعمله على إقناعه. ولما لم يفلح رفع أمره الى الحاكم، فأمر به فقتل وصلب [1].

وفي سنة ٣٩٣ هـ قبض في مدينة القاهرة على ثلاثة عشر رجلا، لأنهم صلوا صلاة الضحى، وهى من السنن التي ينبغي إقامتها مع الصلوات الخمس، وإن كان الشيعيون لا يعترفون بها. وقد شهر بهؤلاء المذنبين في الشوارع وضربوا وحبوا ثلاثة أيام [2].

أضف الى ذلك ما ذكره المقري وأبو المحاسن، من أن رجلا من أهل دمشق يدعى الأسود الحكمي حلت به العقوبة في شهر الثاني من السنة نفسها (٣٩٣ هـ) لارتكابه جريمة لم يأت لنا هذان المؤرخان بتفصيلها. ولكن يظهر لنا أنها كانت من أجل محبة هذا الرجل للخليفتين أبي بكر وعمر، بدليل أنهم طافوا به في شوارع المدينة ونادوا عليه : " هذا جزاء من يحب أبا بكر وعمر " ؛ ثم أمر به فضربت عنقه [3].

وفي شهر صفر سنة ٣٩٥ (١٠٠٤ – ١٠٠٥ م) أمر الحاكم أيضا بنقش سب الصحابة على جدران المساجد، وفي الأسواق والشوارع ؛ وصدرت الأوامر بذلك الى سائر العمال في البلاد المصرية [4].

وفي سنة ٣٩٥ هـ صدر قانون يحرم بيع الملوخيا [5]، لأنه أثر عن معاوية انه كان يحبها ؛ وينهي أيضا عن أكل الجرجير، لأن عائشة كانت تأكله ؛ وعن المتوكلية، وهى البنات المنسوب الى المتوكل الخليفة العباسي. وزاد ابن زولاق أن الحاكم نهي أيضا عن أكل القرع، وطلب الى الفلاحين أن يعطوه وثائق كتابية بعدم زرع الملوخيا والقرع.

---

[1] شرحه .

[2] شرحه .

[3] المقرى : " نفح الطيب " (ج ٢ ص ٦٦٥) ، وأبو المحاسن (ج ٢ رقم ١ ص ٩١) .

[4] ابن خلكان (ج ٢ ص ١٦٦) .

[5] هذه الأشياء وغيرها مما ينسب الى الخلفاء الفاطميين وأشياعهم من سب الصحابة والطعن فيهم ، مبالغ فيها ؛ ويبعد تصديق كثير منها ، لا سيما ألوان الطعام التي ربما لم تكن موجودة في عصرهم . ونحن نرويها هنا على علاتها غير واثقين بصحتها .

ولم يكن لهذا التعيين من سبب أن أبا بكر عائشة كانا يحبان أكلهما. وقبض على جماعة كانوا يأكلون الملوخيا، وضربوا بالسياط وطيف بهم في الشوارع ثم ضربت أعناقهم[1].

يتبين لك ذلك من عبارة ابن زولاق التي ننقلها فيما يلي :

" ومنع من أكل الملوخيا وأكل القرع، وكتب قسما على الفلاحين أنهم لا يزرعون ذلك ولا يبعونه، لان أبا بكر الصديق كن يكثر من أمل ذلك، وأن عائشة كانت تأكل ذلك أيضا. ثم إنه راى جماعة يأكلون الملوخيا ؛ فقبض عليهم وضربهم بسياط، وطاف بهم البلد وأمر بضرب رقابهم ".

وفي هذه السنة نهى الحاكم عن بيع الفقاع (وهو نوع من الخمر) وشدد في ذلك، لأن عليا كان يكرهه. كذلك نهى عن أكل الدلينس (وهو نوع من السمك الصغير لا قشر له) لسبب لم يذكره لنا المؤرخون ؛ وصدرت الأوامر في منع بيع كافة أنواع السمك الذي لا قشر له.

وقد دعا الحاكم السماكين الى اجتماع أخذ فيه عليهم العهود ألا يبيعوا هذا النوع من السمك ؛ ومن أبي إطاعة هذه الأوامر كان جزاؤه القتل [2]. وهذا التشدد يحملنا على الظن بأنه لا بد أن يكون هذا المنع راجعا الى أحد أمرين جرت بهما عادة الشيعة : إما لأن أحد الصحابة كان يكثر من أكل هذا السمك، وإما لأن عليا أو بعض أهل بيته كانوا يكرهون أكله. وإما أن هذه النزعة يهودية، لأن التوراة نصت على تحريم السمك الذي لا خرشف له (أي لا قشر له). ولا يبعد أن يكون أحد اليهود المقربين الى الحاكم أفضي اليه بذلك فعلق بذهنه.

هذا، ولقد اشتملت القوانين الكثيرة التي عاد الحاكم فأصدرها ضد النصارى واليهود

---

[1] ابن زولاق ، المكتبة الاهلية بباريس ، (مخطوط ١٨١٧ ، ورقة ٥٢ ا) .

تناول ابن خلكان (ج ٢ ص ١٦٦) الكلام على تحريم بيع هذه الخضراوات بشئ من الايجاز .

[2] ابن خلكان (ج ٢ ص ١٦٦) .

في سنة ٣٩٥ هـ، وكذا المراسيم التي صدرت بالتشدد في مراعاة هذه القوانين، على كثير من عبارات الطعن في أبي بكر وعمر [١].

وفي هذه السنة أمر الحاكم بأن تقام صلاة الظهر في الساعة السابعة، و العصر في الساعة التاسعة [٢] (من التوقيت العربي). ولو قارانا بين ما جرى عليه الحاكم وما يجرى عليه المسلمون الآن، لوجدنا أن الحاكم ثد راعي في التوقيت الساعات، ولم يراع التقاليد الإسلامية في التوقيت بالشمس. فان الظهر يدخل وقتها بالزوال، والعصر يدخل وقتها بأن يصير ظل كل شيء مثله بعد ظل الزوال ؛ وحينئذ تكون صلاة العصر حاضرة اذا وقعت في الزمن الذى تأخذ فيه الشمس في الانحراف عند كبد السماء، وصار ظل كل شيء مساويا له بعد اعتبار ظل الزوال. وكذلك العصر تكون حاضرة اذا وقعت في الزمن الذي بين ها الوقت وغروب الشمس. ونحن نرى أن الحاكم قد بذل بهذا العمل ما كان يجري عليه المسلمون وما كان معمولا به الى هذا الوقت، وألزمهم بالصلاة في ساعات معينة مستعينين بالمزولة.

ولا شك في أن هذه الأوامر قد أساءت أيما إساءة الى أهل السنة، الذين كانوا لا يزالون السواد الأعظم من الاهلين. وتعتبر الفتنة التي أثارها أبو ركوة [٣] (٣٩٦ – ٣٩٧ هـ) دورا هاما من الأدوار التي مرت بها سياسة الحاكم إزاء رعاياه السنيين.

ففي سنة ٣٩٧ هـ خفف من تشدده في مراعاة عقائد المذهب الفاطمي، ليصلح بينه وبين رعاياه السنيين ؛ فأبطل بعض ما قام به من الاعمال الموجهة ضد هؤلاء الرعايا، كلعن الخلفاء الأول غيرهم من الصحابة ؛ وسلك مسلكا أكثر شدة مع النصارى واليهود. وفي شهر ربيع الثاني من هذه السنة أمر بمحو ما نقش في لعن هؤلاء الخلفاء،

---

[١] ابن خلكان (ج ٢ ص ١٦٦) .

[٢] المقريزي (خطط ج ٢ ص ٣٤١) .

[٣] انظر يحي بن سعيد(ص ١٨٨ – ١٩٢) ، وابن القلانسي (ص ٦٤ – ٦٥) ، وابا الفدا (ج ٢ ص ١٤٥) لمعرفة الثورة اتلى قام بها أبو ركوة .

وعوقب كل من أقدم على لعنهم وعنف في الشوارع على مرأى من الناس [١]. وفي هذه السنة صدر مرسوم يجيز للناس صوم رمضان وفطره بمقتضى حسابتهم الفلكية، بدون أن ينتظروا رؤية الهلال. كذلك أجازت القوانين الجديدة للمؤذنين أن يستعملوا العبارات المعتاد ذكرها في الصلاة حسبما يرون، وألا تقدم شكاوى لسبب من الأسباب التي تتعلق بذكر هذه العبارات، وألا يسب أحد من الخلفاء الأول، ولا يمنع أحد من يقول هذه العبارة التي تنطوي على احترامهم وإجلالهم وهى : " اللهم ارحمهم ! " اذا ما ذكر أسماءهم ؛ وبذلك عوملوا معاملة الابرار. واذا أراد أحد أن يستعمل هذه العبارة التي تدل على أسمى مراتب التعظيم لعلى وهى : " اللهم ارحمه " ! فلا حرج عليه. وجعل لكل مسلم الخيار في اتباع الرسوم السنية أو الشيعية [٢] .

وقد أبطل الحاكم بعد ذلك استعمال كثير من الرسوم الشيعية البحتة ؛ فأمر بإعادة القنوت في الصلاة، وكان قد أبطل في سنة ٣٧٠ هـ. ومنع كذلك المؤذنين من إضافة عبارة " حي على خير العمل " الى الاذان، وسمح بصلاة الضحى ؛ وهذه من الصلوات التي تؤدي في ضحى اليوم من ارتفاع الشمس قدر رمح الى الزوال؛ وكان قد منعها منعا باتا في سنة ٣٩٣ هـ [٣].

وقد أنشأ الحاكم في هذه السنة نفسها مدرسة لتعليم المذهب السني، الذي كان يدين بعقائده السواد الأعظم من المصريين قبل وصول الفاطميين الى هذه البلاد، وأهدى هذه المدرسة دار كتب، وعين أبا بكر الأنطاكي ناظرا لها، وخلع عليه وعلى مدرسي هذه المدرسة وأجلسهم في مجلسه [٤].

فكان من أثر هذه السياسة التي سار عليها الحاكم أن ساءت سمعته عند المتشيعين الذين وفدوا على القاهرة، حيث وجدوا انفسهم في مدينة تسير في اتجاه عادات المذهب

---

[١] يحيى بن سعيد (ص ١٩٢) .

[٢] المقريزي (خطط ج ٢ ص ٢٨٧) .

[٣] المقريزي (خطط ج ١ ص ٤٥٨) وما يتبعها .

[٤] أبو المحاسن (ج ٢ رقم ١ ص ١٠٥) .

السنى [1]. ولكن الحاكم عودنا التقلب في سياسته وأهوائه..

نعم ! لقد جعلته بعض الحوادث الأخرى مبغضا جدا حتى عند الشيعيين في تلك الآونة. وذلك أنه في سنة ٤٠٠ هـ أرسل بعض الموظفين الى المدينة المنورة ليفتحوا المنزل الذي كان لجعفر الصادق ويحضروا منه ما قد يعثرون عليه. فلما فتح المنزل، وجد فيه هؤلاء الموظفون نسخة من القرآن الكريم وسريرا وحصيرا وبعض الأثاث. وقد حمل هذه الأشياء الداعي ختكين الذي كلف بالإشراف عل فتح هذه الدار، وأخذ الموظفون في الوقت نفسه الضرائب التي كان يدفعها الأشراف.

ثم عاد ختكين الى مصر وبصحبته عدد كبير من الاشراف كانوا يؤملون أن ينعموا بكرم الحاكم وحسن معاملته لهم. ولكنهم لما مثلوا بين يديه، لم يعطهم غير جزء يسير من المال الذي عاد به ختكين، وأبقى أكثره لنفسه قائلا إنه أحق به منهم، لأنه كان رأس الاشراف باعتباره وريث على حقا. فعاد هؤلاء الأشراف الى المدينة، وألسنتهم تنطلق بالسخط والدعاء عليه [2] .

وظلت سياسة اللين التي سار عليها الحاكم إزاء السنيين ثلاث سنوات، غير أنها ما لبثت أن تبدلت على حين غفلة. ففي سنة ٤٠١ هـ أمر بإعادة الاذان الى النحو الشيعي ؛ كذلك أعد التثويب وعبارة " حي على خير العمل " الى ما كان عليه من قبل، كما أبطل صلاتي الضحى والتراويح. ولما اتصل بالحاكم ما كان من صلاة التراويح في شهر رمضان في الجامع العتيق، أمر بإمام هذا المسجد فضربت عنقه. وقد أعاد في الوقت نفسه مجالس الحكمة في القصر، كما أمر بأن تجمع النجوى، وهى التبرعات الت كانت تؤخذ من كل من يتعلم أصول المذهب الإسماعيلي ثانية، وكانت قد أبطلت منذ سنة ٤٠٠ هـ.

واعتزم الحاكم بعد ذلك نيش قبر أبي بكر وعمر بالمدينة ؛ فرشا الرسل الذين أنفذهم

---

[1] شرحه

[2] ابن خلكان (ج ٢ ص ١٦٦) والمقريزي خطط (ج ٢ ص ٣٤٢) .

لتأدية هذه المهمة رجلا من العلويين كان يسكن في منزل قريب من مدفن الخليفتين ؛ ومن ثم شرعا بمعاونته يحفران طريقا يوصل الى ما يريدون. الا أن عاصفة شديدة ثارت، وبلغ ثورانها درجة أدخلت الخوف والهلع في قلوب الأهالي ؛ فتلمس كثير منهم ملجأ في الحرم حيث يوجد الجسد الشريف وأجساد الخلفاء الأول. ولما لم تهدأ هذه العاصفة، خشى ذلك العلوى وأبلغ الامر لوالى المدينة ؛ فأحل به عقوبته وحلل دون إتمام ما كان يريده الحاكم [1] .

وجملة القول أن لعن السنيين كانت تفيض به ألسنة الناس من على المنابر في كافة أرجاء مصر طوال الحكم الفاطمي تقريبا. ويحدثنا ابن خلكان أن العاضد آخر الخلفاء الفاطميين كان من غلاة الشيعة ؛ فكان له ولع خاص بلعن الصحابة، حتى إنه كان لا يتردد في قتل أي سني تقع عليه عيناه.

٣ – سياسة الفاطميين مع المصريين عامة

أقام الفاطميون في مصر حكومة منظمة قائمة على أساس متين ؛ فتقدمت البلاد نحو الرقي بفضل هذه النظم الرشيدة التي احتذاها من جاء بعدهم من الملوك. غير أن سياسة الفاطميين (التي كانت ترمي أولا الى نشر مذهبهم) كثيرا ما كانت تتصادم مع صالح الاهلين وسعادتهم؛ وذلك لأن أكثريتهم الساحقة كانوا سنيين.

ولقد تطلب نجاح تلك السياسة أن يحل أنصار الفاطميين – حتى من غير المسلمين – محل السنيين في مناصبهم. ومن ذلك نرى السنيين من اول حكم الفاطميين ينظر بعين السخط والكراهة ؛ فتحملوا لذلك كثيرا من جور القوانين التي كان يسنها الفاطميون. وذلك أنه كان لزاما على أبناء الطوائف الثلاث (السنيين والنصارى واليهود) الذين كان منهم المصريون، أ، يطيعوا تلك القوانين، حتى ما كان منها غير متفق مع معتقداتهم الدينية.

ولقد أضاف الفاطميون الى النقوش التي كانت تنطق بسب السنيين، كتابة أخرى

---

[1] المقريزي خطط (ج ١ ص ٣٣٨) .

كلها إشادة بمدح على وأهل بيته. وقد كان من أثر تعاليم دعاة الشيعة والقوانين الجائرة التي كانت تسن لمن عداهم، أن تحول كثير من غير الشيعيين الى هذا المذهب. ولقد حفز ذلك التحول الكبير الى ناحية الشيعة قاضي القضاة على بن النعمان – الذي كان يطلق عليه أيضا داعى الدعاة – فأملى أبو حنيفة النعمان المغربي في أصول المذهب الشيعي[1].

وكان يعقوب بن كلس – ذلك الرجل إلى كانت له منزلة ممتازة لما كان يقوم به من تعضيد المذهب الشيعي – يعقد الاجتماعات، فيحضرها الناس على اختلاف طبقاتهم، ويقرأ عليهم مصنفه في القانون الشيعي، ذلك القانون الذي كان لزاما على القضاة أن يصدروا عنه في أحكامهم، كما كان مصنفه هذا من الكتب التي تقرر تدريسها في الجامع العتيق، فيتدارسه الطلبة وأساتذتهم [2].

ولقد سبق أن ذكرنا أن مُحَمَّد بن النعمان منح لقب أستاذ للدعوة بالقصر في ربيع الثاني سنة ٣٨٥ في خلافة العزيز، فقرأ قانون أهل البيت على جمع عظيم، كما فعل أخوه الحسين في القاهرة من قبل وابوه بالمغرب. ويحدثنا المقريزي [3] أن الجمع الذي سمع لمحمد بن النعمان كان من الكثرة بحيث مات أحد عشر شخصا من دفع الناس بعضهم بعضا.

ولقد كانت سياسة الحاكم تمتاز بعنف كثير تناول جميع المصريين، وخاصة من لم يكن شيعيا. وظهرت تلك السياسة جلية واضحة بعد أن شعر بأنه ثار خلوا من كل رقابة ؛ وذلك بعد وفاة برجوان،وحينما بدأ الاضطراب ينال من عقله، ذلك الاضطراب الذي كان مصدر لتقلباته في سياسته.

وكان أول ما بدأ من أعمال الحاكم الغريبة، ان أصدر قانونا سنة ٣٩٠ هـ حرم فيه

---

[1] يحي بن سعيد (ص ٢٠٦) وابن ميسر (ص ٧٥) والمقريزي خطط (ج ٢ ص ٣٤١) وأبو المحاسن المجلد الثاني (ج ١ ص رقم ١ ص ٣ و ٤)

[2] يحيى بن سعيد (ص ١٧٢ و ١٧٣) .

[3] الخطط (ج ٢ ص ٣٤١ و ٣٤٢) .

على الناس أن ينادوه بلقب " مولانا " أو " سيدنا "، وحتم فيه عليهم أن يلقبوه بأمير المؤمنين ؛ وجعل نصيب من يخالف ذلك الموت العاجل. كما كان من آثار حالته العقلية أن أصبح يفضل الليل على النهار. ففي سنة ٣٩٢ هـ بدأ يتجول في المدينة ليلا ؛ فكانت الانوار تستطع في جنبات المدينة، كما كانت محلات التجارة تفتح في الليل بدل النهار. وكان السرور يعم الجميع لهذه المناظر التي كانت تزيدها روعة الأنوار الصناعية، حيث أخذ الناس يتنافسون في تعليق الثريات على بيوتهم كي يكسبوا بذلك رضا الخليفة[١].

وقد ظل الحاكم على عادته من التجول ليلا في أنحاء المدينة الى عام ٣٩٣ هـ. وزاد فحرم على الناس الخروج ليلا من مغرب الشمس حتى مطلع الفجر : ففي سنة ٣٩١ أصدر أمره بمنع النساء من الخروج في الليل، واتبع ذلك بعد قليل من الزمن بقانون آخر حرم فيه على الاهلين فتح محلاتهم للتجارة ليلا.

ويحدثنا السيوطي أن الحاكم رأى شيخا " يعمل النجارة في أثناء النهار فقال له : الم ننهكم عن هذا ؟ فقال : يا سيدى ! أما كان الناس يسهرون لما كانوا يتعيشون بالنهار ؟ فهذا من جملة السهر ! فتبسم وتركه " [٢].

وفي سنة ٣٩٥ أصدر قانونا منع فيه النساء من الظهور سافرات [٣]، وألا يتبعن الجنائز أو يظهرن للناس في حالة منافية للآداب والحشمة ؛ كما حرم أيضا أن يدخل أحد مطلقا الحمامات بدون إزار [٤].

وقد ذكر لنا الذهبي عند كلامه على حوادث سنة ٤٠٤ أن الحاكم منع النساء من الخروج من المنازل ومن الظهور في أعلاها، ومن دخول الحمامات العامة ؛ كما منع أيضا أن يصنع صانعو الأحذية أحذية خاصة بهن وزاد على ذلك أنه كان اذا توفيت امرأة،

---

[١] يحيى بن سعيد (ص ١٨٥ ، ٢٠٥) .
[٢] السيوطي (طبعة القاهرة سنة ١٢٩٩ هـ ج ٢ ص ١٧ – ١٨) .
[٣] يحيى بن سعيد (ص ٢٠٨) .
[٤] المقريزي خطط (ج ٢ ص ٢٨٥) .

ذهب أحد اقاربها الى قاضي القضاة [١] وأعلن اليه نبأ وفاتها، وطلب اليه أن يجيز لإحدى النساء أن تذهب معه لتتولى أمر غسلها وما اليه. وكان قاضي القضاة طبقا للأمور المتبعة يحيل المسألة الى صاحب المعونة ؛ وهذا يختار احدى النساء لقضاء هذه المهمة، ويندب معها اثنتين يحرسانها ن حت تفرغ مما انتدبت له وتعود الى منزلها [٢]. ويتضح ذلك مما جاء في عبارة الذهبي التي ننقلها للقارئ بنصها : " فاذا ماتت امرأة جاء وليها الى قاضي القضاة يلتمس غاسلة، فيكتب الى صاحب المعونة، فيرسل غاسلة مع اثنتين من عنده، ثم تعاد الى منزلها ".

على أنه من الحق أن نقول إن كثيرا من التبعة يقع على عاتق النساء أنفسهن لما نالهن من تضييق الحرية. ذلك أنهن كن يكثرن الخروج ليلا وينغمس في حمأة الملاهي والرذائل.

ولهذا يحدثنا ابن خلكان [٣]أن النساء قبعن في بيوتهن سبع سنوات، حتى ارتقى عرش الخلافة ابن الحاكم، وهو الظاهر (٤١١ – ٤٢٧ هـ) [٤]

وفي سنة 395 أمر الحاكم بقتل جميع الكلاب [٥]، فخلت منها الطرقات ؛ كما حرم بيع " الفقاع " (الجعة) والترمس والسمك الذي لا فصوص له[٦] ؛ ونهى أيضا عن ذبح السليم من البقر الا في عيد الأضحى [٧]. ومان العقاب الشديد نصيب من يعصي هذه القوانين ؛ فكان من يتهم ببيع شيء من من الممنوع بيعها يشهر ويضرب ثم يقتل [٨].

ولقد أدت هذه الاعمال الى تحول كثير من المصريين – كما قدمنا – الى المذهب

---

[١] ذكر يحيى بن سعيد (ص ٢٠٨) أ، وفاة أي امرأة انم كان ينبأ بها المحتسب لا قاضي القضاة

[٢] المذهبي ، المكتبة الملكية بالقاهرة ، مخطوط ٤٢ ، ورقة ١٤٧ ا .

[٣] ج ٢ ص ١٦٦ .

[٤] ذكر يحي بن سعيد (ص ٢٠٨) أن النساء ظللن على هذه الحالة الى سنة ٤٠٩ ، أي قبل وفاة الحاكم بسنتين .

[٥] ذكر يحيى بن سعيد (ص١٨٨) أن كلاب الصيد كانت مستثناة .

[٦] ابن خلكان (ج ٢ ص ١٦٦) .

[٧] لم يكن لهذا الأمر الذي أصدره الحاكم خاصا بالبقر أية صلة بالرسوم الشيعية . وقد ذكر لنا أبو المحاسن (ج ٢رقم ٢ ص ١٣٤) أن الخليفة بذلك الكتب فقرئت باسم الخليفة .

[٨] ابن خلكان (ج ٢ ص ١٦٦) .

الفاطمي.

كما كان من أثر هذه القوانين الجائرة أن دخل كثير من الناس في القاهرة وفي الجهات الأخرى في المذهب الإسماعيلي ؛ ومعني هذا دخولهم في المذهب الشيعي [١].

وقد شغل الحاكم في سنتي ٣٩٦ و ٣٩٧ بقمع ثورة أبي ركودة، كما اضطرته تلك الثورة الى مصانعة السنيين، والى القسوة مع غير المسلمين. وقد سبق أن أشرنا الى القوانين الأخرى التي سنها الحاكم في سنة٤٠١ ، والتي كانت وليدة التقلبات الفجائية في سياسته حيال السنيين.

وقد كان من أثر انخفاض النيل الذي دام ثلاث سنوات متواليات تبتدئ من سنة ٣٩٨ هـ، أن صدرت قوانين تحرم الاجتماعات للهو واللعب على شواطئ الخليج، أو أ، تفتح الأبواب والنوافذ على هذه الشواطئ. وتلتها قوانين أخرى يمنع بعضها سماع الموسيقى والاستمتاع بالألعاب وما اليها، ويمنع البعض الآخر سماع المغنيات أو بيعهن [٢].

وفي سنة ٤٠٢ هـ منع الحاكم بيع الزبيب قليلا أو كثيرا ؛ ونهى التار من أن يستوردوه، كما جمع كميات كبيره منه وأحرقها. ومن نفقات اتلاف هذه الكميات البالغة خمسمائة دينار – على ما يحدثنا به ابن خلكان – يمكننا أن نتصور مقدار ما أحرق من الزبيب. وفي هذه السنة أيضا منع بيع العنب، وأرسل رسله الى الجزيرة [٣] فقطعوا ما بها من الكروم وألقوها للثيران فداستها.

كذلك أرسل الحاكم الى حكام الولايات بأن ينحوا هذا السبيل، كما منع بعد ذلك أن يشترى أحد أكثر من أربعة أرطال من العنب دفعة واحدة، خشية أن يتخذ منه نبيذا. وشمل هذا المنع أيضا العسل، حتى لقد جمع خمسة آلاف جرة، وذلك ما كان بالمخازن ؛ ألقى بها في النيل حيث أهرق ما بها، كما أهرقت أيضا احدى وخمسون زجاجة من عسل

[١] أنظر العبارة التي أوردتها عن سياسة الفاطميين في دار العلم والقصر في الباب الثالث .

[٢] المقريزي خطط (ج ٢ ص ٢٨٧) .

[٣] المراد بها هنا طبعا جزيرة الروضة .

النحل. وتبع ذلك أن حرم بيع الرطب ؛ فقد جمعت منه مقادير كبيرة ثم أحرقت [١].

وفي سنة ٤٠٤ هـ (١٠١٣ – ١٠١٤ م) نهى الحاكم أيضا أن يسترشد الناس بالنجوم، وأن يباشروا علم الفلك، وامر بنفي جميع المنجمين عن البلاد ؛ فاستغاثوا بقاضي القضاة مالك بن سعيد الفارقي، وتابوا على يديه مما ظنه الحاكم جريمة. وذلك ألغيت عقوبة النفي ؛ وعومل نفس هذه المعاملة المشتغلون بالموسيقى [٢].

وبعد وفاة الحاكم (٤١١ هـ) وتولية أبنه الظاهر (٤١١ – ٤٢٧ هـ)، تمتع المصريون مدة ولايته بالسلام والطمأنينة. وهذا ما كان مرجوا، لان الظاهر كان رجلا عاقلا حليما دمث الأخلاق عادلا ؛ فألغى القوانين الت كان قد أصدرها أبوه، وتشتهر هذه الفترة بالعدل الشامل والعمل لصالح الرعية [٣].

وفي أواخر عهد المستنصر (٤٢٧ – ٤٨٧ هـ) ظهرت روح العداء والكراهة إذاء أهل السنة، عندما تقلد أمير الجيوش بدر الجمالي مقاليد الحكم وحكم البلاد حكما مطلقا ؛ فأمر بإضافة " حي على خير العمل " الى الآذان، ونقش لعن الصحابة على الجدران، كما أمر بأن يكون التكبير على الميت خمسا فقط [٤].

وفى عهد المستعلي (٤٨٧ – ٤٩٥ هـ)، الذي سار لي نهج أبيه في التعصب للشيعة، زاد النياح والصياح والبكاء والعويل في اليوم العاشر من المحرم، وهو اليوم الذي قتل فيه الحسين، وظهر ذلك بصورة لم تعهد من قبل، ولكنه كان مع الأفضل بن بدر الجمالي مسلوب السلطة والإرادة كما كان المستنصر مع أبيه بدر. وبعد سنة ٤٦٧ هـ أصبح النفوذ والسلطان المطلق في يد الوزراء. وكان التحمس للمذهب الشيعي ونصرته، أو إضعافه ومناهضته، تابعا لرغبة الوزراء وميولهم.

---

[١] اين خلكان (ج ٢ ص ١٦٦) ، والمقريزي خطط (ج ٢ ص ٢٨٧) .

[٢] يحيى بن سعيد (ص ٢٠٠ و ٢٠٢ و ٢٠٦) .

[٣] يحيى بن سعيد ص ٢٣٤ و ٢٣٥ ، وابن القلانسي ص ٨٠ ، وأبو المحاسن . المجلد الثاني رقم ٢ ص ١٣٠

Corpus inscriptionum arabicarum , tome ii . egypte , p . 86

[٤] أبو المحاسن المجلد الثاني (ج ٢ رقم ٢١ ص ٢٧٦) .

ولما توالى أبو على أحمد بن الأفضل الملقب بالأكمل وزارة الحافظ (٥٢٤ – ٥٥٤ هـ)، عزله وشل يده عن التصرف في أمور الدولة في سنة ٥٢٤، ومنع الناس من زيارته إلا بإذن منه ؛ ثم استولى على ما في القصر، ومنع ذكر أسم الخليفة في الخطبة. ولما كان يدين بمذهب الإمامية، أمر بالدعاء للإمام المنتظر في الخطبة ؛ وبذلك قضى على شيء من تقاليد المذهب الإسماعيلي الذي كان منتشرا الى عهده. كذلك أمر الخطباء بذكر اسمه في الخطبة، وبتلقيبه بألقاب اختارها لنفسه، مثل " ناصر إمام الحق، وهادي القضاة إلى اتباع شرع الحق واعتماده، مولى النعم، ورافع الجور عن الأمم، مالك فضيلتي السيف والقلم " [1].

ولم يكن هذا كل ما عمله الاكمل. فقد زاد على ذلك أن عين في سنة ٥٢٥ هـ أربعة من القضاة : أثنين من الشيعة، واثنين من السنيين. وكان القاضيان الشعيان أحدهما إماميا والآخر اسماعيليا. أما السنيان، فكان أحدهما شافعيا والآخر مالكيا. وأعطى لكل السلطة المطلقة في إصدار أحكامه على وفق مذهبه. وقد حدثنا المقريزي أن هذه السياسة التي انتهجها أبو على الاكمل أثارت غضب دعاة الشيعيين وحنقهم، وكذلك الامراء وغيرهم من أعيان المتشيعين، حتى دبروا مؤامرة لاغتياله.

وفي اليوم السادس عشر [2] من المحرم سنة ٥٢٦، بينما كان الاكمل سائرا في طريقه ممتطيا جوادا لمشاهدة لعبة الكرة، كمن له جماعة من أنصار الخليفة. ولما أقترب منهم هجم عليه أحد الغلمان الخليفة وقتله، واحتز الباقون رأسه. بعد ذلك أطلق هؤلاء

---

[1] ابن ميسر (ص ٧٥) .

ويلقب الأكمل أيضا بكثيفات أو كشفات . ويرجح الأستاذ فييت ((g . wiet أن أسمه كتيفات ، لأن كان في بغداد زمن البساسيرى طبيب أسمه كتيفات (القفطي ص ٢٦٧) .

[2] ويقول أبو المحاسن (المجلد الثالث ، ج ٣ رقم ١ ص ٤) إن هذه الحادثة كانت في العشرين من هذا الشهر .

ويخالفه في ذلك ابن ميسر (ص ٧٥) والمقريزي (خطط ج ١ ص ٤٩٠) ، الذى يقول أن إطلاق سراح الحافظ كان في السادس عشر من هذا الشهر ، وإن الحكومةاتخذت هذا اليوم عيدا سنويا تقام فيه الاحتفالات بخلاص هذا الخليفة .

الغلمان سراح الخليفة، ودانوا له بالطاعة والعبودية، وهاجم الناس بيت الوزير وانتهبوه [١]

واستمرت الحال على ذلك الى سنة ٥٢٦ هـ، وهى السنة التي قتل فيها الأكمل. وبذلك عادت السلطة ثانية الى الإسماعيلية، وبقيت على ذلك الى ان جاء صلاح الدين ؛ فعمل في سنة ٥٦٤ هـ على القضاء على الخلافة الفاطمية، وحبس الخلفة العاضد آخر الخلفاء الفاطميين، و اضطهد الأمراء وكبار رجال الدولة، وأسس في سنة ٥٦٦ مدرستين لتعليم الفقه : احداهما على المذهب الامام الشافعي، والأخرى على مذهب الأمام مالك.

ويسعى قاضى قضاته صدر الدين عبد الملك بن درباس صرف صلاح الدين جميع قضاة الشيعة (٢٢ جمادي الثانية سنة ٥٦٦) وعين بدلهم قضاة من السنيين الشافعية الذين كان يدين بمذهبهم. وبذلك أخذ المصريون يرجعون شيئا فشيئا إلى المذهب السني، وهو المذهب الذي كانت له السيادة من قبل الدلة الفاطمية، وأخذ المذهب الشيعي بنوعيه الإسماعيلي والامامي يضمحل من الديار المرية، إلى أن قضى عليه نهائيا [٢].

---

[١] ابن خلكان ج ١ ص ٣٧٩ و ٣٨٠

[٢] أبو شامة (طبعة القاهرة) ج ١ ص ١٩١

الباب السابع

ثورة مصر. صلات الخلفاء

١- مصادر ثروة مصر

لم يكد يتم فتح شمال إفريقية حتى وجه الفاطميون أنظارهم إلى فتح مصر، لعلمهم أنهم سيجدون من ثرواتها ما يساعدهم على نشر عقائدهم في ميادين أخرى أوسع مما في بلاد المغرب، ولأنهم يستطيعون بذلك أيضا نشر حضارة فاطمية تنافس حضارة الإمبراطورية العباسية، بل وتتفوق عليها.

وفي الحق إن ثروة مصر الضخمة مكنت الفاطميين من بسط سلطانهم على الشام وفلسطين والحجاز بعد أن فتحوا مصر بقليل، كما تسني لهم بعد قليل أيضا أن يقيموا الدعوة باسمهم في الموصل واليمن، بل وفي بغداد أيضا نحوا من ثمانية أشهر.

يضاف إلى ذلك أن نظام الضرائب الذي وضعه يعقوب بن كلس وعسلوج بن الحسن كانت نتيجته أن زاد خراج مصر بمقدار كبير في المحرم من سنة ٣٦٣، حتى لقد كان خراج الفسطاط وحدها يتراوح بين ٥٠.٠٠٠ و ١٢٠.٠٠٠ دينار في اليوم، كما زاد خراج مدن دمياط وتنيس والأشمونين عن ٢٠٠.٠٠٠ دينار من تلك السنة ؛ وذلك كله أمر لم تعهده مصر من قبل [١].

على أن تلك الثروة الضخمة أغرت الفاطميين، فأسرفوا في نفقاتهم التي جرهم اليها البذخ وحب الظهور، حتى لقد أصبح ذلك من مميزات الدولة الفاطمية ؛ فكانت النتيجة

---

[١] ابن ميسر .

وقد ذكر لنا اياس (ج ١ ص ٤٦) نقلا عن المسبحي أن خراج مصر بلغ في عهد جوهر ١.٢٠٠.٠٠٠ دينار .

لمعرفة خراج مصرفي عصورها المختلفة منذ الازمان القديمة ، يرجع الفهرس الذي عمله إفنس لكتاب أبي صالح المسمى "كنائس وأديرة مصر "

evetts' index to abu salih's " churobes and monssteries of Egypt "))

التي لا مناص منها أن انحطت أخلاق الأهلين ووقعت البلاد فريسة ذلك الانحطاط ؛ وكان ذلك أحد أسباب انحلال الدولة الفاطمية وسقوطها في النهاية.

٢- عرش الخلفاء الفاطميين

استقر المعز منذ وصوله للقاهرة سنة ٣٦٣ هـ (٩٧٢ م) هو وأسرته وحشمه وأتباعه وغلمانه وعبيده في القصر الذى ابتناه وأثثه له جوهر القائد ؛ وفي إحدى غرف القصر اتخذ المعز عرشه الذي نقل المقريزي [١] لنا وصفه من كتاب " الذخائر والتحف ". فقد ذكر أنه كان به من الذهب ما يزن ١١٠.٠٠٠ مقال، كما كان ما رصع به الستر ١.٥٦٠ قطعة من الجواهر المختلفة الألوان ؛ وكان هذا الستر — وهو من عمل الوزير اليازوري — موضوعا قباله العرش ، وقد حلى بما زنته ٣٠٠.٠٠٠ مثقال من الذهب الخالص.

٣ – هدية جوهر للمعز

وفي منتصف شهر رمضان من سنة ٣٦٢، مثل الاشراف والزعماء وكبار الموظفين بيد يدى الخليفة، فقدمهم إليه جوهر. وبعد ذلك تقدم قليلا إلى الامام، ورأى الحضور هديته التي أعدها لمولاه ؛ وكانت —كما يقول المقريزي [٢] نقلا عن أبن زولاق وهو من الثقات في هذا الموضوع — تتألف من مائة وخمسين فرسا مسرجة ملجمة، بعضها مذهب وبعضها مرصع، والبعض الآخر معنبر، وإحدى وثلاثين قبة على نوق نجاتي بالديباج والفرش. وكان من هذه البخاتي تسع نوق محملة بالحرير، كما كانت النوق الأخرى ولودا. واشتملت الهدية أيضا على ثلاث وثلاثين بغلة، كان منها سبعة ملجمة مسرجة، تتبعها مائة وثلاثون بغلة معدة للنقل وتسعون نجيبا ؛ كما اشتملت على أربعة صناديق يرى ما بداخلها ؛ وجعل فيها أواني الذهب والفضة. وكان في الهدية مائة سيف محلاة بالذهب والفضة، ودرجان من فضة مخرقة فيها ثمين الجواهر والشيشان المرصع بالجواهر.

---

[١] الخطط ج ١ ص ٣٨٥ و ٣٨٦

[٢] شرحه ج ١ ص٣٨٥

ولم يكن هذا كل ما قدمه جوهر لمولاه في هذا اليوم. فقد اشتملت الهدية أيضا على تسعمائة آنية فيها طرائف مختلفة انتخبها له هذا القائد من ذخائر مصر.

٤- الكسوة [1] التي عملها المعز للكعبة

ويتبين لنا مدى ثروة مصر في ذلك الوقت من وصف الكسوة التي أمر المعز بعملها للكعبة، كما يبين لنا هذا أيضا كيف نافست مصر بغداد، بل كيف تفوقت عليها وعلى غيرها من المراكز الإسلامية. ففي يوم عرفة أمر المعز بنصب الكسوة التي اتخذها للكعبة على الإيوان الذي جعله لعقد الجلسات الرسمية.

وكانت هذه الكسوة مربعة الشكل من ديباج أحمر، وسعتها مائة وأربعة وأربعون شبرا ؛ وكان في حافاتها اثنا عشر هلالا ذهبيا، في كل هلال إترجة ذهبية ؛ وفي داخل كل منها

---

(١) اللفظ الذي استعمله المقريزى هنا هو " شمسية " ؛ ويريد به طبعا الستور التي كانت تكسي بها الكعبة . وقد تناول كترمير (**quatremere**) الكلام على اشتقاق هذا اللفظ في المجلد الثاني من تاريخ المماليك في مصر الذى عربه عن المقريزي (ويعرف باسم كتاب السلوك في معرفة الملوك) . وتبعا لما ذكر كترمير ، نجد هذا اللفظ (شمسية) مستعملا فيما يأتي :

١- نافذة مربعة في أعلى الحوائط ، تترك مفتوحة عادة أو تزين بالزجاج حسبما يشاء المرء من مرور الهواء أو الضوء فقط (رحلة ابن بطوطة ، طبع وترجمة ديفر يميري وسانجيتي (**d . cc defremery et b . r . sanguanetti**) ، (باريس سنة ١٩١٤ ج ١ ص ١٩٩) . وفي هذه الرحلة يقول ابن بطوطة في وصفه لجامع دمشق ، ان به أربعة وسبعين من شمسيات الزجاج ؛ وجاء ذكر شمسيات الزجاج في عبارة المقرى عن جامع قرطبة في كتابه " نفح الطيب " (ج ١ ص ٢٩٣) . وعند كلام المقري على المسجد الجامع بمراكش ورد في نفس هذا الجزء (ص ٢٦٧) ما يأتي : " وفي أعلاه ثلاث شمسيات تسمى رمانات " وفي كتاب هست المسمى " مراكش وفاس " ص ٢٦٥ **host : moroooo and faz)** جاء لفظ شمسة ، ويراد بها النافذة .

٢- مظلة : فقد جاء تاريخ ابن خلدون أن الخليفة خرج من خيمته وعليه الشمسية ؛ وهناك أقول أن كترمير أستعمل في هذا الموضوع لفظ **parasol**، ومعني هذا المظلة الخاصة بالسيدات . لكني أفضل استعمال لفظ (**umbrella**) الدال على المظلات التي يستعملها الرجال ، لأنها اكبر وأصلح لاستعمال الخليفة .

٣- الكسور أو الستور ، فقد جاء ذلك في المقريزي في خططه (نقلا عن ابن ميسر في تاريخ مصر ص ٤٤ ، وعن الأول أخذ كترمير) . فانا نجد في المقريزي " أن المعز أمر بنصب الشمسية (يراد بها هنا كما قدمنا الكسوة التي معناها الستر) التي عملها الكعبة على ايوان القصر .

انظر الترجمة كترمير لكتاب " السلوك في معرفة دول الملوك " (**histoire des sultans mamlouks**) للمقريزي ، المجلد الثاني ، الجزء الأول ص ٢٨٠ – ٢٨١

خمسون درة تشبه بيض الحمام في الكبر، كما كان فيها الاقوت الأحمر والأصفر والأزرق. وقد نقش في حافاتها الآيات التي وردت في الحج [(١)] بحروف الزمرد الأخضر، وزينت هذه الكتابة بالجواهر الثمينة. وكانت هذه الكسوة معطرة بمسحوق المسك ؛ وكانت موضوعة في القصر بحيث يراها جميع الناس من داخل القصر أو من خارجه [(٢)].

٥- دار الوزير ابن كلس وثروته

وفي وصف قصر الوزير ابن كلس وبيان ما تركه من الثروة ما يكفي لأن يبين ثورة البلاد في ذلك العصر. ولقد سبق أن ذكرنا أن ابن كلس كان يشجع العلوم والفنون، وأنه كان يجمع الاجتماعات الكبيرة في بيته في كل يوم خميس، ويقرأ على المجتمعين مؤلفاته. وكان يحضر هذه المجتمعات القضاء والفقهاء، وأساتذة القراءات والنحاة، وعلماء الحديث وكبار رجال الدولة أصحاب المواهب الممتازة، وكان يتقدم إليه الشعراء حين ينتهى الاجتماع فينشدونه مدائحهم.

وكان يجمع في قصره عددا كبيرا من الموظفين : يشتغل بعضهم بكتابة نسخ من القرآن، وبعضهم ينسخ شيئا من كتب الحديث والفقه والأدب وبعض كتب العلوم حتى الطب. وكان هؤلاء النساخ يراجعون ما يكتبونه، ويضيفون اليه علامات الشكل والنقط ؛ وكان من بين الفقهاء الذين يحضرون مجلس ابن كلس رجل اسمه الحسين بن عبدالرحيم، يلقب بالزلازلى، وهو صاحب كتاب الاسجاع.

وجعل ابن كلس في جماعة من القراء والأئمة، وعين لهم الرواتب الخاصة ووكل إليهم إقامة الصلاة في المسجد الذي بناه في هذا القصر. وكذلك جعل ابن كلس في قصره مطابخ خاصة له ولأضيافه، وأخرى لغلمانه وحاشيته وأتباعه. وكانت تمد في كل يوم مائدة كبيرة للعلماء وصفوة كتابه وأتباعه ولأضيافه، وموائد أخرى تمد لحجابه وحاشيته وسائر

---

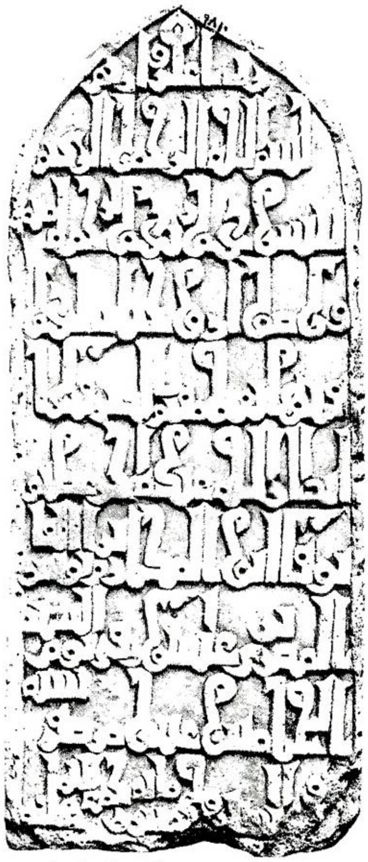
(١) القرآن الكريم سورة ٣ آية ٩٥ ، وسورة ٩ آية ٣

(٢) ابن ميسر ص ٤٤

الكتاب [1].

وجعل في القصر أيضا ميضأة للطهور وثمان غرف كانت معدة على الدوام لمن يأتي اليه من الأغراب.وكان يجلس بع صلاة الصبح كل يوم، فيدخل الناس للتسليم عليه، ثم تعرض عليه الرقاع بظلامات الناس وحاجاتهم ؛ واتخذ كمولاه العزيز عددا من الضباط منح كلا منهم رتبة القائد ؛فكانو يصحبونه في غدواته وروحاته ؛ ومع هؤلاء القواد جماعة من الموالي أطلق على كل منهم لقب القائد أيضا.

[1] ابن خلكان (ج ٢ ص ٤٤١) نقلا عن المسبحي



شاهد من الرخام عليه كتابة بالخط الكوفى
من أوائل القرن السادس الهجرى



لوح من الرخام مزين بصور الأسماك والحمام
وهو من العهد الفاطمى

ولم يلفت هذا الوزير تحصين قصره ودور غلمانه بالدروب [1] ؛ فاتخذ لذلك حراسا أمدهم بما يحتاجون اليه من السلاح والعدد وسائر المؤن وأعد لهم وسائل البيع والشراء،

---

[1] كانت الدروب عبارة عن حارات غير نافذة ، فكان في نهاية كل منها باب .

حتى أصبح يحيط بداره ودور أتباعه الحوانيت التي تباع فيها كل أنواع الحاجبات من مأكل ومشرب وملبس [١].

وزادنا المقريزي أن هذا الوزير جعل في قصره عدة دواوين، بعضها للعزيزية [٢]، والبعض الآخر للجيش والمالية والكتاب (السكرتيرية) والسجلات وما يتعلق بجباية الخراج ؛ وجعل لكل ديوان ما يلزمه من الكتاب. وجعل هذا الوزير أيضا في قصره مخازن للمخازن للملابس والمشروبات وبيت المال والسجلات ؛ وكان لكل منها مدير خاص يشرف على أعمالها.

وأفرد الوزير في قصره جانبا خاصا للعلماء والشعراء والأدباء والفقهاء وعلماء الكلام والصناع ؛ وجعل لكل طائفة من هؤلاء قسما يخصهم، كما رتب لكل من الجميع راتبا يدفع اليه بانتظام. ولم يفته أن يجعل في قصره مستشفى فيه عدد كاف من الأطباء يقومون بفحص المرضي ووصف ما يلزمهم من الأدوية التي كانت تعطى اليهم بدون ثمن.

لم يكن هذا كل ما اتخذه ابن كلس من وسائل الأبهة والعظمة. فقد كان في قصره عدا ذلك طائفة من الحجاب يرتدون الملابس الحريرية، ويتقلدون السيوف ويمنطقون بالمناطق. وقال المقريزي إنه في شهر رمضان كانت تقام الولائم في قصر هذا الوزير، فكان يأتيها الفقهاء ومشاهير الرجال، كما كان يدعى اليها الفقراء وعامة الناس.

ويحدثنا ابن منجب [٣] أن عطاء الوزير من الخليفة العزيز كان مائة ألف دينار [٤]

---

[١] ابن خلكان (ج ٢ ص ٤٤٠ و ٤٤١) نقلا عن المسبحي .

ذكر ابن خلكان (ج ٢ ص ٤٤١) أن الحارة التي تعرف في القاهرة بالوزيرية ، وهى الواقعة داخل باب سعادة ، تنسب الى أصحابه لاتخاذها سكنا لهم .

[٢] يقصد بديوان العزيزية ، كم يظهر من اللفظ ، الديوان الذي ينظر في الأمور التي تتعلق بشخص الخليفة مباشرة ، كالحرس وشئون معينة .

[٣] (ص ٢٣)

[٤] هذا اللفظ مشتق من ديناريوس **(denarius)** (**aureus**) الاغريقي اللاتيني ، وهو ، أي الدينار ، أسم وحده من العملة الإسلامية القديمة . ومنذ أدخل الخليفة عبدالملك ٦٥ — ٨٦ هـ (٦٨٤ — ٧٠٥ م) إصلاحه في السكة سنة ٧٧ هـ (٦٩٦ م) ، أصبحن قيمته ثابتة (انظر لفظ يهى **dinar**في دائرة المعارف الإسلامية) . ومن ذلك الحين أصبح يضرب الدينار في كافة دور الضرب في أرجاء الإمبراطورية الإسلامية طوال العهد الاموي . وكان وزن الدينار ٦٥ حبة

(أكثر قليلا من ٥٠.٠٠٠ جنيه) كل عام، وأنه ترك بعد وفاته من الغلمان الشبان أربعة آلاف، ومن الجواهر الثمينة ما قدرت قيمته بأربعمائة ألف دينا، ومن المصوغات ما بلغت قيمته خمسمائة ألف دينار، وأنه حين توفي كان عليه للتجار ستة عر ألف دينار، فقضاها عنه الخليفة العزيز من بيت المال واداها لأصحابها على قبره.

هذه هي حياة أحد وزراء الصدر الأول من أيام الفاطميين، وتلكم هي ثروته الضخمة التي يحدثنا ابن منجب [١] أنها بلغت أربعة ملايين دينار، عدا مائتي ألف دينار خصصها لينفق منها في زواج ابنته، وعدا ستمائة حظية [٢]، وأرضا أعطيت له على سبيل الالتزام قدرت بثلثمائة ألف دينار. ويحدثنا ابن خلكان [٣] أيضا أن ما أنفق في تكفين ابن كلس وفي العطر الذي استعمل لتجهيز جسمه بلغ عشرة آلاف دينار.

وفي الحق، ان البذخ والاسراف هما من مميزات الدولة الفاطمية كما قدمنا. فهذا ابن منجب يقول إنه لما مات برجوان وزير الحام، وجد في خزائن ملابسه ألف سروال دبيقيوألف تكة حريرية، وكمية كبيرة من الملابس الأخرى والاثاث والآلات الموسيقية والكتب والطرائف المختلفة.

هذا، وقد كانت سلطة الوزير في الصدر الأول من أيام الفاطميين محدودة، إذ كان

، والدرهم ٤٣ حبة ؛ وظل الامر كذلك حتى العصور الإسلامية المتأخرة . وكان عيار الدنانير العباسية ٠.٩٧٠ ؛ وظلت هذه النسبة مرعية قرونا طويلة ، كما كانت تلاحظ أيضا في الدنانير التي تصدر عن دور الضرب عند الفاطميين والموحدين ، وأحيانا عند المرابطين . وكان الدينار يساوى أول الامر عشرة دراهم ؛ غير أن ذلك كان يختلف بين عصر وعصر)lane – poole , coins an . I modals , pp . 165 – 267)

وقد ذكر لين ليول ((lane – poole , the story of cairo , p . 59 أن الدينار كان عملة ذهبية تساوى في الوزن نصف الجنيه المسمى gines ، وأنه – كما ذكره المقريزي – كان ٣٦ درهما ؛ وعلى هذا فيكون الدرهم ثلاثة بنسات ونصفا .

انظر المقدسي (طبعة دى غويه ص٢٤٠)

[١] (ص ٢٣) .

[٢] أطلق الأستاذ مرجوليوث في كتابه " القاهرة وبيت المقدس ودمشق " (prof . margoliouth , cairo , jerusslem and damassous , p . 27) عليهم زوجات

[٣] (ج ٢ ص ٤٤٣ ، نقلا عن ابن عساكر) .

يتوقف بقاؤه في مركزه على تمتعه بتعضيد الخليفة ورضاه ؛ ولذلك نرى المقريزي يذكر لنا أن ابن كلسن صرف عن الوزارة في سنة ٣٧٣ هـ (٩٨٣ – ٩٨٤ م)، واعتقل في القصر ثمانية أشهر، ثم أطلق بعدها، وألقيت اليه مقاليد الأمور من جديد، ووهبه الخليفة بهذه المناسبة خمسمائة غلام من الناشئة وألفا من الموالي المغاربة ، غير أنه في العهد الأخير من أيام الفاطميين (٤٦٦ – ٥٦٧ هـ و ١٠٧٣ – ١١٧١ م)، عند ما صار الوزير رب السيف والقلم، ضعف نفوذ الخلفاء كثيرا، بحيث أصبحوا طوال هذا العهد تقريبا تحت نفوذ الوزراء الذين استفلحت قوتهم وتضخمت ثروتهم ؛ فأعانهم ذلك على أن يعيشوا معيشة قوامها حب الظهور ما يستدعيه ذلك من سرف وبذخ أكثر مما كان عليه اسلافهم في العهد الأول

٦- ثورة الوزراء في العهد الأخير من أيام الفاطميين

أما عن ثروة الوزراء الفاطميين في هذا العهد، فقد أمدنا ابن ميسر بمعلومات طريفة في هذا الموضوع. فقد ذكر لنا في كلامه عن الثروة التي خلفها الأفضل (٤٨٧ – ٥١٥ هـ) بن أمير الجيوش بدر الجمالي، ما كان من ركوب الخليفة الآمر ٤٩٥ – ٥٢٤ هـ (١١٠١ – ١١٣٠ م) الى دار الوزير وختمه عليها بعد وفاته

ففي صبيحة الغد بعد صلاة العيد غسل جثمان الوزير الى دار الخلافة، وجعل على ذلك جماعة من الكتاب يقومون بإحصائها. وتم ذلك في أكثر من شهرين بين سمع الخليفة وبصره، حيث كان يقضي صدر النهار في الجزء الذي عين من قصره لنقل تلك الثورة اليه، كما كان يقضى سائر النهار في أحد دور الوزير ليعمل الترتيب اللازم.

ويظهر لنا من عبارة أبن ميسر أن الخليفة قضى معظم وقته في الاشراف على نقل ما في دار الوزارة ودار الملك [1]. وهذه الدار – كما ذكر المقريزي في كلامه عن مناظر

---

[1] قد يظن من لفظ دار الملك أن الأفضل كان يلقب بالملك أيضا ؛ ولكن اعتمادا على ما ذكره أسامة بن منقذ (ص ٢٢) ، نرى أن هذا اللقب لم يضف الى ألقاب الوزير قبل سنة ٥٣٠ هـ (١١٣٥ – ١١٣٦ م) . وقد كان رضوان بن الولخشي وزير الخليفة الحافظ يلقب بالسيد الملك الأفضل ؛ وظل الوزراء الفاطميون يتمتون بهذا اللقب منذ ذلك الحين

الخلفاء الفاطميين – بناها الأفضل سنة ٥٠١ هـ (١١٠٧ – ١١٠٨ م)، ثم صارت بعد وفاته ضمن مناظر الخلفاء. وقد جعل الأفضل مسكنه الخاص في هذه الدار ؛ فنقل الى بعضها الدواوين، كما جعل فيها محال خاصة تقام فيها الأسمطة في الأعياد، واتخذ في احدى أبهائها مجلسا يجلس فيه للعطاء، كانت تعقد فيه الجلسات. وسمي هذا المجلس مجلس العطاء، اذ كان الوزير يجلس فيه ويعطي دينارا لكل من يأتيه مستجديا.

وقد كان الأفضل يحتفظ لذلك في دار العطاء بثمانية أكياس من حرير، في سبعة منها خمسة وثلاثون ألف دينار ؛ كما جعل في قاعة اللؤلؤ بجوار الحشية التي كان يجلس عليها كيسين : في أحدهما دنانير ، وفى الآخر دراهم ينفق منها اذا كان في الحرم. أما ما كان في مجلس العطاء، فكان يعطى منها للمستجدين كما قدمنا وللشعراء.

وقد ذكر المقريزي أن الأفضل كان اذا انفرط عقد المجلس أمر بكتابة ما أنفق من كل كيس على البطاقة الت كانت ترفق به، ثم يمضيها ؛ وتبقي في الكيس ويختم عليه. ولما جاء رجب سنة ٥١٢ (١١١٨ م) تضاعف عدد الاكياس وتوالى الاحسان بصورة تنم عن البذخ ؛ فأغدقت العطايا على الشعراء في جوامع مصر المتقاربة من قصر الوزير، وعلى الفقراء بحي القرافة [١].

والآن فلنعد الى ثروة الأفضل، فنجد أن ابن ميسر يقول عنها : " فوجدوا له من الذخائر النفيسة ما لا يحصى : فوجد له ستة آلاف ألف دينار عينا، وفي بيت الخاصة ثلاثة آلاف ألف دينار، و في البيت البراني [٢] ثلاثة آلاف ألف ومائتين وخمسين ألف دينار، وخمسين أردبا دراهم ورق، وثلاثين راحلة من الذهب العراقي المعزول برسم الرقم ؛ وعشرة بيوت في كل بيت منها عشرة مسامير ذهب، كل مسمار وزنه مائتا مثقال، عليها

ابن خلكان ج ١ ص ٦٦٠ ، والمقريزي خطط ج ١ ص ٤٣٨ و ٤٨٣ – ٤٨٥ ، **ravaisse , essai sur la topographie du caire d'apres maqrizi (memoires publiees par les membres de la mission arheologique francaise du caire , tome III . paris , 1887 , pp . 470 – 471) >**

(١) المقريزي ج ١ ص ٤٨٣ و ٤٨٤

(٢) يحتمل أنه دار الوزارة في أجناح من دار الملك والقاهرة .

العمائم المختلفة الألوان [١] ؛ وتسعمائة ثوب ديباج ملونة، وخمسمائة صندوق من دق دمياط وتنيس برسم كسوة بدنه ؛ ولعبة عنبر على قدر جسده برسم ما يعمل عليها من ثيابه ليكسب الراحة. ومن الطيب والنحاس والالات ما لا يحصى عددا ؛ ومن الأبقار والجاموس والأغنام والجمال ما بلغ ضمان ألبانه وضياعه أربعين ألف دينار في السنة ؛ ودواة يكتب منها مرصعة بالجواهر، قوم جوهرها باثني عشر ألف دينار ؛ وخمسمائة ألف مجلد من الكتب " [٢].

وقد ذكر لنا ابن ميسر أيضا طرفا من ثروة الأفضل العظيمة – نقلا عن الخازن بالقصر – حسب ما تذكره ذلك الخازن الذي يقول أن هذا كان قلا من كثر مما استطاع أن يتذكره عند ما ذكر هذا الأمر.

من ذلك أنه وجد في دار الأفضل (دار الملك) ستة آلاف ألف دينار من الذهب ن وسبعمائة طبق ما بين فضة وذهب، وما لا يحصى من الأدوات كألاء والصحاف وأكواب الشراب، والأباريق والقدور والاواني المستعلة في اللبن (الزبادي)، وغير ذلك من القطع المختلفة من الذهب والفضة. وكان هناك غير ذلك شيء كثير من البرانى [٣] الديني الكبيرة المملوءة بالجوهر، الذي كان بعضه منظوما على هيئة عقود، وساثره منثورا.

كما كان مما تركه الأفضل أيضا تسعون ألف ثوب عنابي [٤] من الديباج، وثلاث خزائن كبيرة ممتلئة بالثياب الدبيقة من صنع تنيس ودمياط، وخزانة أخرى للطبيب مملوءة بأسفاط العود وغيره، مكتوب على كل منها وزنه ونوعه ؛ أما أواني المسك والكافور والعنبر فكانت من الكثرة بحيث لا يمكن عدها [٥].

وكان في ثروة الأفضل غير ما قدم أربع حجرات ملأى بالمقاطع والستور والفرش

---

[١] هذه المسامير كانت تستعمل مشاجب لتوضع عليها العمائم .

[٢] ابن ميسر ص ٥٧

[٣] جمع برنية وهى إناء معروف .

[٤] نوع من الثياب الحريرية ، تنسب كما ذكر دوزي في شرح تاريخ هذا اللفظ ، إلى ابن حفيد عميرة المسمى عتاب ؛ واليه ينسب حى ببغداد ، وفيه تصنع هذه الثياب التي صارت تعرب بالثياب العتابية (انظر **dozy , supplement**)

[٥] ابن ميسر ص ٥٧

والوسائد والمساند الديباج، وأنواع مختلفة من الدبيقي الحرير المذهب، وعدة صناديق ملأى بأحقاق الذهب خاصة لاستعمال الوزير، وخزائن أخرى ملأى بمختلف الثياب الديباجية المحلاة بالذهب.

أضف إلى ذلك أربعة آلاف من البسط والستور المصنوعة من خيوط السجاد، وخمسمائة قطعة من البلور ما بين كبيرة وصغيرة، خمسمائة قطعة محكم [١]لنقل الأمتعة، وألف عدل من أمتعة اليمن والإسكندرية وبلاد المغرب، وسبعة آلاف سرج. ولم يكن هذا كل ما خلفه الأفضل من ثروة. فقد كان في بيته ثمانمائة جارية، منهم خمسون حظية، لكل واحدة منهم حجرة تخصها [٢].

أما مجلس شرب الأفضل فقد وصفه لنا ابن ميسر، إذ ذكر أنه كان فيه ثمانية تماثيل لثمان جوار متقابلات ؛ وكان منهم أربع بيض من الكافور، وأربع سود من عنبر. وكن مرتديات أفخر الثياب ومتزينات بأثمن الحلى، ويمسكن بأيديهن أحسن الأحجار الكريمة.

وكان الأفضل إذا دخل من باب المجلس، نكس رءوسهن إجلالا له ؛ فإذا ما أخذ ماكنه في صدر المجلس أستوين قائمات. وهذه التماثيل لم يبين لنا ابن ميسر – وهو المرجع الوحيد في هذا الموضوع – إن كانت حركاتها تلك من تلقاء نفسها أو بوسائل أخرى. والظاهر أن ذلك منها كان بوسائل هندسية مرتبطة بمكان دخوله إلى محبسه.

وكان الأفضل حين يجلس للشرب يجعل في مجلسه صواني الذهب مصفوفة، وفيها الاواني المملوءة بالجواهر. فاذا أمر جعل ما في الآنية على الصينية فيملها، ويجعل بدله الشراب [٣].

هذا، وقد ذكر متولى الخزانة في القصر الذي استمد منه ابن ميسر هذه المعلومات

---

[١] لم أعثر على معنى هذا اللفظ رغم رجوعي الى قاموس دوزري المسمى قاموس الملابس عند العرب (**dozy , dictionnaire des vetements ehez les arabes)** والى غيره من الموسوعات العربية كالقاموس المحيط للفيروزبادى

[٢] ابن ميسر ص ٥٨

[٣] ابن ميسر ص ٥٨

الطريفة : " هذا ما حضرني حفظه في داره ؛ وأما ما كان في مخازنه وتحت يد عماله، والجباة وضمان النواحي، وأصناف الغلال والحبوب والقطن والكتاب، والشمع والحديد والخشب وغير ذلك، فما لا يحصى ".

أما عن أخلاق الوزير فيقول ابن ميسر : "كان الأفضل من العدل وحسن السيرة في الرعية والتجار على صفة جميلة.. ولم يعرف أحد صودر في زمانه " [(١)].

هذا هو مبلغ ثروة الوزير في العهد الفاطمي الأخير. ومما ذكره ابن ميسر والمقريزي نستطيع أن نتبين ما كان هناك من القوة والثروة، واحالة الاجتماعية، والحياة الخاصة التي عاشها الوزراء وغيرهم من أصحاب المراكز الكبيرة. ولا نشك في أن الوزير في هذا العهد كان يتمتع بالسلطة المطلقة كما كان في قبضة يده خراج الدولة ؛ وكانت داره المحور التي تدور عليه أعمال تلك الدولة الواسعة التي لم تكن تابعة للخلفاء إلا اسما فقط.

وإن كثيرا من ثروات هؤلاء الوزراء كانت تضجر عند وفاتهم ؛ إلا أن بعضها كان يرد الى من يخلفهم من أبنائهم. فقد روى أبو المحاسن أن أبا على أحمج بن الأفضل لما آلت إليه السلطة بعد أبيه، حبس الخلفة الحافظ سنة ٥٢٤ هـ (١١٣٠ م) واستولى على ما في القصر، زاعما أن ذلك كان لأبيه. غير أن الخليفة قد استرد هذه الثورة بعد وفاة الوزير وجعلها في قصره [(٢)]. وقد كان هذا النزاع بين الخلفاء والوزراء من المميزات التي امتاز بها هذا العهد الفاطمي الأخير ؛ وربما كان ذلك نتيجة توالى الأطفال عرش هذه الدولة. وقد يكون الاستاذ مرجوليوث مصيبا

فيما يراه أن تسنم أطفال للعرش كان مبعثه حل اطلاق الحرية للوزراء، مما كان سببا لمصائب كثيرة نزلت بالوزير والخليفة جميعا. [(٣)]

على انه في عهد انحلال الدولة الفاطمية، لم يكن الخلفاء بأقل انفاقا في سبيل الكرم

---

(١) شرجه ص ٥٨ و ٥٩

(٢) أبو المحاسن ج ٣ رقم ١ ض ٣

(٣) Prof . margoliouth : cairo , Jerusalem and Damascus , p . 39

مما كان عليه أسلافهم في أيامهم الأولى ؛ فقد ذكر ابن ميسر أنه لما مات الأفضل، كان على قبره أربعمائة وعشرون شخصا من القراء والوعاظ والمنشدين ؛ فامر الخليفة الآمر ٤٩٥ – ٥٢٤ هـ (١١٠١ – ١١٣٠ م) لكل منهم بثمانين دينارا. بالرغم من اعتراض أحد رجال بطانته استكثار لذلك القدر، أمضى الخليفة ما أراده ؛ وكان مجموع ذلك نحو الأربعة وثلاثين ألف دينار أخذت من بيت المال [١].

٧- ثورة الخلفاء الفاطميين ويسرهم

لا شك ان ثروة الخلفاء كانت أعظم من ثروة وزرائهم. وإن ما ذكرناه في وصف عرش المعز وهدية جوهر إليه، والكسوة اتلى عملت برسم الكعبة، ليبين لنا مبلغ ثروة مصر في أيام الخلفاء، وثروتهم وحالة البذخ الت كانت تسود مظاهرهم. أما وصف القصر وما كان فيه من كنوز، فذلك ما سنتكلم عليه بعد.

يقول لين بول : " إن الخلفاء الفاطميين كانوا أكثر الملوك الذين حكموا مصر حبا للمظاهر ". ومع هذا يقول : " إن ثروات الفاطميين كما دونها المؤرخون ليس من الممكن تصديقها بدون تردد، فاننا نقرأ في المقريزي أن بنتين للمعز قد تركت إحداهما (وإسمها رشيدة) ما يقرب من مليون ونصف من العملة الذهبية (١.٧٠٠.٠٠٠ دينار كما جاء في المقريزي أي ذهاء ¾ مليون جنيه)، وتركت الأخرى (عبدة) كثيرا من خزائن الحلى والصناديق التي تحتوى على خمسة أكياس من الزمرد، وثلثمائة قطعة فضية، وثلاثين ألف ثوب صقلي، وغير ذلك من الذخائر، حتى كان الشمع الذي استخدم في الختم على هذه الثروة أربعين رطلا. كما أنا نقرأ أيضا ان المعز اشترى ستارة من الديباج من فارس بما يقرب من اثنى عشر الف جنيه [٢]".

---

[١] ابن ميسر (ص ٦٠)/

[٢] (ص ١٣٣) **the story of cairo , p . 133** (مقتبسا من الخطط للمقريزي (ج ١ ص ٤١٥) .

(ا) جامع القرافة

في سنة ٣٦٦ هـ (٩٧٦ — ٩٧٧ م) أنفقت تغريد زوجة المعز أموالا جمة على تشييد مسجد لها بالقرافة. وقد قام برسم المسجد الحسن بن عبد العزيز الفارسي المحتسب ؛ وتولى زخرفته ونقشه جماعة من الفنانين من أهل البصرة ؛ وكان يحيط بهذا الجامع من غربيه حديقة غناء وصهريج . واختلط هذا المسجد على شكل مربع الزوايا ؛ وفي جوانبه أوراقه كالأزهر ؛ بيد أن نقوشه كانت في غاية الابداع. أما بابه فكان ذا مصطبة كبيرة تحت المنارة العالية، وكان مصفحا بالحديد. وكانت المقصورة يدخل اليها من أربعة عشر مربعة، أما كل باب قنطرة مقوسة على عمودين من الرخام في ثلاثة صفوف. وكانت الأبواب مكندجة [١] مدهونة بالأزرق والأحمر والاخضر، كم كانت السقوف ملونة بمختلف الألوان. وكان امام الباب الأوسط قنطرة على هيئة قوس، ملونة بالوان مختلفة، يكاد الناظر إليها يخالها شكلا طبيعيا ؛ وقد حاول النقاشون أن يحاكوها فما استطاعوا [٢].

وقد أمرت زوجة المعز الحسن بن عبدالعزيز المحتسب الذي رسم مسجد القرافة، فبني لها قصر القرافة في سنة ٣٦٦. وكان يتصل بهذا القصر بستان لطيف وحمام وبئر ؛ وكان — كما يقول المقريزي [٣] — قصرا فخما يسر الناظرين،يتردد عليه أهلوه طلبا للراحة. وكان بهذا القصر قنطرة مقامة على قبو يستظل به المسافرون من الشمس.

وفي الخطط للمقريزي أن اثنين من الفنانين كان ينافس أحدهما الآخر : هما القصير وابن عزيز العراقي، وكانا يتمتعان بحماية الوزير وتعضيده. وكان من أمرهما أن صور أحدهما راقصة في ثياب بيض في قوس ملون بالسواد، يحسها الناظر داخله فيه ؛ وصور الآخر فتاة أخرى بثياب حمر في قوس أصفر، يخالها الناظر بارزة عن القوس. وقد نالا بذلك إعجاب الوزير ؛ فخلع عليهما ووهبهما ذهبا كثيرا، و(يزيدنا المقريزي أنه كان في

---

[١] هو لفظ معرب عن كنده ومعناه مجوف .

[٢] المقريزي خطط (ج ١ ص ٤١٥) .

[٣] شرحه (ج ١ ص ٤٨٦) .

إحدى دور القرافة صورة للكتامي أحد نقاشي جامع القرافة، تمثل يوسف عليه السلام يتهيأ للراحة وهو في الجب [1].ويستطرد المقريزي في الكلام على هذا القصر، حتى يذكر أن الخليفة الامر جدده سنة ٥٢٠ هـ (١٠٢٦ م) ؛ وكان يجلس في أعلاه ويشاهد ذكر الصوفيين من نافذة عملت لذلك، وألويتهم بين أيديهم والشموع تضئ لهم ؛ وكانت تقام لهم الموائد وعليها ما لذ وطاب من سائر أنواع الأطعمة.

وقد أمر الخليفة الآمر عند انتهاء الذكر [2]، فجئ بألف نصفية [3] من خزائن الكسوة [4]، فوزعت على الحاضرين. وامر صاحب بيت المال فأحضر ألفف دينار من بيت المال ؛ ونثركل ذلك على الناس من النافذة التي كان الخليفة يشاهد منها الذكر ز واختفى بعض هذه الدنانير في الأرض، فاشتغل كثير من الناس بغربلة الأرض طلبا لها في الأيام القليلة التي تلت هذه الحادثة [5].

وقد فاقت دولة العزيز ٣٦٥ – ٣٨٦ هـ (٩٧٥ – ٩٩٦ م)، الذي بني مسجد القرافة وقصرها في عهده، دولة أبيه في اتساع الرقعة : إذ دعى له على منابر الجوامع من بلاد العرب الى المحيط الأطلسي. وكان العزيز خبيرا بالجواهر ؛ وقد ابتدع نوعا جديدا من العمائم محلاة بخيوط الذهب، وسروجا كذلك معطرة بالعنبر ؛ كما كانت أسلحته مكفتة بالذهب أيضا. واقتني كثيرا من الطرف يزين بها موائده. وشغف كخمارويه بن أحمد ابن طولون بجوارح الطير الغريبة، وجلب لذلك الطيور والحيوانات من السودان ؛ وكان مغرما أيضا بالصيد، وخصة صيد السباع. ومع هذا فقد كان ذكيا ادبيا، ورث أباه في مواهبه السياسية [6].

---

[1] (ج ٢ ص ٣١٨) .

[2] الذكر هو حمد الله وتمجيده وتنزيهه عن كل شائبة ونقص ؛ ولذلك أقوال ينشدونها بترتيل خاص ونغمات خاصة ، مثل الحمد لله ! الله أكبر ! وغير ذلك ز

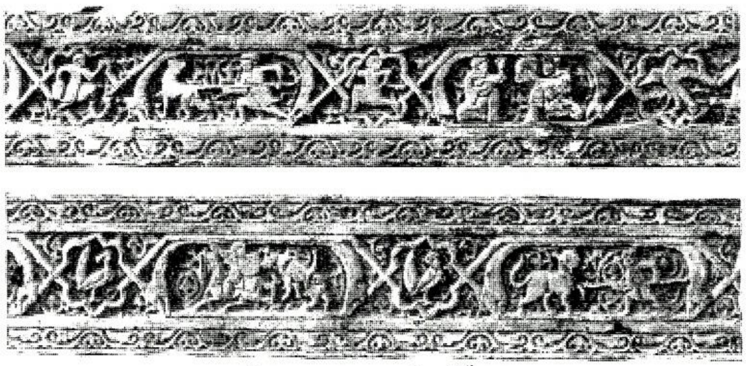
[3] ثياب تصنع من خليط من الحرير والقطن (أنظر **dozy , supplement**)

[4] وبكسر الكاف أيضا . انظر القاموس المحيط للفيروز وزبادي ؛ وهى مشتقة من كلمة كساء أي لباس .

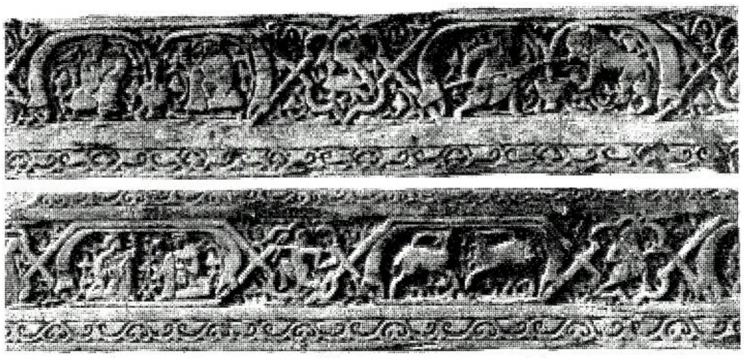
[5] المقريزي خطط (ج ١ ص ٤٨٦) .

[6] ابن خلكان (ج ٢ ص ٢٠٠)

ولقد أبنتى كثيرا من المنشآت التي تنطق بغزارة ثروته، والتي يحتاج الكلام عليها إلى مجلدات ؛ وذلك كالجامع المعروف بجامع الحاكم الذي أسسه سنة ٣٨٠ هـ، وقصر الذهب وجامع القرافة العظيم، وقصور أخرى في عين شمس، وقصر البحر الذي يقول فيه ابن خلكان لا يوجد شبيه له في الشرق ولا في الغرب [١].



مناظر تمثل الرقص والصيد والموسيقى



مناظر منقوشة تمثل طيورا وتيوسا وصائدا يقتنص سبعا مع جوقة من الموسيقيين

(١) شرحه .

وكان العزيز فوق ذلك كريما محبا للعفو ؛ وصنيعه مع إفتكين التركي خير مثل لذلك[1]. فقد عامله معاملة قوامها منتهي العطف والرعاية، وقد جاء به أسيرا الى القاهرة حين عاد من حربه منصورا عليه ؛ اذ خلع عليه ووصله بهبات، وخصص له دارا لإقامته، ثم أذن له ان يدخل بلاط الخليفة ضيفا مكرما ؛ حتى لقد كان إفتكين يقول : " لقد احتشمت من ركوبي مع الخليفة مولانا العزيز بالله ونظري إليه، بما غمرني من فضله وإحسانه ". فلما بلغ العزيز ذلك قال لعمه حيدرة : " يا عم ! أحب أن أدرى النعم عند الناس ظاهرة، وأرى عليهم الذهب والفضة والجواهر، ولهم الخيل واللباس والضياع والعقار، وأن يكون ذلك كله من عندي ".

(ب) الثروة التي خلفها الحاكم

كانت الثروة التي تركها الحاكم –كما يقول أبو المحاسن – عظيمة. ولا غرو فقد كان من بين الخلفاء الفاطميين مشهورا بحب العظمة، حتى إن أبا المحاسن يقول، ان الحاكم لما اتصل به بر رسول إمبراطور الروم وأنه في طريقه الى القاهرة، وأنه قد يمثل بين يديه، أمر بتزيين القصر ؛ فكان م بين الاكياس اتلى تحتوى على الحرير المشغول بالذهب كيس عليه رقم ٣٣١.

وقد نقل كل ذلك إلى الإيوان المعد لاستقبال الرسول وعلق على حوائطه، فغدا الايوان كله يتلألأ ببريق الذهب. وقد وضع أمام الايوان قطعة من العسجد على هيئة درقة [2]مرصعة بالأحجار الكريمة ؛ فكان لانعكاس أشعة الشمس عليها بريق يخطف الابصار ويضئ ما حواليها [3].

ونرى في العبارة التي أوردها أبو المحاسن عن ثروة ست الملك أخت الحاكم، أن تلك

---

(1) هلال الصابئ، مسكويه ج ٣ ص ٣٨٤ و ٤٠٣ ، وابن القلانسي ص ٢٠ و ٢١ .

(2) ا معربة عن لفظ فارسي هو " دربجة " ، وهى درع بيضاوي الشكل غالبا ، وفيه نتوءات في وسطه ، وله مقبض في ظاهره ؛ ويتراوح طوله بين قدم ونصف قدمين . وتصنع الدرقة غالبا من جلد فرس البحر وغيره من الحيوانات ذات الجلود السميكة ، وحيانا من جلد التمساح (أنظر **lane's Arabic – English lexion**)

(3) لمقريزي خطط ج ١ ص ٤١٥ ، وأبو المحاسن ج ٢ رقم ١ ص ٧٧

الثروة اشتملت على ثمانمائة جارية، وثمان جرات ملأى بالمسك، وكثير من الأحجار الكريمة، من بينها قطعة من الياقوت تزن ثمانية مثاقيل ؛ وكانت مخصصات هذه الاميرة السنوية خمسين ألف دينار ؛ وكانت مشهورة بالكرم والحلم [١].

(ج) زيارة ناصري خسرو مصر

لقد أمدنا ناصري خسرو، ذلك الشاعر الفارسي، حين زيارته لمصر في سنة **٤٣٩** هـ (**١٠٤٧** م) في عهد المستنصر، بوصف ضاف عن ثروة البلاط الفاطمي وأبهته، وما كانت عليه القاهرة من يسر ورخاء.

وكان ناصري خسرو وزيرا في خراسان ؛ ثم أعتزل الأعمال السياسية ومال الى الدين ؛ فحج بيت الله، وأصبح داعيا للإسماعيلية. وانه ليقص علينا في كتابه " سفر نامه " [٢] ما لاقاه في رحلته الى مكة، ثم الى دمشق فبيت المقدس، وأخيرا الى القاهرة التي وصلها في السابع من صفر سنة **٤٣٩** (٧ أغسطس سنة **١٠٤٧**)، فأقام فيها الى يوم الثلاثاء **١٤** ذي الحجة سنة **٤٤١**.

وبعد أن شاهد كثيرا من المدن العظيمة في بلاد الفرس والعراق، رأى أن القاهرة قد فاقت غيرها من مدن العالم الإسلامي في العظمة والجلال. وكان مغاليا في الإسماعيلية، فاعتبر القاهرة المركز الرئيسي للمذهب الذي يدين بعقائده ن كما أعتقد أيضا أن الفاطميين هم الائمة حقا وقد غبر عن كل ذلك في كتابه.

ويذكر لنا أن الفنادق والحمامات وغيرها من المنشآت العامة كانت كلها ملكا خاصا للخليفة. وكانت الدكاكين في القاهرة كلها كذلك ملكا له ؛ وكان ايجار كل منها في الشهر من دينارين الى عشرة دنانير [٣] ؛ وكانت الدور محكمة البيناء، مبنية بالحجر لا باللبن، يفصل بعضها عن بعض حدائق بهيجة [٤]..

---

[١] شرحه .

[٢] النسخة الفارسية وترجمته ، قام بنشرها وترجمتها شارل شيفر (**chares schefer**) ، باريس سنة ١٨٨١

[٣] ناصري خسرو " سفر نامة " ، ص ١٢٧ .

[٤] شرحه ص ١٣٢



باب ذو مصراعين ، أصله من مارستان السلطان قلاون . وكان مركبا على أحد أبواب القصر الفاطمي الغربي

ويقول لنا ناصري خسرو [١] أيضا انه كان بالقصر الملكي ثلاثون ألف [٢] جارية، وانه

(١) ناصري خسرو ص ١٢٨

(٢) ذكر المقريزي أنه كان بالقصر ثمانية عشر ألفا ، منها عشرة آلاف من الأشراف وثمانية آلاف من الخدم . وفي عبارة أخرى للمقريزي نقلا عن أبن عبد الظاهر ن أنه كان بالقصر حين استولى علي صلاح الدين عند سقوط الدولة الفاطمية أثنا عشر ألفا كلهم من الإناث ، عدا الخليفة وأولاده .

كان فيه اثنا عشر بهوا (سلاملك) وعشرة أبواب [1]. وكان موضعه وسط القاهرة التي كان بها عشر حارات [2] وكان حراسه ألفا : منهم خمسمائة فارس وخمسمائة راجل. واذا ما انتهت صلاة العشاء ضربت الطبول والأبواق وعزفت الصنوج، وكون الحرس من أنفسهم دائرة، وظلوا كذلك حتى مطلع الشمس [3].

(د) جبر الخليج

أما عن الاحتفال بوفاء النيل، فنكتفي بذكر ما قاله ناصري خسرو أيضا من أنه كان من أعظم الاحتفالات التي كانت تقام في مصر في كل عام. فقد كان يحتفل بوفاء النيل بحضور الخليفة المستنصر، وفي ركبة عشرة آلاف فارس يمتطون الخيول الطهمة الملجمة، ويلبسون الدروع المحلاة بالذهب والاحجار الكريمة ، المكسوة بديباج مطرز باسم الخليفة. ويلي هلاء صفوف من الجمال عليها هوادج مزركشة، تقودها طائفة من جند الخليفة ؛ وكذا كانت عدد البغال محلاة بالذهب.

أما الجند فكانت تسير في صفوف منتظمة، فصيلة تلو فصيلة، ميميمين فم الخليج، والبربر من هؤلاء يسيرون في عشرين ألفا من أشداء قبيلة كتامة (من قبائل البربر في شمال إفريقية) من سلالة جند المعز. ويلي هؤلاء خمسة عشر ألفا من المغاربة ؛ ومن المصامدة [4] عشرون ألفا. ويسير خلف هؤلاء وأولئك الاتراك والفرس في عشرة آلاف، و يطلق عليهم اسم المشرقين، ولو أن مسقط رأسهم هو مصر. ويتبعهم من بدو الحجاز خمسة

---

[1] ذكر لنا ابن دقماق (ج ٤ ص ٥٦ و ٥٧) أسماء أبواب القصر الشرقي الكبير وهى : باب الذهب ، وباب البحر ، وباب الريح ، وباب الزمرد ، وباب العيد ، وباب قصر الشوك ، وباب الديلم ، وباب تربة الزعفران ،وباب الزهومة (أعني الباب الذي يشتم منه رائحة اللحم) .

[2] ناصري خسرو ص ١٤٤ و ١٤٥

كانت أسماء هذ الحارات أو الاحياء كما يلى : حارة برجوان ، وحارة زويلة ، وحارة الجدرية ، وحارة الامراء ، وحارة الديالمة ، وحارة الروم ، وحارة الباطلية ، وقصر الشوك ن وعبيد الشراء ، وحارة المصامدة . وفي المقريزي (خطط ج ٢ ص ٣ – ٢٠) تفصيل لهذه الحارات في عبارة شائقة تبين أسباب تسمية بعضها بهذه الأسماء الخاصة .

[3] ناصري خسرو ص ١٢٨

[4] قبيلة من قبائل البربر بشمال افريقية .

عشر ألفا، ومن السودان ثلاثون ألفا، وكان يطلق عليهم عبيد الشراء [1].

ويلي هؤلاء أيضا عدد قليل من الارقاء ورجال الحاشية، وكذلك الموظفون على اختلاف مراتبهم،والعلماء والامراء [2] من مراكش و اليمن، وبلاد النوبة والحبشة، وآسيا الصغرى وجرجان وتركستان، حتى الامراء من أبناء سلطان دهلى — وكانت أمهم تقيم في القاهرة.

أما الخليفة فكان شابا في مقتبل العمر، بهى الطلعة حليق اللحية، عليه كساء طويل [3]ناصع البياض، يتمطى بغلة عارية من كل مايزينها. وكان حرس الخليفة يتألف من ثلثمائة من الديلم المشاة، مرتدين الحلل السندسية المصنوعة في بلاد الروم، حاملين المعاول والمزاريق. ويسير الى جانب الخليفة أحد كبار رجال الدولة يحمل مظلة الخليفة [4] ؛ ويحف بهما خصيان يطلقون البخور على جانبي الطريق. حتى اذا ما وصل الى الفسطاط المقام عند فم الخليج وسجد له الناس اكبارا واجلالا، قذف المزراق في سد النيل. ومن ثم ينطلق الناس يعملون في هذا السد بمعاولهم، فينساب الماء ؛ وعندئذ يهرع الناس الى زوارقهم رحين جزلين، يتقدمهم زورق يحمل من الصم والبكم تيمنا وتفاؤلا [5].

وأخيرا يقول ناصري خسرو أن مصر كانت في ذلك الوقت في بحبوحة من العيش، ويقول أن الخليفة كان محبوبا جدا من الشعب، وانه لم يكن أحد يخي سلبا أو تعديا في ظل حكومته.

---

[1] أي الأسارى الذين كانوا يشترون بالمال .

[2] يقول ناصري خسرو (ص ١٣٩) أن هؤلاء قد كونوا من أنفسهم فصيلة متحدة ، غير أنها لم تكن معتبرة من جيش الخليفة ؛ وكان بعضهم يعطي معاشا قدره خمسمائة دينار على الأقل ؛ ويعطي البعض ألفي دينار . أما أن تكون هذه المعاشات لشهر أو لسنة ، فذلك ما لم يبينه ناصرو خسرو ، ويبعد أنهم كانوا يتقاضون هذا المبلغ عن الشهر الواحد ، فان مالية الدولة لا تقوى على تحمل مثل هذه المبالغ اذا كانت شهرية .

[3] يقول ناصري خسرو أن ثوب الخليفة هذا كان من صنع دبيق ، وكانت قيمته ألف دينار .

[4] كانت عمامة صحاب المظلة مزينة بالاحجار الكريمة ، وكان ثوبه من جنس ثوب الخليفة . أما المظلة فكانت مرصعة بالآلئ والأحجار الكريمة .

[5] شرحه ص ١٣٦ — ١٤٢ وقد ترجم معظم ذلك لين بول في كتابه < **the story of airo , pp . 145 . 146**

ويقول في كلامه عن أسواق القاهرة وحوانيتها الفخمة الغنية بما فيها من الطرف، ان تجار الجواهر والصيارف لم يكونوا يحفلون بأغلق حوانيتهم، اذ لا يخشون عليها من اللصوص [١].

(٥) النفائس التي كان يحوزها الخلفاء الفاطميون في عهد المستنصر

وبعد زيارة ناصري خسرو لمصر بقليل، حلت بالقاهرة الأيام السيئة وعاودتها المصائب التي لم تشعر بها قبل قرن من تأسيسها. وقبض على نواصي العناصر المتألبة المعادية على اختلافها في هذه الاثناء الوزير اليازورى [٢] مدة تسع سنين، وبذل قصارى جهده في معالجة خطر المجاعة التي كانت تهدد البلاد دائما، تلك المجاعة اتلى كان يصحبها غالبا الوباء والبؤس العام ن وما يتبع ذلك من الفوضى الجرائم. ووجد اليازوري في مخازن الغلال التي كان مستوليا عليها ما ابعد ذلك الخطر مدة حياته. غير أنه بعد قتله (صفر سنة ٤٥٠ هـ و ١٠٥٨ م) لم يكن هناك من يقف في وجه هذه العناصر المتطاحنة [٣].

ويبين لنا تزعزع مركز الحكومة ماكان من تعاقب أربعين وزارة مختلفة في تسع سنوات.

وقد كانت السلطة في هذه الآونة بيد الجنود التركية، وقد طردوا الجنود السودانية التي كانوا يكرهونها، والتي كانت تعتمد عليهم أم الخليفة، وكان عددهم خمسين ألفا ؛

---

(١) شرح ص ١٥٥ و ١٩٦

(٢) هو أبو محمد الحسين البازورى بن على بن عبدالرحمن ، من أهل يازور : وهى قرية من كورة الرملة . وقد عهد اليه بالوزارة في السابع من المحرم سن ٤٤٢ (١٠٥٠ م) ، وسمح ل بالبقاء في منصبه الأول ، وهو مدير خاصة أم الخليفة . وكان يلقب بهذا اللقب المركب : وهو الناصر الدين ، غياث المسلمين، الوزير الأجل المكرم ، سيد الوزراء ، تاج الاصفياء ، قاضي القضاة ، داعى الدعاة ، وبقى في منصبه حتى قبض عليه المستنصر في أول المحرم سنة ٤٥٠ (١٠٥٨ م) بتهمة مراسلته لطفوليك السلجوقي ودعوته لغزو مصر . وأبعد البازوري مع زوجاته وأولاده وخدمه الى تنيس ، حيث ظل محبوسا بها ، حتى أنفذ اليه الخليفة سيافا قطع رأسه (٢٢ صفر سنة ٤٥٠ و ١٠٥٨ م . ثم أرسلت جثته الى القاهرة ، فألقيت في مزبلة ثلاثة أيام ، أخرج بعدها وغسل وحنط وكفن ودفن — ابن منجب ص ٤٠ — ٤٥ وابن ميسر ص ٥ — ٨ و ٣٤ . وهذ الذي ذكره ابن منجب وابن ميسر يختلف عما ذكره لين بول في كتابه " the story of cairo , p . 147" من ناحيتين : (ا) أن اليازوري مات مسموما (ب) وأن موطنه الأصلي بلد من كورة يافا .

(٣) ابن ميسر ص ١٣ و ١٤ ١٦ و ١٧ – ٢٢ و ٣٤ .

فأبعدوا جهة الصعيد حيث استقر منهم خمسة عشر ألفا. وكان من أمرهم أن أخافوا الاهلين وحالوا دون زراعة الأراضي (٤٥٩ هـ) ؛ وقد أكتسح الفالة منهم، وعددهم خمسة عشر ألفا، الدلتا حتى وصلوا الإسكندرية فاستقروا بها.

أما الاتراك فقد انتهزوا تلك الفرصة وانتهبوا المدينة ن وارتكبوا اعمال العنف والشدة لإيذاء الخليفة الذي لم يكن له ظهير، والذي أصبح بيت ماله خلوا من المال المطلوب مطالبهم التي كانوا يركنون الى القوة في سبيل الحصول عليها (١).

وأتلف هؤلاء الاتراك في ثورتهم قصور الخلفاء الجميلة، وبددوا المجموعات الفنية التي لا تقوم، والاحجار الكريمة والمجوهرات ؛ وأمر من هذا كله، انهم أغاروا على المكاتب المنقطعة النظير (٢).

وقد شل حركة الفلاحين ذلك الرعب الذى ألقته الجنود السودانية المشتتة في جميع أنحاء البلاد. ومع ذلك لم يكن هناك ما يخفف وطأة انخفاض النيل او ام يساعد على زراعة الأراضي للفصل الجديد.

ولقد شعرت القاهرة ومصر اللتان حرمتا من الإمدادات التي كانت تأتيها عادة من الأقاليم بندرة الاقوات شعورا قاسيا ز فقد بلغ ثمن الرغيف خمسة عشر دينارا، كما كانت تباع بعض المنازل بربع من الدقيق. وكان بعض كريمات النساء يعرضن حليهن النادر الثمين، فلا يوجد من يشتري في مقابل شيء من الطعام، وكانت الخيل والحمير والكلاب والقطط تباع بأثمان فادحة، ويقبل الناس الجياع على التهام لحمها.

وسرعان ما عدمت أمثال هذه الحيوانات فلم يوجد ما يذبح منها، حتى إن اصطبل الخليفة قلت دوابه، بحيث لم يستطع خدام الخيول الجياع جمع أكثر من ثلاثة أفراس صغيرة لمولاهم.

---

(١) يقول بن ميسر (ص١٧) عند كلامه على حوادث سنة ٤٦٠ هـ ، أن مخصصات الاتراك التي كانت قبل ذلك عشرين ألف دينار في الشهر (٢٤٠.٠٠٠ في السنة) ، بلغت في ذلك الوقت أربعمائة ألف دينار في الشهر (٤.٨٠٠.٠٠٠ في السنة)

(٢) شرحه ص ١٧ و ١٨

وكانت نتيجة هذا كله أن أصبح الناس يخطف بعضهم بعضا من الطرقات، وأصبح لحم الانسان يباع عند الجزارين [1].

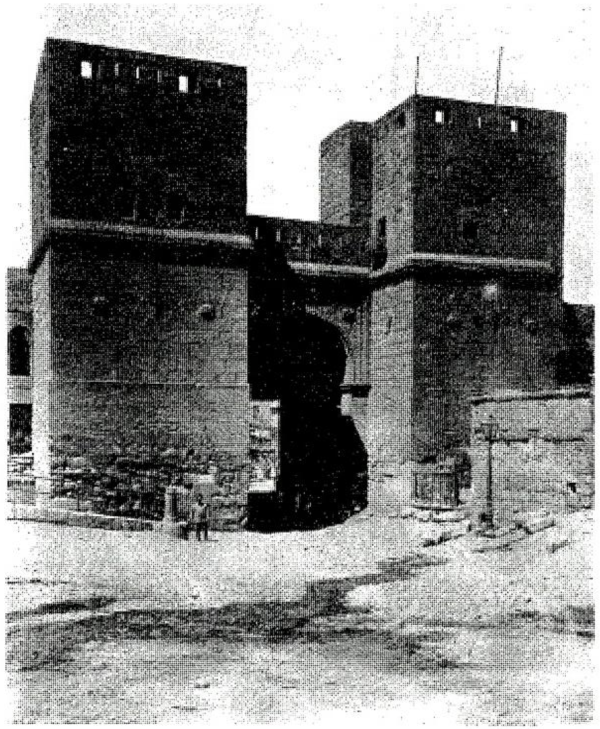
وجاء بعد ذلك الوباء، فحصت الأرواح بمنجله حصدا ذريعا ؛ فكان يكتسح الديار دارا بعد دار. ولم يكن هناك فرق عظيم وحقير، بل تالت المصائب من الجميع على السواء، حتى إن الخليفة نفسه، الذي أتلف الاتراك ماله، والذي كان معتزلا في داره، كان مدينا بحفظ حياته الى بنت أحد الفقهاء، إذ كانت تجرى عليه رغيفين كل يوم. أما زوجته وبناته فقد فررن إلى بغداد هربا من الطاعون.

---

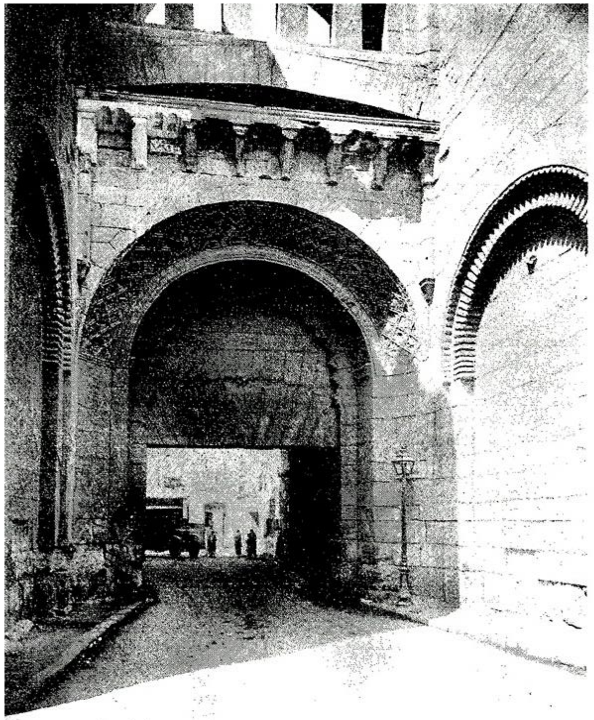
[1] شرحه ص ٢٠



جامع الجيوشي ــ منظر خارجي للجامع على سفح جبل المقطم



باب النصر. بنى سنة ٤٨٠ هـ



باب الفتوح. بنى سنة ٤٨٠ هـ

وقد ظلت مصر مدة سبع سنوات في حالة يرثي لها من البؤس الذي اعقبته المجاعة وما صحبها من الجرائم، وبلغت الحالة درجة لم تعرفها البلاد من قبل. وأخيرا انتهت تلك الأيام وما فيها من البلاء، و جاءت غلة عام ٤٦٥ هـ (١٠٧٣ م) وفيرة ز وفي رجب من هذا العام قتل زعيم أشراف الأتراك ناصر الدولة بن حمدان الذي هدد مصر بوضعها تحت سيادة بغداد ؛ وجاء الوزير الخطير بدر الجمالي، فانقذ الدولة الفاطمية المزعزعة الأركان [١].

(و) النفائس التي كان يحوزها المستنصر

أمدنا ابن ميسر ببيان موجز عن كنوز المستنصر استمده من مجلد ضخم يقع في نحو العشرين كراسة ؛ وقد أطلع عليه بنفسه. وكان يشتمل على بيان بما في تلك الكنوز من طرف وأثاث وملابس وذهب وغيره، مما نقل من القصر في غضو ثورة الاتراك وبعدها. ويقول ابن ميسر أيضا، إن من هذه النفائس ما أرسله الياسيري إلى مصر سنة ٤٥٠ ، [٢] حين أقام الخطبة باسم الخليفة الفاطمي المستنصر على منابر بغداد ؛ وقد استولى عليها الاتراك أضا سنة ٤٦٠ هـ. وكان مما بعث به البستسيري ثلاثون ألف قطعة كبيرة من البلور ن وخمسة وسبعون ألف ثوب من الجرير الخسرواني [٣] ، وعشرون ألف سيف

---

[١] وصف ابن منجب حالة مصر بإيجاز عند كلامه على وزارة بدر الجمالي (ص ٥٥ ٥٦

راجع ما كتبه مسيو فيت (**wiet**) عن بدر الجمالى في مذكرات المعهد الفرنسي للآثار الشرقية في القاهرة ، المجلد الثاني والخمسون

Memoires (publies par les membres) de l'institut francais d'archeologie orientale du caire (m . I . f . a . o)

[٢] يقول المقريزي (خطط ج ١ ص ٤٣٩) ان هذه الذخائر أرسلت الى القاهرة سنة ٤٤٧ ، وفيها بدأت العلاقات العدائية بين البساسيري والخليفة العباسي القائم ، وانتهت باستيلاء البساسيري على بغداد سنة ٤٥٠ ، فأصبح في مركز يسمح له أن يستولى على ما في قصر الخليفة ممن الذخائر غير أن سلطة البساسيرى لم تستقر في بغداد قبل سنة ٤٥٠ . وعليه فان عبارة ابن ميسر (ص ٢٠) أقرب الى التصديق

[٣]. الخسرواني أو الخسرواني نوع من القماش ينسب الى سرو شاه أحد ملوك الفرس

(انظر (**lane's Arabic – English loxin**

محلى بالذهب [١].

وقد أمدنا المقريزي ببيان آخر يضيق هذا المقام عن نقله. لكنا نذكر شيئا منه مثلا للثروة التي كان الخليفة المستنصر يملكها في مبدأ سنة ٤٦٠ هـ (١٠٦٧ م)، تلك الثروة اتلى تبين لنا مصادر ثروة مصر وما كانت عليه من يسر ؛ وذلك كله ما ساعده على تنفيذ سياسة الفاطميين. كان من ضمن ثروة المستنصر شيء كثير ورثه عن آبائه × فانتهبه الاتراك سنة ٤٦٠، كما استولوا على بعض ممتلكات القصر، وعرض البعض الآخر للبيع فبيع بأبخس الأثمان ؛ ووزع كل ذلك عليهم. وهاذ بخلاف ثلاثين مليون دينار من الذهب تقاسمها الثوار الاتراك و " ليس لاحد منهم درهم واحد قبضه عن استحقاق".

ويتبين لنا مما ذكره المقريزي أنه لم يتأخر شيء من عطاء الاتراك

.ويمكن أن نضيف الى هذا، أن الاتراك انما ثاروا على الخليفة الذي لا ناصر له، رغبة منهم في الثأر من الجنود السودانيين المكروهين لهم والذين كانوا أنصار أم الخليقة، وليحوزا من الأسلاب ما تسمح لهم به في الأحوال.

وقد كان من ممتلكات الخليفة الكثير التي لا تقوم بمال، سيفه الخاص وسيف الخليفة المعز، وسيف النبي صلى الل عليه وسلم، وسيف الحسين بن على ﷺ، وسيف جعفر الصادق ن وكميات من الرماح والقسي وغيرها من الأسلحة، عشرة آلاف سرج، بعضها كان يساوى سبعة آلاف دينار [٢]. وكذلك أكواب من العنبر، وسبحة من الأحجار الكريمة تقوم بثمانين ألف دينار على الأقل (وبيعت بألفين فقط !) وصندوق من الجوهر قوم بثلثمائة ألف دينار (بيع بخمسمائة !)، وأربع عشرة كيلة من الجواهر أيضا، وألف

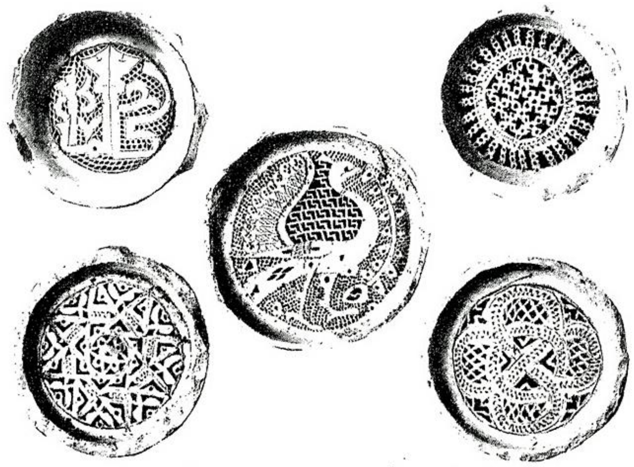
---

[١] يقول المقريزي : وكان من بين ممتلكات قصر الخليفة القائم التي أرسلها البساسيري الى مصر ، ثوبه الخاص وعمامته التي لفها بيده (وكانت محفوظة في صندوق المرمر) ، وشباك فخم يصفه المقريزي بأنه كلن كشرفة يجلس فيها الخليفة ويعتمد بيديه على حافته ن وكان مصنوعا من الخشب المتقاطع (انظر **lane's Arabic – English lexicon**) . ويقول المقريزي أيضا أن هذا الشباك نقل الى دار الوزارة واستعمله الأفضل ، وبقى في الدار بعد وفاته الى أن نقل أخيرا الى دار الأمير بيبرس . أما عمامة الخليفة العباسي وثوبه الخاص ، فقد أعادهما صلاح الدين الى بغداد سنة ٥٦٧ هـ

[٢] الخطط (ج ١ ص ٤١٨)

ومائتان من الخواتم ما بين ذهب وفضة، بيع ثلاثة منها مرصعة بالأحجار الكريمة بأثني عشر ألف دينار [١].

يضاف الى هذا كله مقادير كبيرة من الصحاف وقطع البلور [٢]، وأواني الذهب والصواني المحلاة بالذهب، واصص الزهر المنقوش عليها اسم هرون الرشيد، وثمان وعشرون صينية أخرى محلاة بالذهب أيضا، قوم كل كما بثلاثة آلاف دينار، كانت مهداة من امبراطور الروم الى الخليفة العزيز ؛ وأطباق أخرى مزينة بالذهب، وكثير من الصناديق الملأى بالمحابر المختلفة الأنواع والأحجام، المصنوعة من الذهب والفضة والعاج والأبنوس وغير ذلك، مرصعة بالجواهر والاحجار الكريمة [٣] ؛ وصناديق عدة من السكاكين مذهبة ومفضفضة، بمقابض مختلفة الأنواع، كلها مرصعة بالأحجار الكريمة أيضا [٤]



شبابيك قلل من فخار مزينة بزخارف تشبه الدنتلا

---

[١] شرحه (ج ١ ص ٤١٤)

[٢] ذكر المقريزي (خطط ج ١ ص ٤١٤) أن أبا سعيد النرواني أحد أمناء البيع اشترى في أيام قليلة ثمانية عشر الف قطعة من البلور ، قيمة بعضها ألف دينار

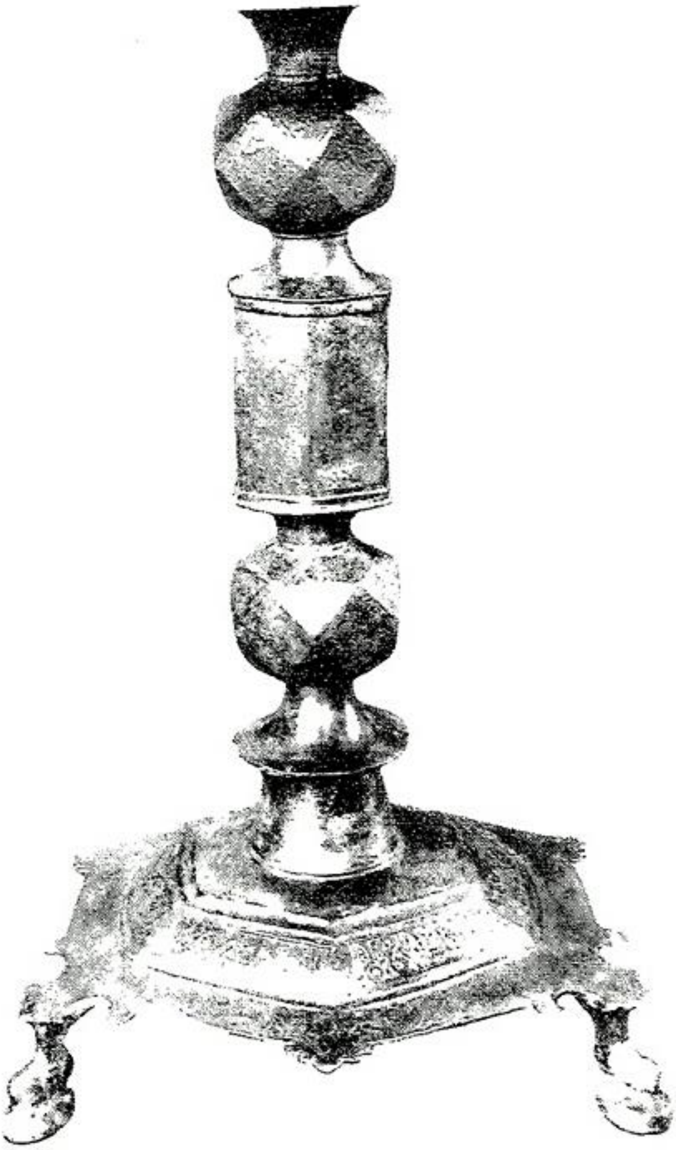
[٣] ذكر المقريزي أيضا (ج ١ ص ٤١٤) أن بعض هذه المحابر قومت الواحدة منها بألف دينار ، عدا الأحجار الكريمة التي كانت مرصعة بها

[٤] ذكر المقريزي (خطط ج ١ ص ٤١٤) أ، هذه السكاكين بيعت بأبخس الأثمان ، وبلغ ثمنها كلها ستة وثلاثين ألف دينار .





قطعتان من خزف ذى بريق ذهبى. على الأولى رسم المسيح عليه السلام
وعلى الثانية صور ثلاثة أشخاص مكتوب فوق أوسطها "أبو طالب"



شمعدان من الشبهان



ظهر مرآة من الشبهان

يضاف إلى هذا أيضا نسيج بديع مطرز بالذهب، وكافة أنواع الأواني الخزفية، وعدد كبير من الشطرنج رقعته من الحرير، وقطعة من الذهب والفضة والعاج والأبنوس المحلى بالأحجار الكريمة، وأربعمائة صندق ملأى بالقطع الذهبية (حولت فيمما بعد إلى نقود تقاسمها الثوار)، وعمامة زنة ما فيها من الحلى سبعة عشر رطلا، وثمان وثلاثون زورقا تابعة للدولة، أحدها من الفضة [1].

---

[1] المقريزي (خطط ص ٤١٤ و ٤١٥) .

واشتملت الذخائر – زيادة على ما تقدم – على حصيرة منسوجة بالذهب زنتها ثمانية عشر رطلا ؛ ويقال إن بوران [1] بنت الوزير الحسن بن سهل جلست عليها يوم زفت إلى الخليفة العباسي المأمون، وعدد كبير من المرائي المصنوعة من الصلب والمحلاة بالذهب والفضة، والمحلى بعضها بالأحجار الكريمة أيضا، وستة آلاف آنية للرجس ؛ واثنين وعشرين ألف تمثال من العنبر، وثمنمائة تمثال من الكافور على هيئة البطيخة ؛ وكان أحدها محفوظا في شبكة من الذهب وهو مرصع بالأحجار الكريمة، وزنته ثلاثة

---

[1] وصف لنا الطبري (٢ : ١٠٨٤) وابن خلكان (ج ١ ص ١١٦) والمقريزي (خطط ج ١ ص ٤١٥) هذه القطعة الدقيقة من الفن .

وكان مهر بوران (اتلى كان أسمها أيضا خديجة) (كتاب الديارات ، برلين ، مخطوطات ويمار ، رقم ١١٠) ١٠٥.٠٠٠.٠٠٠ درهم . ويقول الطبري (٢ : ١٠٨٣ ز ١٠٨٤) إن المأمون مكث في طريقه إلى بوران تسعة عشر يوما مع الحسن بن سهل (أبو بوران ووزير المأمون) الذي أمد المأمون بما كان يحتاج إلى هو وحاشيته . وبلغت النفقة في ذلك ٥٠.٠٠٠.٠٠٠ درهم . وعند رحيل المأمون ، امر للحسن بن سهل بعشرة ملايين من الدراهم وأن يعطى خراج فم الصلح ، و (هو إقليم على قناة كبيرة تعرف بهذا الاسم ، تأخذ من دجلة فوق واسط وتقع بين هذه المدينة وتل تقع عليه عدة مدن صغيرة ، زوج في أحدها الوزير الحسن ابنته للمأمون – انظر معجم البلدان لياقوت) . وقد وزع الحسن ما أخذه من المأمون على فؤاد الخليفة وأتباعه وخدمه في اجتماع عام ، وأعطاه المأمون أيضا خراج إقليم فارس والاهواز عن سنة واحدة (ابن خلكان ج ١ص ١١٦) . وكلام الشابشتي قريب التصديق ، متى علينا أن الأخشيد تألم حين أرسل إليه الخليفة الفاطمي القائم مائة ألف دينار فقط مهرا لابنته لما أقترح عليه تزويجها أولى عهده . وهذا المهر القليل كان –كما يقول ابن سعيد (المغرب ص ٢٨) – سببا في قطع العلاقات بين الاخشيد والخليفة الفاطمي .

ويستطرد الشابشتي في الكلام عن زواج الرشيد (حين كان ولى عهد) في المحرم سن ١٦٦ فيقول إن النفقات بلغت من مال الخليفة المهدي (أبو هرون) ١.٣٨٨.٠٠٠ دينار ، وذلك عدا مبلغ كبيرا أنفقه الرشيد نفسه . ثم يستطرد في الكلام فيذكر أن المأمون سأل زبية زوجة الرشيد ، ولم تكن أم المأمون ، لأن أمه كانت خراسانية) عن مبلغ نفقات هذا الزواج ، فذكرت انه يتراوح بين ٣٥.٠٠٠.٠٠٠ و ٣٧.٠٠٠.٠٠٠ درهم (يحتمل أن يكون الشباشتي نقله عن الطبري ٢ : ١٠٨٥) ؛ ويمكن أن يكون أقدم مصدر في هذا الموضوع هو " تاريخ بغداد " طبعة ليبزج ١٩٠٨) لمؤلفه أبي الفضل احمد بن ابي طاهر طيفور ، لأنه مات قبل وفاة الطبري بنحو ثلاثين سنة ،أي سنة ٢٨٠ هـ . ولم يبين لنا الشابشتى إذا كان هذا المبلغ الذي ذكره أنفق على الاحتفال بالزفاف فقط ، أو أن يشمل كافة ما أنفق في هذا الزواج ن وعلى الاحتمال الثاني يشتمل هذا المبلغ على ما انفق من المهر وعلى الجهاز من أثاث ومصوغ وما الى ذلك ن وكذا في الاحتفال بالزواج . وهذا الاحتمال الثاني هو المعقول عندي ؛ لأن الحسن بن سهل ذكر أن ما انفق في هذا الزواج ٣٥.٠٠٠.٠٠٠ درهم ، وذلك يشمل كل النفقات .

ومما هو جدير بالملاحظة أن المبلغ الذي ذكر الشابشتي و ١٠٥.٠٠٠.٠٠٠ درهم ، إنما أتى به الحسن بن سهل والد بوران ؛ وهذا المبلغ بلا شط ضخم جدا .

أما وفاة بوران فكانت سنة ٢٧١ في أيام المعتمد ، وكان لها ثمانون سنة .

آلاف مثقال، وآخر كان يزن ستة عشر ألف مثقال ؛ ونخلة من مختلف الجواهر والاحجار الكريمة،وكان ثمرها كذلك أيضا، ومع هذا يخالها الناظر طبيعية.

ومما بيع في هذه الأثناء طاووس من الذهب مرصع بالجواهر النفيسة والاحجار الكريمة، وعيناه ياقوتتان وريشة من الزجاج المموه بالذهب، ويك من الذهب مرصع باللؤلؤ، ومنضدة قوائمها من العقيق [١].

وليس هذا كان ما تركه المستنصر من الكنوز. فاذا ما استثنينا الأحجار الكريمة والطرف والعطور والأسلحة، وجدنا أيضا عددا عظيما من الكنوز التي لا تقوم بمال في خزائن أخرى مثل خزائن الأثاث والفرش.

وقد نقل المقريزي عن ابن عبد العزيز الانماطي أحد أمناء البيع أن عدد مقاطع النسيج الخسرواني بلغ خمسين ألفا، وكان أكثره مذهبا. ويقول المقريزي في عبارة أخرى عن ابن عبد العزيز هذا إن عدد هذه المقاطع بلغ مائة ألف ؛ وكان منها حشية خسروانية بيعت بثلاثة آلاف وخمسمائة دينار، كما بيعت حشية أخرى قلمونية [٢]بألفين وأربعمائة دينار. وذلك كله ماعدا عشرين ألف قطعة جديدة من النسيج الخسرواني. وقد بيع هذا كله في شهر صفر من سنة ٤٦٠ في نحو خمسة عشر يوما [٣].

وأخذ بعد هذا بقليل من خزينة الرفوف [٤] ألفا عدل من القماش الجديد المحلى بالذهب، كما بيع من خزينة أخرى من خزائن الفرش ثلاثة آلاف قطعة من القماش الخسرواني المطرز لم يستعمل بعد ؛ وكان ذلك معدا لتأثيث بيوت كاملة بما تحتاج اليه من مساند ووسائد وحشيات وبسط

---

[١] خطط (ج ١ ص ٤١٦)

[٢] نسبة الى قلمون ، وهو نوع من القماش ذو ألوان براقة تتلالأ اذا نكسرت عليها أشعة الشمس . وكان أول ما ظهر في بلاد اليونان ، ثم أصبح يصنع في مصر وخاصة في دمياط وتنيس (انظر معجم البلدان لياقوت و dozy , supplement)

[٣] المقريزي خطط (ج ١ ص ٤١٦)

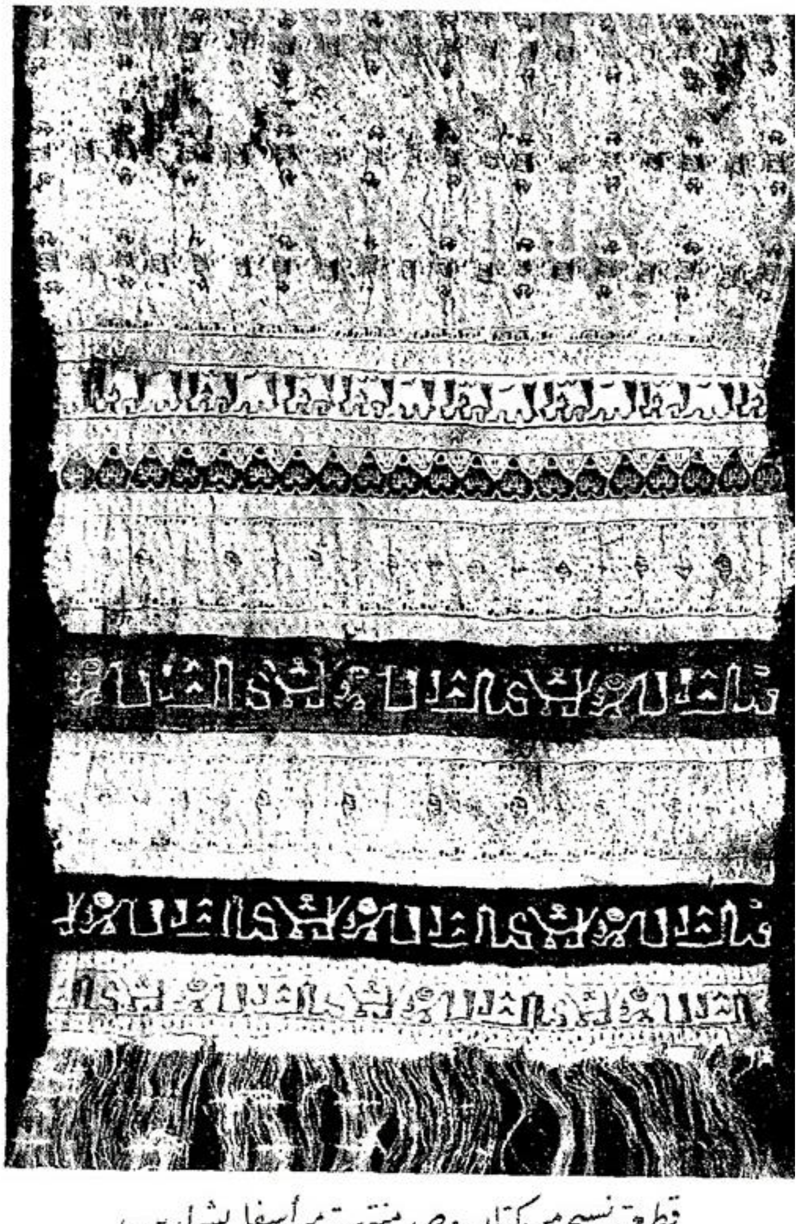
[٤] يقول المقريزي (خطط ج ١ ص ٤١٦) إنما سميت بذلك لكثرة ما بها من الرفوف



حشوة من خشب تشبه محرابا صغيرا يرتكز عقده على عمودين حلزونيين



قطعة من العاج منقوش عليها بين الزخارف النباتية صور أشخاص وحيوانات



قطعة نسيج من كتان وحرير منتهية من أسفل بشراريب



قطعة نسيج من حرير أرضيتها صفراء وبها صور طيور .

وستور وأحباس [1]زغير ذلك ؛ عدد عظيم من الحصير السامانى المشغول بالذهب والفضة، وأربعة آلاف عدل من الخسوراني الجديد المطرز بالذهب، وكان كان عدل منها كافيا لتأثيث غرفة بالبسط والستور وما إلى ذلك [2].

وكان من بين أمتعة القصر مضرب الخليفة الظاهر، وكان منسوجا من خيوط الذهب ومقاما على أعمدة من الفضة ؛ وكانت قيمته أربعة عشر ألف دينار. وكذلك مضرب الوزير اليازوري، وكان مجموعه رسوم فنية، كلفه ثلاثين ألف دينار، واشتغل في صنعه مائة وخمسون فنانا مدة تسع سنوات حتى أتموه. وكان ارتفاع أعمدته مائة وعشرين قدما، واتساع محيطه ألف قدم تقريبا، وقد نقشت على أحد جوانبه صور جميع حيوانات العالم[3].

وليس هذا كل ما يمكن أن يذكر من ثروة المستنصر. فقد كان في القصر كثير من التحف الفنية ،، تركها الخلفاء الفاطميون الذين كانوا يشجعون العلوم والفنون. وان في وصف المقريزي الآتي لبعض مصوراتهم الثمينة المتقنة الرسم، لدليلا على ما كانوا يجدونه من لذة خاصة في الجغرافية والتاريخ. وتتبين لنا طرافتها وما كانت عليه من إبداع واتقان اذا ما نظرنا الى مقدار ما أنفق على صنعها من الدنانير. ويقول المقريزي في ذلك أن المعز خلف لنا خريطة كان قد أمر بعملها سنة ٣٥٣ (٩٧٣ – ٩٧٤ م) من الحرير الأزرق التستري[4] والقرقوبي[5]المنسوج بالذهب، وكان مبينا عليها بالذهب كافة أقطار العالم، بما بها من جبال وبحار وأنهار وطرق ومدن. ومن ذلك المدينتان المقدستان مكة والمدينة بشكل يتبينه الناظر لأول وهلة. وكان مكتوبا في أسفل هذا المصور : " مما أمر بعمله المعز

---

[1] جمع حبس وهو الملاءة

[2] المقريزي (خطط ج ١ ص ٤١٦ و ٤١٧) .

[3] شرحه (ص ٤١٩) .

[4] التستري نسبة الى تستر ، وهى معربة عن ششتر ، أشهر مدن خورستان (**dozy , supplement**)

[5] القرقب طائر يرى في الغدر والمستنقعات (انظر هذا اللفظ في معجم البلدان لياقوت) . ومن هذا اللفظ قيل قماش قرقبي ، وهو نوع من القماش كان يصنع أولا في بلاد اليونان ، ثم أدخلت صناعته الى مصر ، فصار يصنع غالبا في دمياط وتنيس . وهذا القماش مشهورا بألوانه اللامعة التي تتغير دائما ، لا سيما اذا انعكست عليها أشعة الشمس .

لدين الله، شوقا الى حرم الله واشهار لمعالم رسول الله، في سنة ثلاث وخمسين وثلثمائة ". وهذا المصور الذي كلف المعز اثنين وعشرين ألف دينار قد استولى عليه ابن حمدان زعيم الاتراك سنة ٤٦٠ هـ.

وقد وصف لنا المقريزي [(١)] مصورا آخر تركة الحاكم ؛ فقال ان ذلك العمل الفني الدقيق كان محلى بكيلتين من الجواهر والاحجار الكريمة، وقد كلف الحاكم سبعمائة ألف دينار، غير أنه بيع سنة ٤٦٠ هـ بعشرين ألفا فقط.

وكان هناك بالقصر مصورات أخرى كثيرة كان حظها كحظ المصورات التي تكلمنا عنها. فان المقريزي يستطرد في الكلام فيذكر أنه قد وجد بالقصر نحو ألف ستر مزركشة بالذهب تمثل الممالك المختلفة بملوكها وأسمائهم، وموجز لحياة كل منهم [(٢)]. وهذه الآثار الفنية تشهد بما كان يناله الصناع الحاذقون من الفاطميين ؛ وهى تبين لنا أيضا كيف كان المام الفاطميين بممالك العالم المعروفة لهم في القرن الثاني عشر الميلادي. ويظهر أن القصر قد احتوت خزاءنه مرة أخرى على ثروة ضخمة من الكنوز، وذلك بعد سنى المجاعة والوباء التي انتهب القصر في غضونها، حتى رؤى الخليفة المستنصر نفسه في احدى حجراته جالسا على حصير بالية لابسا قبقابا. وربما لم تكن تلك الثروة أقل مما كانت عليه سنة ٤٦٠ كمية وقيمة. ويظهر أنه قد رد ال القصر بعض ما كان قد انتهب منه، وذلك بعد ان أسندت الوزارة الى أمير الجيوش بدر الجمالي سنة ٤٦٦ (١٠٧٣ م) الذي صارت له السلطة المطلقة، فشتت جميع العناصر المناوئة الثائرة وصادر ممتلكاتهم .

ومع أن المرخين لم يمدونا ببيان عن الثروة التي خلفها العاضد آخر الخلفاء الفاطميين ممثل ما أمدنا به ابن ميسر والمقريزي، فانه من الممكن أن نتبين مقدار ضخامة ثروة القصر في عهد آخر الخلفاء الفاطميين، وقبل سقوط دولتهم ٥٦٧ هـ (١١٧١ م) من الوصف الذي أورده لما الذهبي – نقلا عن ابن أبي طئ – للهدية التي قدمها صلاح

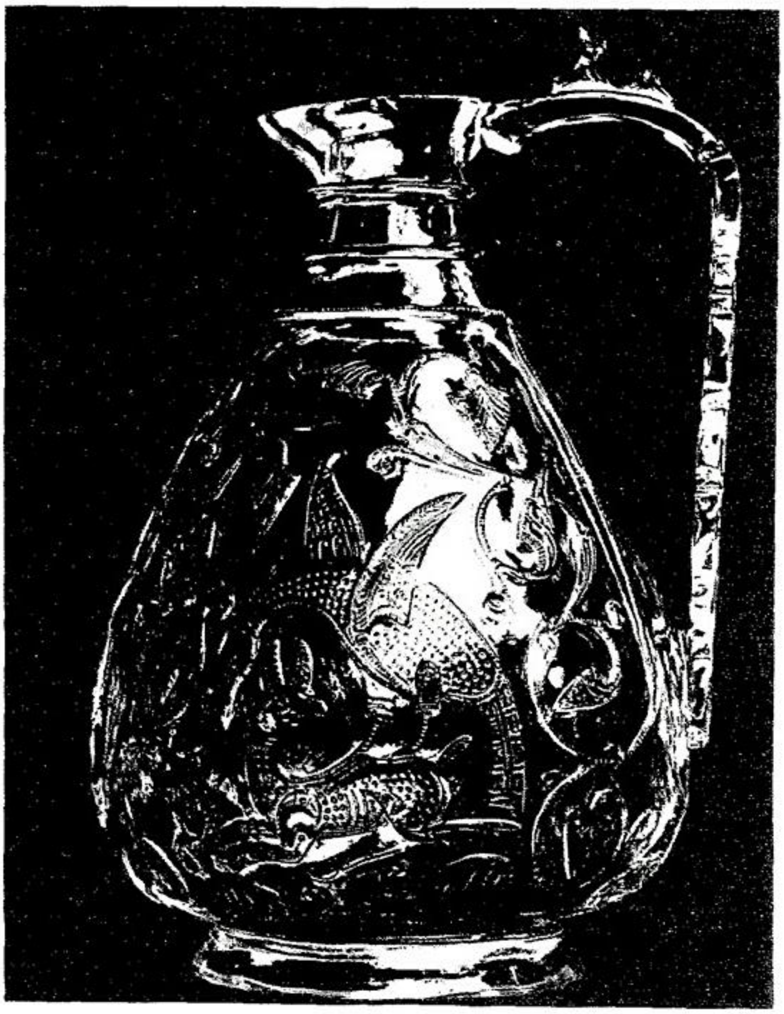
---

(١) خطط (ج ١ ص ٤١٦) .

(٢) شرحه (ج ١ ص ٤١٥) .

أنظر كتاب " ثقة جزيرة العرب " للهمداني (طبعة h؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟

الدين لنور الدين سنة ٥٦٩ هـ :



إبريق من البللور الصخري مزين سطحه بصور طيور وحيوانات تتخللها فروع نباتية



إبريق من البللور الصخري مزين سطحه بصور طيور وفروع نباتية وكتابات كوفية

عزل وذكر ابن ابي طي قال : وفي هذه السنة (٥٦٩ هـ) وصل الموفق بن القيسراني الى مثر رسولا من نور الدين، فاجتمع بصلاح الدين وأنهى اليه ريالة، وطالبه بحساب جميع ما حثله من ارتفاع البلاد....... ثم أرسل (صلاح الدين) معه هدية على يد الفقيه عيسى (ابن القيسراني) : وهى ختمة بخط ابن البواب، وختمة بخط مهلهل وختمة بخك

الحاكم البغدادي، وربعه مكتوبة بالذهب بخط يانس، وربعه بخط راشد [١]. وثلاثة أحجار بلخشي، وست قصبات زمرد، وقطعة ياقوت وزن سبعة مثاقيل، ومائة عقد جوهر وزنها ثمنمائة وسبعة وخمسون مثقالا، وخمسون قارورة دهن بلسان، وعشرون قطعة بلور، وأربع عشرة قطعة جزع، (و) صحون صيني وزبادي، وأربعون وكرتان (هكذا وردت في الأصل) عود قمارى وزن أحدها ثلاثون رطلا والأخرى إحدى وعشرون، ومائة ثوب أطلس، وخمسون ثوب حرير، وحلة فلفلي مذهبة، وغير ذلك من القماش، وقيمتها ٢٢٥.٠٠٠ دينار، وعدة من الخيل والغلمان والجواري والسلاح، وخمسة أحمال [٢] من المال " [٣].

كما تتبين لنا ضخامة ممتلكات القصر عند سقوط الفاطميين مما جاءنا به المقريزي نقلا عن القاضي الفاضل حيث يقول : " وفي ثالث عشرية – يعني ربيعا الآخر سنة سبع وستين (وخمسمائة)– كشف حاصل الخزائن الخاصة بالقصر...... ومقدار ما يحدس أنه خرج من القصر، ما بين دينار ودرهم ومصاغ وجوهر ونحاس وملبوس وأثاث وقماش وسلاح، مالا يفي به ملك الأكاسرة، ولا تتصوره الخواطر الحاضرة، ولا يشتمل على مثله الممالیك العامرة، ولا يقدر على حسابه الا من يقدر على حساب الخلق في الآخرة " [٤].

٨- هبات المساجد والمكاتب

(ا) هبات المساجد

كان الفاطميون يعتبرون المساجد والمكاتب منبعا لتشر دعوتهم، فقد كانوا يعملون فيها العقائد الفاطمية ؛ لذلك بذل الخلفاء جهودا خاصة لبناء مساجد جديدة وتأسيس مكاتب كبيرة ولم يقصروا عن وقف الأوقاف وبذل العطايا والهبات للمساجد والانفاق في زينتها وزخرفتها بالمصابيح والتنانير اتلى كان بعضها من الفضة، كما نقلت الى المساجد من مكتبة القصر نسخ من القرآن الكريم مختلفة الأشكال والأحجام، بعضها مكتوب

---

[١] هذه الأسماء هي طبعا أسماء خطاطين مشهورين .

[٢] هو مقدار الجزية التي ارسل نور الدين رسولا يطلبها .

[٣] الذهبي ، مكتبة بوليان باكسفورد ، مخطوطات loud، القسم الشرقي ، رقم ٣٠٤ ، ورقة ١٤١ ب .

[٤] خطط (ج ١ ص ٤٩٦) .

بالذهب. وقد كانت هذه المساجد تزين بأجمل زينة وتضاء بالأنوار الساطعة في المواسم العامة ؛ وكان الخلفاء يشاهدون ذلك من المناظر.

كما كانت هذه المساجد مثابة للعلماء، وخاصة فقهاء المذهب الشيعي الذين كان عليهم أن يحاضروا الناس في عقائد المذهب الإسماعيلي ؛ وكان بعض الوزراء والفقهاء يشتركون في تأليف كتب في هذا المذهب يدرسها الأساتذة في تعليم الناس. ومن أعظم تلك الكتب الكتاب الذي ألفه يعقوب بن كلس في الفقه الشيعي ؛ وكان على القضاة أن يصدروا عنه في أحكام محاكمهم التي كانت تعقد في المساجد عادة، كما كان على الطلبة والأساتذة أن يتدراسوه فيما بينهم. ولا ننسي ان نذكر في هذا المقام ما كان من تحويل الازهر إلى جامعة في عهد العزيز.

ويقول القلقشندي عند كلامه على ركوب الخلفاء الفاطميين لصلاة الجمع الثلاث الأخيرة من رمضان، إنه كان من عادتهم أن يمنحوا دينارا لموظفي كل مسجد يمرون عليه في طريقهم الى القصر في هذه الجمع. وكانت هذه المساجد كثيرة ؛ ولهذا يلاحظ القلقشندى أن عدد الدنانير التي كانت تنفق في هذا السبيل كان عظيما. أما معرفة مقدار تلك الدنانير بالتحقيق، فهذا ما لم يذكره القلقشندى ولا غيره من المؤرخين.

(ب) هبات المكاتب

ولم تكن المكاتب أقل أهمية من المساجد في بث عقائد المذهب الإسماعيلي بين الناس؛ لهذا بذل الخلفاء ووزرائهم مجهودات عظيمة في زيادة عدد الكتب التي تتناول شتى فروع العلم، حتى فاقت مكتبة القصر كل المكاتب الإسلامية في العالم في ذلك الحين.

وقد كان الخلفاء الفاطميون ذوي شغف بتشجيع من يميل الى عقائد المذهب الشيعي. ففي سنة ٣٩٥ هـ (١٠٠٥ م) أسس الحاكم دار الحكمة، وألحق بها عددا من أساتذة العلوم النقلية كالتفسير والفقه، وكالعلوم الطبيعية أو العقلية. وكانت مكتبة دار العلم متصلة بمكتبة دار الحكمة الت أمدت بكثير من الملفات للاطلا ع والنسخ والبحث والدراسة. وكان يباح للناس الانتفاع بها، فيأخذون ما يحتاجون اليه من المداد والاقلام

والأوراق والمساند. وكان مشهورا والأساتذة المتصلين بدار الحكمة يقيمون مناظرات يحضرها الحاكم ن فيصلهم لأجلها بالهبات ويخلع عليهم الخلع [١].

وكانت تعطى لموظفي المساجد أعطيات معتادة في مناسبات مختلفة ؛ فمن أمثلة ذلك ركوب الخليفة لصلاة الجمعة، أو للاحتفال ببعض الأعياد الدينية، أو لزيارة أحد القصور، كدار الملك وقصر القرافة والهودج [٢] ومنازل العز التي كان من عادتهم الانتقال اليها تبديلا للهواء.

ويقول المقريزي أنه كان من عادة الخلفاء الفاطميين أن يقيموا مواكب يركبون فيها في أيام السبت والثلاثاء سائر الشهر، كما كانوا يركبون في الاحتفال بأول محرم. وفي هذه الأيام كان يصحب الخليفة وزيره، وحوله حرسه الخاص، وكانوا يسمون صبيان الركاب ؛ فيمر الموكب كذلك بالطرق الرئيسية حتى الجامع العتيق. فاذا وصل اليه، وجد الخطيب في انتظاره على مصطبة في المسجد، وبيده مصحف ينسب خطه الى على بن أبي طالب. فاذا قرب الخليفة من الخطيب، نتناول المصحف منه فقبله مرات عديدة، وأمر صاحب الكيس (المشتمل على المال المعتاد توزيعه في هذه المناسبة) أن يعطيه ثلاثين دينارا ؛

---

[١] انظر العبارة التي أوردناها عن انتشار الرسوم الفاطمية في المساجد والمكاتب .

[٢] المراد به القصر الفخم الذي بناه الخليفة الآمر في جزيرة الروضة (انظر ابن دقماق ج ٤ ص ١٠٩ و ١١٤ و ١١٦) لزوجته البدوية الطائية التي كان مشغوفا بها لجمالها ومواهبها الشعرية . وقد بنى هذا القصر على هيئة تجعلها لا تشعر بوطأة الانتقال من المعيشة البدوية التي كانت تعيشها بين أسرتها ؛ فقد كانت له حديقة رحبة على شاطئ النيل . ويحدثنا المقريزي أنها كانت تحب ابن عمها المسمى ابن مياح ، وقد أيأسها الزواج من الاتصال به . وقد كتبت الى ابن عمها الذي كان مراقبا بأمر الخليفة الأبيات الأتية :

يابن مياح اليك المشتكى　　مالك من بعدكم قد ملكا
كنت في حيي مطاعا آمرا　　فائلا ما شيء ت منكم مدركا
فانا الآن يقصر مرصد　　لا أرى إلا خبيثا ممسكا
ككم تثنينا كأغصان اللوى حيث لا نخشى علينا دركا

فاجابها ابن مياح بقصيدة من نفس الروى والقافية يقول فيها :

بنت عمى والتي قد غذيتها　　بالهوى حتى علا واختبكا
بحت بالشكوى وعندي ضعفها　　لو غدا ينفع منا المشتكى
مالك الأمر إليه أشتكى　　مالك ، وهو الذي قد ملكا

فيأخذ الخطيب والمشرف على الجامع نصفها، والباقي يقتسمه المؤذنون. فاذا ما انتهت الصلاة، استأنف الخليفة السير الى دار الملك ؛ وفي ايابه يعطى رئيس كل مسجد يمر به دينارا (١)

٩- هبات الخلفاء

سبق أن بينا ما كان يتناوله الموظفون من المرتبات الكبيرة في الدولة الفاطمية، فضلا عما كان يطل اليهم بطريق الهدايا من الفضة والذهب والملابس والاطعمة ومنا الى ذلك بمقادير وفيرة، تلك الهدايا التي كان أزواجهم وأولادهم وخدمهم يتقاسمونها معهم.

وقد أمدنا القلقشندي بكلام مفصل بين فيه المرتبات التي كانت تعطى لكبار موظفي الدولة ؛ ومنه نعلم أن مرتب الوزير كان خمسة آلاف دينار في الشهر، وأن ابنه أو أخاه كان يأخذ في الشهر راتبا يتروح بين مائتين وثلثمائة دينار، زيادة على رواتب أتباعه وحشمه التي كان متوسط مجموعها أربعمائة وخمسين دينار في كل شهر.

وكان من كبار الموظفين تسعة يعرفون بالأستاذين المحنكين (٢) : منهم صاحب بيت المال، وصاحب الرسالة، وزمام القصر، وكان راتب كل من هؤلاء مائة دينار في الشهر ز وكان راتب كا من قاضي القضاة وداعى الدعاة مائة دينار، وراتب كل من طبيبي الخليفة الخاصين خمسين دينارا (٣).

ولدينا فيما علمناه من ثروة الخلفاء الفاطميين وأبهتهم وميلهم للمظاهر ميلا شديدا ما يدلنا على ثروة كبار رجال دولتهم وسائر الشعب عامة ؛ فقد كان كل هؤلاء يمنحون كثيرا من الهدايا والأطعمة في الأعياد الدينية وغيرها من سائر الأعياد العامة، كما كانوا

(١) المقريزي خطط (ج١ ص ٤٨٤) .

(٢) جمع أستاذ محنك ن رجل مدرب ؛ وكان يتلم بطرف عن عمامته (معناه يجعل بعض عمامته تحت ذقنه وفكيه (انظر **lane's Arabic – English lexicon**) . ومن الأساتذة المحنكين من يتولى شد التاج ؛ وصاحب المجلس ، ويشبه الآن كبير الأمناء ن وصاحب الرسالة ، وصاحب بيت المال ، وحامل الدواة ، وزمام الأقارب ، وزمام القصور ؛ ويعهد إليه بإدارة شيء وأن القصر (القلقشندى ج ٣ ص ٤٨٤ و ٤٨٥) .

(٣) شرحه (ج ٣ ص ٥٢٥ و ٥٢٦) .

يكتسون من بيت المال هم وأزواجهم وأولادهم وأتباعهم مرتين كل عام صيفا وشتاء.

ويعجبنا أن نقرأ عن مخصصات تبلغ ٦٠٠.٠٠٠ دينار، أخذت من بيت المال عام ٥١٦ هـ (١١٢٢ م) لعمل الملابس المطلوبة لدار الكسوة التي أنشأها المعز سنة ٣٦٣ هـ (٩٧٣ م)، وبقيت حتى سنة ٥٦٧، وهى السنة التي سقطت فيها الدولة الفاطمية. وكان عدد الكسي التي منحت لموظفي الدولة على اختلاف مراتبهم سنة ٥١٦ هـ ١٤٣٠٥ [١].

وقد أمدنا المقريزي بعبارة بين فيها الكسى الكاملة، ومقدار وقيمة كل كسوة ؛ منها التي كانت تمنح للأمراء على اختلافهم، وللموظفين والكتاب ؛ ودون أسماءهم جميعا. وقد كانت كسوة الآمر من الحرير الدبيقي المزركش بالذهب، وقيمتها خمسمائة دينار. وكان كبار الأمراء يمتازون بلبس الاطواق والاساور وحمل السيوف المحلاة [٢].

وكانت هناك كسي تصنع خاصة للخليفة في الاحتفالات أو الأعياد، فيلبسها بمساعد سيده يعانونها ثلاثون خادمة [٣] ؛ كما كانت تقدم الحلل الى الوزراء وبعض الامراء، وكما كانت توزع الملابس على الأشراف وغيرهم في عيد الفطر بسعة. ومن هنا سمي هذا العيد بعيد الحلل، حتى قيل إنه صنع إحدى عشرة كسوة للخليفة الآمر قدست إليه في عيد الفطر سن ٥١٦ هـ (١١٢٢ م)، يضيق المقام هنا عن وصفها.

وكان صنع كل كسوة يختلف عن صنع غيره من سائر الكسي، وذلك لكل تصلح كل منها لاحتفال خاص، كالاحتفال بآخر رمضان، وإقامة صلاة العيد، والجلوس على السماط في أول يوم من أيام عيد الفطر، ويذكر المقريزي أن إحدى هذه الكسي اشتملت على ٧٠٣ من المثاقيل من خيوط الذهب والفضة، وقد أنفق في زركشة كل مثقال منها

---

[١] المقريزي خطط (ج ١ ص ٤٠٩ و ٤١٠) .

[٢] شرحه (ج ١ ص ٤٠٩) اما الوزير فكان يلبس عقدا من الأحجار الكريمة ، ومنديلا يلفه من تحت حلقه ، وجلبابا قصيرا ، ودرعا مفتوحا من النحر إلى الأسفل ، وأزراره من ذهب مشبك أو لؤلؤ ؛ وبذلك يمتاز عن سائر موظفي الدولة وقد منح بدر الجمالي هذا لأول مرة (القلقشندي ج ٣ ص ٤٩٠) .

[٣] المقريزي خطط (ج ١ ص ٤١١) .

دينار [١]. أما المناديل فقد أنفق على الواحد منها خمسة دنانير [٢].

وكانت هناك مناسبات أخرى هدم فيها الحلل المزركشة بالذهب للوزير وأخي الخليفة، كعيد أول رمضان، والاحتفال بالجمع الثلاث الأخيرة منه، وجبر الخليج. وزيادة على ذلك كان الشعراء والكتاب وأعيان الرجال الذين يتفق وجودهم في القاهرة يمنحون حلالا كان بعضها مزركشا بالذهب وكلها مصنوعة من الحرير الخالص [٣].

وقد امدنا ابن منجب بوثيقة [٤] يرجع تاريخها الى سنة **٣٥٣** هـ (**١١٤٠** م)، هي نص لكتاب أرفق بحلل بعث بها الخليفة لأحد الامراء في عيد فطر هذا العام، وهاك نصها:

" ولم يزل أمير المؤمنين منهما بالرغائب، موليا احسانه كل حاضر من أوليائه وغائب...... مجزلا حظه من منائحه ومواهبه...... وأنط أيها الأمير لأولاهم من ذيك بجسيمة.... وأخلقهم بالجزء الأوفى منه عند فضة وتقسيمه ؛ اذ كنت في سماء المسابقة بدرا، وفي جرائد المناصحة صدرا، ومن أخلص في الطاعة سرا وجهرا، وحظى في خدمة أمير الممنين بما عطر له وصفا وسير له ذكرا. ولما أقبل هذا العيد السعيد، والعادة فيه أن يحسن الناس هيأتهم ويأخذوا عند كل مسجد زينتهم ؛ ومن وظائف كرم أمير المؤمنين تشريف اوليائه وخدمه فيه، وفي المواسم التي تجاريه، بكسوات على حسب منازلهم، تجمع بين الشرف والجمال، ولا يبقي بعدها مطمع للآمال...... " [٥].

هذا، وقد جاءنا القلقشندي بعبارة شائقة عن الشكل الذي كانت تقدم به رواتب الموظفين للخليفة المستنصر كي يعتمدها، اذ يقول ان الخليفة لم يغير شيئا في القائمة الت اشتملت على الرواتب، وانه كتب فوق امضائه هذه الكلمات بخط يده : " الفقر مر

---

[١] الخطط (ج ١ ص ٤١٠) ، تبعا للمقريزي كان كل تسع قصبات من الخيوط الذهبية والفضية تزن مثقال فكان عدد القصبات ٦٣٢٧

[٢] شرحه .

[٣] شرحه .

[٤] هذه الوثيقة انشاء ابن منجب نفسه ، اذ كان يشغل في ذلك الوقت منصب كاتب الانشاء .

[٥] المقريزي (خطط ج ١ ص ٤١٢

المذاق،والحاجة تذل الاعناق، وحراسة النعم بارار الأرزاق ؛ فليجروا على رسومهم في الأطلاق ؛ (ما هندكم ينفذ وما عند الله باق) " [1].

هذه الفقرات المكتوبة بخط الخليفة ذات أسلوب خلاب يبين لنا مقدرته في فن الكتابة وإلمامه بكتاب الله الكريم، الذي اقتبس منه هذه الآية التي تناسب المقام.

ولم يكن الخلفاء الفاطميون الآخرون أقل من المستنصر في الكرم والجود. فهذا الخليفة الحافظ (٥٢٤ – ٥٤٤ هـ و ١١٣٠ – ١١٤٩ م) قد وقع في احدى المرات على قائمة هذه بما يأتي : " أمير المؤمنين لا يستكثر في ذات الله كثير العطاء، وليجروا في نسبياتهم (هكذا وردت في الأصل) على عادتهم...... كرما من أمير المؤمنين وفعلا مبرورا، وعملا بما أخبر به عز وجل في قوله تعالى (انما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا) " [2].

وشبيه هذا ما كان يحصل في عيد الفطر من توزيع ما جرت به العادية من النقود الذهبية والفضية، والملابس والاطعمة على الموظفين والاضياف. يضاف الى هذا ما كان يعطى لكبار الموظفين في غرة المحرم من النقود الذهبية الت كانت تضرب خصيصا لهذا اليوم ؛ ولذلك كانت تسمى نقود الغرة. وكان هؤلاء الموظفون يعتبرون هذه النقود بركة من الخليفة [3].

يضاف الى هذا ما إعتاده الخلفاء الفاطميون من منح موظفي خزائن القصر على اختلافها مقادير من المال عند تفتيش تلك الخزائن ومن أمثلة ذلك، ان خازن خزانة الفرش كان يعطي خمسة عشر دينارا [4]، وأمين خزائن الأسلحة كان يعطي خمة وعشرين دينارا [5]، كما كان يعطى صاحب خزائن السروج عشرين دينارا [6] ؛ وكان يعطى

[1] القرآن الكريم . سورة ١٦ آية ٩٦ ، القلقشندي (ج ٣ ص ٤٩٥) .
[2] القرآن الكريم سورة ٧٦ آية ٩ ، المقريزي خطط (ج ١ ص ٣٩٨) .
[3] القلقشندي(ج ٣ ص ٥٠٩) .
[4] المقريزي خطط (ج ١ ص ٤٩٢ و ٤٩٣) .
[5] شرحه (ج ١ ص ٤١٧) .
[6] شرحه (ج ١ ص ٤١٨) .

صاحب خزائن المشروبات ومعاونوه ثلاثين دينارا [1].

يضاف الى هذا أيضا ما اعتاد الخلفاء منحه عند ركوبهم للمناظر لرجال الحاشية والاستاذين، وكتاب القصر والشعراء، والمؤذنين والقراء ومن إلى هؤلاء. وكان هناك أحد الموظفين يحمل كيسا من الحرير فيه خمسمائة دينار [2]، لتوزيعه على من في الطريق الذي يجتازه الخليفة من الرجال والنساء الفقراء، والقراء الذين يقرءون القرآن على جانبي الطريق الذي يجتازه الخليفة من الرجال والنساء الفقراء، والقراء الذين يقرءون القرآن على جانبي الطريق، فكان كل من هؤلاء ينال نصيبه من هذه النقود في أكياس خاصة، في كل منها درهمان أو ثلاثة [3].

---

[1] شرحه (ج ١ ص ٤٢٠) .

[2] يقول المقريزي خطط (ج ١ ص ٤٨١) ان هذا الكيس كان يشتمل على ألف دينار في كل من المرات الت كان يركب فيها الخليفة لأحد الميادين ، وربما كان ذلك لاستعراض الجند او رجال الاسطول .

[3] شرحه .

الباب الثامن

مظاهر الابهة والجلال للخليفة في صلاة الجمعة والأعياد والولائم

لقد بينا ما كان من نجاح تعاليم ابي عبدالله الشيعي في جعل قبائل كتامة والبربر يعتقدون أن الخليفة كان قادرا على الإتيان بالمعجزات من إحياء الموتى وما إلى ذلك، حتى إن كافة سكان شمالي أفريقية أنضووا تحت لوائه. وهذه التعاليم قد أثرت في عقول الناس تأثيرا عظيما، كان من أثره أن اعتنق الشعراء ذلك المذهب الشيعي ؛ وقد خاطب أحدهم المهدي بهذه الابيات :

حـــــل برقـــــادة المســــيح | حـــــل بهـــــا آدم ونــــــوح
حـــــل بهـــــا الله ذو المعـــــالى | وكـــــل شـــــيء ســـــواه ريـــــح

وكذا أنشد ابن هانئ شاعر بلاط المعز الفاطمي بين يدي مولاه هذه الأبيات التي تنطوي على الغلو والاغراق، ومنها :

مـــا شـــئت لا مـــا شـــاءت الاقـــدار | فـــاحكم فأنـــت الواحـــد القهـــار [1]

ومن هذا يتبين مركز الخلفاء الفاطميين في أعين شعراء بلاطهم، مما جعل هلاء الخلفاء يعتقدون في أنفسهم أنهم أعلى من سائر البشر، إذ لم يختصموا ببعض الحقوق الإلهية فحسب، بل بصفات الله أيضا. ومن الحق أن نقول إن هؤلاء الخلفاء لو لم يكونوا يخشون ثورة شعوبهم، لكشفوا للناس حقيقة معتقداتهم الضالة ن اتلى كان يدين بها خواصهم وحاشيتهم وغيرهم ممن كانوا يحضرون مجالسهم الشيعية في القصر. ولطالما قاوم الاهلون آراء بعض الخلفاء وصادموهم باحتجاجات كانت تأخذ في بعض الأحيان مظهر التهديد، كما في حادث الدرزى والاخرم.

[1] ديون ابن هانئ (ص ٩٦)

غير أن الخلفاء الفاطميين كانوا قادرين على بلوغ أغراضهم بالسياسة، وبما اشتهروا به من مظاهر الكرم والأبهة والعظمة في كل العهد الفاطمي. من ذلك هداياهم النفيسة من النقود، وجوائزهم للشعراء وكتاب القصر، والعلماء وغيرهم من الموظفين، وكذلك الاحسان للفقراء، وإقامة الولائم في المناسبات المختلفة من الأعياد الدينية وغيرها من الأعياد العامة ؛ وكل هذا كان حقيقيا بان يستميل كثيرا من الناس إلى اعتناق مذهبهم.

وإن تقاليد البلاط الفاطمي كانت متفقة مع الدعاوى التي كان يدعيها الخلفاء. فكان من الشرف العظيم أن يسمح للوزير بلم قدمي الخليفة على مرأى من جموع الرعايا المتحمسين، أما قاضي القضاة، باعتباره حامي الشريعة الإسلامية، فكان لا ينتظر منه إلا أن يلثم قدم الخليفة في الركاب القريب منه [١].

ولم تكن مظاهر الاحترام هذه نحو الخلفاء مقصورة على وزرائهم وقضاتهم وغيرهم من مشهوري رجالات دولتهم. فقد كان على عامة الناس أن يقوموا وقوفا كلما ذكر أسم الخليفة في الخطبة، كما كان عليهم أن يظلوا واقفين أيضا إذا مر الخليفة في إحدى الطرقات [٢].

وكان من المناظر المسلية أن يري الخليفة الفاطمي جالسا في إحدى مناظره [٣]عند الاحتفال ببعض الأعياد الدينية أو العامة، وحوله أنوار الشموع والمصابيح الوضاءة ؛ فقد كان شخصه المقدس برى ظاهرا لرعاياه المتحمسين إذا ما فتحت نافذة المنظرة، وأمامه أحد الاستاذين يلوح للناس بكم قبائه، يحمل إليهم سلام الخليفة في هذه الكلمات : "

[١] المقريزي خطط (ج ١ ص ٤٧٧)

[٢] ابن زولاق ، المكتبة الاهلية بباريس ، مخطوط ١٨١٧ ، ورقة ٥٣ أو ٥٦ و للقضاعي ، المكتبة الأهلية بباريس ، مخطوط ١٤٩١ ، ورقة ١١٢٧ .

[٣] يقول المقريزي خطط (ج ١ ص ٤٣٥) في كلامه عن باب العيد – الذي كان مبنيا عليه قبة على شكل قبو ، كان الخليفة يمر من تحتها عند ذهابه الى المصلى حيث تقام صلاة العيد – إن الخليفة كان يلوح بكمه ، فيمسك به الناس ويلثمونه . وهذا ، كما لاحظ المقريزي ، بعيد عن التصديق . وربما كان يحدث في مناسبات أخرى ، حين يسمح للناس بتقديم رقعات تظلمهم الى الخليفة وهو راكب ، فكانت لهم فرصة يلثمون فيها كم مولاهم . وهذه العادة التي لم تزل باقية في بعض أنحاء العالم الإسلامي ، حيث يلتمس بعض الناس البركة من لثم أيدي وأكمام العلماء ، وحتى يلثم بعض أجزاء المساجد ، كتبة القبر النبوي والكعبة المشرفة .

أمير المؤمنين يرد عليكم السلام ". وعقب تفوه الأستاذ بهذه الكلمات تقفل النافذة ؛ فينصرف الناس المفعمون سرورا، والذين كانوا يركعون إذا مارأوا شخص الخليفة.

وإن في الابهة الت كانت تصاحب الخلفاء الفاطميين في مجلسهم [1] لدليلا آخر على ما كانوا يعتقدونه مما كان يلق عليه حق الملوك المقدس ؛ حت كان بعضهم يعتقد لنفسه بعض صفات الله.

١ - قاعة الذهب ومجلس الملك

اعتاد الخليفة أن يبعث صاحب الرسال الى الوزير يحمل اليه أمره الملكي بانعقاد المجلس. وصاحب الرسالة هذا كان استنادا مميزا ؛ وعمله هو حمل أوامر الخليفة الى الوزير متى آن انعقاد المجلس. وكان إذا انتهى الأمر للوزير، ركب في صحبة الأمراء إلى مكان الوزارة من القصر، حيث يترجل ويمشي إلى قاعة الذهب [2].

أما قاعة الذهب فكانت مؤثثة أثاثا فخما، ومزينة بالستور والطنافس الحريرية المزركشة بالذهب، التي كانت كلها من رسم وطراز ولون واحد. وكان في صدر قاعة الذهب حشية عليها عرش الخليفة المحجوب بستور، حتى إذا ما استولى الخليفة على عرشه والتأم النجلس ن رفعت تلك الستور. وكانت العظمة الملكية تظهر لأجلى مظاهرها إذا ما انفرج السنزان الحريريان بفعل اثنين من الأساتذة بامر زمام القصر ؛ فيبين شخص الخليفة، وحوله جمعة من القراء ؛ فيأخذون ف ترتيل بعض آيات بانغام عالية. ثم يأتي حامل الدواة — وهو أستاذ محنك أيضا — فيضعها على طرف الحشية المخصص لها. وكان زمام القصر وصاحب بيت المال والحجاب والامناء يأخذون أمكنتهم عند الأبواب في اوقت الذي يكون الحاضرون قد أخذوا فيه أمكنتهم المخصصة لهم، وعندئذ بأخذ أحد الأمناء في تقديم من يرى من المناسب تقديمه للخليفة. فيخطوا إلى الامام، ثم يحي الخليفة بلثم يديه ورجليه ثم يتراجع الى مكانه الرفيع ويظل واقفا نحو ساعة ؛ فيؤذن له

---

[1] يسمي هذا المجلس الإيوان ، ويعرف بقاعة الذهب

[2] كان مجلس الملك ينعقد في الأيوان الكبير قبل أن يبني العزيز قاعة الذهب . اما الإيوان الكبير فقد استعمل فيما بعد دارا للسلاح .

بوسادة يجلس عليها في جانب الخليفة الأيمن. ثم يتلوه قاضي القضاة، فيقترب من الخليفة ويحييه برفع يده اليمنى، ويشير بسبحته قائلا : " السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته " ! وكانت هذه التحية ميزة له على سائر أعضاء المجلس اعترافا بمركزه الديني الرفيع. وكان أيضا يسمح لزعماء الطوائف المختلفة بتحية الخليفة باسم جماعاتهم. وكان أحد الامراء يزودهم قبل أن يتقدموا للخليفة بتعليمات تبين لهم ما يجب عليهم اتباعه في هذا السبيل.

وإذا رأى الوزير ان يشاور الخليفة في أمر من الأمور، وجب عليه أن يقترب منه ويعتمد على سيفه ن ثم يسرع في حديثه. وكان مجلس الملك ينعقد ثلاث ساعات في العادة ؛ فتقدم فيه الأمور الهامة لبحثها واعتمادها من الخليفة. وللوزير أن يقترح خلع الخلع أو إسناد المناصب المختلفة إلى من يقدم أسماءهم.

فاذا انفرط عقد المجلس، انصرف الحاضرون والوزير في آخرهم بعد أن يلثم يدي مولاه ورجليه مرة ثانية ؛ ثم يركب الى داره يحف به سائر أعضاء المجلس ؛ ثم ينزل الخليفة عن سرير الملك ويغادر الإيوان، فتسدل الستور ويقفل الباب [1].

هكذا كانت الابهو الت تحيط بالخليفة حينما يرأس مجلس الملك ؛ غير أن هذه التقاليد لميكن الفاطميون أول مبتدعيها ؛ فقد كانت من رسوا آل ساسان ملوك الفرس (٢٢٩ – ٦٥٢ م) قبل ظهور الدولة الفاطمية في عالم الدول بنحو سبعة قرون.

ويقول الأستاذ براون ((e. g. browne : " إن آل ساسان كانوا يعتبرون أنفسهم آلهة، أو أناسا إلهيين، من سلسلة أسرة الكاياني الخرافية العريقة في القدم، ووارثى العظمة الملوكية (farri – kayani). وذلك نوع من الحق الإلهي الذى وصل اليهم بطريق الإشارة والرمز، وبفض هذا الحق كان لهم وحدهم حق حمل التاج الفارسي – فعملوا كل ما في مكنتهم للتأثير في رعاياهم حتى يذعنوا لهذا الحق الملكي الرفيع ".

وقد اقتبس الأستاذ بروان في صدد كلامه عن عظمة " آل ساسان الملكية "

---

[1] القلقشندي (ج ٣ ص ٤٩٨ – ٥٠٠) .

واعتلائهم العرش، أطورة أوردها ابن هشام في " سيرة النبي ﷺ " [1]حيث يقول : " وكان كسري يجلس في إيوانه مجلسه الذي به تاجه ؛ وكان تاجه مثل القنقل [2]العظيم فيما يزعمون، يضرب فيه الياقوت واللؤلؤ والزبرجد بالذهب والفضة، معلقا بسلسلة من ذهب في رأس طاقة في مجلسه ذلك. وكان عنقه لا تحمل تاجه ؛ فنام يستر عليه بالثياب حتى يجلس في مجلسه ذلك. ثم يدخل رأسه في تاجه ؛ فاذا استوى في مجلسه كشفت عنه الثياب، فلا يراه رجل لم يره قبل ذلك إلا سجد هيبة له " [3]

ويلاحظ الأستاذ بروان " أن نظرية الحق الملكي المقدس لم تكن في دولة من الدول أثبت وأكثر ذيوعا منها في فارس في عهد آل ساسان ". غير أن هذه النظرية كانت بمصر في زمن أعرق في القدم من عصر آل ساسان، وفي عهد الفراعنة الذين ادعوا لأنفسهم كل صفات الله ؛ وأوضح مثل لذلك هو فرعون موسى عليه السلام.

وكان تأثير هذه العقيدة في العصور التي تلت عظيما ؛ فقد تأصلت وخطت الى الأمام في عهد الخلفاء الفاطميين الذين كانوا يعتقدون أن لهم بعض صفات الله .

٢- المناظر [4] وليالي الوقود [5]

إن بناء المناظر التي كان يشرف الخلفاء منها على الاحتفال ببعض الأعياد، يمدنا بمثل آخر من أمثلة حب الظهور الذي ملك قلوبهم، فاستطاعوا أن يستميلوا به أكثر ما

---

(١) Literary history of persis from earliest times until firdawoi , p . 128 .

(٢) الخوذة العظيمة .

(٣) ابن هشام (طبعة وستنفلد) (ج ١ ص ٤٢)

(٤) كانت المناظر غالبا في القاهرة ومصر والروضة والقرافة ؛ وكانت تستعمل أيضا أماكن لنزهة الخلفاء . وقد عدد المقريزي هذه المناظر في خططه ؛ ووصف لنا بعبارة شائقة الاحتفال ببعض الأعياد . ويجمل أن نذكر أسماء المناظر هنا ، لأننا سنشير إلى بعضها عند الكلام عن الاحتفال ببعض الأعياد وهى : الأزهر ، اللؤلؤة ، الدكة ، المقس ، باب الفتوح ، البعل ، التاج ، الخمس وجوه ، الصناعة ، دار الملك ، منازل العز ، الهودج ، بركة الحبش ، الأندلس ، قبة الهواء ، والسكرة (خطط ج ١ ص ٤٦٥) .

(٥) ليال الوقود هي الليالي التي تسبق أول ومنتصف شهري رجب وشعبان . وكان النس تبعا لتعاليم الشيعية يصومون بعض هذين الشهرين كصومهم رمضان ؛ لذلك كانوا يحتفلون بهذه الأيام الأربعة كما يحتفلون برمضان . واستمر الاحتفال بهذه الأيام الى وقتنا الحاضر .

يمكن من الناس الذين يعتنقون المذهب الشيعي.

أما ليالي الوقود الأربع، فقد كان الخلفاء الفاطميون يحتفلون بها بأبهة عظيمة. وكانت المساجد في كل من هذه المناسبات تضاء بالأنوار الساطعة بعد غروب الشمس. وكان قاضي القضاة يتقدم الموكب نائبا عن الخليفة ؛ فكان يظهر ممتطيا جوادا، يحيط به ثلاثة من ممثلي الخليفة وعشر من الحجاب والقراء، ومؤذنوا المساجد يحمدون الله ويدون للخليفة. وكان الشهود يمتطون الجياد أيضا، وبأيديهم الشموع [1] المضاءة، ويحفون بقاضي القضاة حرسا له.

وكانت الجموع الغفيرة تتبع الموكب الذي يبدأ من دار قاضي القضاة، ويسير مخترقا الكبيرة في القاهرة حتى يصل الى باب الزمرد ؛ وهناك يكون الخليفة جالسا في منظرته التي تسطع فيها الانوار لانتظاره. وهنا يشتد زحام هذه الجموع في الفضاء حول المنظرة، والكل يترقب الفرصة كي يرى وجه الخليفة [2].

وكان خطباء مساجد الانوار والازهر والحاكم يخطبون بين يدي الخليفة كما يخطبون على منابر مساجدهم ؛ فاذا ما انتهى الخطباء، فتحت نوافذ المنظرة ؛ فيظهر وجه الجليفة وحوله الشموع الساطعة الضوء ؛ ثم يجى أحد الأساتذة المحنكين المميزين هذه الجموع المتلهفة، ويلوح لهم بكمه علامة للانصراف ويقول : " أمير المؤمنين يرد عليكم السلام ". وبعد هذا يستأنف الموكب سيره حتى دار الوزير ؛ وهناك يترجل قاضي القضاة والشهود ويمثلون بين يدي الوزير ؛ ثم تلقى الخطب تكريما له [3]. بعد هذا يعود الموكب مارا بالمساجد المضاء في طريقه الى مدينة مصر.

---

[1] ذكر المقريزي عن ابن الطوير أن قاضي القضاة كان مخصصا له خمسون شمعة في كل يوم من هذه الأيام ؛ وكانت كل شمعة تزن نحو ستة عشر رطلا ، غير الشموع الت كانت تحيط بالشهود ؛ وكان يعطي كل منهم عددا من الشموع يتراوح بين شمعة وثلاث حسب درجته . وكانت توزع كمية كبيرة من الزيت على المساجد المختلفة لإضاءتها في تلك الليالي ؛ فكان ما يخص الجامع العتيق لكل ليلة احد عشر قنطارا . هذا عدا ما كان يوزع من الهبات والإحسانات المعتادة والحلوى ونحوها (خطط ج ١ ص ٤٦٦ – ٤٦٧) .

[2] القلقشندي (ج ٣ ص ٥٠١) .

[3] شرحه (ج ٣ ص ٥٠٢) .

وكانت الحكومة تعني عناية خاصة بتنظيم هذه الاحتفالات ؛ فكان حكام القاهرة ومصر يعينون بعض رجال الشرطة والخفر لحفظ النظام ؛ وكان على الوليين أن يصحبا قاضي القضاة في موكبه ويطيعا أمره فيما يأمر به. وكانت الأسواق تسطع بالأنوار، وتكثر فيها الحلوى سد لحاجة المشترين [1] .

٣- توديع الحملات الحربية

كان الخليفة يجلس بمنظرة باب الفتوح لتوديع الحملات الحربية، وخاصة ما كان مرسلا منها إلى أهالى الشام وفلسطين الذين كانوا في ثورة متواصلة ضد سلطة الفاطميين ؛ ؛ وفي هذه المنظرة كان يؤذن لقائد الحملة بالمثول بين يدي الخليفة، فيخلع عليه خلعة مزكشة بالذهب. أما الصناديق والخزائن التي كانت تودع فيها معدات الجيش من أموال وسلاح ومؤن ونحو ذلك، فقد كان من المعتاد أن يقوم صاحب البيت بتسليم القائد قوائم منفصلة بما حوته تلك الصناديق. وكانت نوافذ المنظرة تفتح ؛ فإذا رأى الجند وجه الخليفة، خروا له مقبلين الأرض ؛ ثم يومئ الخليفة للجيوش فتسير [2].

بعد هذا يركب الخليفة لمنظرة المقس، حيث يكون هناك أمير " الأسطول ". [3] وبعد أن يستعرض الخليفة المراكب الحربية، يأذن للأمير بالمثول بيد يديه ؛ فيخلع عليه خلعة ويودعه ؛ فيبدأ الأسطول في المسير [4].

٤- العقائد الفاطمية

كان انصار الخلفاء الفاطميين يؤيدون دعوى هؤلاء الخلفاء بأن لهم قوة إلهية ز ويرجع ذلك إلى أيام عبيد الله المهدي ال١ي كان يعتبره بعض رجال الشيعة الخالق الرازق، كما كانت تعتقد جماعة أخرى أنه نبي. وهناك طائفة ثالثة كانت تزعم أنه النبي حقا [5]. يدلنا على هذا ما رواه الذهبي عن أبن عبدالجبار حيث يقول : "كانت طائفة

---

[1] المقريزي خطط (ج ١ ص ٤٧٦) .

[2] المقريزي خطط (ج ١ ص ٤٨٣) .

[3] ذكر المقرزي عن ابن ابي طى أن المعز بني مراكب حربية ، فكان منها الاسطول المصري . خطط (ج ١ ص ٤٨٣)

[4] القلقشندى (ج ٣ ص ٥٢٣ ، ٥٢٤) .

[5] الذهبي ، المكتبة الملكية بالقاهرة ، مخطوط ٤٢ ، ورقة ٤٤ ١

تزعم أنه الخالق الرازق، وطائفة تزعم أنه نبي، وطائفة تزعم أنه النبي حقيقة ".

ويستطرد الذهبي في الكلام نقلا عن ابن عبدالجبار، حتى يذكر أن أبا القاسم بن عبيد الله أمر بلعن الأنبياء وأطلق مناديا ينادي بلعن الغار ومن لاذ به، وأنه كان يكاتب أبا طاهر القرمطي، ونصح له بأن يحرق الكعبة والمصاحف. وقد أثارت أفاعيل أبي القاسم سخط جماعة من الخوارج، فثاروا تحت لوء ابن كيداد [(١)]. هذا ما رواه الذهبي. ولكنه كان يبغض الشيعة ؛ فدس عليهم ذلك وكذب في نسبة هذا اليهم.

إن من السهل أن نصدق أن الفاطميين كثيرا ما نقموا على السنيين. لكن ما يروى عنهم من أنهم لعنوا الأنبياء، وأنهم أشاروا على أبي طاهر القرمطي بحرق الكعبة والمصاحف، يكذبه بعض الكتاب الاقدمين كمسكويه (ج ١ ص ١٦٦ و ١٦٧)، وهو حجة في ذلك العصر، وتاريخه خال من التحيز والهوى.

وقد عضد سياسة الفاطميين السابقة وبثها شعراء الشيعة الذين درسوا العلوم الفلكية التي انتهت بهم إلى نسبة بعض القوى الإلهية الى الخلفاء. ومن ذلك نصح بعضهم للمعز بان يقضى يوما خاصا محتجبا عن الناس ؛ لكنه ظل مختفيا تحت الأرض سنة كاملة [(٢)]، فاعتقد الناس أنه صعد الى السماء ؛ وبلغ من هذا الاعتقاد أن الجندي كان اذا رأى سحابة في السماء، ترجل وقال " السلام عليك يا أمير المؤمنين ! " [(٣)]

إن الخلفاء الفاطميين الأول لم يفلحوا في استمالة جميع المصريين لهذه الاعتقادات وأمثالها ؛ ولذلك نرى أن عقيدة تألية الحاكم الجديد قد أثارت أخيرا سخط الاهلين، إذ كان لا يزال هناك كثيرون ينارئون سياسة الفاطميين ؛ فقد كتب ذات مرة أحد الشعراء ببيتين من الشعر في ورقة وضعت على المنبر، فوقعت في يد الخليفة العزيز، وقرأها فاذا

[(١)] شرحه ورقة ١٦٩ ا

[(٢)] ذكر بن زولاق أن المعز ظل مختفيا نحو من أربعة أشهر . غير أن ذلك ينقضه ما ذكره غيره ، كلين القلانسي وابن الجوزى وابن الأثير الذين انفقوا على أن مدة اختفاء المعز تحت الأرض كانت نحو سنة .

[(٣)] ذكر ذلك ابن زولاق (المكتبة الاهلية بباريس ، مخطوط ١٨١٧ ، ورقة ٤٨ ب) وابن ااالقلانسي (ص ١٤) وسبط بن الجوزي (مكتبة يودليان بأكسفورد ، مخطوطات بوكوك (**poqook**) ، القسم الشرقى رقم ٣٧٠ ، ورقة ١٨٦ ا) وابن الاثير (ج ٨ ص ٢٣٩) وأبو المحاسن طبعة جوينبول ((**juyn bool**(ج ٢ ص ٤٤١ و ٤٤٢) .

فيها :

بالظلــــم والجــــور قــــد رضــــينا ولــــيس بالكفــــر والحماقــــة
إن كنــت أعطيــت علــم غيــب فقــل لنــا كاتــب البطاقــة [1]

وقد أمعن الحاكم في هذه الدعوى، حتى إن ابن زولاق [2] قص علينا في هذا الصدد حكاية، وإن كان من البعيد تصديقها ؛ إذ يقول إنه كان على التجار أن يتركوا حوانيتهم مفتوحة ؛ فاذا سرق منهم شيء ذهبوا إلى القصر يشكون ما حل بهم. ففي ذات مرة ذهب جماعة منهم ورفعوا شكواهم الى الحاكم من سرقة بعض سلعهم. وكان عنده تمثال يدعى أبا الهول يجلس في دخله رجل ؛ فجلس الحاكم أمام التمثال، وقد أذن للشاكين أن يمثلوا بحضرته، فوصفوا ما فقدوه من متاع. فتكلم أبو اهول ذاكرا أسماء اللصوص واسم المكان الذي خبأوا فيه المتاع ؛ فكان كما أخبر به، وقبض على اللصوص وصلبوا. وأضاف ابن زولاق الى هذا أن هذه الأعمال ساعدت على استتباب الأمن والنظام ن حتى إن التجار كانوا يتركون حوانيتهم غير مغلقة كسائر الناس الذين لم يكونوا يحفلون بإغلاق أبواب دورهم طوال الليل. ولننقل للقارئ فيما يلي عبارة ابن زولاق بنصها :

"... ونادى في الناس ألا يغلق أحد بابه ولا حانوته... وأصبح الناس يستغيثون ؛ فأحضر صنما كان عنده يسمي أبا الهول ؛ فكان كل من ضاع له شيء يجلس بين يديه ويقول له يا أبا الهول ! ضاع كذا وكذا ن فيقول له شخص داخل الصنم (ان ضايعك —

---

[1] ابن خلكان (ج ٢ ص ٢٠٠) وابن ابي دينار (ص ٦٥) .

[2] يلاحظ في الباب الذي أفردته لبيان المصادر أن مخطوط ابن زولاق الذي عنوانه " فضائل مصر " (المكتبة الأهلية بباريس ، مخطوط ١٨١٧) ، هو موجز لهذا السفر الضخم الذي ألفه في تاريخ الخلفاء الفاطميين الأولى الى سنة ٣٨٦ هـ . وقد ذكرت في هذا الباب أن هذا المخطوط قد أكمله أحد الاتراك ؛ ومن المحتمل أن يكون قد ادخل عليه معلومات استقاها من المؤرخين المتأخرين ، أمثال القضاعي ، وأبي الفرج بن الجوزي ، وسبط بن الجوزي ، والذهبي . ومن المعلومات اتلى في هذا الكتاب ما يتناول الكلام على سنة ٣٨٧ (أي سنة وفاة ابن زولاق) وما تلاها من السنين . ومع هذا فذلك كله منسوب الى ابن زولاق تتمه للعمل الذي بدأ فيه ، كم هو الحال في كتاب الكندي (كتاب القضاة) ، الذي بدأه الكندي (حتى وصل الى سنة ٢٤٦ هـ) ، فجاء ابن زولاق وابن حجر فأكملاه . ومع ذلك فالحقائق التي وردت في الكلام على سنة ٢٤٧ وما تلاها تنسب أيضا للكندي ن ومه أنه لم يكتب الا الجزء الأول من ذلك الكتاب الذي ينسب اليه ويعرف بنفس الاسم .

هكذا وردت في الأصل)، ما ضاع منك أخذه فلان ووضعه في المكان الذي يقول عليه الصنم، فيحضر لصاحبه ؛ ثم ما زال على ذلك حتى قرر جميع ما ضاع لأربابه. ثم صلب اللصوص، وعادت الناس في أمان ينامون في بيتوهم وأبوابهم مفتوحة وحونيتهم كذلك، لم يسرق لهم شيء، حتى اذا وقع من أحد درهم (يستمر – هكذا وردت ف الأصل)، يبقي في مكانه لا يجسر أن يأخذه أحد، حتى يأتي اليه صاحبه فيأخذه، ثم ينادى : رحم الله من اعتبر بغيره ! " [١]

وذكر نفس هذا المؤرخ حكاية أخرى يقول فيها : "..... إنه وقع من شخص كيس فيه ألف دينار عند باب جامع ابن طولون، واستمر في مكانه أسبوعا كاملا لم يجسر أحد لى أخذه، حتى مر به صاحبه " وأقام الدليل على ملكه له [٢]..

والظاهر ان هذه الحكاية لا تخلو من المبالغة ؛ اذ من الممكن جدا أن يكون رجال الشرطة قد أخذوا هذا الكيس أمانة لديهم، حتى يستطيع صاحبه العثور عليه. على أن ما رواه ابن زولاق من أنه من لم يكن هناك أحد يجسر على أخذ مثل هذا الشيء، يمكن تصديقه، لا سيما في عهد الحاكم الذي كان يعاقب على هذا بالقتل.

وبهذه المنا سبة نقول، إنه ليس لدينا من الأدلة التاريخية ما يثبت أنه كان عند العرب ما يسمى الآن " مكتب الامانات ". ومع هذا فقد كان ذلك موجودا في عصر النبي ﷺ الذي شرع أحكام اللقطة .

ففي البخاري ما معناه أن رجلا وجد صرة فيها مائة دينار، فجاء للنبي صلي الله عليه وسلم يسأله عن ذلك فقال له : " عرفها حولا ". لكنه لم يجد من يعرفها ؛ فأمره النبي بتعريفها حولا آخر ؛ فلم يحصل لها على صاحب أيضا. فجاء الرجل للنبي صلى الله عليه وسلم، فأمره بتعريفها سنة ثالثة، وبعدها تصير ملكا له. وفى البخاري في موضع آخر أن

---

[١] ابن زولاق ، المكتبة الأهلية بباريس ، مخطوط ١٨١٧ ، ورقة ٥٣ ا وما يتبعها .

ذكر ابن زولاق أن هذا التمثال سرق وكسر ، فارتاع الرجل الذي بداخله حتى فقد حاسة النطق . ولو صحت تلك الحكاية ، لكانت تلك السرقة من صنيع أحد اللصوص العاديين ، أو أحد المسلمين المتحمسين الذين لم يكونوا يرضون عن سلوك الحاكم .

[٢] شرحه ورقة ٥٤ ب .

رجلا سأل النبي صلي الله عليه وسلم عما يصنعه في اللقطة فقال له : ط عرفها سنة فان لم يظهر لها صاحب، فشأنك بها [1] ".

هذا ن وقد تكلم ابن زولاق على ادعاء للألوهية، ذلك الخليفة الذي كانت تملك نفسه تلك الرغبة التي استولت على كاليجولا من قبل في أن يجعل نفسه في مصاف الآلهة. فذكر أن الحاكم اتخذ لنفسه جواسيس من النساء يندسسن فيدور بض أناس مخصوصين ؛ وكان من واجبهن أن يكتشفن ما يحدث فيها، ثم يقدمن تقاريرهن عن ذلك اليه في اليوم التالي. فاذا ما أصبح الخليفة استدعى هؤلاء الناس للمثول بحضرته، فيخبرهم بتفصيل كل ما حدث في دورهم. ولم ينس أيضا أن يتخذ جواسيس آخرين، مهمتهم أن يقدموا إلى تقارير بكل ما يحدث في الطرقات ؛ وكان نتيجة هذا وذاك أن أصبح بعض الناس يعتقدون أنه يعلم الغيب [2].

٥- دعوى الحاكم الالوهية

لم يترك الحاكم ادعاء الألوهية الذي شغل كل حياته الا فترة لم يطل أمدها، ثم سرعان ما ادعى تجسيم الإله في شخصه – وإن لم يصرح علنا بذلك – فقد كان يوافق على آراء أنصاره كالأخرم والدرزي [3]، الذين نسبوا اليه الصفات التي لا يتصف بها إلا الله ؛ لهذا اعتقد الناس ان بيده الحياة والموت [4]. ولهذا كان اذا بدا للناس في الطرقات، خروا له سجدا وقبلوا الأرض [5] ؛ من أبى ذلك كان نصيبه الموت [6]

---

[1] صحيح البخاري ، (ج ٣ ص ١٢٤ و ١٢٥) .

[2] ذكر هذا ابن زولاق (شرحه ورقة ٥٦ ب) وابن الجوزي (مكتبة بودليان بأكسفورد ، مخطوطات بوكوك ، القسم الشرقي رقم ٣٧٠ ، ورقى ١٣٠ ا) نقلا عن هلال الصابئ ، وقال ابن زولاق إنه كان يبعث بهؤلاء الجواسيس الى دور الامراء ، وإنهن كن يتناولن مرتبات وفيرة

[3] تكلم ابن سعيد (ص ٢٢٠ – ٢٢٤) عن الدورزي ، وذكر (ص ٢٢٤) خلافا لكثير غيره من المرخين أنه قتل بمدينة مصر . أما عيره من المؤرخين فيزعمون أن الدرزي أرسل ألى لبنان ، حيث نجه في بث عقائد مذهبه فيما يختص بالحاكم .

[4] اب زولاق ، المكتبة الاهلية بباريس (مخطوط ١٨١٧ ، ورقة ٥٦ ا) .

[5] الضاعي ، المكتبة الاهلية بباريس (مخطوط ١٤٩١ ، ورقة ١٢٧ ا) .

[6] ابن زرلاق ، المكتبة الأهلية بباريس ، • مخطوط ١٨١٧ ، ورقة ٥٦ ا)

وقد شجع بعض الشعراء المتصلين بالبلاط الفاطمي هذا الاعتقاد، ولم يترددوا في أن ينسبوا الى الحاكم بعض صفات الله وهم يقرءون القرآن بحضرته. فقد أمدنا ابن خلكان بوثيقة عن الحافظ السلفي [١] بخط يده، وهاك نصها : " ان الحاكم المذكور كان جالسا في مجلسه العام وهو حفل بأعيان دولته. فقرأ بعض الحاضرين قوله تعالى (فلا وربك لا يمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم، ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما [٢] ؛ والقارئ في أثناء ذلك يشير الى الحاكم.فلما فرغ من القراءة قرأ شخص آخر يعرف بابن المشجر، وكان رجلا صالحا : (يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له، ام الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له،وإن لم يسلبهم الذنب شيئا لا يستنقذوه منه، ضعف الطالب والمطلوب، ما قدروه الله حق قدره، إن الله لقوى عزيز) [٣]. فلما انتهت قراءته، تغير وجه الحاكم، ثم امر لابن المشجر المذكور بمائة دينار، ولم يطلق للآخر شيئا. ثم أن بعض أصحاب ابن المشجر قال له : أنت ترف خلق الحاكم وكثرة استحالاته _ تقلباته) ؛ وما نأمن أن يحقد عليك، وانه لا يؤاخذك في هذا الوقت، ثم يأخذاك بعد هذا فتتأذى بعد هذا فتتأذى نمه ؛ ومن المصلحة عدى ان تغيب عنه ز فتجهز ابن الشجر للحج، وركب ي البحر وغرق [٤]".

بالرغم من حالة العداء التي كانت تملأ الناس من سياسة الحاكم الخرقاء، فق استطاع ان يدعى الألوهية. فابتدأت الدعوة التي تقول بان الله تجسيم فيه. وعلى ما جاء في مخطوط القاهرة الذي عنوانه " رسائل الحاكم بأمر الله "، نرى أن الحاكم ادعى أن له

[١] هو أبو طاهر أحمد بن مُحَمّد ... السلفي من أهالي اصبهان ، وكان يلقب بصدر الدين ؛ وكان حافظا عزير العلم شافعي المذهب . رحل الى بلاد كثيرة طلبا للحديث ال١ي أخذه عن ايانذته المبرزين ؛ ومر في رحلاته بأصقاع مختلفة ، وساح في بلاد كثيرة ؛ فركب البحر منصور الى الإسكندرية ، فوصلها في ذي القعدة سنة ٥١١ هـ (مارس سنة ١١١٨ م) . ولما استقر به المقام ، انتخبه كثير من أهالي البلاد النائية يستمعون دروسه . وفي سنة ٥٤٦ هـ (١١٥١ م) انشأ العادل بن السلار كلية في الإسكندرية ، وجعله عميدها ، وكانت وفاته بهذه المدينة في الخامس من ربيع الثاني ٥٧٦ هـ (أغسطس سنة ١١٨٠ م) ابن خلكان (ج ٢ ص ٣٧ و ٣٨) .

[٢] سورة ٤ أية ٦٨

[٣] سروة ٢٢ آية ٧٣ و ٧٤

[٤] ابن خلكان (ج ٢ ص ١٦٧)

طبيعة إلهية، بعد أن كان بشرا كسائر الناس (١) . ومن المحتمل كثيرا أن يكون ما ظهر به الحاكم أخيرا هو نتيجة تعاليم الدرزى للعقائد الفاطمية في أشد درجات غلوا.

منذ هذا الوقت أعلن الناس الذين اتبعوا سياسة الحاكم الدينية ما يعتقدونه من " عبادته وتوحيده وتنزيهه " (٢)،وأنه " لم يل ولم يولد لم يكن له كفوا أحد " (٣)، وأن "كافة الشرائع الأخرى باطل وزور " (٤). وكان لما فعله الحاكم خطر عظيم ، حتى لقد أغم من لمصدق بقوله الجزية كأهل الذمة (٥).

لكن تلك المعتقدات أثارت سخط أهالي القاهرة الوادعين ؛ وكنا من اثر ذلك أن اغتيل كثير من الدعاة وانصار المذهب الفاطمي. أما الحاكم المجنون –كما يقول الأستاذ مرجوليوث (٦) – فقد ثأر لنفسه، فطلق العنان للسودانيين، فاسرفوا في الاعتداء على الأهلين. وقد سببت المناوشات بين السودانيين والأهلين خسائر لا يستهان بها.

غير أن سخط الأهالي كان ذا أثر. فقد كانت كتب الأمان التي أعطاها الحاكم لرعاياه المسيحيين سنة ٤١١ هـ – وهى عام وفاته – مفتتحة بما كان يفتتح به الخلفاء كتبهم. فقد كان فيها : بسم الله الرحمن الرحيم ! من أمير المؤمنين عبدالله ووليه المنصور أبي على الإمام الحاكم بأمر الله ابن العزيز..... الخ (٧).

٦- سياسة الفاطميين الدينية في عهد الآمر

سنة ٤٩٥ – ٥٢٤ هـ (١١٠١ – ١١٣٠ م)

لقد عني الفاطميون عناية عظيمة بحفظ رسومهم الدينية حتى في أيام انحلال دولتهم،

---

(١) ورقة ١٦١ .

(٢) شرحه .

(٣) سورة ٦٢ آية ٣ و ٤ ، ومخطوط ورقة ١١ .

(٤) مخطوط ورقة ٢١ ب

(٥) شرحه ورقة١٣٥ .

(٦) Prof , margoliouth : cairo , Jerusalem . and demasour , p . 80 .

(٧) يحيى بن سعيد ، (ص ٢٣٠ – ٢٣٢) .

حين كان لوزرائهم السلطة المطلقة. وأن مقتل الوزير الأفضل بن أمير الجيوش بدر الجمالي لأظهر مثال لتلك العناية ؛ لأن الأفضل كان يميل ميل السنيين، فألغى الاحتفال بمولد النبي ﷺ، ومولد فاطمة وعلى رضي الله عنهما، ومولد الخليفة القائم بالأمر.. وقد كان ذلك كافيا لتقويض دعائم حكم الفاطميين الذين كانوا يعملون دائما على تأييد دعواهم، وأنهم من سلالة على مما كان موضع شك رعاياهم طوال حكمهم.

وقد شرح لنا ابن القلانسي (+ ٥٥٥ هـ) الأحوال التي أحاطت بمقتل الأفضل شرحا وافيا. وابن القلانسي هذا توفى بعد الأفضل بنحو أربعين سنة ؛ وقد أعتمد فيما ذكره على الاعتقاد الذائع بان مقتل الوزير كان تدبيرا من الخليفة الفاطمي وأنصاره، لبواعث سياسية وحزبية. أما ابن ميسر فقد نسب من جهة أخرى مقتل الأفضل على عداء جماعة الباطنية. غير أن ابن القلانسي يدحض ذلك ويقرر أنه وان كان قد شاع أن الأفضل لقى مصرعه على يد الباطنية، فان ذلك كله كان بتدبير الخليفة الفاطمي.

وإن من الحق أن نقول إن الخلف بين روايتي هذين المرخين يسير. فان الفاطميين أنفسهم كانوا باطنيين، وكانوا في أعمالهم يصدرون عن العاقائد الباطنية التي كان قوامها ادعاؤهم على الباطن وأن لهم قوى غير قوى البشر.

ويحسن بنا أن نأتي بعبارة ابن القلانسي بتصرف وهى : أن الخليفة الآمر الذي ضعفت سلطته كثيرا بتداخل الأفضل، شعر بالحاجة الى التخلص من وزيره ن فدبر مكيدة اغتياله في إحدى زياراته للقصر. لكن الأمير عبدالمجيد بن أبي القاسم بن المستنصر وابن عم الخليفة – الذي صار خليفة فيما يعد وتسمى بالحافظ (+ ٥٤٤ هـ) – لاحظ أن ذلك العمل سيثير سخط الناس ويكون عارا يلحق بالبلاط الفاطمي. وذلك أن الناس كانوا يقدرون الاعمال التي أداها الأفضل وأبوه للأسرة الفاطمية حق قدرها ؛ فيكون قتله معناه نكران لهذه الأيادي، وذلك مما يجلب انتقام أنصاره ويزعزع ثقة الوزراء في الفاطميين.

لذلك كله رأى الأمير أن يعمل لهذه الغاية بطريقة أخرى، وهى أن يعهد بذلك الأمر الى أحد معتنقي المذهب الفاطمي، ويعطي من العهود ما يضمن له مركز الوزارة اذا نجح

في هذا السبيل.

وقد رأى الأمير ان أبا عبدالله المأمون بن البطائحي، أحد خواص الوزير، هو ابن بجدتها، لما كان يعتقده من احتمال موافقته على هذا المشروع، ذلك أنه :

أولا — كان من معتنقي المذهب الفاطمي الذين أخلصوا في حب الفاطميين.

ثانيا — لان نجاح هذا العمل يؤول إلى أ يخلف الأفضل في مركزه.

وقد رأى الأمير أيضا أن يختار البطائحي جماعة من الرجال يقومون بذلك، على أ، يقتلوا عقب إتمامه ؛ كما رأى أن يظهر الخليفة ورجال بلاطه أشد مظاهر الحزن، ويسعوا للانتقام ممن اغتال الوزير ن وبذل لا يتهمهم أحد بأن لهم يدا في هذا العمل [(١)].

ولا بأس من أن نورد ما ذكره ابن ميسر في طريقة اغتيال الأفضل . وذلك أن الأفضل كان قد نفي أحد الباطية، واسمه البديع ؛ ولكنه وجد من ساعده حتى سمح له بالعودة لمصر، حيث التف حوله كثير من الأنصار. غير أنه اقترح نفيه مرة أخرى الى اليمن، حيث كان يسودها مذهب البديعية بزعامة الحرة بن الصليحي [(٢)]. وحدث أن تقدم عشرة من أتباع هذا المذهب، وعبروا عن رغبتهم في اللحاق بالبديع في سجنه ؛ و وسرعان ما انضم إليهم غيرهم من أمثالهم فيما رغبوه.

ولما وقع الامر للأفضل أمر بقتل عشرين من هذه الطائفة ؛ فأثار ذلك غضب الباقين، وصمموا على اغتياله انتقاما منه ز وفي ليوم السابق لعيد الفطر سنة ٥١٥ هـ (١١٢١ م)، حين كان الأفضل في طريقه الى قصره دار الملك مدينة مصر، اعترضه رجلان كانا مختفيين في حانوت ؛ فقبض عليهما بعض حراسه وقتلوهما على الأثر. وهناك كان خياط يتبع الوزير من القاهرة، فباغته وأمسكه من طوقه وطعنه بسكين عدة طعنات مميتة ؛ لكنه لم ينج ؛ فقد قبض عليه حرس الوزير [(٣)] وقتلوه. وقد نال البطائحي الذي

---

(١) ابن القلانسي (ص ٢٣٠ و ٢٠٤) .

(٢) ذكر ابن خلكان (ج ١ ص ٤٦٥ — ٤٦٧) أنه بعد مقتل الصليحي ٤٧٣ (١٠٨٠ م) ، زال الأعتراف بسلطان الفاطميين على بلاد العرب . وكانت الخطبة قد أقيمت فيها للخليفة الفامي المستنصر سنة ٤٥٥ هـ (١٠٦٣ م) .

(٣) ابن ميسر (ص ٥٧) .

نظم اغتيال الأفضل ما كانوا يرجوه ؛ فخلف ضحيته في الوزارة، كما كان ذلك معتادا في ذلك الحين.

٧- صلاة الجمعة

وفي الاحتفال بصلاة الجمعة ما يدلنا على العظمة التي كانت تحيط بالخلفاء الفاطميين، ويرينا الكرم الذي مكنهم من اجتذاب كثيرين من الأنصار اليهم. وقد سبق أن ذكرنا بالتفصيل موكب الخليفة [١] في الاحتفال بجبر الخليج.

وقد أمدنا القلقشندي والمقريزي وأبو المحاسن بوصف صلاة الجمعة، كما كان يقيمها الخلفاء الفاطميون ؛ ذلك أن هؤلاء الخلفاء كانوا يركبون في الجمع الثلاث الأخيرة من رمضان إلى جوامع الحاكم والأزهر وعمرو على التوالي لصلاة الجمعة.

وكان صاحب بيت المال في صباح كل من هذه الأيام الثلاثة يشرف بنفسه على تأثيث المسجد الذي يصلى فيه الخليفة الجمعة فيه ؛ فكانت توضع في المقصورة ثلاث طنافس دبيقية أو سامانية بيضاء – بعضها فوق بعض – وتوضع فوق الجميع الحصيرة التي يقال إنها كانت لجعفر الصادق وأحضرت إلى مصر سنة ٤٠٠ (١٠٠٩ م) في عهد الحاكم [٢]. وكان ينصب على جانبي المنبر ستران، يكتب على الأيمن البسملة والفاتحة وسورة الجمعة، وعلى الآخر البسملة والفاتحة وسورة المنافقين [٣].

وقبل وصول الخليفة بقليل، كان قاضي القضاة يقف وبيده مبخرة المنبر والقبة التي كان الخليفة يقف تحتها وقت القاء الخطبة. اما الخطبة فقد كان يضعها أحد كتاب البلاط في ديوان الإنشاء. وكان الخليفة يرتدي في هذا اليوم ثوبا من الحرير الأبيض، ويتعمم

---

[١] ذكر القلقشندي أن الخلفاء كانوا يركبون في مناسبات متعددة لكنهم عنوا عناية خاصة ببعض المواكب التي كانت تسمي بالمواكب العظام : وهى موكب أول العام ، وأول رمضان ، والجمع الثلاث الأخيرة من شهر رمضان ، وصلاة عيدي الفطر والأضحى ، وجبر الخليج (ج ٣ ص ٥٠٣ – ٥٢٠) . أما المواكب الاخرى فكانت تسمى المواكب المختصرة ، كما يقول للقلقشدي أيضا ، وكانت تحدث أربع أو خمس مرات في السنة عند ركوب الخلفاء لمناظرهم ؛ ويكون ذلك عادة في أيام السبت والثلاثاء (شرحه ج ٣ ص ٥٢١) .

[٢] أبو المحاسن ، مجلد ٣ (ج ١ رقم ١ ص ٣٣١ – ٣٣٢)

[٣] القلقشندي (ج ٣ ص ٥١١) .

بعمامة من الحرير الأبيض الرقيق، ويحمل قضيب الملك بيده، ويحف به عدد كبير من حرسه الخاص ومن الجنود الأخرى والأشراف [١] ؛ ويتبع هلاء جم غفير من الناس. وكان الخليفة يركب بين قرع الطبول ورنين الصنوج وقراءة القرآن بنغمات شجية حتى يصل الى قاعة الخطابة، وهى قاعة استقباله الخاصة، ويحرسها قائد القواد وكبير الأمناء ونخبة من حرس الخليفة ؛ ويظل في هذه القاعة حتى ينتهي الأذان.

وحينئذ يدخل قاضي القضاة ويقول : " السلام على أمير المؤمنين الشريف القاضي ورحمة الله وبركاته، الصلاة يرحمك الله ! " ؛ فيخرج الخليفة حوله الأستاذون المحنكون، ويتبعه وزيره وجماعة من حرسه مدججين بالسلاح، فينشرون بين قاعة الخطابة والمنبر. أما الخليفة فيسمر في سيره حتى يأخذ مكانه تحت قبة المنبر. ويقف الوزير على باب المنبر ووجهه للخليفة ؛ فاذا اومأ إليه، صعد فقبل يدي مولاه ورجليه [٢]وزر السترين عليه [٣] ؛ وبذلك يكون المنبر والقبة كالهودج ؛ ثم ينزل الوزير وينتظر على باب المنبر [٤].

وكانت الخطبة التي يلقيها الخليفة قصيرة، وتشتمل على آية من القرآن. وقد نقل

---

[١] ذكر أبو المحاسن أن الخليفة الآمر كان يحف الفيلة والأسود ن وهى مزين بفاخر الكسى ، وعليها الأسلحة اللامعة (مجلد ج ١ رقم ١ ص ٣٣٢) . وأضاف الى هذا أنه بالرغم من شغف الحاكم بان تكون مواكبة في غاية الابهة ، فقد رأى ان ينيب وزيره في صلاة الجمعة ، لأنه كان يرتج عليه في الخطبة ؛ إذ كان لا يجمع مزايا الخطيب (مجلد ٣ ج ١ رقم ١ ص ٣٣٠)

وكر ابن ميسر (ص ٤٤) أ، الخليفة المعز كان يحيط به موكب صلاة الجمعة جنده وأولاده الأربعة ، ممتطين الخيل ن وعليهم الخوذات والدروع ، وفيلان .

[٢] ذكر أبو المحاسن عن ابن عبد الظاهر ، ان الخليفة كان يستره وهو في قاعة الخطابة ستر من الحرير . وكان قاضي القضاة ، ويتبعه صاحب بيت المال حاملا مبخرة بيده ، يدخلان القاعة متي سمعا الأذان ؛ فيتقدم الأول ويحل الستر ، ثم يأخذ المبخرة من صاحب بيت المال فيبخر المكان . وبعد ذلك يغادران القاعة ، ويقبلان الدرج حال نزولهما (مجلد ٣ ج ١ رقم ١ ص ٣٣٢) .

[٣] ذكر المقريزي أن السبب في زر الستور ، ان الخلفاء الفاطميين لم يكونوا كسائر الخطباء يرتجلون خطبهم ، بل كانت تعد لهذا الغرض خاصة في ديوان الانشاء ، كما كان سبب كتابة آيات من القرآن بخيوط حريرية حمراء ظاهرة ، على سترين يوضمان على جانبي الخليفة (أحدهما على يمينه ليقرأ ما فيه في الركعة الأولى ، الآخر على يساره ليقرأ ما فيه كذلك في الركعة الثانية) ، هو حفظه من النسيان أو التعلثم حال إقامة الصلاة .

[٤] ذكر المقريزي (خطط ج ٢ ص ٢٨١) أنه إذا لم يكن الوزير صاحب السيف ، فان قاضي القضاة هو الذى يزر السترين

المقريزي المسبحى الذي حضر صلاة الجمعة في الازهر سن ٣٨٠ هـ (٩٩٠م)، وكان موقفه خلف الخليفة العزيز، ان هذا الخليفة ذكر بعد الآية نفسه وقومه بعبارة وموجزة، ثم قال : " رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت على وعلى والدى ن وأن أعمل صالحا ترضاه، وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين "[١]. دعا بعد ذلك لوالده وجده ولمحمد ﷺ، ولعلى رضى الله عنه، والخلفاء أسلافه. ودعا لنفسه أخيرا قائلا : " اللهم أن عبدك وابن عبدك ؛ لا أملك لنفسي خيرا ولا نفعا (ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسني السوء، إن أنا الا نذير وبشير لقوم يؤمنون ") [٢] .

وكان الخليفة يختم خطبته بالدعاء للوزير وبنصر الجيش وخذلان الكفار والمشركين. فاذا ما فرغ من خطبته قال : اذكروا الله يذكركم ز ثم يصعد الوزير فيحل السترين، و يظل هو وقاضى القضاة على الباب، وبقوم الأستاذون المحنكون وكبار الموظفين العسكريين والمدنيين بحراسة المقصورة.

بعد هذا يأخذ الخليفة في الصلاة ؛ فيبلغ الوزير عنه، ثم قاضى القضاة، ثم المؤذنون. فاذا ما انتهت الصلاة، يخلوا الجامع من الناس، ويخرج الخليفة يحيط به الوزير عن يمينه وقاضى القضاة وداعى الدعاة [٣]عن يساره، وحرسه، وحرسه الخاص ؛ ويعود بموكبه إلى مقره على الهيئة التي أتخذها في ذهابه إلى الجامع. .. وفي أيام الجمع الثلاث الأخيرة من رمضان، كانت تزدان الدور والجوانيت والأسواق التي يمر بها الخليفة في طريقه إلى الجامع – حيث يصلى الجمعة –كما كان يصطف كثير من الناس على جانبي الطريق [٤].

٨- الأعياد والولائم

(ا) الأعياد

كانت هناك عدا مواكب الخلفاء الملكية أيام السبت والثلاثاء، وأيام الجمع، ويومي

[١] سورة ٢٧ آلية ١٩

[٢] سورة ٧ آية ١٨٨

[٣] ذكر أبو المحاسن عن ابن عبد الظاهر أن داعى الدعاة كان يتبع قاضي القضاة هو داعى الدعاة .

[٤] القلقشندى (ج ٣ ص ٥٠٩ – ٥١٢) والمقريزي (وخطط ج ٢ ص ٢٨٠ – ٢٨١) .

عيد الفطر والاضحى، أيام دينية أخرى ذكرنا بعضها من قبل. وكان من اللازم، ليكون لهذه الاحتفالات أثرها العظيم في النفوس، أن تقام أسمطة في قصور متعددة، وأن توزع الأنعامات بمقادير وافية. وفيما يأتي بيان بأسماء الأعياد التي كان يحتفل بها الفاطميون. وسنشير إلى بعضها في كلامنا عن الأسمطة.

وهذه الأعياد هي :

١– رأس السنة ٢– أول العام ٣– يوم عاشوراء (وهو يوم مقتل الحسين) ٤– مولد النبي ﷺ (١٢ ربيع الأول) ٥– مولد على بن ابي طالب كرم الله وجهه ٦– مولد الحسن عليه السلام ٧– مولد الحسين عليه السلام ٨– مولد فاطمة عليها السلام ٩– مولد الخليفة الحاضر ١٠ ليلة أول رجب ١١– ليلة صف رجب ١٢– ليلة أول شعبان ١٣– ليلة نصف شعبان [١] ١٤– موسم ليلة رمضان ١٥– غرة رمضان ١٦ – جبر الخليج ١٧ – يوم النوروز [٢] ١٨ – يوم الغطاس ١٩ – يوم الميلاد ٢٠ – عيد

---

[١] كانت تسمى هذه الليالي الأربع الأخيرة ليالي الوقود .

[٢] كان النوروز من المواسم القديمة . اتخذه الفرس لإحياء العام الجديد ، وهو أول أيام السنة عندهم ؛ ويقع عند الاعتدال الربيعى ودخول الشمس في برج الحمل ، أة عند ابتداء فصل الربيع . ولقد سن ملوك خرسان سنة جديدة ، فاتخذوا هذا اليوم موسما يلبس فيه جنودهم ملابس الربيع والصيف ، وفيه يحتفلون بعيد النروز . وأول من اتخذ هذا اليوم – على ما ذكره البيروني (ص ٢٠٠ و ٢٠١) – وهو جم شيذ ، وهو –كما يقول الأستاذ يروان في كتابه " تاريخ الفرس الأدبي " (prf browene : literary histry of persis , vol . I , pp . 114 . 259 نقلا عن بعض المصادر العربية – سليمان بن داود (يظهر أن هذه الفكرة أتت للأستاذ براون عن بعض المؤرخين كمسكويه ج ٢ ص ٢٥ و ٢٤٨ و ٤٠٧ و ٤٩٩ والبيروني ص ١٦٦ و ٢٠٠ و ٢٠١ و ٢٥٨ والمقريزي خطط ج ١ ص ٤٩٤) . وقد أبطل المسلمون الاحتفال بهذا العيد في بلاد الفرس بعد الفتح الإسلامي ؛ غير أنه عاد في الصدر الأول من أيام العباسيين . ويقول البيروني (طبعة ساو sachau ص٣٧) أن أبطال نظام النوروز القديم أضر ضررا بليغا بالمزارعين ، لأن التقويم الجديد قدم يوم النوروز ، فكان يجيء والزرع أخضر ، في الوقت الذي يجب أن تدفع فيه الضرائب .

ويستطرد البيروني في الكلام حتى يذكر أن الملاك اجتمعوا في عهد هشام بن عبدالملك (١٠٥ – ١٢٥ هـ و ٧٢٤ – ٧٤٣ م) وشكوا الى عامله خالد بن عبدالله القسري ، وشرحوا له ما يجدونه من الصعاب ، وسألوه أن يؤخر النوروز شهرا ؛ فأبى وكتب الى هشام بذلك ، فأجاب : إني أخاف أن يكون هذا من قوله (إنما النسئ زيادة في الكفر) (سورة ٩ آية ٣٧) واستمرت الحال كذلك الى أن جاء هارون الرشيد ، فاجتمع الملاك ثانية وشكوا إلى يحى بن خالد البرمكي ، وسألوه أن يؤخر النوروز نحوا من شهرين . فهم يحى بإجابة طلبهم ، ولكن أعداءه أخذوا يرمونه بالتعصب للمجوسية ؛

النصر[1] ٢١ – خميس العهد [2].

(ب) الولائم

كانت الولائم في كثير من الأحيان مظهرا من مظاهر الاحتفال بالأعياد ؛ وكانت تقام في بعض المساجد، وفي القصر، وفي دار الوزير. ففي القصر كانت تقام في المكان المعروف بقاعة الذهب حيث يلتئم مجلس الملك. وكان الخليفة المعزز الفاطمي أول من سن تلك السنة ؛ واستمر ذلك إلى آخر أيام الفاطميين. وكانت الاسمطة لا تنقط من قاعة الذهب أثناء شهر رمضان وأيام العيدين.

وكاان السماط يمد من اليوم الرابع من شهر رمضان إلى السادس والعشرين منه وكان

فعدل عن ذلك ، واستمر الحال على ما كان عليه من قبل (البيروني : الآثار الباقية عن القرون الالية ، طبعة سخاو ص ٢٧) .

ولما جاء المتوكل العباسي (٢٣٢ – ٢٤٧ هـ و ٨٤٧ – ٨٦١ م) أمر بتأخير النوروز ، اذ تأثر من شكاية المزارعين حين جمعوا الخراج قبل نضوج الغلات (انظر ارشاد الأديب لياقوت : ج ٢ ص ١٢٨) . غير أنه لما مات المتوكل وولى المستنصر (٢٤٧ – ٢٤٨ هـ و ٨٦١ – ٨٦٢ م) أبطل ذلك ، وأمر بتأثير النوروز من جديد (وكان النوروز في عهده في ٢١ يونيه ، أي قبله في أيام المتوكل بستة عشر يوما) . انظر مسكويه (ج ٢ ص ٢٥ و ٢٤٨ و ٤٠٧ و ٤٠٧ حاشية ١) ، وابن عساكر (المكتبة الاهلية بباريس ، مخطوط ٥٩٨٦ ، ورقة ١٣٨ ا)

ويقول البيروني أن الشهور المتعضدية كانت تتفق مع الشهور الفارسية الت أولها " فروردين ماء " المقابل لشهر مارس . أما عن أصل النوروز فيقول البيروني ، أنه يرجع الى أن سليمان بن داود لما فقد خاتمه ذهب عنه ملكه ، ثم رد اليه بعد أربعين يوما ، فعاد اليه ملكه ، وأتته الملوك وعكفت عليه الطيور . فقالت الفرس " نوروز آمذ " ، فاعدل لا تحطمها " ؛ فعدل سليمان الريح فحملته ، ورآه خطاف فقال : " أيها الملك ! ان لي عشا فيه بيضات ، فاعدل لا تحطمها " ؛ فعدل سليمان , ولما نزل على الأرض ثانية ، فحمل الخطاف في منقاره ماء ، فرشه بين يدى الملك ، وأهداه رجل جرادة ؛ فذلك أصل رش الماء والهدايا في النوروز (البيروني ص ١٩٩) .

[1] كان للاحتفال بهذا العيد ١٦ المحرم علاقة بالخليفة الحافظ ، اذ هو اليوم الذي أطلق فيه سراحه . وذلك أن أبا على أحمد بن الأفضل بن أمير الجيوش بدر الجمالي كان –كما تقدم – قد حبس هذا الخليفة وجعله في عزله عن الناس منذ شهر ذي القعدة سنة ٥٢٤ هـ ١١٣٠ م . (ابن ميسر ص ٧٤ و ٧٥) .

[2] خميس العهد هو الخميس الذي كان يحتفل فيه النصارى بانجيلهم ؛ وذلك قبل الفصح بثلاثة أيام وهو أحد الأعياد التي بقيت في عهد الفاطميين مشاركة النصارى في شعورهم الديني . وكنا الاحتفال بهذا العيد يمتاز بالهدايا التي ينالها كبار الموظفين وغيرهم من الرجال المشهورين . ولفظ " عهد "استبدلت خطأ بلفظ عدس ، واستمر ذلك الى اليوم (المقريزي ، خطط ج ١ ص ٩٥) .

يدعى إلى هذه الولائم قاضى القضاة (وذلك يوم الخميس عادة) والامراء وغيرهم من رجالات الدولة كل بدوره ؛ وكان الوزير وابنه — أو أخوه — وكبير الأمناء يمثلون الخليفة. اما مقادير الأطعمة فكانت من الوفرة بحيث تكفي ليأخذ كثير من الناس ما يريدون. وبلغت النقود التي كانت مخصصة لهذه الولائم في ثلاثة وعشرين يوما ٣.٠٠٠ دينار ؛ فيكون متوسط اليوم الواحد ١٣٠ دينار.

٩- سماط العيدين

(ا) عيد الفطر

لم تكن العناية التي كان يوجهها الفاطميون لأسمطة العيدين بأقل منها في الأسمطة الاخرى. وقد كان يقام يوم عيد الفطر سماطان : أحدهما بعد صلاة الفجر، والثاني بعد صلاة العيد ؛ وهذا يجلس عليه الخليفة. وان طوول السماط الأول الذي كان يمد في الأيوان (بقاعة الذهب) ٤٠٠ ذراع (نحو ١٧٥ مترا) وعرضه سبعة أذرع (نحو ٤ أمتار).

أما هذا السماط فكان فيه صحاف ملأى بالفطائر والحلوى. وكان يدعى الناس من كل الطبقات اليه ؛ فيأخذ كل ما يجب، اذا كانت الأطعمة من الوفرة بحيث كان ما يتبقى من الأطعمة يأخذه العامة الذين كان يسمح لهم بحمله وبيعه. وكان الخليفة يجلس في احدى النوافذ ليمتع نفسه بهذا المنظر الذي كان مظهرا من مظاهر جوده وكرمه، كما كان القصد منه أن يملك قلوب الناس. وفي السماط الذى كان يمد بقاعة الذهب دليل آر على رغبة الخلفاء الفاطميين في استرضاء العامة. غير أن اعمال الكرمهذه خفضت من بيت المال كثيرا. ولكن من كان يجسر على مقاومة رغبات الخلفاء ووزرائهم الذين كانوا يرون أن لهذه الاعمال أثرا هاما في تقوية مركز الفاطميين، كما أنها كانت تريد من إجلالهم وحب الشعب لهم ؟

وكان يقام بجانب سرير الملك بقاعة الذهب ديسق مربع [١] يجلس عليه الخليفة، وقد وضعت عليه الصحاف الذهبية والصينية . اما السماط العام فكان من شب مدهون ؛

---

[١] الديسق الخوان من الفضة .

وعرضه عشرة أذرع، وطواه طول القاعة ز وكن يزين بالأزهار ذات الرائحة والألوان المتلفة ؛ ويوضع في طرفي السماط كلتان كبيرتان من الحلوى، كل منها على هيئة القصر تزن عشرة قنطارا محلاة بطبقة من الذهب، وقد مثل فيها بالنتوءات صور الانسان وغيره من الحيوانات المختلفة [١] ز

وقد وصف القلقشندى هذا السماط وصفا شيقا، وأمدنا ببيان عما كان يستعمل فيه من الاواني. فقد كان يوضع عليه احدى وعشرون جفنة، في كل منها واحد وعشرون خروفا، وثلمثمائة ومسون من الطير ما بين دجاج وحمام ؛ فكان يوضع فيما بين هذه الجفان صحاف في كل منها سبع دجاجات. وكانت هذه الصحاف والجفان تحاط بأنواع مختلفة من الفطائر [٢]والحلوى.

ومن هذا البيان نعلم أنه كان يقدم في هذ ا السماط ٤١٣ خروفا،وكذا ١٠.٨٥٠[٣] ما بين دجاج وحمام، ومقدار كبير من الحلوى والخبز ونحو ذلك. هذا، وان الناظر لأول وهلة ليال أن ما أتى به القلقشندي من قبيل الاساطير ؛ وغير أنا نقول أن ذلك لا يبعد تصديقه، اذا علمنا أنه كان مخصصا لأسمطة العيدين الثلاثة ٤.٠٠٠ دينار [٤] . وكان يدعى لهذا السماط الوزير الذي ككان يجلس عن يسار الليفة، ويرتدى حلة خاصة للأكل ؛ كما كان يدعى اليه أيضا الامراء وكبار الرجال. غير أنه لا يحتمل أن يأكل هؤلاء كل هذا الطعام. لذلك يقول القلقشندى إن ما تبقي من هذه المقادير من الأطعمة كان يرسل بعضها إلى دور أصحاب الرسوم، وسائرها يأكله غيرهم ممن كان يسمح لهم بحضور السماط بعد فراغ كبار المدعوين [٥].

ولم يكن هذا كل ما كان يقدم من الأطعمة في العيدين. فقد كان يصحب ذلك سماط

---

[١] القلقشندى (ج ٣ ص ٥٢٧ و ٥٢٨) .

[٢] شرحه (ج ٣ ص ٥٢٨) .

[٣] ذكر أبو المحاسن في بيان آخر أن ما كان يستهلك في هذا السماط ٢٦.٥٥٠ ما بين دجاج وحمام ، عدا ٤٤١ روفا محمرا (طبعة جوينبول **juynboll** ج ٢ ص ٤٧٧) .

[٤] القلقشندي (ج ٣ ص ٥٢٨) .

[٥] القلقشندي (ج ٣ ص ٥١٤) .

آخر يمد في دار الوزير، يدعى أليه كثير من رجالات الدولة، ثم يمنح ما يزيد عن حاجتهم من الأطعمة للعامة [١].

(ب) عيد الأضحى

كان الخليفة بعد أن يفرغ من صلاة العيد يركب إلى المذبح، حيث يكون الوزير وقاضي القضاة والاستاذون وغيرهم في انتظار وصوله ز حتى اذا ما وصل ذبح بيده ٣١ كان بين الأبعرة والنوق. وفي اليوم الثاني كان يركب للمذبح أيضا ويذبح بيده ٢٧ رأسا، كما كان يذبح في اليوم الثالث ٢٣ [٢].

وقد وصف لنا القلقشندي ما كان يصنع بلحم أول ذبيحة، فقال أن لحمها كان يحمر ويقدد، وتعمل منه شرائح ترسل إلى والى المدين، فيوزعها على من هناك من الشيعة. أما لحوم سائر الضحايا، فكان يفرق بعضها على أرباب الرسوم ن ويوزعه قاضي القضاة على طلبة دار العلم وغيرهم ممن كانوا يأوون الى مساجد القاهرة [٣].

١٠ – الأسمطة الأخرى

وكان الاحتفال بالأعياد المختلفة يستلزم إعداد الولائم وتوزيع المآكل والحلوى، والهبات والعطايا والاحسانات، وغيرها مما جرى توزيعه عادة.

---

[١] المقريزي خطط (ج ١ ص ٣٨٨) .

[٢] من هذا نرى أن ما كان يذبحه الليفة هو ٨١ رأسا . وقد ذكر المقريزي في كتابه " المقفى " (مكتبة الجامعة بليدن ، مخطوط ١٣٦٦ ، المجلد الثاني ، ورقة ٢٠٦ ب) أن ما ذبح في عيد سنة ٥١٦ هـ (١١٢٢ م) كان ٢٥٦١ رأسا ، منها ١١٧ ناقة و ٢٤ بقرة و ٢٠ جاموسة و ٢٤٠٠ كبش . غير أنه لم يبين لنا عدد الحيوانات التي كان ينحرها الليفة بيده . ومن المحتمل أن يكون قد سقط من عبارة المقريزي لفظ " عدا " ، وبها تكون العبارة " عدا ما ينحره الخليفة ويذبحه بيده " . واذا جرينا على هذا الزعم ، كان ما يذبحه الخليفة بيده يتراوح بين ثمانين وتسعين رأسا ؛ اذ من المستحيل أن يذبح بيده عددا كبير يبلغ ٢٥٦١ رأسا . ومما يجدر ملاحظته أن العدد الذي ذكره المقريزي وهو ٢٥٦١ ، كان يذبح في عيد الأضحى وعيد الغدير (غدير خم) معا . والى القارئ نص عبارة المقريزي : " وعدة ما ذبح سنة ست وعشرة وخمسمائة في ثلاثة أيام عيد النحر وعيد الغدير ألفان وخمسمائة وواحد وستون رأسا ، منها مائة وسبعة وعشرون من النوق ، وأربعة وعشرون بقرة ، وعشرون جاموسة . وهذا (عدا) ما ينحره الخليفة ويذبحه بيده في مضحى العيد في المنحر . ومن الكباش ألفان وأربعمائة " .

[٣] القلقشندي (ج ٣ ص ٥١٥ و ٥١٦) .

فقد كان يصنع في عيد مولد النبي ﷺ عشرون قنطارا من الحلوى، توضع على ثلثمائة خوان (صينية)، وتوزع في الأزهر [(١)]. وفي الاحتفال بجبر الخليج كان يقام سماط عظيم في سرادق رحب على شاطئ النيل، على مقربة من المنظرة المعروفة بمنظرة السكرة الت كان يجلس فيها الخليفة. وكان يأمل على هذا السماط من يدعوهم الليفة ومن يتبعهم وعدد كبير ممن كانوا يسيرون وراء الموكب [(٢)].

وهكذا كانت مظاهر أوائل الخلفاء الفاطميين الذين كان لهم ولع خاص بالانفاق في هذا السبيل. وقد نهج خلفؤهم نهجهم وزادوا عليهم في البذخ حتى انتهى حكمهم ؛ وكان القصد من ذلك العمل على نجاح أعمالهم السياسية والدينية. وان في اشتراك جماعات كبيرة في الاحتفال بتلك الأعياد، وفي الابهة والعظمة التي كانت تنطق عن نفسها في مواكبهم الملكية وولائمهم الفخمة، وهباتهم الوفيرة من الملابس والنقود والطعام التي ينال منها كل الاهلين تقريبا، والجماعات الغفير التي كانت تجتمع تحت النظرة وتترقب التيمن بوجه الخليفة المقدس – إن في هذا كله لدليلا محسوسا على مبلغ نجاحهم في سياستهم.

غير أن ذلك النجاح وما يستلزمه صار عبئا ثقيلا على توالى الأيام، حتى أدى الى سرعة في انحلال خلافتهم وسقوطها ؛ وذلك ما سنبينه في الباب التالي. أما تأثير تلك السياسة فقد كان ظاهريا لم ينفذ إلى قلوب الناس، بدليل أنهم لما زالت الدولة الفاطمية ن لم يلبثوا أن رجعوا إلى مذهبهم السنة القديم.

---

(١) القلقشندي (ج ٣ ص ٥٠٢ و ٥٠٣) .

(٢) شرحه (ج ٣ ص ٥٢٠) .

الباب التاسع

سقوط الفاطميين واسبابه

لما ترك الفاطميون حياتهم الفطرية التي كانت شعارهم في أيامهم الأولى عندما كانوا يحكمون البربر في القيروان، وانغمسوا في الترف فسكنوا القصور الجميلة بالقاهرة وتمتعوا بكل أنواع الملذات في الحياة، وكلوا أمور الناس وشئون الدول الى خدامهم كما فعل قبلهم العباسيون مع مواليهم. فكان من جراء ذلك أن استأثر الوزراء بمناصب الخلفاء شيئا فشئيا، حتى كانوا يلقبون بلقب " ملك "، بينما كان سادتهم متروين في بيوتهم وقد أصبحوا ألعوبة في يدهم، كما أصبح خلفاء العباسيين مثلهم في بغداد.

ومع أن سلطة الخليفة المستنصر ٤٢٧ – ٤٨٧ هـ (١٠٣٥ – ١٠٩٤ م) أمتدت (في الشطر الأول من عهده) حتى شملت إفريقية والشام، لما قدم به دعاته الجريئون في الإمبراطورية الإسلامية، حتى كان أسمه يذاع في خطبة الجمعة في الجوامع بين المحيط الأطلسي والبحر الأحمر، وفي اليمن والحجاز والموصل، بل وفي حاضرة العباسيين نحوا من سنة – مع هذا كله، فان قوة الفاطميين كانت قد أخذت في الانحلال، واخذ نجم الخلافة الفاطمية في الأفول.

ففي سنة ٤٤٣ هـ رفض أهالي شمال إفريقية عائد المذهب الشيعي رفضا نهائيا [١]، ولتلا ذلك عدم الاعتراف بالخلافة الفاطمية في بلاد العرب لما توفي الصليحي ٤٧٣ [٢].

ولقد تولى الوزارة بعد وفاة الوزير اليازورى سنة ٤٥٠ هـ (١٠٥٨ م) أربعون وزيرا في مدة تسع سنوات، مما جعل الحروب العنصرية بين الجنود المرتزقة من الاتراك

---

[١] ابن ميسر (ص ٦) .

[٢] ذكر بن خلكان (ج ١ ص ٤٦٥ و ٤٦٦) أن الخطبة أقيمت هناك باسم الخليفة المستنصر سنة ٤٥٥ هـ (١٠٦٣م) ومن أراد الأستزادة ، فليرجع الى ابن خلكان (ج ١ ص ٤٦٥ – ٤٦٧) .

والسودانيين أكثر خطر وشدة في بعض الأحيان تحت هذا الحكم الضعيف، وإن كان تقلد بدر الجمالي للوزارة قد وضع حدا ولو الى حين، لهذا الاستبداد العسكري.

وتدلنا المباحث التاريخية على أن السبب الحقيقي في سقوط الدولة الفاطمية إنما يرجع الى الحروب الصليبية. وسنبين الآن أنه بالرغم من انحلا قوة الفاطميين في الشطر الثاني من حكمهم، فان الحروب الصليبية قد عجلت بزوال دولتهم العظيمة التي سيطرت ردحا من الزمن على جميع الولايات الغربية للدولة العباسية الشاسعة الارجاء. والكلام في هذا الموضوع مبسوط في كتب كثيرة. فقد أمدنا بكثير من المراجع بعض الكتاب الذين عاشوا في أواخر أيام الفاطميين، أمثال عمارة اليمني (+ ٥٦٩ هـ و ١١٧٤ م) وأسامة بن منقذ (+ ٥٨٤ هـ و١١٨٨ م) اللذين شهدا ما كان يجري في مصر في هذا العصر، كما اشتركا في أمور البلاد السياسية والحربية.

وبالرغم مما عسي أن تتهم به رواية هذين الكاتبين في هذا الموضوع لما كانا يتمتعان به من تعضيد الوزراء في مصر، فإننا نميل بناء على ما أهدتنا إليه مباحثنا، الى صدق روايتهما في وصف هذه البلاد قبل زوال الخلافة الفاطمية بقيلي.

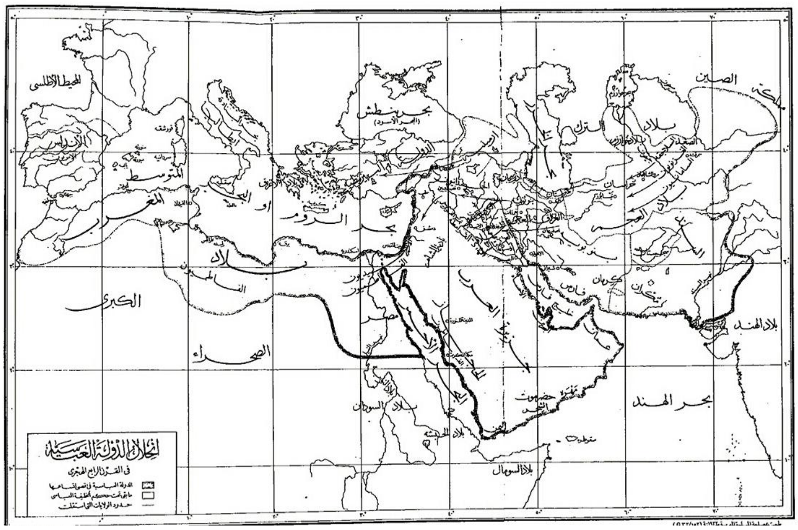
وهناك كتاب آخرون أمثال وليم الصورى **William of tyre**(نسبة الى صور) المتوفي سنة ٥٨١ هـ (١١٨٥ م)، وأبي صالح الأرمني المتوفي سنة ٦٠٥ – ٦ (١٢٠٨ م)، وابن الاثير المتوفي سنة ٦٣٠ هـ (١٢٣٣ م)،وابن شداد المتوفي سنة ٦٣٢ هـ (١٢٣٤ م)، وأبي شامة المتوفي سنة ٦٦٥ هـ (١٢٦٦ م)، وابن ميسر المتوفي سنة ٦٧٧ هـ (١٢٧٨ م)، وابن خلكان المتوفي سنة ٦٨١ هـ (١٢٨٢ م) – وكلهم من أعلام التاري يؤيدون الرواية السابقة.

١- حالة مصر منذ عزل رضوان

الى مقتل ابن السلار

لقد أدى انتشار حكومة الأشراف (الحكومة البيروقراطية) في ذلك العصر الى تأليف مؤامرات سرية وأحزاب سياسية، ومهد السبيل لسقوط الدولة الفاطمية التي مزقها

الانقسام ن فوقعت في أيدى المغيرين عليها.



ويقول ستانلي لين بول : " إن أول تدخل لنور الدين في شئون مصر بقوة السيف مان من سعى وزير مخلوع " (١) ز غير أن بداءة تدخل نور الدين في أمور مصر يرجع عهده إلى أيام الوزير ابن السلار (رمضان سنة **٥٤٤** – محرم سنة **٥٤٨** هـ و **١١٥٠** – **١١٥٣** م). وكان النزاع المتواصل بين الوزراء المتنافسين والحزبية في الجيش، سببا في وقوع القلاقل من قبل ذلك في أيام الوزير بهرام الأرمني المسيحي، الذي كان تعيينه لكثير من بني جلدته في مناصب الدولة سببا في إثارة كراهة الناس له، حتى انتهى الامر بعزله وعزل ألفين من الأرمن الذين كانوا يستظلون بحمايته ؛ وقد قضى بقية الناس له، حتى أنتهى الامر بعزله وعزل ألفين من الأرمن الذين كانوا يستظلون بحمايته ؛ وقد قضى بقية أيام حياته راهبا (٢).

وقد خلف بهرام في الوزارة رضوان بن الوبخشي ؛ وكان شاعرا وجنديا مقداما ؛ تلقب لأول مرة في العهد الفاطمي بلقب " ملك "، وصار ذلك من ألقاب الوزراء الفاطميين

---

(١) **Saladin and the fall of the kingdom of Jerusalem , p80**

(٢) أبو صالح (ص ٨٤) .

الذين أتوا بعده. غير أن رضوان لم يلبث أن عزل من الوزارة ؛ ففر إلى الشام، وهناك طلب إلى زنكي أتابك الموصل مساعدته.

كان رضوان ينوى غزو مصر ؛ ولم يثنه عن ذلك الا أسامة بن منقذ الذي أوفد إليه من القاهرة واسترضاه بثلاثين ألف دينار ؛ فعدل عن ذلك [1]، وجاء إلى القاهرة بعد أن أمنه الخليفة الحافظ على حياته. ولكن ذلك الخليفة لم يف بعهده ؛ فقد حبسه عشر سنوات تمكن في آخرها من الفرار ؛ ثم جمع له أنصار كثيرين واستقر في الجامع الاقمر أمام القصر. غير أن جنود الخليفة السودانية هزموا أنصاره، وشتتوا شملهم ثم ظفروا به فقطعت رأسه كما قطع جسمه إربا، والتهمه الجند اعتقادا منهم أنهم بذلك يماثلونه في بأسه وشجاعته [2].

وبعد يومين من مقتل رضوان توفي الخليفة الحافظ ؛ فنشب النزاع العنيف بين الجند السوداني والجند التركي، وولى ابنه الظافر – وسنه ست عشرة سن – الخلافة من بعده ؛ وقد عادت المنازعات بين الوزراء المتنافسين في هذا العهد سيرتها الأولى.

وقد ابتدأ هذا الشاب الارعن حكمه بطرد الوزير ابن السلار – الذي كان يلقب بالملك العادل – وجعل في الوزارة نجم الدين بن مصال الذي كان مكروها من الاهلين ز أما ابن السلار، فسرعان ما جمع فرقة من أعوانه المسلمين وسار بهم إلى الجيزة في الرابع عشر من رمضان سنة ٥٤٤ هـ (١١٥٠ م). وفى اليوم التالي تمكن من الحلول محل منافسه في الوزارة – وكان ذلك أمرا مألوفا في ذلك الحين – وقد فر عندما رأى تقدم ابن السلار، ولم يكن قد مضى علي في الوزارة أكثر من خمسين يوما [3] و

وقد التجأ ابن مصال بعد هزيمته إلى كورة الحوف. وهناك تمكن بما جمعه من أموال الخليفة من حشد قوة كبيرة حوله ؛ ثم استقر في الوجه القبلي، فتبعه العباس ربيب ابن

---

[1] أسامة بن منقذ (ص ٢٢ و ٢٣) .

[2] شرحه (ص ٢٤)

[3] ذكر ذلك أسامة بن منقذ (ص ٦) . أما الذهبي (مكتبة بودليان بأكسفورد ، مخطوطات (loud) القسم الشرقي رقم ٣٠٤ ن ورقة ١٠٥ ا) وأبو الفدا ، (ج ٣ ص ٢٣) قد ذكرا أنه لم يمكث في الوزارة الا أربعين يوما .

السلار. وفي مدين دلاص – الواقعة جنوب الواسطى في الوجه القبلي – التقى الجندان ؛ فدارت الدائرة على ابن مصار، وتفرق جنده أيدي سبا ؛ أما هو فقد قتل وحمل رأسه الى القاهرة. وبهذا استراح ابن السلار ممن ينافسه، واعترف الخليفة له بالوزارة مرغما ؛ لكنه ما برح يعمل على الكيد له لطرده من الوزارة (١).

وقد وصف لنا أسامة أحدى المكائد التي كادها له الخليفة الظافر. من ذلك ان جماعة من حرس الخليفة اختبأوا في دار تجاور دار الوزير، وظلوا حتى انصرف أنصار الوزير في منتصف الليل. غير أن ابن السلار علم بذلك، وكان معه في داره أسامة بن منقذ ؛ ولذلك فشلت المؤامرة وتشتت جمع المتآمرين (٢).

أما ابن السلار فقد ارسل أسامة بن منقذ – وهو مرجعنا في هذا الموضوع – في بعثة الى الشام ليطلب من نور الدين العون في غزو مدينة طبرية، فيمنع بذلك غزو الصليبين مصر ؛ وفي تلك الأثناء يسير الوزير بنفسه إلى غزة وعسقلان (٣)

وقد كان معنى هذا الرجاء طبعا هو تدخل نور الدين في شئون مصر، أو على الأقل إفهامه أن مصر لم تعد قادرة على أن تقف وحدها في وجه الصليبيين ؛ وذلك ما أتاح أخيرا الفرصة لنور الدين لغزو هذه البلاد.

ثم سافر أسامة إلى الشام وتقابل مع أسد الدين شيريكوه في بصرى (٤)، ومنها صحبه إلى دمشق. أ/ا نور الدين فقد أبي أمتشاق الحسام لمحاربة الصليبيين ن فقد كانوا هم وأهل دمشق أعداءه على السوء، ورأى أنه يغرر بنفسه إذا دخل في حرب مع أحد الفريقين.

ومع هذا فقد أباح لأسامة أن يجند تحت لوائه أكثر ما يمكن تجنيده من المتطوعين. وقد انضم إليه ثلاثون من حرس نور الدين وأمير من الاكراد ليشترك نور الدي في ذلك

---

(١) أسامة بن منقذ (ص ٥ و ٦)

(٢) (شرحه ص ٦) .

(٣) شرحه ص ٧ .

(٤) يسمى بهذا الأسم موضعان : أحدهما ببلاد الشام ، وهى حاضرة إقليم حوران ، والآخر قرية من أرباض بغداد (أنظر هذا اللفظ في معجم البلدان لياقوت) .

اشتراكا فعليا، فينسب إليه ما قد يحوزه جند أسامة بن نصر. وقد حاصر أسامة عسقلان نحوا من أربعة أشهر بجند كبير من الغز المرتزقة. غير أن قواته اندحرت لعدم ثباتها امام العدو من جهة، ولإهمال قائده تنفيذ أوامره من جهة أخرى –كما يقول أسامة نفسه.

وسار أسامة بعد ذلك إلى الجنوب، ثم جاءته أوامر الوزير ابن السلار فعاد إلى القاهرة من غير أن ينال أي نجاح حربي [1]. ومع ذلك فقد كان لطلب أسامة المساعدة من نور الدين نتيجتان :

الأولى – ظهور مصر بمظهر الضعف وعدم قدرتها على صد هجمات الصليبيين ؛ ومن هنا طمع نور الدين في الاغارة عليها. غير أن عدم اخلاص السوريين له حملة على تأجيل ذلك حتى تتوطد أقدامه في سورية ويقوى أمره.

الثانية – أن الصليبيين أصبحوا على علم تام بحال البلاد المصرية.

لهذا كله وقف المتنافسان (نور الدين والصليبيون) بعضهما لبعض بالمرصاد، وأخذ كل فريق يراقب حركات الفريق الآخر.

أما عن أحوال مصر الداخلية، فقد كان ابن السلار الذي تلقب بالملك العادل سيف الدين (ذلك اللقب الذي يدل على أنضوائه تحت لواء المذهب الفاطمي) سنيا مغاليا. وربما كان ذلك سببا في تدمير الخليفة المكائد له حتى يخلص شره. غير أن ما كان لابن السلار من أنصار كثيرين قد أذن بزوال سلطة الفاطميين الدينية. يضاف إلى هذا أن النزاع الذي كان بين ابن السلار وهو كما علمنا من غلاة السنيين، وبين أبن مصال المغربي الأصل ومن أهالي لك (قوية قريبة من برقة) كان في الحقيقة نزاعا بين السنيين والشيعيين. وقد كان ابن السلار يطمع في مساعدة نور الدين، ذلك الرجل السنى المتعصب لمذهبه، لنشر مذهب أهل السنة في مصر بدل مذهب الشيعة، كما دلتنا على ذلك مباثتنا المستفيضة في حياة ابن السلار واليا ووزيرا.

وكان ابن السلار –كما يقول ابن خلكان – من أصل كردي، ومن قبيلة الزرزري

---

[1] أسامة بن منقذ (ص ٧ – ١٣)

(1). نشأ في قصر القاهرة وشغل مناصب مختلفة في الوجه القبلي، وتدرج فيها حتى ولى الوزارة في عهد الخليفة الظافر في رجب سنة ٥٤٣ هـ (نوفمبر – ديسمبر سنة ١١٤٨ م).

وقد أظهر ابن السلار أخيرا اعتناقه للمذهب السنى، وصار شافعى المذهب (وهو المذهب الذي كان يتبعه أيضا أسد الدين شيريكوه وصلاح الدين). ولما ولى الإسكندرية بعد وصول الحافظ السلفي الفقيه الشافعي في ذي القعدة سنة ٥١١ هـ (مارس سنة ١١٨ م) عامله بكل تجلة وإكرام، وأنشأ في سنة ٥٤٦ هـ (١١٥١ م) مدرسة للشافعية أسند إليه إدارتها (٢)

. وبهذا هيأ ابن السلار السبيل للرجوع المذهب السنى الى مصر.

وقد أعتمد الخليفة الظافر في الكيد لابن السلار واغتياله على نصر بن عباس (٣)،

---

(١) انظر quatremere : " natioes sur les curdes , " in natioes et fxtraits , " vol . xiii , p . 315

(٢) ابن خلكان (ج ١ ص ٣٧ و ٤٦٧ و ٤٦٨) .

(٣) في سنة ٥٠٣ هـ (١١٠٩ – ١١١٠ م) وصلت الى مصر بلارة زوجة أبي الفتوح بن يحيى بن تميم بن المعز بن بديس مع ولدها أبي الفضل عباس بن أبي الفتوح ، وكان طفلا إذ ذاك . وقد تزوجت بلارة ابن السلار ن وأقامت معه ردحا من الزمن . وتزوج عباس ، وولد ل ولدا أسماه نصرا ، فتربي في كنف جدته في دار ابن السلار الذي حاطه برعايته وعطفه العظيم . ولما شب عباس أنقذه ابن السلار إلى الشام ليشترك في حرب الصليبيين ، فصحبه أسامة بن منقذ . ولما وصل إلى بلبيس ليتولى قيادة الجند ، أظهر لأسامه تالمه من مغادرة مصر الجميلة ذات المناخ البديع التي تركها لا لشيء إلا لمقابلة الأعداء ، كما أظهر له تألمه أيضا من عبء الحياة العسكرية .

ويقال إن أسامة أراه حينئذ أنه في مكنته أن يتجنب كل هذا بقتل أبن السلار ، وتقلده الوزارة بدله وقد اتفق بعد ذلك أسامة وعباس فيما بينها على أن يقوم نصر بتنفيذ ذلك المشروع الشائن ؛ وتمكن نصر من قتل ابن السلار وهو نائم في سريره في ٦ محرم سنة ٥٤٨ هـ (ابريل سنة ١١٥٣ م) – جاء في ابن خلكان (ج ١ ص ٤٦٨) والمقريزي (خطط ج ٢ ص ٤٤٧) أن جدة نصر بلاوة (بالواو) انظر أيضا ابن ميسر (ص ٩٢)

ذكر أسامه (ص ١٣) أن نصرا عاد إلى القاهرة بعد أيام قليلة من سفره إلى بلبيس مع واده عباس بدون أذن الوزير ابن السلار ، الذي أمره بالرجوع ثانيا إلى الجيش والاشتراك في الغزاة .

وكان الوزير يعتقد أن نصرا انما عاد الى القاهرة سعيا وراء أهوائه ؛ لكن الحقيقة أنه أرسل باتفاق أبيه لاغتيال الوزير ، فكان له ما أراد بفضل ما لقيه من تعضيد الخليفة . وقد دخل عباس القاهرة غداة مقتل الوزير وتقلده الوزارة ، وخلع عليه الخليفة (شرحه ص ١٣ و ١٤) .

وهو شاب في سن الخليفة ومن أخص خواصه، وكان من أمره أخيرا أن قتل الخليفة والوزير معا.

٢- مقتل الخليفة الظافر

لقد صدق لين بول في قوله " أن مقتل ابن السلار بيد حفيد زوجته نصر، وما تبعه من مقتل أسامة بن منق، ذلك الرجل العظيم الذي اعتاد الصيد مع رجال الخليفة، وكان صديقا حميما و وضيفا لابن السلار. وكان مع هذا من الذين دبروا أمر اغتياله.

وقد وضع الخليفة الذي تملكه الفرح لمقتل ابن السلار، رأس القتيل في بيت المال، ونفح قاتله بعشرين صحفة فيها ٢٠.٠٠٠ ديار، وحرضه على قتل أبيه بعد ذلك. ولكن عباسا استشعر الخطر فأعد العدة ليسم أبنه. وقد كان لتدخل أسامة بين نصر وابيه أثر في اصلاح ما بينهما، اذ وعد نصر بأن يقتل الخليفة إذا زاره في داره.

وفي اليوم التالي بينما كان أسامة جالسا في الدهلز إذ سمع صليل السيوف. ذلك أن صديقه عباسا ذهب الى القصر يصحبه ألف سياف من أتباعه متظاهرين بالاستفسار عن الخليفة. ولما علم عباس بقتله، أخذ في قتل أخوه الخليفة واتهمهم بان لهم يدا في الجريمة[1].

أثار قتل الخليفة أهالي القاهرة ؛ فنشبت المعارك في طرقات المدينة وأخذ النسوة والأطفال يرجمون أتباع الوزير بالحجارة من نوافذ دورهم. ولم يلبث هؤلاء الاعوان أن اعتزلوا. لوم يكن لعباس طاقة بمقاومة سخط الاهلين وثورة انتقامهم، ففر هو وابنه الى سورية[2]. غير أه لقى حتفه بغتة في طريقه على يد جماعة من الفرنجة أرسلتهم أخت الخليفة الظافر في أثره (ربيع الأول سنة ٥٤٩ و ١١٥٤ م). أما نصر أبنه فقد باعه الفرنجة في عسقلان، وارسل إلى القاهرة (ربيع الأول سنة ٥٥٠) فق قفص من حديد. فعذبه نساء البلاط وطيف به في المدينة بعد أن جدع أنفه وصلمت أذناه، وصلب حيا

---

[1] أسامه بن منقذ (ص ١٦ – ١٨)

[2] من أراد التفصيل فلينظر أسامة بن منقذ (ص ١٩ وما يتبعها) .

على باب زويلة، وترك معلقا هناك شهورا كثيرة [١].؛ ثم أخرقت جثته في العاشر من المحرم ٥٥١ (١١٥٦ م) [٢]

ترك الخليفة المقتول طفلا في الرابعة من عمره ؛ فدعى له بالخلافة وتلقب بالفائز سنة ٥٤٩ هـ. وكاد هذا الطفل يموت روعا يوم استخلافه. وقد قص نشاء القصر شعورهن لما راعهم من قتل الخليفة حدادا عليه، ثم أرسلوها إلى الأمير طلائع بن رزيك والى الأشمونين، " وذلك أقصى ما يمكن في التوسل عند المرأة المسلمة "، [٣] وتضرعن اليه ان يجيء لتخليصهن.

ولما وصل هذا التوسل الى رزيك سار الى القاهرة. ولما قاربها جعل الشعور في رأس رمحه واستولى على دار المأمون (قصر عباس [٤].

وقد دفن جثمان الخليفة المقتول مع آبائه في وسط مظاهر الحداد العام ؛ وأخذ الوزير ابن رزيك في إرجاع الامن الى نصابه ومعاقبة الجناة، وقتل القواد المناوئين الذين حل الدمار في أيامهم بالقاهرة سنين كثيرة، وأعاد عصر سيادة القانون [٥].

وكان ابن رزيك – الذى تلقب بالملك الصالح – قوى الشكيمة ؛ فكان هو الرجل الذي تحتاج اليه مصر في ذلك الحين. أما تلك المأساة فقد أفقدت الفاطميين عسقلان آخر ممتلكاتهم في فلسطين، التي استولى الصليبيون عليه وقد دب التنافس بين الأحزاب في مصر، إذ تركت من غير حامية على أثر مقتل ابن السلار . وبذلك سقط في أيدى الصليبيين آخر حصن للفاطميين في هذه الولاية سنة ٥٤٩ هـ (١١٥٣ م) [٦].

---

[١] أسامة بن منقذ (ص ١٩ ، ٢٠)

[٢] ابن خلكان (ج ١ ص ٥٠٠) .

[٣] (lane poole : history of Egypt in the middle ages , p . 123).

[٤] هذا القصر بناه الوزير المأمون ، وتحول فيما بعد على يد صلاح الدين الى مدرسة للأحناف ، وتعرف بالمدرسة السيوفية .

[٥] ابن ميسر (ص ٩٤) ، وابن خلكان (ج ١ ص ٢٩٨) وما يتبعها .

[٦] ابن ميسر (ص ٨٦)

أنظر (<(prof . margoliouth : cairo , Jerusalem and damasons , p . 36

أما الصليبيون فلم يستكروا في سيرهم إلى مصر، إذ فت في عضدهم وزعزع ملكهم في بيت المقدس نماء قوى البلاد المتاخمة لها، وفشل الحملة الصليبية الثانية تحت قيادة كنراد **Conrad** ولويس السابع، واستخلاف نور الدين على عرش الشام واستقرار أمره في حلب شمالا ودمشق شرقا، وقد تلقب ببطل الإسلام وقوى أمره بضم دمشق اليه سنة ٥٥٠ هـ (١١٥٤ م)، وكان في حلف دفاعي مع الصليبيين [١] .

وقد قتل الوزير طلائع بن رزيك (رمضان سنة ٥٥٦ هـ و ١١٦١) بدسيسة صهره (زوج ابنته) الخليفة العاضد، الذي زالت الخلافة الفاطمية في أيامه، وانتقص هذا الوزير سلطته من أطرافها. وقد كان لمقتله ضجة في القاهرة. وهنا يجمل أن نأتي بما أمدنا به عمارة اليمني، وكان شاهد عيان لما حدث في مصر في عهد الخليفتين الأخيرين من الخلفاء الفاطميين.

لقد نصح ابن رزيك وهو على فراش الموت ابن أبا شجاع العادل أن يحذر شاور ويتجنب خلعه من منصبه. وقد دلت الأيام على أن تلك النضيحة كانت لخير ابنه. كان شاور عربي الأصل، اتصل بابن رزيك والحظوة لديه ؛ فولاه الصعيد، وغدا مركزه من الخطر بحيث لم يجرؤ ابن رزيك على عزه من منصبه. فلما توفى ابن رزيك خلفه ابنه العادل في الوزارة ؛ غير أنه لم يكد يأتي عليه عام في الوزارة حتى خلعه شاور وقتله ابنه طب بن شارو في ٢٢ المحرم سنة ٥٥٨ هـ (يناير سنة ١١٦٣ م) ز

وصار شاور بفعلته هذه غير محبوب من الناس، مما سهل لانصار سلفه الاجتماع على الكيد له وخلعه من الوزارة. وكان من مظاهر خرق شاور في سياسته أن أطلق لابنه طي عنان التدخل في شئون الدولة. ولم تقتصر أعماله السيئة على بني رزيك، بل تناول أذاها الاهلين عامة ؛ فاستثار شاور بذلك –كما يقول عماة – بغض الناس [٢]. وقول أبو شامة في عرض كلامه على مقتل العادل بن رزيك، أن طي بن شاور هو الذي فعل

---

[١] ابن الأثير (ج ١١ ص ٤٦) .

[٢] عمارة اليمني ،كتاب " النكت العصرية " ، (ص ٨٨) .

تلك الفعلة دون رضى أبيه. ويقول أبن أبي طي [١] الذى نقل عنه أبو شامة ذلك : " أشار بعض أقارب العادل بن رزيك بالتخلص من شاور بعزله ؛ فأبي الوزير ذلك بادئ الامر ؛ ولكنه عزله أخيرا. فثار عليه وعضده قوم من الأعراب وأهل الصعيد، فتمكن من دخول القاهرة. ثم غادر العادل بن رزيك المدينة واختفي ؛ ولكنه لم يلبث أن قبض عليه جماعة من الأعراب وحملوه إلى شاور ".

وهرب بعد ذلك سائر أسرة ابن رزيك خارج البلاد ؛ وبذلك انفرد شاور بالسلطة المطلقة. بيد أن أفاعيل أولاده مع الأهلين جعلته مكروها عندهم، حتي ان ضرغام أمين الباب وأمير البرقية (فرقة من الجند من برقة) وأخاه ملهما، وهما من خواص طلائع بن رزيك، تفاوضا مع العادل – وكان محبوسا في ذلك الوقت – في أن يثير ثورة علهم يتمكنون من ارجاعه للوزارة.

ولما اتصل ذلك بطي بن شاور، حذر أباه عواقب تلك المؤامرة ونصح له بأن يقيل ابن رزيك. غير أن شاور تذكر ما ناله من عطف طلائع بن رزيك، فلم يذعن لرأي ابنه.

ذهب طي بن شاور بعد ذلك إلى السجن وقتل العادل بن رزيك، فجلب لنفسه بذلك سخط أبيه. ولما علم ضرغام أمين الباب وأمير البرقية بهذا الحادث، أشعل نار الثورة وهزم جند شاور. ففر شاور إلى سورية ؛ وبعد فراره قتل ولداه طي وضرغام. أما

---

[١] أسمه يحي بن حميدة (أو حامد كما في رواية أخرى) ، ويكنى بابن أبي طي . وأصله من حلب ، وتوفي –كما يروى حاجى خليفة (رقم ٢٠٢ و ٢٠٧٠ الخ) سنة ٦٣٠ هـ (١٢٣٢ – ١٢٣٣ م) . وكان والده أحد أشراف بلدته ، وطرده نور الدين لخروجه في آرائه على الدين . ومن المحتمل أن يكون قد اعتنق العقائد الشيعية اتلى كان الفاطميون يجدون في نشرها في البلاد السورية ؛ وأما ابنه يحيى فقد اعتنق تلك العقائد ؛ يؤيد هذا كتاباه " معجم شعراء الشيعة " و " رسالة في فضائل الأئمة الاثني عشرية " . وقد أتى على مؤلفات ابن أبي طي في السير والتواريخ حاجى خليفة (رقم ٢٠٢ و ٢٠٧٠ و ٢٢٠٥ و ٢٣١٢ و ٤٦٤٧ و ٧٢٢١ ز ٧٩٠٧ ز ٨٢٢٦ و ١٠٩٤٠ و ١٣٠١٩) ووستنفلد ((geschiehte der araber , no 315 ومن المحتمل أن يكون انتشار العقائد السنية في بلاد الشام في ذلك الوقت هو السبب في انه لم يصل إلينا من مؤلفات هذا المؤرخ إلا القليل . وقد وضع أبو شامة والمقريزي ترجمة ابن أبي طي لحياة صلاح الدين (حاجى ليفة رقم ١٠٩٤٠) في متناول أيدينا ، اذ أمدنا كل منهما بشذرات من كلامه ز وذلك بقى من مؤلفاته أيضا شرحه للأمية العرب للشنفرى ؛ وقد ألفه سمنة ٦١٨هـ (١٢٢١ م) .

أنظر أيضا (, hartwig derenbourg : vie d’ousama , historiens orientaux des oroiaades
vol . I p . 403 n . 3 . introd . p . l

ابنه الثالث الكامل، فقد كانت له يد علي ملهم أخي ضرغام أمين الباب، فلم يقتله، بل اقتصر علي اعتقاله. وبهذا انتهت وزارة شاور الأولي وحل محله فيها ضرغام، وذلك في رمضان سنة **٥٥٨** هـ (**١١٦٣** م) [(١)].

وقد تدخل نور الدين والفرنجة تدخلا جديا في شئون مصر منذ ذلك الحين. وكان من اغارة هاتين القوتين علي مصر وسياسة شاور المزعزعة، واسراف ضرغام في قتل قواد مصر —كان من هذه الأحوال مجتمعة ما عجل بسقوط الدولة الفاطمية.

وقد هرب شاور في رمضان من هذا العام إلى نور الدين بدمشق وطلب منه النجدة، وأراه أنه علي استعداد لأن يقوم بنفقات الحملة وأن ينزل له اذا تم له الأمر عن ثلث خراج مصر جزية سنوية [(٢)]. وكان نور الدين يعلم ما لمصر من المركز السياسي الخاص، بمعني أن من يملكها يمكنه أن يسيطر علي غيره من البلاد، وأنها معين خصب للخراج.

وهنا قد يكون لين بول مصيبا في ظنه، وهو أن عدم ثقة نور الدين بشاور، وتخوفه من الأخطار التي تستهدف لها حملته في اجتيازها الصحراء ومرورها علي الصليبيين —كل ذلك جعله يتردد في هذا المشروع. غير أني أميل إلى الظن بأن لين بول تسرع في حكمه، فأسند عدم ثقة نور الدين بشاور إلى أشياء جاءت بعد، وذلك لعدم فهمه عبارة ابن الأثير (ج ١١ ص ١٢٠) هذه : " وتخوف أن شاور ان استقرت قاعدته، ربما لا يفي " ؛ لأنه لم يكن قد ظهر بعد تزعزع أخلاق شاور في الوقت الذي كان يحاول الاتفاق مع

---

(١) – أبو شامة : مجموعة تواري الحروب الصليبية (ج ٤ ص ١٥٦) .

Beoueil des croisades . istoriens orientaux , tome I v , p . 165

النكت العصرية (ص ٦٧ و ٧٨) ، وابن الأثير (ج ١١ ص ١١٧) .

(٢) – ابن الاثير (ج ١١ ص ١٢١) .

ذكر ابن الاثير عن ابن أبي طي من جهة أخرى ، ان شاور أرسل إلى شيركوه ثلاثين ألف دينار ، وطلب منه أن يعود الى الشام . غير أن شيركوه أجابه اتباعا لتعليمات نور الدين ، بانه يجب أن يعطيه ثلث الخراج ، وأن ينفق الثلث الثاني على جيش شاور ، و يخصص الثلث الأخير لنفقات القصر . فأنكر شاور اتفاقه على ذلك معنور الدين ، وذكر له أنه انما اتفقا على أن يساعده نور الدين ، ثم خرج الجنود السورية الى ببلادها متى صارت له السلطة ؛ فألح شيركوه في ضرورة تنفيذ أوامر نور الدين ؛ فكان من أثر ذلك أن أمر شاور باغلاق أبواب القاهرة ، وبدأ في مفوضة الفرنجة (أبو شامة شرحه ص ١٦٦) .

هاتين القوتين الأجنبيتين.

وقد أورد لنا ابن شداد (ص٤٣) وأبو شامه (ص١٠٧ – ١٠٨) وابن خلكان (ج ج ٢ص٤٤٩) وغيرهم الأسباب التي جعلت نور الدين يصمم علي ارسال هذه الحملة إلى مصر، هذه الأسباب التي يمكن تلخيصها فيما يلي :

أولا – رغبته في اجابة شاور إلى طلبه، وقد تضرع اليه ورغب في الاستعانة به.

ثانيا – شغفه بالاطلاع علي حقيقة الحال في مصر، وقد اتصل به أن قوتها الحربية كانت ضعيفة جدا، وأنها كانت في حالة اضطراب شديد.

٣ – حملة شيركوه الأولي علي مصر

هكذا عجلت الحوادث تدخل نور الدين. وذلك أن ضرغام اختلف مع عموري في الجزية السنوية التي كان يدفعها اليه : فسار ملك بيت المقدس الجديد (عموري) إلى مصر سنة ٥٥٩ هـ (١١٦٣ م) ليفرض عليها الجزية كرها. ولحقت الهزيمة المنكرة بضرغام في بلبيس، فأراد أن يتجنب الهزيمة النهائية. فأوحي له قصر نظره وغباوته فتح سدود النيل – وكان في إبان فيضانه – فأغرق البلاد. علي أنه قد تم له ما أراد من رجوع عموري إلى فلسطين.

وعلم ضرغام بالمفاوضات التي دارت بين شاور ونور الدين ؛ فأدرك خطأه في عدم اتفاقه مع عموري، وسارع بعقد حلف معه، وزاد فيه مقدار الجزية. وسرعان ما ظهر نور الدين في ساحة القتال حين اتصل به ذلك. وقبل أن يتمكن عموري من المسير إلى مصر (جمادي الثانية سنة ٥٥٩، أبريل سنة ١١٦٤ م)، سار شاور اليها مع جند قوي من التركمان من دمشق يقوده أسد الدين شيركوه، وكان صلاح الدين قائد المقدمة. والتقي ذلك الجند مع المصريين في بلبيس ؛ فانهزم المصريين، غير أنهم لموا شعثهم ثانية واجتمعوا تحت أسوار القاهرة [١].

---

[١] – عمارة ، النكت (ص ٦٨ وما يتبعها) ، ابن الاثير (ج ١١ ص ١٢٠ و ١٢١) ، **lane – poole : history of Egypt in the middle eages , p . 177**

واستمرت الحرب سجالا بين الفريقين عدة أيام، تمكن شاور في أثنائها من الاستيلاء علي الفسطاط، بينما كان ضرغام يحتل القصر في القاهرة. وأراد ضرغام أن يجمع الأموال ؛ فوضع يده علي أموال الأوقاف، فأخذ الناس ينفضون عنه. وقد امتنع الخليفة والجيش عن مؤازرته، فتدهور حتي رؤي راكبا مخترقا باب زويلة سائرا في طرقات القاهرة يدعو الناس للثورة ونصرة دعوته، فلم يلق منهم الا صياح الاستهزاء وتزويده باللعنات. وقد استمر في سيره حتي جفل حصانة من صياح الناس، فألقاه علي الأرض في جوار ضريح السيدة نفسية.

وسرعان ما قطعت رأس ضرغام وطيف بها في الطرقات وسط مظاهر الفرح بهذا النصر [1]. وهنا يقول لين بول : " هكذا كانت النهاية المحزنة لذلك السيد الشجاع المقدام، والشاعر البطل الحسن الخلق والخلق، الكامل العقل، الجامع محاسن الرجال، الذي كان فارس عصره، وأحسن من نيل بالقوس في مصر " [2].

وقد أدرك شاور غرضه ؛ فتولي الوزارة، وتوطدت أقدامه وأضحت قوته ثابتة الأساس. ولوثوقه بقوة مكانته وأنه قد أمن ما كان يتخوفه، خان عهده مع أسد الدين شيركوه، وهزأ بمحالفه ولم يف بما عاهده عليه، وأب دفع ما فرضه علي نفسه من جزية ؛ ومد له الفرنجة يد المساعدة حين طلب شاور إليهم ذلك، فحاصروا شيركوه في بلبيس وحملوه علي العودة بجنده إلى الشام (ذو الحجة سنة ٥٥٩ هـ نوفمبر سنة ١١٦٤ م). وانتهز نور الدين ذهاب عموري إلى مصر فهزم قواته في فلسطين، فاضطر إلى العودة لحماية بلاده [3].

ولكن شيركوه لم يفشل تماما في حملته علي مصر، إذا عرف ما كان يسود هذه البلاد من الفوضى، فأطمعه ذلك في امتلاكها. لذلك بقي في الشام مدة يعد العدة في تجهيز

---

(١) – النكت (ص ٧٣) .

(٢) – Stanley lane – poole : saladin and the fall of the kingdom of Jerusalem , p . 82 .

(٣) – ابن شداد (ص ٤٣)

حملة ثانية أملا في تأسيس إمبراطورية لنفسه، واستمر حتي سنة ٥٦٢ هـ (١١٦٦ م) يدبر الخطط بالاشتراك مع نور الدين [١].

٤ – حملة شيركوه الثانية علي مصر

لقد ظهرت أهواء شاور المضطربة وسياسته الخرقاء واضحة جلية في غضون وزارته الثانية. ويؤخذ من قول عمارة أن شاور لم يلبث أن ظهر قلقه واضطرابه بعد أن استرد قوته واستقر في مركزه. وفي اليوم التالي من وصوله القاهرة، سار شيركوه إلى بلبيس حين علم بخيانة شاور له، وهزم الجيوش المصرية.

ابتدأ نجم شاور في الأفول في هذا الحين بسرعة ؛ فجرح أخوه صبح جرحا بليغا، وحاصر الفرنجة بلبيس، وأرغموا نور الدين علي العودة من فلسطين إلى الشام، ولم يلبثوا أن عادوا هم أيضا إلى فلسطين.

ولم تكن حالة مصر الداخلية بأقل اضطرابا ؛ فقد كان لزاما علي شاور أن يقمع ثورة يحي بن الخياط أحد أنصار ابن رزيك [٢] (عمارة ص ٦٧)، الذي قام يطلب الوزارة لنفسه ؛ وتلا ذلك الاضطرابات التي أثارها ينو لواتة ومن لف لفهم من العرب. وأدهي من هذا كله ما بلغه من إعداد نور الدين العدة لغزو مصر مرة أخري [٣].

طلب شاور مساعدة الفرنجة ثانية ووعدهم موطنا ثابتا في مصر ؛ فأرسل نور الدين جيشا إلى هذه البلاد تحت قيادة شيركوه، إذ رأي أن اتفاق شاور مع الفرنجة من شأنه أن يكسبهم قوة في مصر، وذلك يهدد مركزه في الشام. وغادر جيش شيركوه في ربيع الأول سنة ٥٦٢ هـ (ديسمبر – يناير ١١٦٦ – ١١٦٧ م) ؛ ووافق وصولهم إلى مصر وصول الفرنجة، كما يخبرنا بذلك عمارة وابن شداد وغيرهما من المؤرخين. وكان الفرنجة – كما ذكر أبو شامة عن ابن أبي طي – قد أعلموا شاور بسر الحملة السورية تحت قيادة

---

[١] – شرحه .

[٢] – قتله شجاع بن شاوور (حياة عمارة ص ٣٤٨) .

[٣] – عمارة (ص ٦٧ و ٧٥ – ٧٨) .

شيركوه إلى مصر [1].

سار الجيشان بحذاء شاطئ النيل حتي وصلا إلى القاهرة. فضرب عموري سرادقه قريبا من الفسطاط، وعسكر شيركوه في مواجهته تماما بالجيزة، ووقعت موقعة عنيفة بين جيش شيركوه من جهة، وجيوش شاور والمصريين الذين اتحدوا مع الفرنجة من جهة أخري. والتقي الفريقان ثانيا في موقعة البابين، علي بعد عشرة أميال في جنوب المنيا ؛ فأحرز شيركوه بقوته القليلة نصرا مبينا، وبذلك توطدت أقدامه في الصعيد. غير أنه لم يكن من القوة بحيث يمكنه أن يتابع انتصاراته ويسير إلى القاهرة ؛ فاختار أهون الأمرين، وذهب في الصحراء شمالا حتي وصل إلى الاسكندرية فدخلها من غير مقاومة.

أقام شيركوه بعد ذلك صلاح الدين واليا علي الاسكندرية، وجعل معه نصف الجيش، وعاد بالنصف الآخر إلى الجنوب، وأخذ يجبي الأموال في الصعيد. أما قوي الفرنجة والمصريين المتحدة فقد حاصرت الاسكندرية برا، بينما كان أسطول الصليبيين يحاصرها بحرا. ولم يكن مع صلاح الدين لصد هؤلاء إلا ألف من أنصاره ؛ فأسرع شيركوه السير إليه، واصطلح الفريقان آخر الأمر علي أن يترك شيركوه مصر في مقابل خمسين ألف دينار.

عاد شيركوه إلى الشام، لأن جيشه – كما يقول ابن شداد – قد ضعف كثيرا في حربه مع الفرنجة والمصريين. هذا إلى ما انتابه من البؤس وما حاق به من الأخطار [2]. الا أن شيركوه صار ملما أكثر من قبل بأحوال مصر الداخلية، ولذلك صمم كل التصميم علي امتلاكها قبل أن تقع فريسة في أيدي الفرنجة.

٥ – حملة شيركوه الثالثة علي مصر

هكذا انتهت حملة الفرنجة والغز علي مصر. وقد ارتد الأولون إلى فلسطين والآخرون إلى الشام ؛ وبذلك زالت مخاوف شاور. غير أن الأيام أظهرت أن أمنه هذا لم يكن إلا

[1] – أبو شامة : rooeuil des histoires des croisades , tom . I v . p . 168

[2] – ابن شداد (ص ٤٤ و ٤٥) .

حلما من الأحلام. فقد ابتدأت حملة شيركوه الثالثة علي مصر وانتهت بانتصاره علي الفرنجة والمصريين واحتلاله البلاد ؛ وكان ذلك – كما يذكر عمارة [1] – نذيرا باندحار شاور وقتله.

لقد كان سبب حملة شيركوه الثالثة ما رآه من جمع الفرنجة قواتهم كافة وزحفهم بها علي مصر من جديد ؛ إذا قد حملهم الأمل من امتلاك مصر علي نقض ما عاهدوا المصريين وشيركوه عليه. لهذا خشي نور الدين أن تقع البلاد في أيديهم ؛ فأرسل هذه الحملة تحت قيادة شيركوه، يصحبه أخواه، وابن اخيه صلاح الدين العظيم، وغيرهم من ذوي قرباه وجيوشه [2].

وقد تجلت سياسة شاور المتقلبة ثانيا ؛ فقد أرسل لأسد الدين شيركوه كتابا يطلب فيه المساعدة. وصادف هذا الرجاء قبولا من نفس شيركوه، لأن اتحاده مع شاور معناه هزيمة الفرنجة من جهة، وتخلصه من شاور من جهة أخري.

سار الفرنجة نحو مصر، ووصلوا إلى بلبيس في صفر سنة **٥٦٤** (نوفمبر سنة **١١٦٨** م). وهناك كانت مذبحة عامة، إذ لم يبقوا – كما يقول المؤرخ اللاتيني وليم الصوري **William of tyre** – علي أحد ممن كان بهذه المدينة من الناس علي اختلافهم شبانا وشيبا، ذكرانا وإناثا [3]. وقد أسخط عمل عموري هذا جميع المصريين، فانحازوا إلى شيركوه، كما بعث فيهم روح البطولة ؛ وأمر شاور بإحراق مدينة الفسطاط، حتي يكون ذلك حائلا بينه وبين الفرنجة. وقد استمرت النيران بها أربعة وخمسين يوما ؛ ولا تزال آثار الحريق باقية الى يومنا هذا في التلال الرملية التي تغطي القمامة المدفونة في الفضاء الممتد

---

[1] – النكت العصرية (ص ٨١) .

[2] – ابن شداد (ص **٤٥** و **٤٦**) .

[3] – ذكر أبو شامة (ص ١٣٧) ما فعله الفرنجة في عبارة أقل مبالغة فقال ، ان عمورى قتل عددا كبيرا من الاهلين ، وأتلف معظم المدينة ، وأحرق أكثر مبانيها ، وجعل الناس فيها فريقين : قتل أحدهما بحد السيف ، واستبقي الآخرين شكرا لله على ما أتاه من نصر .

عدة أميال جنوبي القاهرة. وأسرع الناس بعد هذا لائذين بالقاهرة التي ساد أهليها الحماس استعدادا لصد هجوم الفرنجة [1].

غير أن الفرنجة لم يهاجموا القاهرة، وذلك بفضل ما أبداه شاور من الحذق في مفاوضاته معهم كي يبعد عموري عن مصر ببذل مقدار من المال له. لكن سياسته معهم لم يكن يسودها الاخلاص ؛ فقد راسل نور الدين في دمشق يطلب منه المعونة. وقد كتب الخليفة العاضد الشاب نفسه بذلك إلى نور الدين، ووضع في رسالته خصلا من شعور النساء إمعانا في الضراعة، حتى لا يسعه أن يرد توسله بعد ذلك [2].

وكان نور الدين قد صمم في هذه الآونة علي غزو مصر، وكان يود أن يذهب بنفسه، لولا أنه كان مشتغل البال بحالة بلاد الجزيرة المزعزعة. فأرسل في الحال قوة من ألفين اختارهم من حرسه الخاص وستة آلاف من التركمان بقيادة شيركوه، يعينهم عدد كبير من الأمراء ومن أقاربه، وكذا صلاح الذين، وكان يد عمه اليمني، الذي قبل تلك المهمة علي مضض لما لاقاه من المصاعب في حصار الاسكندرية [3].

رحل شيركوه في آخر صفر من السنة نفسها، ووصل القاهرة في السابع من جمادي الثانية. وكان عموري لا يزال أمام أسوارها ينتظر أكثر مما ناله من الأموال المصرية. فباغته

---

(1) – ابن الاثير (ج ١١ ص ١٣٦) ، أبو شامة (ص ١١٥) .

(2) – شرحه .

ان ما وراه الذهبي (مكتبة بودليان باكسفورد ، مخطوطات . **loud** . القسم الشرقي ، رقم ٣٠٤ ، ورقة ١٣٥ ا – ١٣٥ ب) يختلف عما رواه ابن الاثير وابن شداد . فقد روى الذهبي أ، شاور هو الذي كاتب نور الدين وأرسل إليه شيئا من شعور النساء في خطاباته ، كما روى أن تأثر نور الدين كان عظيما ، حتى إنه جعل سيركوه يقطع المسافة بين حمص وحطب في ليلة واحدة ، في جند يبلغ سبعين ألفا سار به الى مصر . وهاك عبارة الذهبي : " وكاتب شاور في غضون ذلك الملك العادل نور الدين يستنجد به ، وسو\ كتابه ، وجعل في طيه ذوائب النساء داخل كتبه يستحثه . وكان بحلب ، فساق أسد الدين من حمص الى حلب في ليلة ، فجمع اسد الدين وسار الى مصر في جيش عرمرم ، فقيل كانوا سبعين ألف فارس وراجل " ,

(3) – ابن الاثير (ج ١١ ص ١٣٦) .

شيركوه وانضم إلى المصريين متجنبا جيش الفرنجة، وقد سار إليه ليحول دون تقدمه. أما عموري الذي خدعه شاور، والذي رأي تفوق شيركوه عليه في الحرب، فقد عاد إلى فلسطين من غير حرب ولا قتال. ودخل شيركوه القاهرة دخول المنتصر، ورأي الناس فيه بطلا منقذا لهم، فقابلوه بالترحاب، واستقبله الخليفة الذي قدر صنيعه وخلع عليه [1].

٦ – مقتل شاور وتقليد شيركوه الوزارة

لم يكن الغرض الحقيقي من حملة شيركوه الثالثة علي مصر مساعدة شاور، بل كان ذلك تمويها. وفي الواقع أن الغرض الذي انطوي تحت هذه الحملة يختلف عن ذلك اختلافا تاما، إذ كان يراد بها القضاء علي شاور واحتلال مصر. وقد كان شاور وشيركوه يعلمان ذلك حق العلم، كما كان كل منهما يعرف أيضا أن خصمه يكيد له كي يتخلص منه.

وقد صدق ابن خلكان فيما ذهب اليه من أن شيركوه كان واثقا من أن الفرصة بامتلاك مصر لن تتاح له ما بقي شاور فيها. لذلك قرر أخيرا أن يقبض عليه في إحدى زياراته له ؛ واضطلع صلاح الدين بتنفيذ هذه المكيدة. فذهب راكبا جواده، حيث لقي شاور وهو مقبل عليه يدعوه إلى وليمة دبر فيها أمر اغتياله ؛ فأمسك بطوقه، وقاده إلى فسطاط منعزل، وقطع رأسه بأمر من الخليفة الذي ولي شيركوه الوزارة في ١٧ ربيع الثاني ٥٦٤ (١٨ يناير سنة ١١٦٩) وخلع عليه، فظل فيها حتي مات في ٢٢ جمادي الثانية من السنة نفسها (٢٣ مارس سنة ١١٦٩) [2].

وبهذا انتهي أول فصل من فصول مأساة سقوط الخلافة الفاطمية في مصر. وقد أصاب عمارة إذ يقول : " ولم يرب أحد من الوزراء المصريين رجال الدولة مثل ما رباهم الصالح بن رزيك، ولا أفني أعيانهم مثل ضرغام، ولا أتلف أموالهم مثل آل شاور. وشاور

[1] – شرحه (ص ١٣٦ و ١٣٧) .

[2] – ابن شداد (ص ٤٧ و ٤٨) ، وابن خلكان (ج ٢ ص ٥٠١ و ٥٠٢) .

ذكر أبو شامة (ص ١٤٥) أن صلاح الدين نفسه هو الذي قتل شاور . وذكر الذهبي (مكتبة بودليان بأكسفورد ، مخطوطات **laud** ، القسم الشرقي رقم ٣٠٤ ، ورقة ١٣٥ ا) أن سيريكوه ولى الوزارة قبل مقتل شاور .

هو الذي أطمع الفرنجة والغز في الدولة حتي انتقلت عن أهلها " [١].

الآن يجدر بنا أن نبين كيف كان من سياسة نور الدين قطع الخطبة للخليفة الفاطمي، وكيف سقطت الدولة بعد ذلك علي يد صلاح الدين.

٧ – صلاح الدين وسقوط الفاطميين

لقد مهدت الأحوال والحوادث الماضية الطريق لسقوط الفاطميين قبل أن يلي صلاح الدين الوزارة خلفا لعمه. وقد أصبحت البلاد من الضعف بحيث لم تعد تقوي علي صد الغزوات الأجنبية. لما سادها من الأحوال السيئة دهرا طويلا، وما منيت به من التطاحن الحزبي والمنافسات بين الوزراء المصريين، حتي غدت في مركز يشابه مركزها حين فتحها الفاطميون علي يد جوهر القائد.

وقد أيدت وفاة شيركوه مركز صلاح الدين ؛ فابتدأت منذ ذلك عظمته. فقد وطد العزم في هذه الآونة علي تأسيس امبراطورية واسعة الأرجاء. ولكن يصل إلى بغيته، خصص كل مجهوداته لطرد الصليبيين من البلاد. وفي ذلك يقول صلاح الدين : " لما يسر الله لي فتح الديار المصرية، علمت أنه أراد فتح الساحل " (فلسطين) [٢]. وقد كان لنجاحه في هذا المشروع ما جعله يلقب بحامي الاسلام.

ولم يجعل صلاح الدين إلى تقوية مركزه في مصر، بل عمل علي توطيده تدريجيا ؛ كي لا يفقد ثقة المصريين ولا يثير حسد نور الدين. وكانت هذه هي السياسة الحازمة التي كان لزاما عليه أن ينتهجها. وقد أراد اضعاف حزب الخليفة، فعمل أولا علي اكتساب ثقة الأهلين ؛ وكان له من كرمه – كما يقول ابن شداد – ما أكسبه قلوبهم وما جعل الناس من كل الأرجاء يسارعون إلى طاعته. ولم نجيب رجاء قاصد له، وبذلك نجح في اكتساب محبة الشعب [٣]. وأسند مهام الدولة إلى أناس من أنصاره، وما فتئ يعمل علي اضعاف

---

[١] – عمارة : النكت (ص ٨٨)

[٢] – ابن شداد (ص ٤٨ و ٤٩)

[٣] – شرحه (ص ٤٩) .

نفوذ الخليفة.

وكان رجال القصر من جند وأتباع لا يخفون عداءهم لصلاح الدين، والخليفة يعلم حق العلم أنه ولي الوزارة إمعة لا سيدا مستقلا برأيه. لذلك قامت المكائد علي قدم وساق للقضاء علي هذا الوزير الجديد. وقد ترأس المؤامرة عليه " نجاح "كبير الخصيان السود. وكان من تدبيرهم أن يصلحوا ذات البين بينهم وبين الفرنجة، فيجئ هؤلاء لغزو مصر، فاذا ما خرج لهم

صلاح الدين، هاجمه المتآمرون من مؤخرته ؛ وبذلك يقع بين نارين، فيقضي عليه وعلي جنده من التركمان.

وقد علم صلاح الدين بما دبره أعداؤه له ؛ فأمر بمراقبة كبير الخصيان، وقبض عليه وقطعت رأسه (ذو القعدة سنة ٥٦٤، يوليه سنة ١١٦٩) كما قتل كثير من بني جلدته. فأثار ذلك حنق جند الخليفة، وكان أكثرهم من السودانيين، فثار منهم خمسون ألفا للأخذ بثأره. واشتبكوا مع جند صلاح الدين في معركة عنيفة في المكان المعروف بين القصرين، أحرق فيها كثير من المنازل والشوارع. ودارت الدائرة أخيرا علي السودانيين، وأحرق حيهم المعروف بالمنصورية، وطردوا إلى الجيزة عن طريق النيل، ومنها إلى الصعيد حيث استمروا في ثورتهم عدة سنوات، إلى أن قضي عليهم نهائيا سنة ٥٧٢ هـ (١١٧٦م) [١].

---

[١] – ابن شداد (ص ٥٢) ، وابن الأثير (ج ١١ ص ١٣٩ و ١٤٠) . ذكر ذلك التاريخ الذهبي (مكتبة بودليان بأكسفورد ، مخطوطات **laud** ، القسم الشرقي رقم ٣٠٤ ، ورقة ١٤٦ ا) عن سبط بن الجوزي ، الذي أمدنا بمعلومات عن ثورة السودانيين تحت قيادة زعيمهم الكنز ، الذي ثار في الصعيد سنة ٥٧٢ هـ ، ثم سار الى القاهرة لإرجاع الخلافة الفاطمية ؛ فنشب القتال بينهم وبين الايوبيين ، وانتهى بهزيمة السودانيين . وقد قتل زعيمهم ونحو من ثمانين ألفا معه في الحرب ، وبذلك ضاعت آمالهم في استرجاع خلافة الفاطميين . وفيما يلى نص عبارة الذهبي : " وفيها (سنة ٥٧٢ هـ) كانت واقعة الكنز مقدم السودان بالصعيد ، جمع خلقا عظيما وساروا الى القاهرة ليعيدوا الدولة .... فقتل الكنز ، وقتل خلق كثير من جموعه ، حتى قتل منهم ثمانون ألفا . هكذا قال أبو المظفر فيزوغلى " .
ذكر ابن خلكان (ج ٢ ص ٥١٠) وأبو الفدا (ج ٣ ص ٥٩) أن ذلك كان في صفر سنة ٥٧٠

(ا) غزو الفرنجة مصر

ولما توطدت أقدام صلاح الدين في مصر، شرع يرسل الحملات ضد الفرنجة. فبعث فرقا لغزو ولايتي الكرك والشوبك وغيرهما مما أثار مخاوف الفرنجة. ولا غرو فقد كان ذلك نذيرا بذهاب سلطانهم في فلسطين.

واتحد الفرنجة مع البيزنطيين وساروا بحرا إلى مصر ؛ فنزلوا أولا علي مقربة من دمياط. وقد ذهب جماعة منهم في ذلك الوقت، فاستولوا في ربيع الثاني سنة ٥٦٥ (١١٦٩ – ١١٧٠ م) علي قصر عكاء، وكان يحتله خطلخ نائبا علي نور الدين، وكان لقبه " علم دار " (أي دار السلطان). ولما علم نور الدين بمسير الفرنجة إلى دمياط، أسرع بحصار الكرك (شعبان سنة ٥٦٥ هـ، ١١٧٠ م) [١].

أما صلاح الدين الذي كانت له السلطة المطلقة حينذاك، فقد أعد جيوشه وملأ دمياط بالذخائر، ووعد بإرسال المدد إلى المدينة ليخلص أهلها مما حاق بهم من هلع، ووزع عليهم الهدايا والهبات.

وقد نجح نور الدين في احتلاله جزءا من مملكة النصارى في فلسطين، وأرسل الأمداد إلى صلاح الدين الذي كان يعضده كان الخليفة العاضد أيضا طول مدة الحصار الذي استمر خمسين يوما، وأمده بنحو مليون دينار. وقد جعلت هذه الأمور اغارات الفرنجة عديمة الجدوى ؛ فاضطروا لرفع الحصار [٢] بعد أن أحرقت مراكبهم، واستولي المصريون علي آلاتهم الحربية وقتلوا عددا عظيما من رجالاتهم [٣].

وبعد انتصار صلاح الدين علي الفرنجة، طلب من نور الدين أن يرسل اليه أباه

---

[١] – ابن شداد (ص ٥٠) .

[٢] – ابن الاثير (ج ١١ ص ١٤٢) .

[٣] – ابن شداد (ص ٥٢) .

وأقاربه ؛ فكان له ما أراد، ووصلت أسرته في جمادي الثانية ٥٦٥ هـ (١١٧٠ م) [(١)]. فجعل أباه علي بيت المال، وعضده إخوته بإخلاص ؛ وأقطعهم أملاك المصريين الذين نفاهم إلى حيث لا يمكنهم أن يثوروا ضده [(٢)].

(ب) غزو صلاح الدين مملكة الفرنجة في فلسطين

كان فشل الفرنجة في غزوهم دمياط – ذلك الفشل الذي يتمثل فيه ابن الأثير بالمثل المشهور عن النعامة وهو : " خرجت النعامة تطلب قرنين فرجعت بلا أذنين " – مشجعا لصلاح الدين علي أن يبدأ حياة الفتح بغزوهم في دارهم ؛ وبذلك بدأت سلسلة الاغارات التي لم تنته إلا بمعاهدة الصلح مع ريتشارد ملك انجلترا بعد اثنتين وعشرين سنة.

وقد اعتبر المصريين الشيعيون والتركمان السنيون صلاح الدين حاميا لهم، فاتفقوا معه علي محاربة الفرنجة أعدائهم جميعا. وشجعهم علي ذلك ما شاهدوه في القاهرة من الأسلاب التي غنمها صلاح الدين [(٣)]. ولما اسقرت سلطة صلاح الدين علي أساس متين واتفاق تام بينه وبين المصريين، أسند المناصب الدينية في مصر إلى الفقهاء المتضلعين في المذهب السني.

(ج) حذف اسم الخليفة الفاطمي من الخطبة. وفاة العاضد وسقوط الفاطميين

أن ما ذكره ابن الأثير عن سقوط الخلافة الفاطمية واحلال نفوذ العباسيين محلها في المحرم سنة ٥٦٧ هـ (١١٧١ م) يعتبر مرجعا لما سنذكره عن الخطوات التي اتخذها صلاح الدين لا براز هذا الانقلاب إلى حيز العمل.

---

(١) – ذكر الذهبي (مكتب بوليان بأكسفورد ، مخطوطات لود ، القسم الشرقي ، رقم ٣٠٤ ، ورقة ١٣٧ ب) ان الخليفة العاضد استقبل بنفسه نجم الدين والد صلاح الدين خارج القاهرة . وفي ذلك يقول : " وفي سنة خمس وستين وخمسمائة ، دخل نجم الدين أيوب مصر ، فخرج العاضد الى لقائه بنفسه .

(٢) – ابن شداد (ص ٥٢) .

(٣) – ابن الأثير (ج ١١ ص ١٤٧) .

توطدت سلطة صلاح الدين في مصر في ذلك الحين ؛ وانضوي تحت لوائه كل رجالات الدولة، وسقطت إلى الحضيض سلطة العاضد آخر الخلفاء الفاطميين، وأزال من الجيش بعض العناصر التي لم يكن يثق بإخلاصها. فكان لنور الدين – وهو من غلاة السنة – أن يرغب في إحلال اسم الخليفة العباسي في الخطبة محل الخليفة الفاطمي.

غير أن صلاح الدين تردد في تنفيد رغبة نور الدين، لما كان يخشاه من أن يثير هذا العمل ثورة أهالي مصر، الذين كانوا لا يزالون متعلقين بالفاطميين إلى ذلك الحين. بيد أن هذا العذر لم يرض نور الدين ؛ فكتب إلى صلاح الدين يأمره أمرا لا مناص لواليه من تنفيذه [١].

وكان الخليفة العاضد مريضا في ذلك الوقت. فعقد صلاح الدين مجلسا من الأمراء واستشارهم في ذكر اسم الخليفة العباسي في الخطبة بدل الخليفة الفاطمي. فوافقه بعضهم وأخذوا علي عاتقهم تعضيده، ورأي الآخرون خطورة هذا الاقتراح. غير أن أوامر نور الدين لم تكن بالتي لا تطاع.

وكان في هذا المجلس رجل فارسي يعرف بالأمير، حل بمصر منذ عهد قريب ؛ فلما رأي ترددهم، اعتزم أن يتولى بنفسه هذا الأمر. فصعد المنبر قبل الخطيب في أول جمعة من المحرم، ودعا للمستضئ العباسي. ولما لم يحتج أحد علي ذلك، أمر صلاح الدين في الجمعة التالية الخطباء أن يخطبوا باسم

الخليفة العباسي. وهكذا تم ذلك التغيير بدون أن يلقي أية مقاومة. وفي ذلك يقول ابن الأثير : " فلم ينتطح فيها عنزان " [٢].

لم يخبر العاضد – وكان مريضا جدا – أحد من أسرته بذلك الحدث وقالوا : " إن عوفي فهو يعلم، وأن توفي فلا ينبغي أن نفجعه بمثل هذه الحادثة قبل موته ". وتوفي في العاشرة من المحرم من دون أن يعلم بهذا التغيير العظيم الذي تم ؛ فجلس صلاح الدين

---

[١] – شرحه (ج ١ ص ١٤٨ و ١٤٩) .

[٢] – ابن الاثير (ج ١١ ص ١٤٩) .

للعزاء، واستولي علي القصر وما احتواه.

وكان صلاح الدين قد أقام قبل وفاة العاضد الطواشي بهاء الدين قراقوش [(١)] علي القصر، وأسكن أولاد العاضد وأعمامه وسائر أسرته في جناح منه. أما الموالي من الذكور والإناث فقد أخرجوا من القصر، وأعتق صلاح الدين بعضهم وأعطي البعض لأنصاره وبا ع الآخرين.

هكذا سقطت الدولة الفاطمية بموت العاضد، بعد أن حكمت مصر عصرا طويلا كان عصر يسر ورخاء، وتسامح ديني وثقافة، لم تتمتع به مصر من قبل. وان زوال الدولة الفاطمية الشيعية علي يد الأيوبيين السنيين الغلاة، وإرجاع الخطبة للخليفة العباسي، بعد أن قطعت في مصر كسائر الولايات الفاطمية الأخرى مدة قرنين وثماني سنوات تقريبا — هو انتصار السنة علي الشيعة.

[(١)] – معنى قراقوش باللغة التركية طائر أسود . وقد تولى بهاء الدين انشاء عدة من الآثار غيرت معالم القاهرة ، مثل قلعة الجبل ، وقناطر الجيزة ؛ وسور القاهرة العظيم . ولما افتتح صلاح الدين عكاء سنة ٥٨٣ هـ (١١٨٧ م) عينه واليا عليها في السنة التالية . وقد أسر لما أستولى عليها الفرنجة في سنة ٥٨٧ هـ (١١٩١ م) ؛ لكنه افتدى نفسه بمبلغ كبير ، ثم عاش في القاهرة حتى توفى سنة ٥٩٧ هـ (١٢٠١ م) . أنظر عبداللطيف البغدادى (طبعة دي ساسي ص ١٧١ و ١٧٢ و ٢٠٧ و ٢١٣) ، و (طبعة أكسفورد سنة ١٨٠٠ ص ٨٨ و ٩٠) ، وابن الأثير (طبعة القاهرة ص ١٤٨ و ١٤٩) ، وابنن شداد (مؤرخو الحروب الصليبية الشرقيون ((historiens orientaux des croissdes ج ٣ ص ١٢٠ و ١٣٥ و ١٧٦ و ١٨٣ و ٢٣١ و ٢٣٩ و ٣٠٤ و ٣١٧ و ٣٥٥ و ٣٥٦) وابن خلكان (ج ١ ص ٥٤٣ و ٥٤٤ ، و ج ١٢ ص ٥٠٥ و ٥٢٦) وأبو الفدا (ج ٣ ص ٥٣ و ٧٤ و ٨٧ و ٨٨)
derenbourg : vie d’ ousams , pp . 432 , 433 , n. 1
هذا وينبغي ألا نخلط بين أسم بهاء الدين قراقوش وشرف الدين قراقوش الارمنى ، الذي خدم الملك المظفر تقى الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب ، وكانت حياته سلسة مغامرات وقلاقل ومؤامرات ومذابح وسلب ونهب ؛ وبذلك ألقت أعماله في قلوب الناس الهلع الذي لا تزال ذكراه باقية الى اليوم .
انظر derenbourg : vie d’ ousams , pp . 450 , n. 4

الباب العاشر

الخاتمة

مقدار نجاح أعمال الفاطميين السياسية والدينية

يجمل بنا في هذه الخاتمة أن نبين بإيجاز نتائج ما تصدينا لبحثه، من الوقوف علي الأغراض والنظم التي سادت أعمال الفاطميين.

ان فكرة الرجعة التي أدخلها ابن سبأ في الاسلام كان لها شأن عظيم في تاريخ الشيعة الإمامية والاسماعيلية. ذلك أن السبعية – الذين كثيرا ما يعرفون بالإسماعيلية – كانوا يعتقدون أن امامهم مُحَمَّد بن اسماعيل سيرجع كالإمام المهدي. وهذه هي العقيدة التي أذاعها أبو عبد الله الشيعي أثناء بث دعوته بين البربر.

لقد غلا الاسماعيليون إلى حد بعيد في اعتقادهم بسلطة الامام الروحية، حتي إنهم ذهبوا إلى أن الاله قد تجسم في شخص علي ﵇ وأولاده من بعده ؛ وذلك رغم انكار علي وأولاده الحسن والحسين ومُحَمَّد بن الحنفية، وانكار معظم المسلمين الذين كانوا من رعايا الفاطميين. واذا تتبعنا تاريخ الفاطميين وصلنا إلى هذه النتيجة وهي : أن دعوتهم هذه إنما كانت تتخذ الدين وسيلة لنجاح أغراضهم السياسية.

ولما استقر حكم الفاطميين في شمال افريقية، فكروا في امتلاك مصر، اذ رأوا فيها مكانا صالحا لنشر دعوتهم. فقد كان استيلاؤهم عليها معناه بسط نفوذهم علي الشام والحجاز – وكانتا تحت حكم مصر – ثم تهديد بغداد نفسها. يضاف إلى هذا أن الحالة الداخلية في مصر، وفي الدولة العباسية التي كانت هدفا للغارات من الشرق ومن البيزنطيين في الغرب، جعلت فتح مصر أمرا ميسورا. ولم يكن اختيار الفاطميين أولا شمال إفريقية إلا لبعده عن حاضرة الدولة العباسية، ولميل البربر إلى خلع طاعة الأغالبة، ولضعف هذه الدولة الحاكمة نفسها.

فتح الفاطميون مصر، وأخذوا في نشر أغراضهم الدينية. ولم يدخروا وسعا — منذ استقرت سلطتهم في هذه البلاد — في بث العقائد الاسماعيلية، حتي أبطلت الخطبة للعباسيين واعترف بسلطان الفاطميين، لا في الخطبة والسكة فحسب، بل في كافة الأمور الحربية والدينية والمدنية، وصارت الأحكام تصدر وفق المذهب الاسماعيلي، وأصبحت الأعمال الحكومية تدار تدريجيا بالأيدي الشيعية، كما نشطوا في ابتناء المساجد لنشر التعاليم الفاطمية.

كذلك كان من أعمال الفاطميين تأسيس دور الكتب لنشر عقائد مذهبهم وتشجيع البحوث في العقائد الاسماعيلية ؛ فأسسوا مجمعا علميا (أكاديمية). وكانت المكاتب التي بالقصر ودار العلم بالقاهرة تفوق في هذه الآونة نظيراتها في بغداد وقرطبة ؛ وأصبح القصر في القاهرة مركزا للدعوة الفاطمية التي كان يقوم بها داعي الدعاة ومساعدوه تحت إشراف الخليفة.

ولم يجهل الفاطميون ما كان للشعراء ورجال الأدب من الأثر في نشر العقائد الاسماعيلية. فقد كان من سياستهم تشجيع الشعراء والأدباء بالهبات الوافرة والخلع والأعطيات، كي يشيدوا بذكر هذه الأسرة ويكونوا ألسنة ناطقة بقوة الفاطميين وعظمتهم، فيكتسبوا بذلك محبة رعاياهم.

لقد كانت سياسة الفاطميين في جعل مصر دون بلاد المغرب مركزا لأعمالهم سياسة رشيدة. فقد مكنتهم مصر من كسب ولاء الحكام في كثير من البلاد الاسلامية المختلفة، كاليمن والحجاز والموصل وبلاد ما وراء النهر، كما أمكنهم بثروة مصر أن يقيموا لأنفسهم حضارة عظيمة، وأن يكسبوا كثيرا من الأنصار في مصر وغيرها. ولم يكن غرض دعاة الفاطميين، معتمدين علي السيف آنا ومستغلين مطامع الولاة العباسيين آنا آخر، بأقل أهمية مما قام به غيرهم.

ويظهر أن مصر والشام (اذا استثنينا مدينة حلب) لم تدخلا في طاعة الفاطميين الا بقوة السيف، رغم ما بذله دعاتهم للاعتراف بالمهدى وخلفائه من بعده، وأنهم الأئمة حقا. ولم تكد تسقط دولتهم حتي عادوا جميعا إلى المذهب السني.

كذلك نري أنه قد زال نفوذ الفاطميين في بلاد المغرب — وهي مهد الدولة الفاطمية — لما تجلي للناس انحلال دولتهم، وأضحي النفوذ الفاطمي في اليمن والموصل والحجاز وبلاد ما وراء النهر وبغداد روحيا فقط، وصار لا يتمثل الا في السكة والخطبة. وكان لهذه السلطة — رغم ضآلتها — قيمة أدبية عظيمة.

يضاف إلى ما تقدم ما كان من اعتراف جماعة من رجالات الدولة العباسية بسلطة الفاطميين (انظر الباب الثاني). وفي نجاح البساسيري وقتا ما في تحويل الخطبة من الخليفة العباسي القائم إلى المستنصر الفاطمي دليل واضح لذلك. غير ان البساسيري كان يعمل عن بواعث شخصية حين ساءت العلاقة بينه وبين الخليفة العباسي وبعض رجالات بغداد. وعلي كل فقد أقام الخطبة للخليفة الفاطمي في حاضرة العباسيين، وأدخل في الأذان عبارة " حي علي خير العمل " التي كانت من شعائر الفاطميين.

هكذا حاول الفاطميون تأسيس سلطانهم السياسي والديني، أو أحدهما علي الأقل اذا لم يستطيعوا أن يصلوا اليهما معا ؛ وذلك بالدعاية تارة وبقوة السيف وبذل المال واستغلال مطامع الأفراد تارة أخري. وقد نجحوا علي توالي الأزمان في بسط نفوذهم علي شمال افريقية وصقلية، ومصر والشام وآسيا الصغرى، وعلي سواحل البحر الأحمر، كما اعترف بسلطانهم أيضا أئمة اليمن، وأمراء الموصل وبلاد ما وراء النهر، ومكة المكرمة والمدينة المنورة، بل وبغداد حاضرة العباسيين.

نجح الفاطميون في تأسيس امبراطورية شاسعة الأرجاء وحضارة باهرة لم يعرفها الشرق من قبل الا نادرا : تلك الحضارة التي اشتهرت بنظمها الادارية المحكمة، وفنونها وجيوشها وأساطيلها، وعدالة محاكمها وتسامحها الديني. وأهم من هذا كله ما عرفت به من تشجيع العلم والثقافة.

ولا تزال بعض آثار هذه الحضارة العظيمة باقية إلى الآن. فقد خلفوا لمصر تراثا هاما هو الجامعة الأزهرية. ويمكننا أن نقدر المجهودات التي بذلها الفاطميون في أيامهم من نظم التعليم التي ظلت في الأزهر حتي الآن.

حقا لقد فقدت هذه الجامعة إلى وقت ما شيئا من أهميتها بسقوط الفاطميين. ولا غرو فقد عني الأيوبيون – وهم السنيون الغلاة – بتخريب ما تركه الفاطميون من آثار لتعليم عقائد الشيعة الفاطمية. وقد مضي علي الأزهر نحو من قرن قبل ان يسترد شيئا من عطف الحكومة ورجالات الدولة.

ولما جاء الظاهر بيبرس زاد فيه وشغف بما يدرس هناك من العلوم، وأعاد اليه الخطبة. ومن هذا الحين ابتدأ الأزهر يدخل في عهد جديد من التقدم والرقي، حتي صار الطلاب يهرعون اليه إلى يومنا هذا من كل أرجاء العالم الاسلامي لاتمام دراساتهم، أما العلوم التي تدرس في الأزهر ونظم التعليم فيه، فمن الممكن أن نقول إنها بقيت تقريبا كما كانت عليه في عهد الفاطميين. فقد كان يدرس فيه التوحيد والفقه واللغة العربية والرياضة والمنطق والنحو والبيان والطب وغيرها من العلوم، كما بينا ذلك أثناء الكلام عن التعاليم الفاطمية في الأزهر وفي مكتبة دار العلم ودار الحكمة. ومع أننا لا نعلم الا القليل عن نظم التعليم وأكثر المواد التي ذكرناها آنفا، فمما لا شك فيه أن الفاطميين كانوا أول من أدخل ذلك في الأزهر.

أما من الناحية الدينية، فقد أثار ادعاؤهم أنهم يتصفون بالصفات الإلهية، سخط رعاياهم السنيين الذين اعتبروهم لهذا مارقين من الدين. أما بذخهم واسرافهم في الاحتفال بالأعياد الدينية وغيرها، وولائمهم الفاخرة، وأعطياتهم وهباتهم وما إلى ذلك، فلم ينجح الا في التأثير في الجماهير الذين بهرتهم هذه المظاهر الخلابة، والقليل من الناس الذين أفادوا لأنفسهم فوائد مادية من ورائهم.

وطالما كانت تثور ثائرة السنيين اذا ما أراد الفاطميون أن يلزموهم باعتناق عقائدهم البغيضة لديهم. لأن هذه العقائد فلما صادفت هوي في القلوب. ومع هذا نري بعض السنيين قد اعتنقوا تلك العقائد، إما لمصالح خاصة أو فرارا من حنق الفاطميين ونقمتهم.

وبعد، فقد كان من بين العوامل التي أسرعت في سقوط الفاطميين، انقسام اسماعيليين أنفسهم إلى فرق وأحزاب، كما أن لظهور هذه الفرق الاسماعيلية –كالدروز والحشاشين – أثرا شيئا في الحضارة الاسلامية وتقدمها.

مصادر الكتاب

نورد في الثبت الآتي المشتمل على مصادر هذا الكتاب مصادر أ نرى لم يرد لها ذكر من قبل ؛ وقد رتبت أسما المؤلفين في جميعها حسب أحرف الهجاء :

(١) ابن الأثير (+ ٣٦٠ هـ و ١٢٣٨ م) : على بن احمد بن أبي الكرم.

(ا) " الكامل في التاري " ١٢ جزء (بولاق سنة ١٢٧٨٠ هـ).

(ب ٩ أسد الغابة في معرفة الصحابة ٥ أجزاء (القاهرة سنة ١٢٨٠ هـ) .

الإدريسي (+ ٦٤٩ هـ و ١٢٥١م) : مُحَّد بن عبد العزيز الشريف الفاوى.

(ا) " كتاب نزهة المشتاق في ذكر الامصار والاقطار والبلدان " وهو مختصر لكتاب الإدريسي " نزهة المشتاق " (روما سنة ١٥٩٢ م).

Mappae arabicae. arabische welt und landerkarten des 9 – 13 yahr–handerts، in arabischer urschrifr، lateinisischer transkriotion، und ubertagugng in neuzeitliz=che kartenskizzen. mit einleitenden texten، herausgegeben von kourad miller (Stuttgart، 1926) >

(٣) ارنولد المرحوم السير توماس و.

Arnorld : sir thomas w.

(1) " **the preaching of iskam** " < 2nd **ed**، (**London**، 1، 1913)

1924). ،2) " **the caliphate** " **oxford**)

(٤) أسامة بن منق (+ ٥٨٤ هـ و ١١٨٨ م) : أبو المظفر بن مرشد بن على بن مقلد بن نصر الملقب بمؤيد الدولة نجم الدين.

(ا) "كتاب الاعتبار " او " حياة أسامة ".

Premiere partie، ed. by hartwig derenig derenburg (paris، 1889).

" **anthologie de textes arabes، inedits par ousama et sur ousama** "، **ed. by h. derdnbourg (paris، 1893).**

(٥) الأصفهاني (+ ٣٥٦ هـ و ٩٦٧ م) : أبو الفرج.

"كتاب الأغاني " ٢١ جزءا (القاهرة سنة ١٢٨٥ هـ).

(٦) ابن أبي أصبيعة (= ٦٦٧ هـ و ١٢٧٠ م) : أبو العباس أحمد بن القاسم بن خليفة موفق الدين.

"كتاب عيون الانباء في أخبار الأطباء " جزءان (القاهرة سنة ١٢٩٩ – ١٣٠٠ هـ)

(٧) أوتيخا (+ ٣٢٨ هـ و ٩٤٠ م) : يحيى بن سعيد.
" التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق " (بيروت سنة ١٩٠٩)
(٨) أوليري : دي ليسي
'leary، de lacy، " a short history of the fatomid khalifate، (London، 1923).
(٩) ابن اياس (+ ٩٣٠ هـ ١٥٢٣ م) : أبو البركات مُحَمَّد بن أحمد.
"كتاب تاريخ مصر " المعروف " ببدائع الزهور " ٣ أجزاء (بولاق ١٣١١ – ١٣١٢ هـ).
(١٠) بديع الزمان (+ ٣٩٨ هـ ١٠٠٧ – ١٠٠٨ م) : أحمد بن مُحَمَّد المعروف ببديع الزمان الهمذاني.
" رسائل الهمذاني " (بيروت سنة ١٨٩٠ م).
(١١) بروكلمان : كارل
Brockelmann، carl
Geschichte der arabischer litteratur، 2 vols. (woimar، 1898 – 1902) >
(١٢) براون : إدوارد ج.
Browne : Edward g.
(1) literary history of Persia – from the earlist times until firdawsi (London، 1909).
)2) literary history of Persia – from firdawsi t sa'di (London. ، 1906).
(3) Persian literature under tartar dominion (1265 – 1502 a. d.) (Cambridge، 1920) >
(١٣) ابن بطوطة (+ ٧٧٩ هـ و ١٣٧٧ م) : أبو عبدالله مُحَمَّد بن عبدالله.
" تحفة النظار في غرائب الامصار " ٤ أجزاء طبعه وترجمه الى الفرنسية ديفريمي ((defremery وسانجيتي (sanguinetti) (باريس ١٨٥٣ – ١٨٥٨ و ١٨٦٩ – ١٨٧٩ م).
(١٤) البغدادي (+ ٤٢٩ هـ ١٠٣٧ م) : أبو منصور عبد القاهر بن طاهر.
" الفرق بين الفرق " (القاهرة ١٣٢٨ هـ و ١٩١٠ م).
(١٥) البكرى (٤٨٧ هـ و ١٠٩٧ م) : أبو عبيد عبدالله بن عبدالعزيز.
" كتاب المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب " طبعة دى سلين (de slane الطبعة الثانية (باريس سنة ١٩١١).
(١٦) البيروني (+ ٤٤٠ هـ و ١٠٤٨ م) : أبو الريحان مُحَمَّد بن أحمد.
" الاثار الباقية عن القرون الخالية "، طبعة إدوارد سخاو (Edward sachau) (لندن سن ١٨٧٩).
(١٧) النتوخي (+ ٣٨٤ هـ و ٩٩٤ م) : أبو على المحسن بن على بن مُحَمَّد بن أبي الفهم.
" مشوار المحاضرة واخبار المذاكرة "، النسخة العربية (القاهرة سنة ١٩١٨ – ١٩٢١)، وترجمه الى الإنجليزية الأستاذ مرجوليوث (prf. D. s . margoliouth) (لندن سنة ١٩٢٢).

(١٨) الثعالبي (٤٢٩ هـ و ١٠٣٧ م) : أبو منصور عبدالملك. " يتيمة الدهر " (٤ أجزاء ١٣٠٤ هـ) (دمشق سنة ١٣٠٤ هـ).

(١٩) جبون : ادوارد.

Gibbon : Edward

" the history of the decline and fall of roman empire "، 7 vols ed. by prof. j. b. bury.

(٢١) ابن الجوزى (+ ٦٥٤ هـ و ١٢٥٧ م) : أبو المظفرين قيزوغلى سبط بن الجوزي. " مرآة الزمان "، وهو مخطوط :

(ا) بالمكتبة الاهلية بباريس تحت رقمي ١٥٠٥ و ١٥٠٦.

(ب) والمكتبة الملكية بالقاهرة تحت رقم ٥٥١

(ج) ومكتبة بودليان (Bodleian بأكسفورد، مجموعة بوكوك (oxford،pocock ، (or. 370

(٢٢) جولد زيهر : ا.

Goldziher : ignaz.

" vorlesungen uber den islam "، 2nd ed. (Heidelberg، 1910،(translated into French by felix arin (paris، 1920).

(٢٣) جويار : س

Guyard، s.

Fragments relatifs a la doctrine des ismaelis (paris، 1874).

(24) حاجي خليفة (+ ١٠٦٧ هـ و ١٩٥٧ م) : مصطفى المسمي كاتب شلبي.

"كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون ".

طبع النسخة العربية وترجمها إلى الألمانية ج ز فلوجل g. flugel(ليبسك ولندن ١٨٣٥ – ١٨٥٨).

(٢٥) ابن حجر العسقلاني (+ ٨٥٣ هـ و ١٤٤٩ م) : شهاب الدين بن على.

(ا) " الإصابة في تمييز الصحابة ".

طبعة سبرنجر (springer) وغيره (كلكتا سنة ١٨٥٦ – ١٨٧٣).

(ب) " رفع الإصر عن قضاة مصر ".

(مخطوط بالمكتبة الملكية بالقاهرة تحت رقم ٢١١٥).

(٢٦) ابن حزم (٤٥٦ هـ و ١٠٦٤ م) أبو مُحَمَّد على بن أحمد.

" الفصل في الملل والاهواء والنحل ".

٣ أجزاء (القاهرة سنة ١٣١٧هـ).

(٢٧) ابن خلدون (+ ٨٠٨ هـ و ١٤٠٥ – ١٤٠٦ م) : عبدالرحمن بن مُحَمَّد.

(ا) مقدمة ابن خلدون (بيروت سنة ١٩٠٠).

(ب) " العبر وديوان المبتدأ والخبر " ٧ أجزاء (القاهرة سنة ١٢٨٤ هـ)

(٢٨) ابن خلكان (+ ٦٨١ هـ و ١٢٨١ م) : شمس الدين أبو العباس أحمد بن إبراهيم بن أبي بكر الشافعي.

" وفيات الاعيان " جزءان (بولاق سنة ١٢٨٣ هـ)، توجمة الى الإنجليزية دي سلين de slane (باريس ١٨٤٢ – ١٨٤٨).

(٢٩) الخوارزمي (+ ٣٨٣ هـ و ٩٩٣ م) : أبو بكر محمَّد بن العباس.

" رسائل الخوارزمي " (القسطنطينية سنة ١٢٩٧ هـ).

(٣٠) ابن دقماق (+ ٨٠٩ هـ و ١٤٠٦ – ١٤٠٧ م) : إبراهيم بن محمَّد المصري. " الانتصار لواسطة عقد الامصار ".

لم يظهر منه الا الجزءان الرابع والخامس (القاهرة ١٣٠٩ هـ و ١٨٩٣ م).

(٣١) دوزي : ر. ب. ا.

Dozy : r. p. a

)1) dictionnaire des nom des vestments chez les arabes (Amsterdam، 1845).

)2) supplement aux dictionnaires arabes، 2 vols. (leyden، 1881).

)3) histoire des musulmans d'espagne (leyden، 1861)

(٣٢) أبن أبي دينار (+ ١١١٠ هـ و ١٦٩٨ م) : محمَّد بن أبي القاسم بن عمر القيرواني.

"كتاب المونس في أخبار إفريقية وتونس ".

(تونس سنة ١٢٨٦ هـ).

(٣٣) الدينورى (+ ٢٨٢ هـ و ٨٩٥ م) : أحمد بن داود أبو حنيفة.

" الاخبار الطوال " جزءان، طبعة ج. كراتشوفسكي j. kratchkovsky (ليدن سنة ١٨٩٢).

(٣٤) : ريني.

Dussaud، rene،

" histoire et religion des nosairis : (paris، 1900) >

(٣٥) الذهبي (+ ٧٤٨ هـ و ١٣٤٧ – ١٣٤٨) : شمس الدين محمَّد بن أحمد.

" تاريخ الإسلام " وهو مطوط :

(ا) بالمكتبة الاهلية بباريس رقم ١٥٨١

(ب) والمكتبة الملكية بالقاهرة تحت رقم ٤٢ (تاريخ).

(ج) ومكتبة بودليان بأكسفورد (Bodleian، loud، .، or، .304)

(٣٦) الرضي (+ ٤٠٦ هـ و ١٠١٥ م) : الشريف أبو الحسن مُحَمَّد بن الحسين بن موسى...... ابن الحسين بن على بن ابى طالب.

" ديوان الشريف الرضي " (بيروت سنة ١٣٠٧ هـ).

(٣٧) رافيس : بول

Ravaisse paul.

" essai sur l'histoire، la topogaphie du caire d' apres makrisi، memoires publies par les membres de la mission archeologique francaise au caire '، tome ii. (paris، 1887).

(٣٨) رسائل الحاكم بامر الله ".

كتبها كثير من الدعاة الفاطميين في سنة ٤٠٨ هـ. وهى مخطوطة بالمكتبة الملكية بالقاهرة تحت رقم ٢٠ (مذهب الشيعة).

(٣٩) ابن زولاق (+ ٣٨٧ هـ و ٩٩٧ م) : أبو مُحَمَّد الحسن بن إبراهيم.

"كتاب فضائل مصر وأخبارها وخواصها ".

(مخطوط بالمكتبة الأهلية بباريس تحت رقم ١٨١٧).

(٤٠) دي ساسي : س.

De sacy : Silvestre،

)1) expose de la religion des druzes ...... precede d'une introduction et de la vie du khalife hakim – biamr – allah "، 2 vol. (paris، 1838)

)2) " crestomathie arabe "، 3 volls،. 2 nd ed. (paris، 1826 – 1827).

(٤١) ابن سعد (+ ٢٣٠ هـ و ٨٤٥ م) : مُحَمَّد بن سعد كاتب الواقدى.

"كتاب الطبقات الكبير " طبعة إدوارد سخاو (Edward sachou) ٨ أجزاء (ليدن سنة ١٣٢٥ هـ).

(٤٢) أبن سعيد (+ ٦٧٣ هـ و ١٢٧٥ م) : على بن موسى المغربي.

"كتاب المغرب في حلى المغرب " (ليدن سنة ١٨٩٨ – ١٨٩٩ م).

(٤٣) السمعاني (+ ٥٦٢ هـ و ١١٦٦– ١١٦٧ م): القاضي أبو سعيد عبدالكريم. " كتاب الأنساب".

Gibb memorial series، no. xx. (London ، 1912)

(٤٤) السيوطي (+ ٩١١ هـ و ١٥٠٥ م) : عبدالرحمن بن أبي بكر جمال الدين.

(ا) " حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة " جزءان، (القاهرة سن ١٣٢٧ هـ) ترجمه الى الإنجليزية الميجر هـ. س. جاريت major h. s.jarrett (كلكتا سنة ١٨٨١ م).

(ب) " تفسير الجلالين "، ٨ أجزاء في ٤ مجلدات.

(٤٥) الشابشتي (+ ٣٨٨ هـ و ٩٩٨ م) : أبو الحسن على بن مُحَّد.

"كتاب الديارات " (we. 1100،berlin)

(٤٦) أبو شامة (+ ٦٦٥ هـ و ١٢٦٧ – ١٢٦٨ م) : عبدالرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم ابن عثمان شهاب الين الملقب بأبي شامة، شافعى من أهل دمشق.

"كتاب الروضتين في أخبار الدولتين.

Recueil des histoires des croisades، histriens orientaux، tome I v ; another edition، 2 vols. (cairo، 1287 a. h.)

(٤٧) أبو شجاع (+ ٤٨٨ هـ و ١٠٩٥ م) : مُحَّد بن الحسين بن عبدالله بن إبراهيم الوزير ظهير الدين أبو شجاع الروذراوري،

" ذيل كتاب تجارب الأمم ".

طبعة هـ. ف. أمدروز (h. f. amedroz وترجمه الى الإنجليزية الأستاذ مرجيوليوث (prof. d. s. (margoliouth) (أكسفورد سنة ١٩٢١)

(٤٨) ابن شداد (+ ٦٣٢ هـ و ١٢٣٤ م) : القاضي بهاء الدين أبو المحاسن يوسف بن رافع بن تميم.

" النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ".

Recueil des histoires des croisades، histriens orientaux، tome I II

(٤٩) الشهرستاني (+ ٥٤٨ هـ و ١١٥٣ م) : أبو الفتح مُحَّد بن عبدالكريم.

" الملل والنحل " ٥ أجزاء (القاهرة سنة ١٣١٧ هـ).

(٥٠) أبو صالح (+ ٦٠٥ – ٦٠٦هـ و ١٢٠٨ م) : الأرمني.

" تاري الشيخ أبي صالح الأرمني " المعروف بكتاب كنائس وأديرة مصر.

طبعه وترجمة إيفنس ((B. T. A. EVETTS (أكسفوؤد سنة ١٨٩٥ م).

(٥١) الطبري (+ ٣١٠ هـ و ٩٢٢ م) : أبو جعفر مُحَّد بن جرير.

" تاريخ الأمم والملوك " :

طبعة دي غويه (de goeje، (b) series ٧ أجزاء (ليدن سنة ١٨٨١ – ١٨٨٣ م)

(٥٢) الطوسي (+ ٤٦٠ هـ و ١٠٦٧ – ١٠٦٨ م) : مُحَّد بن الحسن. " فهرست كتب الشيعة "كلكتا سنة ١٨٥٥ م).

(٥٣) طيفور (+ ٢٨٠ هـ و ٨٩٣ – ٨٩٤ م) : أبو الفضل أحمد بن أبي طاهر.

" تاريخ بغداد " الجزء السادس، طبعة هـ. كلر (h. keller، (لا يبسك سنة ١٩٠٨ م).

(٥٤) ابن عبد ربه (+ ٣٤٩ هـ و ٩٤٠ م) : شهاب الدين أحمد.

" العقد الفريد " ٣ أجزاء (بولاق سنة ١٢٩٣ هـ).

(٥٥) عبداللطيف البغدادي (٦٢٩ هـ و ١٢٣١ م) : موفق الدين عبداللطيف.

(١) " مختصر تاريخ مصر " ed. by j. white (oxford)، 1800)

(٢) relation de l'egypte، translated with historical notes by de sacy (paris، 1810).

(٥٦) عريب بن سعد (+ ٣٦٦ هـ و ٩٧٦ – ٩٧٧ م) القرطبي.

" صلة تاريخ الطبري "، طبعة دى غويه de goeje (ليدن سنة ١٨٩٧ م).

(٥٧) ابن عساكر (+ ٥٧١ هـ و ١١٧٥ م) : الحافظ أبو القاسم على بن الحسن.

" التاريخ الكبير " ٥ أجزاء (دمشق سنة ١٣٢٩ – ١٣٣٢ هـ)، ويوجد منه مخطوط بالمكتبة الاهلية بباريس تحت رقم ٢١٣٧.

(٥٨) علي مبارك باشا :

" الخطط التوفيقية " ٢٠ جزءا. (بولاق سنة ١٣٠٦ هـ).

(٥٩) عماد الدين الأصفهاني (+ ٥٩٧ هـ و ١٢٠١ م) : أبو عبد الله مُحَمَّد بن أبي الرجاء.

" خريدة القصر وجريدة العصر " (مخطوط بالمكتبة الأهلية بباريس رقم ٣٣٢٦ – ٣٣٣١).

(٦٠) عمارة اليمنى (+ ٥٦٩ هـ و ١١٧٤ م) : أبو الحسن نجم الدين اليمنى.

(١) كتاب النكت العصرية في أخبار الوزراء المصرية " طبعة هارتوج ديرنبورج (hartwig derenbourg) (باريس سنة ١٨٩٧ م)

(٢) tome second (a) partie arabe. poesies، epitres (tarassulat،(biographies، notices en arabe par ' oumara et sur ' oumara. (paris، 1909).

(٦١) دي غويه : م. ج.

De goeje، m. j.

Memoire sur les carmathes du Bahrain et les fatmimided es (leyden، 1886).

(٦٢) فاسيل إف :

Vasil ev. ، medieval history، vol. I v.

(٦٣) أبو الفدا (+ ٧٣٢ هـ و ١٣٣١ م) : إسماعيل بن على عماد الدين وصاحب حماة. المختصر في أخبار البشر ٤ أجزاء (القسطنطينية سنة ١٢٨٦ هـ).

(٦٤) أبو الفرج الملطى (+ ٦٨٥ هـ و ١٢٨٦ م) : جريجوري المسمى بارهبرايس. " مختصر الدول " ٣ أجزاء (أكسفورد سنة ١٦٧٣ م).

(٦٥) فريد ليندر : إسرائيل.

Friedlender، Israel.

" the heterodoxies of the shi'ites in the presentation of ibn hazm "، journal of the American oriental society ، vols. 28 and 29 (new haven، 1907 and1909).

(٦٦) فان فلوتن : ج.

Vloten، j. van

" recherches sur la domination arabe، le chutisme et les croyances messianiques، sous le khalifat des omayades. " (amesterdam، 1894.(

(٦٧) القضاعى (+ ٤٥٤ هـ ١٠٦٢ م) : القاضي أبو عبدالله مُحَمَّد بن سلامة بن خضر الشافعي المذهب.

" عيون المعارف وفنون أخبار الخلايف " (مخطوط بالمكتبة الاهلية بباريس رقم ١٤٩١).

(٦٨) القفطي (+ ٦٤٦ هـ و ١٢٤٨ م) : جمال الدين على بن يوسف بن إبراهيم بن عبدا الوهاب.

" إخبار العلماء باخبار الحكماء " (لايبسك ١٣٢٠ هـ ١٩٠٣ م).

(٦٩) ابن القلانسي (+ ٥٥٥ و ١١٦٠ م) : أبو يعلى حمزة.

" تاريخ ابن القلانسي " المسمى " ذيل تاريخ دمشق " مصحو بشذرات من تواريخ ابن الفاقي وسبط بن الجوزى والذهبي (بيروت سنة ١٩٠٨ م).

(٧٠) القلقشندي (+ ٨٢١ هـ ١٤١٨ م) : أبو العباس أحمد.

" صبح الأعشي في صناعة الانشا " ١٤ جزءا (القاهرة سنة ١٩١٣ – ١٩١٧ م).

(٧١) الكتبي (٧٦٤ هـ و ١٣٦٢ – ١٣٦٣ م) : مُحَمَّد بن شاكر بن أحمد الحلبي " فوات الوفيات ". جزءان (بولاق سنة ١٢٩٩ هـ).

(٧٢)كتر مير : أتيين مارك.

Quatremere ، Etienne marc

" memoires historiques sur la dyaastie des khalifes fatimites. " (journal asiatique، aout، 1836).

(٧٣)كريمر : ألفردفون.

Kremer، Alfred von.

" culturgeschichte des orients unter den chalifen. " 2 vols. (Vienna، 1875،(translates by khuda bukhsh. (Calcutta، 1920 – 1927).

(٧٤) الكندي (٣٥٠ هـ و ٩٦١ م) : أبو عمر مُحَمَّد بن يوسف. "كتاب الولاة والقضاة ". به ذيل مأخوذ معظمه من كتاب " رفع الإصر " لابن حجر العسقلاني، طبعة روفن جسن ((rhuvon guest)

)e. j. w gibb memorial series، vol. xix، 1912).

(٧٥) لين بول : ستانلي.

Lane poole Stanley

(1) " **the story of cairo**" (**London**، **1912**).

(2) " **history of Egypt in the middle ages**. " (**London** ، **191**). (3) " **coins and medals**. " (**London**، **1892**).

)4) " **saladin and the fall of the kingdom of Jerusalem**. " (**lndon**، **1893**).

)5) **the muhammadan dynasties**، **chronologicle and genaological tables with historical introductions**. (**parais**، **1925**).

(٧٦) مان : ج.

Mann، **j**.

" **the jews in Egypt and in Palestine under the Fatimid caliphs**. "

)**oxford**، **1920**).

(٧٧) الماوردي (+ ٤٥٠ هـ و ١٠٥٨ م) : أبو الحسن على بن مُحَمَّد بن حبيب البصري. " الأحكام السلطانية " (القاهرة سنة ١٢٩٨ هـ و لندن سنة ١٩٠١ م).

(٧٨) أبو المحاسن (+ ٨٧٤ هـ و ١٤٦٩ م) : جمال الدين بن يوسف بن تغري بردى " النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة " جزء ١ و ٢ طبعة جوينبول (juynboll) (ليدن سنة ١٨٥١ – ١٨٥٥ م) ووليم بوبر (william popper)

(٧٩) المحلى (+ ٦٥٢ هـ و ١٢٥٤ م) : حسام الدين " الحدائق الوردية " (مكتبة المتحف البريطاني القسم الشرقي رقم ٣٧٨٦).

(٨٠) المراكشي (+ ٦٦٩ هـ و ١٢٧٠ – ١٢٧١ م) : محيى الدين أبو مُحَمَّد عبد الواحد بن على التميمي"

"كتاب المعجب في تلخيص أخبار المغرب " طبعة ر. دوزى (r. dozy) الطبعة الثانية (ليدن سنة ١٨٨١ م)، وترجمه وشرحه ا. فانيان (e. fagnan) (الجزائر سنة ١٨٩٣ م).

(٨١) ابن المرتضى (+ ٣٢٥ هـ و ٩٣٦ – ٩٣٧ م) : المهدى لدين الله أحمد بن يحيى

" المنية والأمل " مكتبة المتحف البريطاني، القسم الشرقي، ورقم (٣٧٧٢) ؛ وهو أول شرح لكتاب " غايات الأفكار " (مكتبة المتحف البريطاني القسم الشرقي رقم (٣٩٨٦). والنسخة الثانية من

الشروح مجموعة تحت عنوان " غايات الأفكار " (مكتبة المتحف البريطاني القسم الشرقي رقم (٣٩٨٦). والنسخة الثانية من الشروح مجموعة تحت عنوان " غايات الأفكار ".

(٨٢) مرجوليوث : د. س.

Margoliouth، prof. d. s.

Cairo، jerusulem and Damascus. " (**oxford**، **1907**).

(٨٣) المسعودى (+ ٣٤٦ هـ و ٩٥٦ م) : أبو الحسن على بن الحسين بن على.

(١) "كتاب التنبيه والإشراف " طبعة دي غويه (de goeje)

)**biblitheca geographoram arabicorum**، **vol. v iii**. (**loyden**، **1893**).

(٢) " مروج الذهب ومعادن الجوهر " جزءان (القاهرة سنة ١٣٠٣ هـ و ١٨٨٥ م)، ٩ أجزاء ترجمه الى الفرنسية س ز باربيبه دي مينار (c. barbier de meynard) (باريس سنة ١٨٦١ – ١٨٧٧).

(٨٤) مسكويه (+ ٤٢١ هـ و ١٠٣٠ م) : أبو على أحمد بن مُحَمَّد، "كتاب تجارب الأمم " النسخة العربية جزءان. طبعة هـ. ف. أمدروز (h. f. amedroz) وترجمه الأستاذ مرجيوليوث (prof. d. s. margolioth) (أكسفورد سنة ١٩٢١ م).

(٨٥) مسلم (+ ٢٦١ هـ و ٨٧٥ م) : أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري " الجامع الصحيح " ٨ أجزاء في ٤ مجلدات (القاهرة سنة ١٣٢٩ – ١٣٣٢ هـ).

(٨٦) المعرى (+ ٤٤٩ هـ و ١٠٥٧ م) أبو العلاء أحمد بن عبد الله بن سليمان :

(١) " سقط الزند " (القاهرة ١٣١٩ هـ)

(٢) " لزوم ما لا يلزم " (القاهرة سنة ١٨٩١ م)

(٨٧) المقدسي (+ ٣٨٧ هـ و ٩٩٧ م) : شمس الدين أبو عبدالله مُحَمَّد.

" أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم " طبعة دى غويه (de goeje) .bih. geog. arab (ليدن سنة ١٩٠٦ م).

(٨٨) المقري (+ ١٠٤١ هـ و ١٦٣٣ م) : أحمد بن مُحَمَّد.

" نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب " ٤ أجزاء (بولاق سنة ١٢٧٩ هـ و ١٨٦٢ م)

(٨٩) المقريزي (+ ٨٤٥ هـ و ١٤٤١ م) : تقى الدين أحمد بن على :

(١) " المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار " جزءان (بولاق سنة ١٢٧٠ هـ) .

(٢) " اتعاظ الحنفا بأخبار الخلفا " (بيت المقدس سنة ١٩٠٨ م).

(٣) " السلوك في معرفة دول الملوك " مخطوط بالمكتبة الأهلية بباريس رقم ٢٠٦٩. ترجمه كتر مير (quatremere) الى الفرنسية ((histoire des sultans mamluks de l' egypte وذيله بمذكرات فيلولوجية وتاريخية وجغرافية، وهو جزءا (باريس سنة ١٨٣٧ م).

(٤) التاريخ الكبير المقفى ".

(ا) مخطوط بمكتبة الجامعة بليدن رقم ٢٣٦٦، ٣ أجزاء .

(ب) مطوط بالمكتبة الاهلية بباريس رقم ٢١٤٤

(٩٠) ملر كنراد فون.

Miller، konard won.

Mappae arabicae، drawn after idrisi، 4 parts (stuuttgart ; 1926 – 1927).

(٩١) ابن منجب (+ ٤٥٢ هـ و ١١٤٧ م) : أمين الدين تاج الرياسة أبو القاسم على، ويسمى أيضا الصيرفي المصري " الإشارة الى من نال الوزارة " (القاهرة سنة ١٩٢٤ م).

(٩٢) ابن ميسر (+ ٦٧٧هـ و ١٢٧٨ م) : محمد بن على بن يوسف بن جلب.

" تاريخ مصر " طبعة هنرى ماسيه (henri masse القاهرة سنة ١٩١٩ م)

(٩٣) ناصري خسرو (+ ٤٨١ هـ و ١٠٨٨ م) :

" سفرنامه "

Relation du voyage de nasiri khosrau en syrie، en palestin، en egypte en arabie et en oerse،(Persian text and translation by Charles schefer (paris، 1881).

(٩٤) ابن النديم (+ ٣٨٣ هـ و ٩٩٣ م) : محمد ابن اسحق "كتاب الفهرست " جزءان (لا يبسك سنة ١٨٧١ م).

(٩٥) النويري (+ ٧٣٢ هـ و ١٣٣٢ م) : أحمد بن عبدالوهاب.

" نهاية الأرب في فنون الادب " (مخطوط بالمكتبة الأهلية بباريس رقم ١٥٧٦). نشرت دار الكتب الملكية بالقاهرة ٧ أجزاء من هذا الكتاب.

(٩٦) نيكلس : جون.

Nicholson، john.

" an account of the establishment of the fatemite dynasty in Africa. "

)Tubingen، 1840).

(٩٧) نيكلسن : الأستاذ رينلد ا :

Nicholsi=on، prof. reynold a.

" literary history of the arabs. " (London، 1914).

(٩٨) ابن هانئ (+ ٣٦٢ هـ و ٩٧٣ م) : أبو القاسم المكني بأبي الحسن مُحَمَّد.
" ديوان ابن هانئ " (بيروت سنة ١٣٢٦ هـ).
(٩٩) الهدوى (+ ٦٧٠ هـ و ١٢٧١ – ١٢٧٢ م) : الإمام المنصور بالله شرف الدين الحسين ابن يحيى،
" أنوار اليقين في فضائل أمير المؤمنين "، مكتبة المتحف البريطاني، القسم الشرقي رقم ٣٨٦٨).
(١٠٠) ابن هشام (+ ٢١٨ هـ و ٨٣٣ م) : أبو مُحَمَّد عبد الملك.
"كتاب سيرة رسول الله "، ٥ أجزاء طبعة ف ز وستنفلد (f. wustenfeld، Gottingen، (1858 – 1860
(١٠١) هلال الصابئ (+ ٤٤٨ هـ و ١٠٥٦ م) : أبو الحسن بن المحسن بن أبي إسحق إبراهيم الكاتب.
(١) " تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء " طبعة هـ. ف. أمدروز (h. f. amedroz)، وذيله الناشر بفهرس ومذكرات.
(٢) الجزء الثامن من تاريخه (٣٨٩ – ٣٩٣ هـ)، طبعة أمدروز (h. f. amedroz) وطبعه بعد ذلك وترجمه الأستاذ مرجوليوث (prof. d، s. margoliouth) وذيل به كتاب " تجارب الأمم " لمسكويه (القاهرة سن ١٩١٩ م).
(١٠٢) الهمداني (+ ٣٣٤ هـ و ٩٤٦ م) : أبو مُحَمَّد الحسن بن أحمد بن يعقوب بن يوسف ابن داود.
" صفة جزيرة العرب " جزءان، طبعة دافي\د هينريش ميلر (david heinrich muller) (ليدن سنة ١٨٩١).
(١٠٣) ابن واصل (+ ٦٩٧ هـ و ١٢٩٧ – ١٢٩٨ م) : جمال الدين بن واصل الشافعى المذهب " مفرج الكروب في أخبار بني أيوب " مخطوط بالمكتبة الأهلية بباتريس رقم ١٧٠٢).
(١٠٤) وستنفلد : ف. فون.

Wustenfeld، f. von.

(1) gestchte der fatimiden chalifen. " (Gottingen. 1881).

(2) geschichtschreiber der araber und ihre werke . " Gottingen، 1882).

(١٠٥) ياقوت (+ ٦٢٦ هـ و١٢٢٩ م) : شهاب الدين أبو عبدالله الحموى الرومي.
(١) " معجم البلدان "، ١٢ جء (القاهرة سنة ١٣٢٣ هـ و ١٩٠٦ م) .
(٢) " إرشاد الأريب الى معرفة الاديب ".

E. j. w. gibb memorial، series v I. 7 vols. (cairo، 1907 – 1911)

(مراصد الاطلاع على أسماء الأماكن والبقاع " : اختصره عبدالمؤمن بن عبدالحق، ٤ أجزاء، طبعة جوينبل t. g. j.juynboll (لندن سنة ١٨٥٣ م).

(١٠٦) يحيى بن الحسين (+ ٣٦٠ هـ و ٩٧١ م) : الإمام يحيى بن الحسين بن هارون بن زيد.... بن على بن أبي طالب "كتاب الإفادة في تاريخ الأئمة السادة على مذهب الزيديه "، مخطوط بمكتبة الجامعة بليدن رقم ١٩٧٤).

(١٠٧) يحيى بن سعيد الأنطاكي (+ ٤٥٨ هـ و ١٠٦٦ م).

" صلة كتاب أوتيخا " المسمى " التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق "، جزءان (بيروت سنة ١٩٠٩م).

(١٠٨) اليعقوبي (+ ٢٨٣ هـ و ٨٩٥ م) : أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح.

(١) " تاريخ اليعقوبي "، جزءان، طبعة هوتسما ((m. th. houtsma (ليدن سنة ١٨٨٣ م).

(٢) "كتاب البلدان، طبعة دى غويه (de goeje) (bibl. geog. arab (ليدن سنة ١٨٩٢ م).

الفهرس

الباب السابع

الباب الثامن

الباب التاسع

الباب العاشر